ميكو بيليد
MIKO PELED

ابن الجنرال

THE GENERAL'S SON

رحلة إسرائيلي في فلسطين



ترجمة وتقديم
محمود محمد الحرثاني



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

ابن الجنرال

رحلة إسرائيلي في فلسطين

THE GENERAL'S SON

JOURNEY OF AN ISRAELI IN PALESTINE

شاهد واستمع إلى ميكو بيليد باللغة الإنكليزية، يناقش موضوع فلسطين وحقوق الفلسطينيين في مدينة سياتل، في الولايات المتحدة

https://www.youtube.com/watch?v=TOaxAckFCuQ

ابن الجنرال

رحلة إسرائيلي في فلسطين

THE GENERAL'S SON

JOURNEY OF AN ISRAELI IN PALESTINE

تأليف

ميكو بيليد

تقديم الطبعة الإنجليزية

أليس ووكر

ترجمة وتقديم

محمود محمد الحرثاني

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

THE GENERAL'S SON

JOURNEY OF AN ISRAELI IN PALESTINE

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر

Just World Books

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الطبعة الأولى

1435 هـ - 2014 م

ردمك 978-614-01-01061-8



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

المحتويات

الباب الرابع
الأمل من أجل السلام

إهداء المؤلف

أُهدي هذا الكتاب إلى أمي،

زيلكا كاتزنيلسون

بيليد

تصدير

هـذا الكتـاب لوحـة مؤثرة لإنسـان يؤمن بإنسـانيته، ويدافـع عنها مهما كلفه ذلـك. نشـأ الكاتـب، ميكـو بيليـد، صهيونياً يحـب وطنه، ويهيم بصـورة الجندي الإسرائيلي، ويتمنى أن يصبح عضواً في الوحدات الخاصة ويعتمرَ القبعة الحمراء رمـز القـوة والإقـدام في إسـرائيل. كان حلمه النهائي أن يصبـح جنرالاً مثل أبيه، ماتي بيليد، الذي قاد سرية اشتهرت ببسالتها في حرب 1948. تتحقق أمنية ميكو بدخـول الجيـش والالتحـاق بالقـوات الخاصة، ويعود ذات يـوم والقبعة الحمراء على رأسـه، وفي قلبه فخر قومي لا حدود له. ولكنه يكتشـف فجأة أنه لا يريد أن يصبـح جنـرالاً. لـذا، يلقي القبعة ومن ورائها طموحه العسـكري، ويشـرع في حياة جديدة يسافر معها هذا الكتاب في الزمان على طول عقود وفي المكان عبر العالم: من أمريكا إلى اليابان، ومن بلعين إلى غزة، ومن إسـرائيل إلى فلسـطين! كل جزء من سـيرة ميكو يؤكد عظمة الإنسـان عندما يؤمن بعقله ويترك القوالب الثقافية الجامدة وراءه ظهرياً، ويجعل العدل والحق غايةً نهائية يعيش من أجلها.

تبدأ معركة ميكو مع نفسه عندما يكون في دورية داخل أراضي الضفة الغربية ويشعر أنه ورفاقه من الجنود «الشجعان» يهلكون حرث فلاح فلسطيني بسيط في الضفة الغربية دون سبب، وعندما يراجعُ ميكو الضابطَ؛ مشيراً إلى أن هذا أمر غير لائق، ينهره الضابط ويأمره بالعودة لمكانه في الدورية. بعد ذلك يرتحل ميكو في الزمان والمكان، وتتطور نظرته النقدية الضدية لكل سـلوك تسـلكه إسـرائيل تجاه الفلسطينيين، فيتخلى تدريجياً عن حلمه الصهيوني حتى يصل إلى مرحلة وصفها – في هذا الكتاب – بقوله: «لم تعد لدي أي رابطة عاطفية مع الصهيونية»، وذلك بعـد عـدة تجـارب مريـرة أوصلته إلى تلـك النهاية المحتومة. مـن هذه التجارب تجربة سمعها مبكراً من أمه؛ زيكا التي أشربته معاني السمو صغيراً برفضها سلوك إسرائيل ضد الفلسطينيين، بل وشعورها بالعار إزاء ما يرتكبونه من جرائم.

فقد أخبرته أن الجيش الإسرائيلي عرض عليها بيتاً عام 1948 في القدس نظراً إلى كونها زوجة ضابط كبير ولكنها رفضت، متسائلة: «هل آخذ بيت عائلة ربما تعيش الآن في مخيم لاجئين؟! بيت أم أخرى!؟ هل يمكنك أن تتخيل كم يفتقدون بيتهم؟». لقد كان شعورها بالعار إزاء ما يفعله الجنود، وتعبيرها عن ذلك مراراً منارة في طريق ميكو نحو إعادة الاعتبار لذاته المتمردة. وعلى عكس الضباط الكبار، كان على والد ميكو، الجنرال ماتي، أن يكد ويجتهد كي يؤَمِّن له ولعائلته بيتاً من عرق جبينه. ولكن التجربة الأكثر إيلاماً في حياة ميكو كانت مقتل صمدار ابنة أخته نوريت، ولقد كُتب لتلك الحادثة أن تنقل ميكو إلى مستوى جديد وحاسم من النشاط السياسي.

أما والد ميكو فهو الجنرال ماتي بيليد، الذي كان واحداً من ألمع الضباط الشباب في حرب 1948، كما اضطلع بدور رئيس في دفع الحكومة الإسرائيلية نحو الحرب ضد مصر عام 1967؛ عندما كان عضواً في هيئة أركان الجيش. ويُعزى إليه بناء الجيش الإسرائيلي؛ إذ قاد دائرة الدعم اللوجستي – أو دائرة اللوازم – في الجيش، وتعامل مع ميزانية ضخمة شهدَ له الجميع بحسن إدارتها عبر السنين. ولكن هذا الرجل الذي ولد في فلسطين وعرف أهلها، وكانت جنسيته بحسب جواز السفر: «فلسطيني»، لا يلبث أن ينقشع الوهم عن عينيه ويشق طريقاً جديداً؛ فيتقاعد من الجيش، ويحاول أن يفهم ذلك الشعب الذي سلبته إسرائيل أرضه، فيقرر أن يدرس الأدب العربي ويقع في حبه وحب أهله، ومن ثم يتحول ماتي بيليد من جنرال مهيب الجناب إلى محاضر في الأدب العربي بجامعة تل أبيب. في تلك الأثناء، تبلورت لديه رؤية لحل الصراع، فكان من أوائل الذين فتحوا خطوط اتصال مع الفلسطينيين، وتطورت علاقته معهم، ودافع عن حقوقهم حتى انفض عنه الإسرائيليون وأصبح متهماً بأنه «حبيب العرب».

من يصبح «حبيب العرب» في إسرائيل فهو بالضرورة خائن. وهذا ما حصل مع ماتي بيليد؛ إذ لم ينفض عنه الناس فحسب، بل ابتعد عنه أصدقاءُ عمره مثل رابين الذي كان يزوره في بيته ويجلس وإياه ساعات وهما يتحدثان. رابين لم يزر ماتي في مرضه، ولم يقدم واجب العزاء إلا من أجل البرتوكول. لقد كان

رابين أشد الناس ضيقاً بماتي؛ لأن ماتي كان أكثر الناس فهماً لعقليته، وذلك لأنه أول من أدرك أن رابين لا يريد السلام مع الفلسطينيين، حتى بعد أن وقع أوسلو. وقد صرح ماتي بهذا وكتب عنه علانية حين نشر مقالة عنوانها: «رابين لا يريد السلام». والواقع أن هذه كانت لحظة الانقطاع التام في العلاقة بين الرجلين. تعلم ميكو من أبيه الثبات على المبدأ في صلابة، كما تعلم من أمه السمو، فكان جاهزاً لدفع الثمن، حتى لو ابتعد عنه أصدقاؤه وهجره المقربون، فصبر على آلام التحول، واتخذ له أصدقاء من بين الفلسطينيين؛ ولعل القارئ سوف يلاحظ أن حضور أصدقاء ميكو من الفلسطينيين وحميمية علاقته بهم في هذا الكتاب أكثر بكثير من حضور أصدقائه الإسرائيليين. ولعل ارتباط ميكو بنادر وعائلته مثال على ذلك.

إن ظاهرة اليهود المناهضين للصهيونية قضية جديرة بالدراسة: إسرائيل شاحاك، إيلان بابيه، نعوم تشومسكي، وغيرهم كُثر... كلهم باحثون مرموقون ومثقفون من الطراز الأول، لا يرفضون سلوك إسرائيل فحسب، بل ويندون به صراحة في كل محفل. ولعل ماتي بيليد كان من أوائل الذين أدركوا العنصرية الكامنة في بنية الكيان الصهيوني. ولأنه كان منسجماً مع نفسه فقد أودع أبناءه تلك الفكرة، وأي مؤشر أكثر وضوحاً على نجاح إنسان من أن يؤثر في عائلته؛ رغم أن أزهد الناس في العالم أهله وجيرانه، كما قال العرب. ليس ميكو وحده في العائلة من يناهض إسرائيل وسياستها ضد الفلسطينيين؛ فأخته البرفيسورة نوريت، المحاضرة الجامعية، تسير على طريق والدها نفسه. ورغم أنها تتعرض لمحنة شديدة، فإنها لم تفقد البوصلة، وظلت توجه اتهامها لقادة إسرائيل. فقد قُتلتْ صمدار ابنة نوريت في عملية استشهادية قام بها شابان فلسطينيان. وعلى عكس ما هو متوقع، كان أول تصريح لنوريت بعد الحادثة أن إسرائيل تتحمل المسؤولية بسبب اضطهادها للفلسطينيين.

يؤمن ميكو بالتعايش مع الفلسطينيين، وينادي بفكرة الدولة الواحدة؛ حيث يكون هناك دستور واحد للجميع وصوت واحد للشخص الواحد؛ فهي دولة لجميع مواطنيها، ويرى أنها كذلك في الواقع، وليس علينا إلا أن نعلن تغيير

النظـام مـن نظـام فصـل عنصـري إلى نظـام ديمقراطـي. ولكنه علـى عكس كثير ممـن يؤمنـون مـن اليهـود بالحلول السـلمية، يؤكد على محورية عـودة اللاجئين الفلسـطينيين. إن قضيـة العـودة هـي المحـك الأبرز في إخـلاص من ينادي بحل سـلمي للقضية الفلسـطينية. يضرب ميكو مثلاً ظريفاً على مركزية حق العودة في أي مشروع للحل. ففي محاضرة حضرتُها له في جامعة ماليا بالعاصمة الماليزية كوالالمبـور، قـال ميكـو: «إن الصهيونيـة أعادت اليهود إلى إسـرائيل تحت ذريعة أنهـم عاشـوا فـي هـذه البلاد قبل ثلاثة آلاف سـنة، ثم تطالب الفلسـطينيين بعدم الحديث عن التاريخ إذا كان لديهم عزم على أن يبرموا سلاماً، رغم أن كثيراً ممن طردوا من بيوتهم ما زالوا يملكون المفاتيح والوثائق؛ المفارقة هي أن ستين عاماً من المنافي قصيرة جداً قياساً بثلاثة آلاف عام». ولذلك فهو يرى أن حق العودة يجب أن يكون مضموناً في أي حل. وفي إطار الدولة الواحدة، لا يمانع الكاتب أن يفوز فلسطيني برئاسة البلاد ورئاسة وزارتها طالما أنه جاء بالانتخابات.

ثراء الإنسـان يكمن في تركيبيته، أي نظرته المركبة للأشـياء. والملاحظ أن هذا الإنسان كلما أصبحت شخصيته أكثر تركيبية ملك القدرة على التبسيط؛ على عكـس الإنسـان البسـيط الـذي يميل دائماً إلـى التعقيد وإحالة الأشـياء إلى قوى غيبيـة وديناميـات جهنميـة، كنظرية المؤامرة، مثلاً. فـي محاضرة كوالالمبور، قال ميكو: «كأن بعض الناس يشـعرون بالراحة حين ينظرون إلى المسـألة الفلسـطينية الإسـرائيلية على أنها صعبة ومعقدة لا يمكن حلها، وبالتالي فهم يُعفون أنفسـهم مسبقاً من تبعة البحث عن حلول. والواقع أن حلها بسيط؛ وهو أن يعيد المحتلُ الإسرائيلي الحقوق التي سلبها من الشعب الفلسطيني. وليس علينا إلا أن نواصل النضال من أجل تحقيق ذلك، هكذا ببساطة». إن فتح خطوط التواصل مع جميع الناشطين والأحرار في العالم من أهم مقومات الانتصار في المعركة مع إسرائيل وتفكيك الصهيونية. ومن هنا تأتي أهمية تقديم هذا الكتاب إلى القارئ العربي، وذلك لأنه يعلمنا الانفتاح على الآخر الحر النبيل الفاعل؛ وبالقياس الأَوْلى فإنه يعلمنـا وجـوب الانفتـاح على الذات قبل الانفتـاح على الآخر، وذلك من خلال الحوار البناء الذي كان مفصلياً في حياة ميكو وتحولاته، فقد بدأ نشاطه السياسي

من خلال الحوار والاستماع إلى الفلسطينيين.

كما يأتي تقديم هذا الكتاب للقارئ العربي في مرحلة نحن فيها بحاجة ماسة للتعرف على خريطة هذا العالم بشكل أفضل؛ سبراً لغور أشخاصه، واستكشافاً أعمق لمؤسساته وديناميات التحول التي لا تملكها جهة ميتافيزيقية تحول دون كل تطور وتكبح كل تحرر. إن التاريخ ليس مؤامرة متواصلة الحلقات، ولكنه تيارات تجيء وأخرى تذهب، وفراغات تُملأ بالباطل والزيف؛ إن لم يشغلها أهل الحق الأصيل في الأرض والمعنى. ولذلك، إن الاستفادة من الطاقات الهائلة حول العالم التي تؤمن بالمثل الإنسانية الرفيعة التي يتفق معظم البشر حولها أمرٌ في غاية الأهمية، ولئن فاتنا نحن العرب، وخاصة الفلسطينيين، أن تقف إلى جانبنا قوة خشنة، فإن القوة الناعمة هائلة التأثير لو تم استثمارها من أجل قضايانا العادلة. أليس غريباً أن ينفضَّ أناس مثل ميكو بيليد وإيلان بابيه وآفي شلايم، ونعوم تشومسكي - وكلهم يهود - عن إسرائيل وهي في أوج قوتها، وينضموا للمستضعفين في الطرف الآخر؟ ألا يدل هذا على القوة الهائلة الكامنة في فكرة الحق والحرية؟

إن الترجمة نشاط اجتماعي سياسي، ورسالتها تتعدى مفهوم نقل نص من لغة إلى لغة أخرى. ولذلك تجاوزت دراسات الترجمة المعاصرة الثنائيات التقليدية عن «الترجمة الحرفية» مقابل «الترجمة الحرة» و«الترجمة المخلصة» ومقابل «الترجمة غير المخلصة» وما ماثلَ تلك القوالب الجامدة التي تُعنى فقط بالمدلول اللغوي للألفاظ. وإنما تدرس الترجمة في الوقت الحاضر اختيارات المترجمين وأبعادها، والناشرين والدوافع الاجتماعية السياسية الكامنة وراء اختيارهم لكتاب ما ونقله للغة معينة. وعليه، يدرس الباحثون خلفية المترجم الاجتماعية والسياسية قبل أن يدرسوا النص المترجَم. وأحياناً تكمن شخصية المترجم في ترجمته كلمة من النص الأصلي بكلمة معينة دون أخرى من مرادفات تلك الكلمة في النص الأصل. فلن تجد مترجماً فلسطينياً مثلاً يترجم عبارة «الإرهاب الفلسطيني» كما هي، بل ستجده في الغالب يستبدلها بعبارة «المقاومة الفلسطينية». والواقع أن هذا أمر في غاية الأهمية، ولذلك فإن رسالتنا من ترجمة هذا الكتاب هي أن تشيع

سـرديات المقاومـة الإيجابيـة بهدف تفكيك الاحتلال الاسـتيطاني في فلسـطين؛ الـذي يفـت فـي عضـده الظلـم الكامن في طبائعه أولاً، ويكسـر شـوكته الحجر، وغيره من كل ما سـمحت به الشـرائع؛ وتهدم بنيانه الكلمة إن أُحسـن اسـتثمارها وشغلت الحيز الذي تستحقه في المجال العام، أليس «في البدء كانت الكلمة»؟

محمود محمد الحرثاني*

غزة، فلسطين

سبتمبر 2013

(*)دكتوراه في الترجمة والدراسات الثقافية من جامعة مانشستر بالمملكة المتحدة؛ محاضر دراسات الترجمة والدراسات الثقافية بجامعة الأقصى بغزة، فلسطين.

تقـديـم

الصداقة الراشدة

أليس ووكر 2012

قليلة هي الكتب التي تتحدث عن قضية فلسطين وفيها التفاؤل المنثور في هذا الكتاب. فنحن أولاً نجد أنفسنا بين يدي صهيوني إسرائيلي سابق، يعتز بشعبه ويحب وطنه، ويحترم والديه ويعتز بعائلته وأصدقائه. وهو إلى ذلك ابن جنرال شهير ساهمت نشاطاته أثناء الحروب الإسرائيلية ضد الفلسطينيين في كثير من تشردهم ومعاناتهم. يضاف لذلك أن ميكو فقد ابنة أخته في عملية استشهادية نفذها شابان فلسطينيان، وذلك بعد أن ترك ميكو القوات الخاصة التابعة للجيش الإسرائيلي وانتقل إلى جنوبي كاليفورنيا ليعمل مدرباً للكاراتيه. ومباشرة تأخذنا الدهشة، ونتساءل: كيف يمكنه أن يكون عاقلاً معتدلَ الحكم تحت وطأة كل هذا التاريخ؟ لكنه كان كذلك.

لا أذكر متى سمعت ميكو يتحدث عن «الصراع» الإسرائيلي/ الفلسطيني، ولكني تأثرت بقصة كان يرويها (ربما على يوتيوب) عن والدته. فأنا حساسة إزاء الأمهات اللائي لا يُعترف لهن بالفضل الحقيقي، في ما يبدو لي؛ رغم أثرهن في المجتمع وفي العالم. ولذلك كنت في توق لأن أستمع لناشط سلام إسرائيلي، ومدرب كاراتيه، وكاتب وهو يتحدث عن أمه. كان يروي قصة النكبة من وجهة نظر والدته. والنكبة هي ما حصل للفلسطينيين عندما غزا الجيشُ الإسرائيليُ بلادَهم؛ مسلحاً بقوة مدمرة عام 1947–1948 وطردهم خارجها فشُردوا بمئات الآلاف من بيوتهم. والذي حدث أن الإسرائيليين نهبوا تلك البيوت أو دمروها أو فعلوا الاثنين معاً بشكل متواتر. فإذا رأوا منزلاً جميلاً أو في موقع جيد أخذوه. وحين كان الغازون يدخلون تلك البيوت، كانت القهوة في بعض الأحيان ساخنة

على الطاولة؛ لأن أهل تلك البيوت كانوا قد طُردوا منها للتو. وكانت أمه، زيكا، من أولئك الذين استلموا أحد المنازل التي تمت مصادرتُها. ولكنها رفضت أن تسكنه، إذ كان من غير المحتمل بالنسبة لها أن تجلس وترتشف القهوة في بيت امرأة أخرى جالسة في اللحظة نفسها ينهشها الجوع، ويحيط بها البؤس مع أفراد عائلتها المذعورين أو الجرحى في مخيم للاجئين.

والد ميكو بيليد هو الجنرال ماتي بيليد. يظهر ماتي بيليد في سردية ابنه وقد تغيّر بعد أن اعتراه سمو رحيم؛ وإن كان متأخراً. ويشعر المرء أنه – على عكس الوالدة – دخل في صراع مع نفسه حتى وصل إلى ذلك السمو. فقد كان قبل كل شيء صهيونياً مخلصاً، كما كان جنرالاً في الجيش الإسرائيلي؛ كثيراً ما تمّت الإشادة به نتيجة لقدرته على اتخاذ القرارات وشجاعته في القتال، سواء أكان ذلك في «حرب الاستقلال» عام 1947–1948 (النكبة) أو في حرب 1967 التي قامت فيها إسرائيل بحرب استباقية ضد جارتها مصر، وتقدمت بشكل غير قانوني لتأخذ أجزاءً كبيرة مما كان يعرف حتى ذلك الحين بفلسطين.

–بالرغم من أن الجنرالات كانوا يعرفون أن الجيش المصري كان في غاية الضعف في ذلك الوقت ولم يكن باستطاعته أن يشكل تهديداً عسكرياً لإسرائيل، فقد نفذ بيليد ورفاقُه من الضباط خطتهم القاضية بالهجوم على مصر وتدمير قوتها العسكرية. مع ذلك، وحتى قبل ذلك الحدث، بدأت نظرة بيليد تتغير. فقد تركت مذبحة نفذها جنودٌ إسرائيليون ضد مدنيين فلسطينيين انطباعاً عميقاً لديه بأنه إذا كان لجيش الاحتلال أن يحتفظ بالأرض، فإن هذا يؤدي في النهاية إلى عنف قبيح؛ لا يحرم الفلسطينيين المضطهَدين (بالفتح) وحدهم من الأمل، وإنما يجردُ الإسرائيليين المضطهِدين (بالكسر) من الأخلاق.

بعد عقود كثيرة قضاها في خدمة بلده، ترك الجنرال بيليد الجيش ليعمل أستاذاً للأدب العربي في جامعتي تل أبيب وحيفا. تعلم العربية وتحدثها بطلاقة. وأصبح ناشط سلام. فقد عمل مع فلسطينيين واتخذ له من بينهم أصدقاء؛ كما سيفعل ابنه ميكو بعد ذلك بعقود. وكان أحد هؤلاء الأصدقاء رئيس منظمة التحرير الفلسطينية المثير للجدل؛ ياسر عرفات.

ما هو الشعور المسيطر بعد قراءة هذا الكتاب؛ وخاصة إذا نظرنا إلى هذا العالم الذي تجره مجموعة من الرجال إلى ما يبدو أنه حرب لا نهاية لها، وربما تقضي على الجميع مرة واحدة؟ وما يدريك لعلها قريبة. لكن الحق أن شعوري راحة غامرة وامتنان. فإنه لا بد من وجود شخص أو أشخاص راشدين لديهم شعور بالمسؤولية عن كوننا الإنساني. يجب أن يكون هناك أناس من كل مناحي الحياة يقولون: «كفى. إن لدينا أطفالاً». ورغم أنك تسبب لي ضرراً بالغاً – كأخذك طفلي مني – فإنني سأظل أنظر إليك على أنك إنسان. ربما تكون قد قمت بذلك وأنت تعاني من الذهول والألم، أو بدافع الطمع والجشع، ولعلك ضحية للتشويه والتعذيب الذي يفوق الإدراك الإنساني. إنني أرفض التنازل عن بذل الجهد بالحديث معك، رغم ما يتلبسني من خوف. لن أرفض أن يكون لي أصدقاء من الطرف الآخر، كلما كان ذلك ممكناً.

في البداية، كان ميكو يخشى التواصل مع فلسطينيين بسبب التقارير الزائفة التي استمع إليها منذ طفولته عنهم. ولكنه أدرك الجنون الكامن في الاستمرار في كنِّ عداء لشعب لم تتح له فرصة معرفته على وجه الحقيقة. ما يكتشفه يملؤه بالحيوية والشجاعة، ويزيده فهماً للخطر الكامن في الجهل بمن يسمى: «الآخر»، ويبدأ يدرك كيف كان يمكن أن يكون شخصاً مختلفاً جداً، وأن يكون شخصاً ليس لديه انفتاح وليست لديه محبة، لو ظل منغلقاً على نفسه ولم يحررها بهذه الطريقة؛ رغم مخاوفه. إن حريته في أن يسالم الناس الذين تربى على كرههم، ستكون بالطبع مكافأة لأولاده وللجيل القادم من الإسرائيليين والفلسطينيين.

إن التقلب الشديد الحاصل في الشرق الأوسط، بما فيه من قائمة طويلة لانتهاكات إسرائيل لحقوق الإنسان، واحتقارها للرأي العام العالمي وللقانون، يتربع في المركز من مخاوف كل شخص، ويشكل تهديداً لنا جميعاً. وليس من المعقول أن يؤمن المرء بأن أحداً على هذا الكوكب يمكن أن يتجاهل هذا الأمر أو ينفيه.

إن ميكو بيليد مصدر شرف لوالديه. فحيث يقوم بجمع التبرعات لشراء 1280 كرسياً متحركاً لجرحى ومعاقين في فلسطين وإسرائيل، فإنني أرى فيه شفقة

أمه على آخرين ليس لديهم الحنو الذي ما زال يتمتع به. أما وهو يعلم الأطفال، وخاصة الفلسطينيين، الفنون القتالية، فإنني أرى فيه والده الجنرال ينشر الإيمان بين الجنود بأن قلة العدة والعدد ليست سبباً يمنع من الانتصار.

وطن مشترك، يشعر فيه كل واحد بأنه حر في أن يكون كما يريد، يمكن أن يكون مكافأة للصداقة. إنه حلم بدأ يعتنقه عدد متزايد من الإسرائيليين والفلسطينيين. في الحقيقة، ما من شيء يجعل للنصر معنى غير الصداقة بدلاً من العداوة في عالم كعالمنا يقف على الحافة، فقد تبين لنا أن العيش كأعداء ومحاولة كل واحد إخفاء الآخر قد فشلا ولم ينتجا إلا الدمار والقبح والعبث، فضلاً عن كوكب مدمَر وأمراض وموت.

علينا أن نتشارك الأرض ونعتني بها معاً كأصدقاء في ما بيننا وأصدقاء لها، وإلا فسنخسرها. إنني أنظر إلى حالات أصبح «الأعداء» فيها أصدقاء في كل جزء من هذا الكتاب، وأرى أن هذه الأمثلة تساعدنا على أن نستمر في اختيار طريقنا بعناية.

القصيدة التالية تبلورت في خاطري وأنا أشاهد على الفيديو مستوطنين إسرائيليين يهدمون بيوتاً ويستولون على منازل في فلسطين. لقد صدمت وأنا أشاهد «الغزاة» المبتهجين وهم يرفعون العلم الإسرائيلي على سطح أحد المنازل الذي طُرد منه أصحابه ليتيهوا في الشارع أسفل المنزل.

أُهدي هذه القصيدة لصمدار الإسرائيلية؛ ولذينْك الفلسطينيين غير المعروفين اللذين فجرا نفسيهما وماتا معها، ربما كانا مراهقين مثلها. أتمنى من كل قلبي لو أنهم كانوا جميعاً أصدقاء، يلعبون معاً بدلاً من الموت معاً. أُهديها للحزن الذي يسكن كل إنسانٍ يعتز بالشباب.

الأمل

أليس ووكر

آمل ألا تشتهي منزل جارك
وحديقته ذات الرائحة الجميلة
اللذين تم سلبهما من عائلة
طُردت منهما على يد جندك؛
الأم، الأب
الجد، الجدة
الأحفاد
الرضيع
الكلب
الآن بلا مأوى
يترنحون
يمسك بعضهم بأيدي بعضهم الآخر،
تعلوهم الدهشة
بلا أصدقاء
يجلسون أسفل منكم
على حجارة الشارع
كما لو كانوا على أريكة

مثل تلك التي في بيتكم

وقررتم أن تنظفوها، وتجملوها

وتحتفظوا بها

آمل ألا تحملق في وجوههم

من السطح الذي كان يوماً لهم

آمل ألا تؤمن أن

هذا السطو

سيجعلك مواطناً أفضل

ببلدك الجديد

حيث ترفع علمها المستحدَث

وتلوح به

في بلدك الجديد

الذي منحوك إياه

كي تشعر بالاطمئنان

إزاء ذلك المستحيل.

مقدمة المؤلف

في يوم هادئ من أيام عام 1997، جلستُ أشاهد الأخبار من منزلي في جنوب كاليفورنيا عندما تحول المذيع بالبث الحي المباشر إلى القدس. وجاء الخبر بأن فلسطينيين فجرا نفسيهما مرة أخرى في قلب المدينة. وقع نظري على فتاة مستلقية على حَمالة، وقبل أن أتصل بعائلتي في القدس وأطمئن أنهم بخير، رن جرسُ الهاتف. كانت والدتي هي المتصلة من إسرائيل. قالت بصوت متوتر: «ميكو، لقد حدث انفجار في شارع بن يهودا». كانت صمدار ذات الثلاثة عشر عاماً من بين المفقودين.

والدة صمدار - أختي نوريت - أكبر مني باثني عشر عاماً، وكانت عائلتي تضاحكني بالقول إنني كنت الهدية التي أهديت لها عندما بلغت سن الـ«بات متزفاه»[1]. عندما كنت طفلًا كنت أظن أنها أجمل امرأة رأيتها في حياتي، بشعرها الكستنائي الجميل، وعادتها في وضع قرطين لامعين وكبيرين، ولون بشرتها القمحي، وابتسامتها التي تنير غرفة. هي أم لثلاثة أولاد وبنت؛ مستقيمة الخلق، شجاعة، تطابق أفعالُها أقوالَها، ومسلية. إن التفكير بأنها يمكن أن تفقد ابنتها الوحيدة كان ثقيلاً علي لدرجة أنني لم أستطع أن أهضمه في يوم هادئ بجنوب كاليفورنيا.

لقد عشت في كورنادو مع زوجتي وطفليَّ لمدة عشر سنوات تقريباً (ابنتي تالي لم تكن قد ولدت بعد). ولكن حتى تلك اللحظة، كانت القدس - حيث ولدتُ وترعرعت - هي الوطن بالنسبة لي. وهل من فرق أكبر من هذا بين المدينتين؟ فكورنادو بلدة من بلدات كاليفورنيا، وهي ساحلية ونظيفة وأنيقة، تدرك قيمة جمالها وأكثر. إنها مليئة بالتفاؤل والإمكانيات، وهي مكان رائع

(1) مصطلح عبري يعني أن الفتاة بلغت سناً تحاسب فيها على أفعالها وهي سن الثانية عشرة؛ المترجم.

وهـادئ لتنشـئة الأطفـال. لقـد عشـت وعائلتـي حيـاة هادئة في بيتنـا، وليس بيننا وبين الشـاطئ إلا مسـافة قصيرة يمكن قطعها مشـياً على الأقدام، ولم نبعد عن سـان دياغـو إلا ميليـن، عبـر جسـر خليج كورنـادو الجميل اللامع. وقد أسسـت صالة لتدريب الكاراتيه في البلدة هناك، وظل العمل يشـغل وقتي، وكنت سـعيداً به من عدة نواحٍ.

ولكننا كنا نعيش بعيدين عن وطني وعن مدينة من أقدم مدن العالم. وكوني من القدس - تلك المدينة التي تذوب فيها كل الخلفيات العرقية والأديان - فأين مـا ذهبـت هنـاك وجـدت علـى كل رف جرائدَ من خمس لغات مختلفة، وأناسـاً يناقشـون السياسـة والأخبـار اليوميـة بشـغف؛ علـى عكـس كورنادو التـي لطالما أدهشتني بعزلتها الثقافية والسياسية وفقدانها للتعددية.

ولدتُ في حي ريحافيا، ولكني قضيت معظم شبابي في حي موتسا عليت، حيـث بَنـى والـداي بيتاً حينما كنت في الرابعة من عمري. كان حي موتسـا هادئاً متواضعاً، تغطيه تلال يهودا على حافة المدينة الغربية، وهو محاط بالطبيعة، ولكنه لم يكن بمعزل عن الصراع والعنف اللذين أصبحا من خصائص المدينة. وعلى بعد خمسة أميال، تقع المدينة القديمة محاطة بالأسوار، وهي مقدسة عند اليهود والمسيحيين والمسلمين. إنها مدينة تتمتع بحب الجميع الشديد، كما أن الخلاف عليها حادٌ كذلك. لقد تعرضت للاحتلال والتدمير ثم للبناء ثم للاحتلال والتدمير مجدداً عبر التاريخ. إنني من منتجات هذه المدينة المتعبة التي يثير جمالها الآلام. إن تاريخها القديم والحديث وثقافة الشعب اليهودي لا تنفصل عن كياني.

إن حقيقـة أننـي كنـت أعيـش في كورنادو لم تغير شـيئاً مـن هذا. فقد كنت أقضـي سـاعات وأنـا أتحـدث عبـر الهاتف مع عائلتي كل أسـبوع، وبقيت مواكباً للتطـورات السياسـة والثقافيـة فـي البـلاد. بـل كانت لدي اشـتراكات فـي جرائد إسـرائيلية، وكنـت أبحـث باهتمام عن قنوات التلفـزة التي تبث أخباراً عن بلدي، كمـا حرصـت علـى أن أقـرأ آخـر الروايـات العبرية وأي شـيء جديد كان ينشـر عـن سياسـة المنطقـة وتاريخها، حتى وصلـت في البحث إلى أن أقرأ عن الملك هيرودتس وعيسى الناصري عليه السلام.

بعد عدة ساعات من الاتصال الهاتفي الذي تلقيته من والدتي، وكان الوقت في القدس يقترب من منتصف الليل، تواصل رجال الشرطة مع والدي صمدار؛ كأنهم أرادوا أن تصل نوريت وزوجُها رامي مع الوقت إلى النتيجة المحتومة وحدهما قبل أن يرافقوهما إلى ثلاجة الموتى. وعندما عادا، اتصلت بي أختي الأخرى، أوسي، مباشرة.

قالت على الهاتف: «ميكو»؛ لم أرد أن أسمع أي شيء آخر، فقد بث صوتُها كل شيء. حان الوقت كي أعود للوطن. وأصبح الأمر واضحاً لدي؛ وهو أن الفتاة التي رأيتُها على الحَمالة عندما كنت أشاهد الأخبار كانت ابنة أختي: صمدار. لقد ماتت؛ قُتلت بينما كانت تشتري كتب المدرسة في أحد شوارع المدينة التي اعتبرتها وطنها. هذه المأساة القاسية كانت نقطة البداية في رحلتي الشخصية؛ رحلة حولت قلبي ونقلتني إلى النشاط السياسي الذي يسميه بعضهم خطراً.

شخصيات رسمية من مختلف ألوان الطيف السياسي حضرت جنازة حفيدة ماتي بيليد؛ والدي الذي توفي قبل عامين. رجل حارب بشراسة في حرب «إسرائيل للاستقلال»، وأدار عملية اغتصاب الكثير من الأراضي التي تحتلها إسرائيل الآن، وفي النهاية وصل إلى التساؤل عن طبيعة دوره كسيد للفلسطينيين. لقد كان جنرالاً تحول إلى رجل سلام.

وتملكني شعور ملح بأنني بحاجة لأن أفهم موتَ صمدار. ففي إسرائيل، كانت الحرب وضحاياها جزءاً من الحياة. وعندما كنت طفلاً، شاركت في عدد لا يحصى من الجنازات لشبان قتلوا في الحروب أو «عمليات عسكرية»، وعرفت أناساً تعرضوا للتشويه والإعاقة في عمليات «إرهابية». لكن صمدار كانت ابنة أختي. ولسنوات، ظللت أشعر بالخيبة إزاء الصراع العربي الإسرائيلي، فقد كان عدم التقدم تجاه حل سلمي يزعجني. ومع ذلك، لم يصبح الصراع قضية شخصية بالنسبة لي إلا بعد أن قُتلت ابنةُ أختي. إذ شعرت فجأة بالحاجة لفهم الدافع الذي جعل هذين الشابين الفلسطينيين يفجران نفسيهما، ويأخذان معهما حياتها في اللحظة التي كانت على وشك أن تزهر فيها. لقد شجعني موتُها على أن أقوم بفحص جريء للمعتقدات الصهيونية، ولتاريخ بلادي، والواقع السياسي الذي

أشعل ذينك الشابين اللذين قتلاها.

ولدت في عائلة صهيونية مشـهورة منها أبي، وأمناء مجلس وزراء، وقضاة، بل ورئيس لدولة إسرائيل. وكان جدي لأمي الذي سميت على اسمه – د. أفراهام كاتزنيلسـون – قائداً صهيونياً، وكان من بين الموقعين على «إعلان الاسـتقلال»، وشـغل في ما بعد منصب سـفير في اسـكندينافيا. أما أبي فقد كان عمره 16 عاماً عندما تطوع ليخدم في البالماخ؛ القوة الضاربة التي حاربت من أجل «اسـتقلال إسرائيل». وكضابط صغير، قاد أبي سرية قاتلت في حرب 1948. وبحلول حرب 1967 كان قـد ترقـى لرتبـة جنرال، وأصبح أحـد أعضاء الإدارة العليا في الجيش الإسرائيلي. وتم انتخابه في ما بعد عضواً في الكنيست الإسرائيلي.

عندما كنت صغيراً، كان عدد من كبار العسكريين والشخصيات الرسمية من كل التوجهات السياسـية يزورون بيتنا. ولكن بعد موت صمدار، أردت أن ألتقي أناسـاً من «الجانب الآخر»؛ أناسـاً كانوا يُعتبرون أعدائي. بحثت عن مجموعات حوار يهودية – فلسطينية في كاليفورنيا وقررت حضور جلساتها. توجست زوجتي جيـلا التـي تربـت فـي كيبوتس خيفةً؛ إذ لـم يُقدَّر لأحد منا – نحن الاثنين – أن يـزور بيـت فلسـطيني، وخشـيت جيـلا علـى حياتـي. قالت لي وأنا خـارج لأول لقاء مع فلسـطينيين: «ماذا لو فعلوا بك شـيئاً ما؟ ماذا لو لـم تعد؟». بالرغم من أننـي كنـت أبلـغ مـن العمر 39 عاماً وتربيت فـي مدينة القدس الموحدة، لم يكن لـي يومـاً أصدقـاء عرب. والآن، واجهت فلسـطينيين كأنداد لي للمرة الأولى في حياتي، ولكم شعرت بالراحة والدهشة معاً عندما وجدت أن لدينا أرضية مشتركة. وكمغتربين، فقد تبادلنا ذكريات جميلة وأخرى سيئة عن وطننا.

ومـع ذلـك، كانت رواية الفلسـطينيين للتاريخ مختلفـةً جداً عن الرواية التي تعلمتُها كشاب صغير في القدس. فالتاريخ الذي عرفته، يصور إسرائيل على أنها داوود الأعزل الذي يقاتل جالوت العربي القوي، وهي قصة دفعتني كشاب وطني للتطـوع فـي وحـدة قـوات نخبة في الجيش الإسـرائيلي. من خـلال الجلوس مع فلسـطينيين فـي كاليفورنيـا، سـمعتُ عن طرد جماعي، ومذابـح وظلم فادح. لقد أطلقنـا علـى حـرب 1948 «حرب الاسـتقلال» والفخر يملؤنا. لكن الفلسـطينيين

سموها نكبة. وشعرت أن قبولَ ذلك صعب.

عندما ترك بعض اليهود والإسرائيليين جولات الحوار وخرجوا غاضبين، اخترت أن أبقى وأن أستمع؛ حتى إن كان قبول فكرة أنني لا أملك الحقيقة مؤلماً لي إلى حد يفوق الوصف. ولأنني قادم من أسرة جلها سياسيون، ظننت أنني أعرف أكثر من أي شخص. وبدأت أرتحل إلى الأراضي الفلسطينية المحتلة، وغامرت بلقاء ناشطي سلام فلسطينيين في مناطق يعتبرها الإسرائيليون خطرة؛ كاسراً بذلك القوانين المرعية في مجتمعي. لم تتمالك أختي أوسي نفسها، فقالت: «يجب ألا تذهب». وأضافت: «إن الأمر خطير، وأنت أب وعليك مسؤوليات تجاه عائلتك وأطفالك». أما أمي التي كانت خشيتها شديدة فقالت: «كل ما في الأمر أن يكون هناك واحد مجنون».

خلال رحلة قمت بها إلى الضفة الغربية واجهت ما بدا لي أنه أكبر عقبة في طريق السلام، ألا وهي الخوف من «الآخر»؛ خوف لم أكن أدرك من قبل أنه موجود عندي. كان ذلك عام 2005 عندما توجهت بالسيارة من القدس إلى الضفة الغربية وحدي ولأول مرة. استأجرت سيارة تحمل لوحتين إسرائيليتين. وعندما مررت بآخر نقطة تفتيش إسرائيلية، وغادرت الطريق السريع الواسع، وجدت نفسي في شوارع مليئة بالحفر، وطرق ضيقة ملتوية ابتُليتْ بها الأراضي المحتلة. كنت لحظتها في «أراضي العدو»، وبدأت الشياطين تدور في رأسي. وتخيلت نفسي محاطاً بعرب عدائيين ينتظرون في كمين كي يقتلوني. عندما كنت طفلاً، أذكر أن أبي كان يحرص دائماً على ألا نسافر إلى الضفة الغربية من دون بندقية؛ وهي الكلاشنكوف أي كي47 خاصته. ألم يخبرني الناس بألا أفعل هذا؟

عندما وصلت، رحب بي ناشطون، ومقاتلو حرية رفضوا أن ينخرطوا في العنف، وكانوا عازمين على حل الصراع سلمياً. لم ألقَ أي عداء، وقضيت اليوم هناك ثم عدت للبيت في القدس. شعرتُ بالراحة، وغمرني الأمل، واجتاحني الإحباط، كل تلك المشاعر في الوقت نفسه. أدركت أنه إن كان هناك مجال للسلام، فإن الخوف الذي اعتراني يجب غزوه كفيروس. خلال قرون من التجربة والتنشئة، أصبح الخوف غير منفصل عن ثقافتي. وكان علي أن أتغلب عليه وأن

أستبدله بالثقة؛ وكانت تلك مهمة ثقيلة.

إن حكايتي هي حكاية صبي إسرائيلي، صهيوني، أدرك أن روايته للقصة لم تكن الرواية الوحيدة، واختار أن يزرع الأمل في واقع يعتبره الجميع مستحيلاً. أشعر أن رحلاتي ورؤاي السياسية التي اكتسبتها من أبي يمكن أن تقدم نموذجاً للمصالحة؛ ليس فقط في الشرق الأوسط، ولكن في أي مكان ينظر فيه الناس إلى «الآخر» مرتابين ويسكنهم الخوف، أكثر مما تسكنهم إنسانيتنا المشتركة.

الباب الأول

السنوات الأولى

الفَصْلُ الأوّلُ

الجـذور

عندمـا كنـت طفـلاً كنـت أجلس مع جدتي في شـقتها الباردة في 18 شـارع راشـبا في حي ريحافيا بالقدس. وكانت الشـقة في الدور الأول من منزل بسـيط يتكـون مـن طابقيـن. وكانـت خلف المنـزل حديقة صغيرة فـي منتصفها انتصبت شـجرة عنب. وكان الحي متواضعاً ووادعاً، ولكنه محترم. فمعظم سـكانه كانوا أساتذة في الجامعة العبرية التي كانت بالجوار.

سـافتا[1] سيما كانت تسـتعرض بعض الصور وتتحدث عن حياتها كزوجة سفير. كانت تناديني: «أفرامي»[2]، وكان ذلك اسم جدي الذي سُميتُ على اسمه، والـذي لـم ينادنـي به غيرها. كانت تقول: «هذا جدك أفرام مع الملك جوسـتاف السـادس؛ ملك السـويد. وهذه صورته مع إمبراطور أثيوبيا هيلا سيلاسـي». توفي الدكتور أفراهام كاتزنيلسـون، قبل أن أولدَ، ولكن والدتي وجدتي كانتا تتحدثان عنه طوال الوقت؛ فقد كان متحدثاً باسم الحركة الصهيونية في بداية العشرينيات، وكان يسـافر إلـى التجمعـات اليهودية في كل أنحـاء العالـم، ويحثهم على العودة إلـى «وطنهـم التاريخـي في فلسـطين»، وكان من ضمن الذيـن وقعوا على إعلان «استقلال إسرائيل». وكان أول سفير لإسرائيل في اسكندينافيا.

كانـت جدتـي فخـورة بعمـل جـدي الدبلوماسـي. وكانت تقـول: «لقد كان جدك رجلاً جذاباً ودبلوماسـياً ممتازاً، وكان يعرف كيف ينسـج علاقات حميمة مع الناس». وكانت تفخر على وجه الخصوص بعلاقته مع السـفير الصيني. لأن

---

(1) سافتا بالعبرية تعني الجدة، وسابا تعني الجد.

(2) أفرامي صيغة تدليل من أفرام، أو أفراهام أو أبراهام؛ وكلها أشكال لاسم واحد وهو اسم جد ميكو؛ المترجم.

ذلك كان أمراً صعباً بعض الشيء؛ بسبب اصطفاف إسرائيل مع الغرب، ولذلك لم تكن لإسرائيل علاقات دبلوماسية مع الصين في تلك الأيام.

وفي مساء أحد الأيام، كنا جالسين معاً على أريكتها الزرقاء القديمة، فأرتني جدتي صفحة من جريدة باهتة. كانت غرفة المعيشة الخاصة بسافتا سيما باردة دائماً، وكان هواؤها فاسداً لأنها نادراً ما أشعلت التدفئة أو فتحت الشبابيك، فاستحال لون الجريدة إلى الأصفر؛ ولا بد أن عمرها كان يزيد على عشرين عاماً. في الجريدة، ظهرت صورة لجدي وهو يرتدي معطفاً وسترة رسمية ويعتمر قبعة ويمشي إلى جانب عربة يجرها حصان. كان باستطاعتي أن أعرف أن تلك الصورة في مدينة أوروبية يقطنها البرد ويلازمها الضباب.

حدثتني جدتي عن مراسيم تنصيب جدي كأول سفير لإسرائيل في بلاط الملك جوستاف في ستوكهولم. قالت: «كانت المراسيم يوم سبت». وهو يوم العطلة عند اليهود، وتَحرمُ فيه على اليهود قيادة المركبات أو ركوبها. أضافت: «كان ممثل الدولة اليهودية – بل كان ممثل كل اليهود – وشعر أنه من المناسب أن يمشي بدلاً من أن يركب العربة الملكية». قالت: «مشى طول الطريق. لقد كان طويلاً ووسيماً، وظهره مستقيم كسهم، وكانت العربة الملكية تمشي بجانبه». نظرت إلى جدتي وشعرت كم تفتقده.

ذكرها بهاء تلك الأيام بسنوات نشأتها في باتومي، بجورجيا. فبرغم أنها عاشت معظم حياتها في القدس، كانت سيما تفتقد باتوم (وكانت تسميها مدينة باتومي الجورجية على شاطئ البحر الأسود). كانت تزورنا مساءَ كل جمعة في موتسا عليت، وكانت تحدثني لساعات عن جلال البيت الذي عاشت فيه طفولتها؛ إذ كان لديهم خدم وعربات، وكان يمكنهم حقاً الاستمتاع بجمال المدينة. لقد تخيلتُ باتوم كأنها الجنة. ولكن عندما عشت مع جدتي سافتا سيما، تبين لي أنها كانت حريصة جداً، وكان منزلها بارداً دائماً في الشتاء، لأنها كانت تشعل التدفئة من السادسة مساءً إلى الثامنة مساءً، بغض النظر عن درجة الحرارة خارج المنزل التي كانت وقت الشتاء في القدس تصبح أقل من الصفر. أتذكر على وجه الخصوص يوماً من أيام الشتاء عندما زرتها بعد المدرسة. كانت الثلوج

تهطل، واتصلت بأمي من شقة جدتي، وهمست لها على الهاتف: «أمي، إنني أكاد أتجمد». سمعتني جدتي سيما وبسرعة قالت: «الجو بارد جداً، بارد جداً، حسناً كلنا نشعر بالبرد الشديد». وبرغم ذلك لم تشعل المدفأة. عندما كانت تشاهد التلفزيون في المساء، كانت تطفئ كل الأضواء في شقتها، وتلبس رداءً أزرق كحلياً طويلاً، وتضع ونظارة شمسية معتمة لتحمي عينيها من وهج التلفاز. كانت تقول لي: «أعلم أنك تظن أنني بخيلة، ولكنني لستُ بخيلة، بل أنا حريصة».

أيام العطلة، كنت في بعض الأحيان ألتقيها في العيادة، حيث كانت تعمل كمختصة في الأمراض الجلدية، وكنت أرافقها إلى البيت. كانت في منتصف العقد السابع من عمرها ولم تعمل إلا وقتاً جزئياً، ولذلك كانت تنهي عملها وقت الظهيرة. حينها لم يزد عمري عن تسع سنوات أو عشر، وكانت تمسك بذراعي عندما كنا نمشي وتقول: «أفرامي، أبت فارسي». لم تكن المسافة التي تقطعها من العيادة إلى بيتها تزيد عن ميل أو ميلين. ولكنها كانت تخطو عشرين خطوة في كل مرة ثم تتوقف عن المشي لتستريح. وكانت ترفض ركوب الحافلة أو إنفاق قرش واحد على سيارة أجرة، لا سمح الله. وبمجرد طرح الفكرة، كانت تقول: «سيارة أجرة، ما هذا الإسراف؟!».

في تلك الأيام، لم تكن الطرق مزدحمة حين كنا نمشي بجانب الدكاكين الصغيرة، والمقاهي والمخابز. وكنا نمر قرب مجمع دير راتسبون وكنيس يشورون، وهما معلمان من معالم القدس انتصبا بالقرب من بعضهما: الأول مسيحي والآخر يهودي. وكان كلا المعلمين في عمر جدتي، وكانت تأسرني بحكاياتها عن الناس الذين أسسوا هذين المعلمين وارتادوهما. قالت باحتقار واضح: «راتسبون كان يهودياً فرنسياً تحول إلى راهب كاثوليكي». وأضافت: «وعندما كان يتسحاق بن تزفي رئيساً، كان يأتي للعبادة هنا في كنيس يشورون». ومن هناك كنا نتحول إلى شوارع ريحافيا التي كانت أصغر وأهدأ. كانت تلك سنوات السبعينيات، وكانت القدس تبدو بالنسبة لي مليئة بالأمل والتفاؤل.

إن مساهمة أقاربي في تشكيل تاريخ بلدي أثرت فيَّ كثيراً. فكنت أشعر أنني شخص مميز بعد أن عرفت أن جدي الذي سميت على اسمه قد وقع على

«إعلان الاستقلال»، وأنه تنقل بين الملوك ورؤساء الوزارة؛ ممثلاً بلدنا بين بلدان العالم. لم أكن بحاجة أن يعلمني أحد كيف أكون وطنياً إسرائيليا يفخر بنفسه، فقد غرس رجالٌ ونساءٌ من عائلتي هذا الأمر في نفسي.

إن الطريقة التي التقى بها جدي جدتي لأمي كانت جزءاً صغيراً من التاريخ الإسرائيلي. فقد ولد جدي لأمي أفراهام عام 1888 في بابريوسك، وهي مدينة في بيلاروس كان 60٪ من سكانها من اليهود. وعندما كان صبياً، درس في هيدر أو ما يعرف بروضة يهودية أرثوذكسية، وبعد ذلك التحق بـيشيفا[1] حيث درس نصوصاً دينية يهودية، قبل أن يدخل مدرسة أخرى علمانية عامة.

كانت جدتي سعيدة لأنه تخرج من النادي، وهو الاسم الذي كان يطلق على المدرسة الثانوية في تلك الأيام، «ذرجاته كانت استثنائية. وهذا سبب قبوله في كلية الطب في سانت بيترسبيرج، في روسيا. فقد كان طويلاً، بهي الطلعة، وكان دائماً حسن الملبس». هذه الكلمات كانت تقولها وهي تستعرض صوراً قديمة. ثم تضيف: «أحبَ الباليه. وعندما كان طالباً، ربما حرم نفسه من الطعام لعدة أيام كي يضمن شراء تذكرة لحفلة باليه أو يشتري باقة ورد كي يقدمها لراقصة البالية الرئيسة بعد الأداء».

سمعت حكايات عن جدي لأمي طوال حياتي، ولم تكن تلك القصص مرتبةً على نحو خاص. أخبرتني أمي ذات يوم ونحن في المطبخ أنه «خدم كطبيب في الجيش الروسي، ومنحه القيصر بنفسه الميدالية الذهبية للشجاعة»، وأضافت أمي أنها «تذكر أنها كانت تعبث بها وهي طفلة، على أساس أنها لعبة». أما أنا فقد كنت في المدرسة الثانوية وكنت أدرك أن ميدالية مثل تلك لا بد أنها مهمة، وشعرت بالإعجاب، وقلت: «جدي استلم ميدالية ذهبية من قيصر روسيا، وتركوك تلعبين بها؟!» ردت أمي قائلة: «والداي لم يقدّراها ولذلك فقدناها». قلت: «يا إلهي، لا أصدق أنكم فقدتموها!».

«إنه لشيء جميل أن لدينا صورة له وهو ضابط صغير أنيق، يرتدي بذلة ويضع الميدالية». استمرت أمي في الحديث، وكان الاعتزاز واضحاً عليها: «في

---

(1) مؤسسة تعليمية يهودية تُعنى بتعليم النصوص الدينية.

كليـة الطـب، التقى جدك بيوسـف ترمبلدور، وأصبـح الاثنان صديقين حميمين».
ترمبلدور كان بطلاً أسطورياً. فعندما كان ترمبلدور شاباً، خدم كطبيب في الجيش الروسي. كان صهيونياً كجدي، وأسس الكتيبة اليهودية في الجيش البريطاني التي خدمت أمي فيها بعد ذلك بسـنين عديدة. قتل ترمبلدور في معركة تل شـاي في شـمال فلسـطين عام 1920، ويتعلم الأطفال الإسـرائيليون في المدارس أن آخر كلمات قالها ترمبلدور هي: «جميل أن نموت من أجل بلدنا».

طلـب ترمبلـدور مـن جـدي أن يزور بيت زئيـف كابـلان، وهو تاجر يهودي ثـري يعيـش فـي بوتامي، ويطلب منه أن يقدم مسـاهمة ماليـة للقضية الصهيونية.



جدي، د أفراهام كاتز نيلسون.

ابتسمت أمي وقالت: «ذهب جدك إلى بوتامي وتلقى دعماً سخياً، ولكن ليس هذا كل ما تلقاه، بل أصبحت ابنة زئيف كابلان - سيما - زوجته، وهي التي أصبحت لاحقاً جدتك».

بعد عدة سنوات من العلاقة الرومانسية، تزوج أفراهام وسيما، وفي عام 1923 أقنع أفراهام سيما بالهجرة معه إلى فلسطين من أجل المساهمة في بناء دولة يهودية. تدرج أفراهام في قيادة الحركة الصهيونية حتى أصبح عضواً في الإدارة التنفيذية للمجلس الوطني الصهيوني؛ حكومة الأمر الواقع اليهودية التي تم اختيارها من خلال جمعية عامة تم انتخابها من قبل الجالية اليهودية في فلسطين، وكان ذلك قبل تأسيس دولة إسرائيل. وكان هو مؤسس وزارة الصحة الفعلي، وقام بمهام وزير الصحة طوال فترة ما قبل الدولة. إن مقامه يمكن قياسه بحقيقة أنه كان ضمن مجموعة مختارة من القادة اليهود الذين وقعوا على إعلان الاستقلال.

بعد تأسيس الدولة، تم تعيين جدي كأول وزير للصحة. مع ذلك، لم يحصل على المنصب؛ لأنه راهن على الحصان الخاسر في المعركة السياسية الكبرى في إسرائيل، وكانت بين حاييم وايزمان وبن غوريون، حول من سيقود حزب العمل في انتخابات الدولة لأول رئيس للوزراء. فقد كان وايزمان مثله من بيلاروس، وكان لديه أسلوب في القيادة أساسه الجاذبية الشخصية والعقلانية والدبلوماسية، وتمت إزاحته من قبل بن غوريون الذي كان أسلوبه يقوم على القوة العسكرية وعدم اللجوء للتسويات.

عندما كنت طفلاً، سمعت جدي عدة مرات يعبرُ عن بغضه لبن غوريون. وكانت جدتي تستمتع بوصف موقف خاص تحدث فيه بن غوريون إلى جدي بعد الانتخابات.

«بن غوريون كان قصيراً وأصلع، وجاء لأفراهام الذي كان طويلاً وسيماً، ونظر إليه من الأسفل نحو الأعلى، وصرخ قابضاً يده: «أنت وايزماني»».

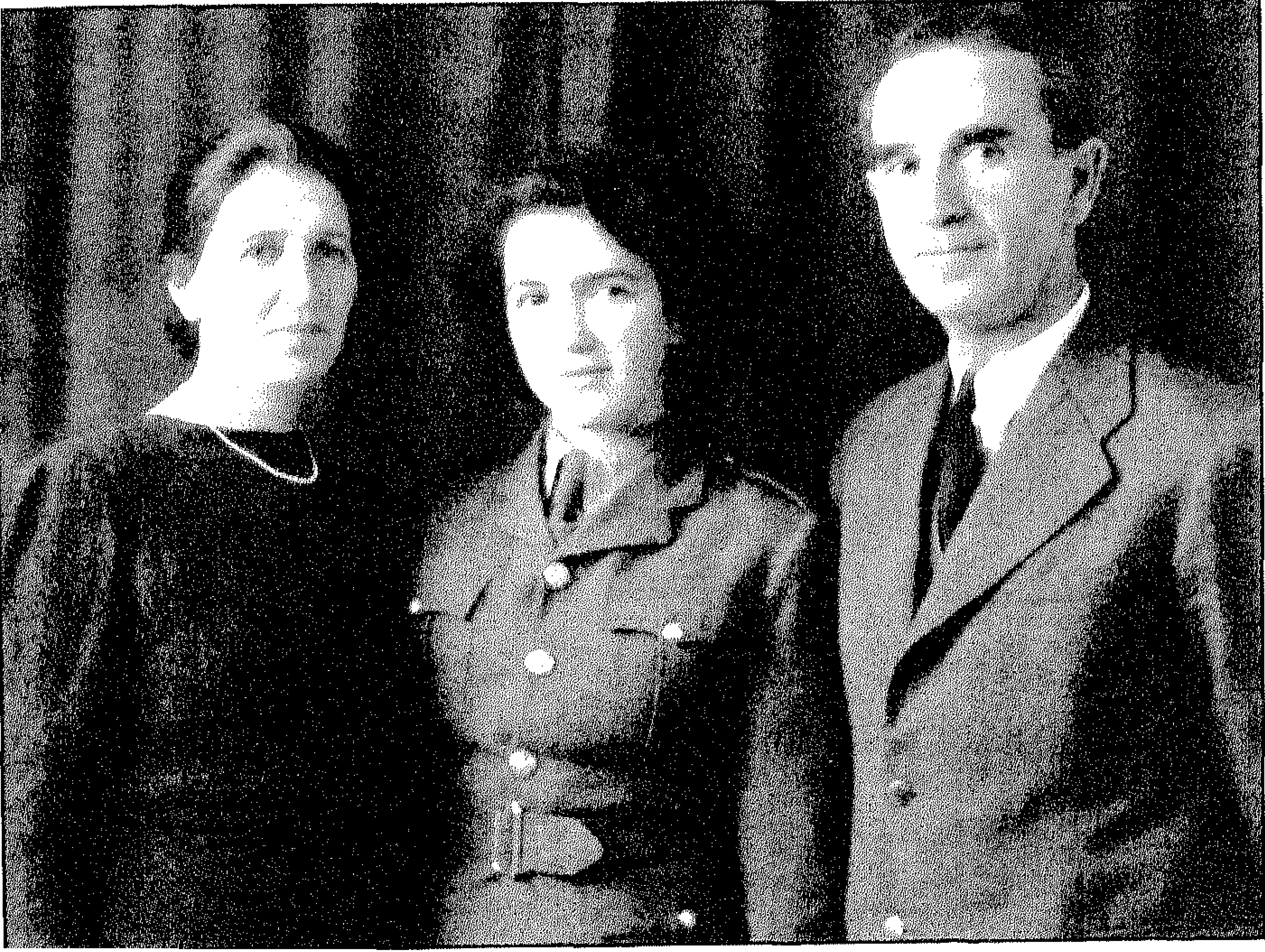
كانت تلك هي الحقيقة. لقد آمن جدي بوايزمان ووقف إلى جانبه، وكان واضحاً أنه لم يكن معجباً بأسلوب بن غوريون العدائي. ومع ذلك، بمجرد أن

فاز بن غوريون، خسرَ جدي فرصته في أن يكون عضواً في أول حكومة يهودية مستقلة تحصل للمرة الأولى منذ 2000 عام. كان موشي شاريت أول وزير للخارجية، وكان صديقاً حميماً لجدي وحليفاً له، فطلب من جدي أن يقود وفد بلادنا في الأمم المتحدة، وفي ما بعد طلب منه أن يكون سفيراً في اسكندنافيا. مات جدي بالسرطان عام 1956 عن 68 عاماً، بينما كان سفيراً في ستوكهولم.

بعد أن ترملت جدتي، عاشت وحيدة لأكثر من عشرين عاماً. وفي الوقت الذي أدركتها فيه كانت نحيفة تثقلها التجاعيد، وشعرها فضي قصير ويبدو عليها شعور بالأهمية. كانت لديها عينان جميلتان، وكانت معروفة بالجمال عندما كانت شابة، أو بالأحرى كما تقول أمي: «كانت شديدة الجمال لدرجة أنها إذا مشت في شوارع القدس، كانت تلفت أنظار الجميع». كانت فخورة بخلفيتها كأكبر أفراد عائلة كابلان وبعلاقتها مع عائلة كاتزنيلسون. كانت على باب بيتها لوحة مكتوب عليها: د. سيما كابلان كاتزنيلسون – نيسان. كانت تقول: «نحن كاتزنيلسون».

إن المكوث مع سيما لم يكن طوال الوقت شيئاً ممتعاً، ولكنه كان مشوقاً. كانت تصر على أن أتناول الغداء معها مرة في الأسبوع بعد المدرسة، رغم أنها لم تكن تستطيع الطهي أو الخبز. عاشت في القدس أكثر من 50 عاماً، معظمها في البيت الذي بنته هي وجدي أفراهام في شارع راشبا؛ المكان الذي ولدت فيه بعد ذلك بسنين. كنا نجلس معاً في مطبخها الصغير المتواضع، وكانت تحضر لي كل مرة زوجاً من عيدان الأكل الصيني المصنوعة من العاج وتريني إياهما وتعلن: «هذان كانا هدية من السفير الصيني». وكانت تريني كيف أستخدم ذينك العودين الغريبين في أكل الأرز الخالي من التوابل والدجاجة التي غلتها للغداء.

بغض النظر عما بدت عليه جدتي بالنسبة إلي وأنا طفل، كانت سيما سيدة متمكنة. فقد أنهت دراستها في كلية الطب في كراكو في وقت كانت فيه النساء واليهود نادراً ما يقبلون في الكليات؛ وعادة بشرط أن يكونوا قد حصلوا على أعلى معدل ممكن. لقد اختصت بأمراض الجلد، وكانت أول طبيبة يهودية. لقد كانت لها مساهمات كبيرة في تطوير علوم الأمراض الجلدية في فلسطين، في ما بعد إسرائيل، من خلال عملها في الأيام الأولى لمستشفى هداسا في القدس وفي



جدتي سيما، وأمي زيكا، وجدي أفرام.

كوبات هوليم، اللذين كانا في طليعة المؤسسات الإسرائيلية في الطب المجتمعي.

زالمان شازار، الذي كان ثالث رئيس لإسرائيل عام 1963، كان أحد أعمامي عن طريق النسب. فقد كان متزوجاً من رايتشل كاتزنيلسون، وهي أخت جدي أفراهام. رايتشل كانت كاتبة وقيادية في الصهيونية العمالية، وأسست اتحادات عمالية لتناضل من أجل حقوق النساء. أما شازار نفسه، فقد شغل مناصب سياسية هامة قبل أن يتم اختياره ليكون الرئيس الثالث لدولة إسرائيل؛ وهو منصب شرفي أكثر من أي شيء آخر. وكان كذلك كاتباً وشاعراً. وعندما كان شاباً، كان يأسر الجماهير لساعات بخطاباته الطويلة. كانت سيما مقربة جداً منهما، وكانت تلتقيهما كل سبت للغداء في مقر الرئاسة. كانت في بعض الأحيان تدعوني كي أرافقها، ونمشي معاً إلى مقر الإقامة الرئاسي الذي لم يكن يبعد كثيراً عن بيتها. في تلك الأيام، كان مقر الرئاسة بيتاً محترماً، وكان يقع في زاوية هادئة من حي ريحافيا، غير أنه كان متواضعاً كمقر رئاسي. كنت صغيراً في ذلك الوقت، ولكني



زالمان شازار الذي أصبح في عام 1963 الرئيس الثالث لإسرائيل. كان زالمان نسيباً لي. تظهر صورتي وأنا صغير أصافحه، مع جدتي سيما أثناء احتفالات الحانوكاه في مقر إقامته في القدس.

أذكر تلك الزيارات جيداً. كانوا كلهم قد كبروا في السن في ذلك الوقت؛ إذ كانوا في العقد السابع من عمرهم، ولم يكن الطعام لذيذاً قطّ. كنا ننادي الرئيس بلقب دود زالمان، أو العم زلمان، وزوجته دودا رايتشل. في ذكرى ميلاد دود زالمان الذي كان أثناء الحانوكاه، بالضبط مثل ذكرى ميلادي، كان يدعو كل العائلة لبيته. وهذا يعني أن مئات الناس يحضرون؛ بمن فيهم قضاة ووزراء وأطباء مميزون وفنانون؛ كل هؤلاء كانوا أعضاء في عائلتي الممتدة. صورة دود زالمان الآن موضوعة على ورقة مائتي شيكل. عندما كان أبنائي صغاراً، أريتهم الورقة (200 شيكل) ودود زالمان عليها فقالوا مبهورين: «لنا عمٌّ عظيم على النقود».

عندما بلغت سيما ثمانين عاماً تلقت رسالة من المدير العام لكوبات هوليم يخبرها فيها عن تقديرهم لجهودها وخدمتها لسنين طويلة، وأن الوقت قد حان لإفساح المجال لأطباء شباب؛ وهم مهاجرون جدد وصلوا من الاتحاد السوفييتي، وكانوا بحاجة لموقعها. حاولت أن تتفهم ذلك، ولكن الأمر كان مدمراً بالنسبة

لها. وكي تبقيها أمي مشغولة مزقت سُترات قديمة، وأعطتها إياها كي تخيطها. وفعلاً نسجت منها أغطية فراش؛ واحد منها ما زلت أحتفظ به. ماتت سيما عندما كنت في المدرسة الثانوية بعد صراع طويل مع اللوكيميا.

يبدو واضحاً لي أن الجوانب الأكثر خشونة في شخصية سيما كانت نابعة من أنها عاشت فترة ليس من المتوقّع فيها أن تعمل النساء، وكانت المشاعر مقموعة بقوة. لم يكن ذلك سهلاً بالنسبة لها. وبالمقابل، إن ابنة سيما، وهي أمي زيكا، كانت دافئة ومحبوبة، وذات حجم صغير، وقويّة، وذات ضحكة عالية مميزة.

عندما كانت أمي شابة تطوعت للخدمة في الكتيبة اليهودية في الجيش البريطاني. أخبرتني بأن أفضل مرحلة في خدمتها كانت عندما شاهدت القاهرة وبيروت ودمشق، وهي ثلاث مدن شرقية مشهورة بجمالها الفائق. تزوجت من أبي عندما كان عمرها 19 عاماً.

عندما كنا صغاراً ويأتي الأصدقاء لبيتنا، كانوا يجعلون أمي تضحك؛ فقط كي يسمعوا ذلك الصوت «المُعدي». وكانت خير مدافع عن أطفالها وأحفادها. كانت طباخة رائعة، الأمر الذي تقول إنها تعلمته من حماتها. أما ذوقُها في الملابس والديكور فرفيع، فكان بيتها دائماً جميلاً وحديقتها مزهرة.

تعلمت كثيراً عن عائلتي من أمي. لقد علمتني أن أكون صهيونياً، ولكن ليس أن أكون دوغمائياً. وكانت تفعل ذلك بأن تضفي حبها على كل شخص، سواء أكان من أعضاء الأسرة أو من خارجها؛ أولئك الذين لعبوا دوراً هاماً في إحياء فكرة الوطن القومي لليهود. ولقد غرست في نفسي محبتها للغة العبرية وثقافتها، وذلك بأن علمتني كيف أتذوق الشعر والنثر العبري الحديث. ولقد كرس أبوها وزوجها - وهما أكثر الناس تأثيراً في حياتها - حياتيهما للقضية الصهيونية، وظلت تحكي لي قصصهما طوال حياتي. لم تكن ناشطة سياسية مطلقاً، فقد رفضت المقابلات الصحفية ورفضت الحياة العامة، ولكنها دعمت أباها وزوجها في التزامهما بالقضية.

كنت أعرف أن جدتي لأبي، سافتا سارة، امرأة مستديرة نوعاً ما، ولها عينان



جدتي، أم أبي، الجدة سارة.

تغمضهما قليلاً عندما تضحك. ولما كنت طفلاً، فضلتها على جدتي لأمي، سيما؛ إذ كانت تجهز طبقَ لحمٍ رائعاً مع صلصة أغمس فيها خبزاً أبيض وأبتلعها. كانت تصنع فطائر طيبة، ومعجنات ذات رائحة أخاذة، وتخبرنا قصصاً مسلية. في أيام القدس الباردة، كنت أذهب لشقتها الدافئة فترحب بي وتعطيني حذاءً دافئاً، وسترة صوفية، وأستمتع برائحة الطبخ الطيبة المنعشة. كان شعرها طويلاً ورقيقاً، وفي الغالب كان مرفوعاً للوراء في شكل كعكة. وتشبه جدتي النساءَ المنغوليات من حيث ملامحها وعظام وجنتيها البارزة وعينيها الصغيرتين. ولما كنت صبياً وكنت أمرض وألزم البيت كانت أفضل مكافأة لي هي أن تأتي جدتي سارة إلى بيتنا وتروي لي الحكايات. كانت تنول لي: «إذا كنت تريد قصة، فعليك أن تتناول الدواء»؛ كان حضورها الـمُمتع لهدف أكبر من تناول الدواء المر.

على عكس سيما، لم تكمل جدتي سارة إلا أربع سنوات في الدراسة، ولكنها كانت تستطيع القراءة والكتابة باليديشية والروسية. كانت تستطيع قراءة كل شيء تقع عيناها عليه، بما في ذلك كل الأدبيات اليديشة الكلاسيكية، وكانت تعيد علينا ما تقرأه عن ظهر قلب، وخاصة ما كتبه الكاتب اليهودي شالوم آليخام.

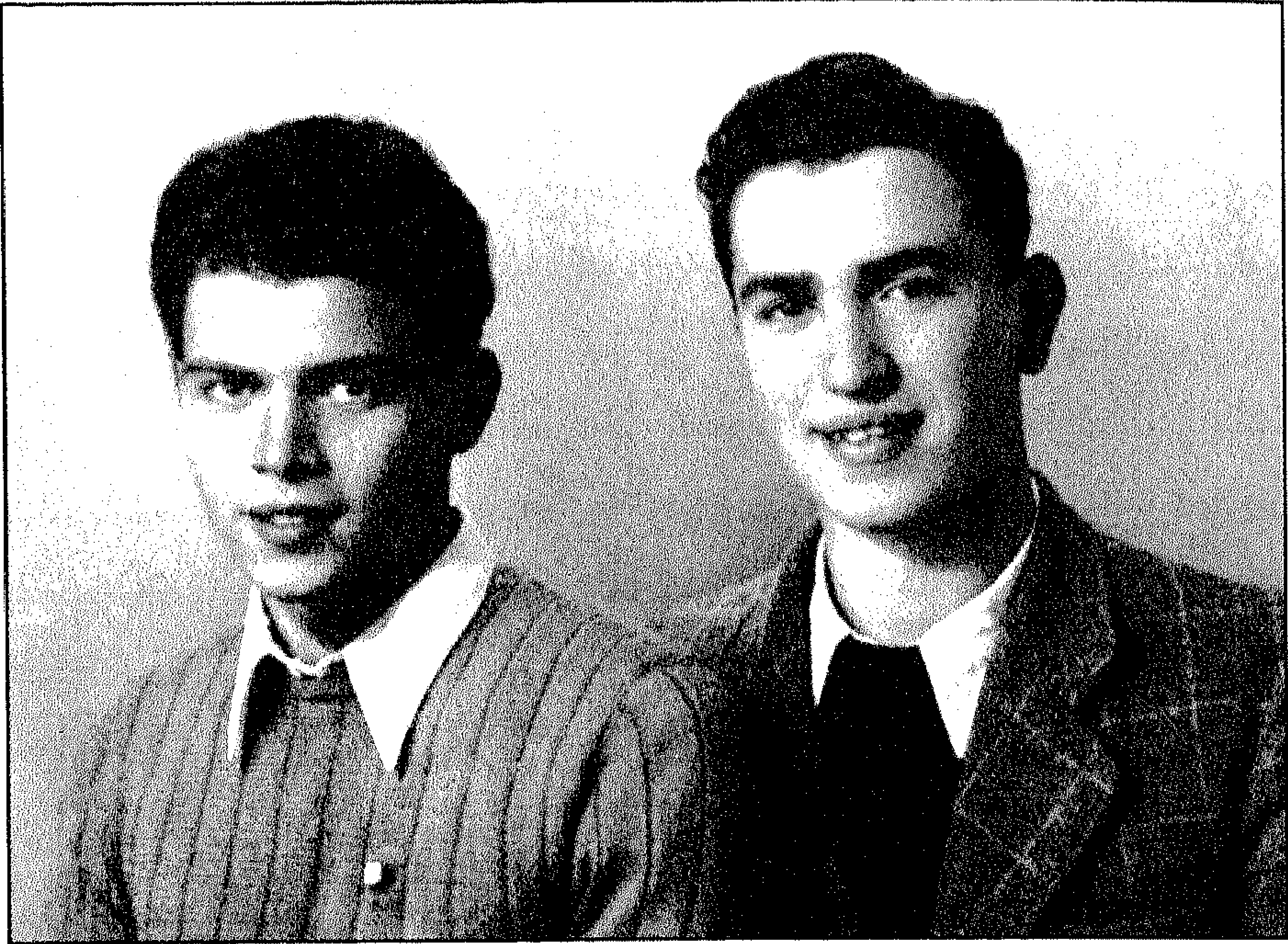
قرأتْ كل شـيء كان ينشـر بالعبرية؛ من مقالات الجرائد حتى أروع ما كتب في الأدب. وكان لها أصدقاء من بين كبار الكتاب، مثل الشاعر حاييم نحمان بياليك، والمؤلف حاييم حزاز، ومؤلف الأغاني المحبوب في إسـرائيل، ناعومي شـيمير، الذي كانت أمه صديقة عمر لسارة.

إن شابت شخصية سارة نواقص، فإنها كانت خافية علي لأنني كنت طفلاً. ولكن، في ما بعد، أدركتُ أنه لم يكن في نظرها أحد أحسن وأذكى وأكثر صواباً من أخيها، وأبنائها، وأحفادها. بل كانت لديها في الغالب رغبة عارمة في التدخل فـي شـؤون الآخريـن، مثل أصدقائهـا وعائلتها، وربما أدى ذلـك في الغالب إلى انقطـاع فـي العلاقـات. ولكـن معظـم رفاق والـدي الذين خدموا فـي القدس أو جوارهـا، كانـوا يثقـون بأنهـم يمكن أن يعتمدوا عليها في المنام أو الطعام الدافئ إذا احتاجوا إلى ذلك، حتى إنهم لم يكونوا يحتاجون أن يخبروها بشكل مسبق. وعلى عكس جدتي سيما التي كانت مستقلة تماماً، كانت جدتي سارة في حاجة لأن يكون الناس حولها.

ولـدتْ فـي أوكرانيـا فـي «شـتيتل» (وتعني بالديشـية: بلدة صغيـرة)، تدعى ليبويتز، وهي منطقة خصصتها الحكومة الروسية لإقامة اليهود. لم تعرف من تاريخ ميلادهـا سـوى أنهـا ولـدت عام 1901. ولذلك قـررتْ أن نحتفل بذكرى ميلادها في اليوم الخامس عشـر من شـهر شـفات، أو توبشفات كما هو معروف بالعبرية، وهـو يـوم العطلـة اليهودية المخصصة للاحتفال بالشـجر والطبيعة؛ إذ تجتمع كل العائلـة فـي بيتهـا فـي هـذا اليوم، ويـأكل الجميع فواكه مجففة، ومكسـرات، وما تصنعه بيدها من مُعجنات رائعة.

تنحـدر جدتـي مـن عائلـة فقيرة بُني معظمُ بيتها من الطين. كانت تقول: «لو غـرزت يـدك فـي الحائط، لـكان بإمكانك أن تصنع فتحـة يمكنك من خلالها أن تنظـر إلـى الخـارج». تقول ذلك وتمثـل غرزها إصبعها في حائط متخيل؛ وحينها تضحك من كل قلبها.

في السنين التي تلت الثورة البلشفية، كانت سارة في سن المراهقة، وقررت أن تكون «كومسـومولكا» (شـابة شـيوعية). ووافقت مرة على أن تذهب لتجمُع



أبي وأخوه دوف الذي كانوا يدللونه بـ ديوبك.

شباب شيوعيين تم عقده في يوم كيبور، وهو أقدس عطلة في العطل اليهودية. ولكن عندما كانت في القطار، كان عليها أن تغير رأيها. فقد كانت تعرف أن سفرها بالقطار في يوم كيبور، لو وصل خبره لأبيها، فإنه سيقتلها. وبالتالي، نزلت من القطار وعادت للبيت. قالت أمي: «لم تكن مهيأة لتكون ثورية. أخوها الأكبر إليعازر شعر بأن ليس هناك مستقبل للشباب اليهودي في روسيا، وأن البقاء هناك ربما كان خطيراً. وبالتالي غادر هو وسارة معاً مع العائلة وبدؤوا رحلتهم إلى أرض إسرائيل».

توقفت العائلة في تركيا لعام واحد في معسكر صهيوني مؤقت، اسمه ميسيلا هاداشا، بينما كان اليهود يستطيعون العمل هناك فيما هم ينتظرون السلطات البريطانية لتصدر لهم تصاريح دخول إلى فلسطين. من هناك - من تركيا - سافروا على متن قارب إلى أرض إسرائيل، أو فلسطين، وهو الاسم الذي كان المهاجرون اليهود يطلقونه على فلسطين. على متن القارب المتجه من

القسطنطينية إلى فلسطين، التقى أليعازر وسارة باروخ إفلاند، وهو شاب يهودي كان في طريقه ليبدأ حياة جديدة في إنجلترا. أقنع أليعازر باروخ أن يأتي معهم إلى فلسطين. وعندما وصلوا، تزوج باروخ من سارة. ومعاً عملا من أجل إنجاز رؤية الحركة العمالية الصهيونية؛ يهود قادمون من كل الاتجاهات والتوجهات يحتشدون ويتجهون أفواجاً لأرض إسرائيل كي يعملوا ويبنوا وطنهم اليهودي.

رزقت سارة وباروخ ولدين، أبي ماتي وأخوه الأصغر دوف الذي كانوا يدللونه بمناداته ديوبك. ديوبك أصبح مزارعاً. وكان لديه ستة أولاد، وكان عم الجميع المحبب. مما يثير الحزن أنه كان يبلغ من العمر 42 سنة عندما توفي بسكتة قلبية.

أصبح أليعازر واحداً من مؤسسي أكاديمية اللغة العبرية في القدس؛ وهي مؤسسة حولت اللغة العبرية من لغة تجمدت لمدة تقارب 2000 عام إلى لغة حديثة يتم تداولها. مات أليعازر بالسرطان عندما كنت في الثالثة من عمري. وتوفي باروخ وهو نائم في عيد الفصح، عام 1962 وكان عمري حينها ستة أشهر تقريباً.

وعندما كنت في الثالثة من عمري، انتقلت أسرتي إلى حي موتسا، وانتقلت سارة إلى الشقة التي تركناها في الطابق العلوي في 18 شارع راشبا، يعني في الدور الأعلى من مقر سكن جدتي سيما.

تصلح العلاقة بين الجدتين لنص من نصوص البي بي سي عن كوميديا المواقف الهزلية. كانت سيما تقول باحتقار عن سارة: «إنها لا تتحدث الروسية الحقيقية، إنها تتحدث الروسية التي كان الخدم يتكلمون بها في بيتنا»، مشيرة إلى الروسية العامية التي كانت سارة تتحدث بها. وكانت سارة ترد الصفعة بقولها: «إنها لا تستطيع أن تطبخ أو حتى تسلق بيضة لتنقذ حياتها»، وكان ذلك صحيحاً. لقد كانتا امرأتين متمكنتين؛ ساهمت كل واحدة منهما بطريقتها في إنشاء وطن لشعبها في أرض إسرائيل. إنهما تمثلان جانبين من الرواد الصهاينة. الأولى امرأة يهودية متعلمة لديها إحساس قوي بالتراتبية الاجتماعية السائدة في أوائل العشرينيات في أوروبا، ولكن بعد ذلك أعارت موهبتها وتعليمها للمشروع

الصهيوني. والأخرى امرأة من الطبقة العاملة، عالمها هو عالم اليهود الصغير، وقد حزمت أمرها على المساهمة في المشروع الصهيوني كعاملة وأم؛ وهو أمر في تلك الأيام كان قمة الاشتراكية، وكان مهمة نبيلة يمكن أن تشغلها المرأة. ولقد تشربت قيمة أهمية حماية حقوق العمال والمرأة والأقليات من خلال تينك المرأتين وقصة حياة كل منهما.

ولما كنت طفلاً، فضلتُ جدتي سارة على جدتي سيما. ولكن، عندما أدركت وأصبحت بالغاً تعلمت كيف أقدر جدتي سيما. وكنت أشعر بالحيرة بشأن والدتي؛ تلك المرأة المرحة التي كانت ابنة لسيدة جادة وصارمة، وبشأن والدي الجاد الصارم الذي كان ابناً لأم حنون ولطيفة.

الفصل الثاني

أبي كان ماتي بيليد

أنا رابع إخوتي. وعندما ولدت في ديسمبر 1961، كان والدي قد أكمل عامه الثامن والثلاثين. كان طوله 5.11 أقدام، وله منكبان عريضان، وعينان جادتان. ومذ عرفته، كان شعره دائماً مسرحاً إلى الوراء، تتقدمه جبهة عريضة.

لقد ترك أبي بصمته في التاريخ الإسرائيلي. أولاً، كضابط شاب ميز نفسه عن غيره في المعارك عندما كان قائداً خلال «حرب الاستقلال»، فلم يكن يخشى شيئاً، وكان ملتزماً ورابط الجأش. وعندما بدأ حياته العملية كضابط، كرس نفسه لبناء قوة حسنة التنظيم تقاتل من أجل دولة إسرائيل الناشئة. ولكن شهرته في الأغلب تعود إلى كونه أحد جنرالات حرب الأيام الستة عام 1967، عندما احتل الجيش الإسرائيلي الضفة الغربية، وقطاع غزة، ومرتفعات الجولان، وشبه جزيرة سيناء.

في ما بعد، أصبح والدي أستاذاً للغة العربية والأدب العربي، كما أصبح عضواً فاعلاً في البرلمان الإسرائيلي، وناشط سلام سابقاً لعصره بعقود. ولكن، بغض النظر عن القبعة التي اعتمرها ماتي بيليد، سواء أكان جنرالاً أو باحثاً أو أباً فقد كان أسلوبه معتدلاً وعقلانياً.

كان عمري 14 أو 15 عاماً عندما رآني أدخن. كنت خارج البيت بجانب السيارة وبدأت التدخين؛ مطمئناً إلى أن أحداً لن يراني، عندما رأيته فجأة يصعد التل. كان مستغرقاً في التفكير، كالعادة، وكانت نظراته إلى الأرض. لم تكن لدي أدنى فكرة عن ردة فعله، ولكني افترضت أنني سأكون في وضع صعب. اقترب مني قبل أن ينتبه ويعرفني، وكانت رائحة دخان السجائر تفوح في كل مكان، وكانت السيجارة في يدي.

تساءل وقد اعتراه شيء من الدهشة: «أتدخن؟». وأضاف: «أليس من الضار لرياضـي مثلـك أن يفسـد رئتيـه؟». أجبـت: «أنـا حقاً لا أدخن. وليسـت لدي نية التدخيـن». جـواب غبـي أملاه الظرف، ولكنـه كان صحيحاً، فقد كانت تلك هي المحاولـة الأولـى أو الثانيـة. ولـم أحـب التدخين على الإطـلاق. وعندما تركني ومضى قلت له: «أرجوك لا تبلغ أمي».

وقفـت فـي المـكان هنيهة حتى ينجلـي ارتباكي. فقد ذُهلت، ليس فقط لأنه تم ضبطي متلبساً، ولكن أيضا بسبب رد فعله المباشر والمتعقل. بالطبع لم يكن أبـي يريـد منـي أن أدخـن، ولكنه لم يظهر أي غضب. وفي النهاية ترك الأمر لي. كان ذلك جسدي وحياتي وخياري.

عندمـا ولـد أبي كان اسـمه ماتيتاهو إفلانـد، واختصاره ماتي. وُلد في مدينة حيفا الساحلية؛ في ما كان يعرف بشمال فلسطين في ذلك الحين. كان ذلك اليوم هـو 20 يوليـو 1923، وبحسـب التوقيـت اليهـودي، كان ذلك تيشـا بعاف. وذلك عندمـا يتذكـر الشـعب اليهودي دمار الهيكل اليهـودي في القدس على يد الفيالق الرومانية عام 70م.

عاشـت عائلـة أبـي فـي كيبوتس، ولكنهم لم يمكثـوا هناك فترة طويلة. وفي تلـك الأيـام، اعتقـد أعضـاء الكيبوتس أن الأمهات ينبغـي ألا يُربين أولادهن، إذ كان الأولاد يعيشـون وينامـون فـي الحضانـة، وكانت هناك حاضنات يعتنين بهم، بينما كان الوالدان يقومان بعمل آخر. وكان الوالدان يريان أطفالهما لساعتين كل يوم بعد الظهر. ولـم تسـتطع أم ماتي، جدتي سـارة، الانفصال عن ابنها. ولذلك عندما صار عمر أبي سنة، انتقلوا للقدس حيث أسس جدي ورشة للنجارة أدارها لسنين طويلة.

راقَ جدتـي أن تـروي لـي أن «جـدي كان في أعماقه اشـتراكياً، وكان يؤكد على أن يكون دخله مثل دخل العمال الذين كانوا يعملون لديه». لقد نشأ صهيونياً حتى العظم، وظل كذلك حتى توفي. كان أبي شـديد الإيمان بفكرة إنشـاء وطن لليهـود فـي فلسـطين، ولذلـك تصرف بناء على هـذا الاعتقاد. لقد كان جيله أول جيـل يتحـدث العبريـة كلغة أم، وكانت العبرية حينها قد تم إحياؤها حديثاً. ومنذ

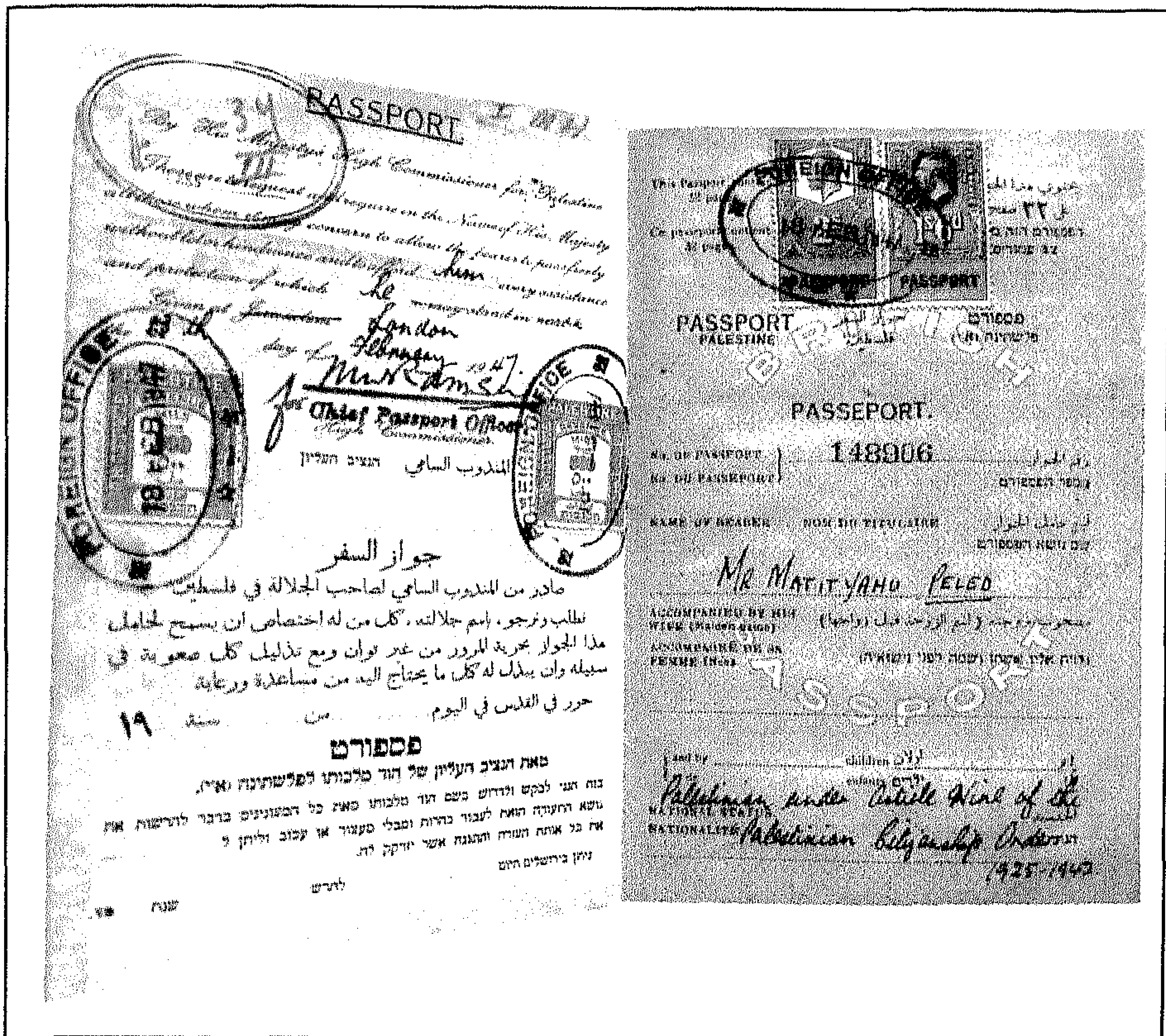
أيامه الأولى كان يصر على أن تكون عبريته سليمة من حيث التركيب واللفظ. وبينما كان في المدرسة الثانوية، كان يسافر في طول البلاد وعرضها، حتى أحسن معرفتها، وبالغ في حبها. بعد سنين طويلة، عندما أصبح أبي ينتقد سياسات إسرائيل، كان يفعل ذلك من أجل مستقبل أفضل لإسرائيل. ورغم قلقه المتزايد، ظل أبي على إيمانه بأهمية تأمين مستقبل الشعب اليهودي في وطنه. وعندما وُضعَ ولاؤُه للقضية الصهيونية على المحك، طالب المحكمة العليا الإسرائيلية بأن تشهد أنه في الحقيقة كان وطنياً وصهيونياً. وقد شهدت له المحكمة بذلك.

تطوع ليخدم في البالماخ عندما كان عمره 16 عاماً. والبالماخ هي القوة الضاربة للهاجاناه التي كانت أكبر ميليشيا يهودية في السنوات التي سبقت إنشاء إسرائيل. والتحق بالبالماخ من دون معرفة أبويه أو الحصول على إذن منهما. وقد كان يترك المدرسة من أجل أن يشارك في التدريب العسكري. وكان أحد أعضاء فصيل القدس إلى جانب إسحاق رابين الذي ظل على علاقة معه طوال حياته.

في تلك الأثناء، غير والدي اسمه؛ وذلك لأنه كان يُطلب من أعضاء البالماخ أن «يُعبرنوا» أسماءهم كي يجعلوها تبدو عبرية مقابل الأسماء الأوروبية اليهودية التي عرف بها اليهود في المنفى. فقد كان تأسيس هُوية يهودية جزءاً من الرسالة الصهيونية الوطنية. واختار أبي، ماتي إفلاند، اسمَ ماتي بيليد، لأنه كان يعني «الحديد» بالعبرية. وبعد ذلك غير ضباط آخرون أسماءهم إلى بيليد كذلك.

تأسست البالماخ لمحاربة البريطانيين الذين احتلوا فلسطين في ذلك الوقت، وللمطالبة بالاستقلال اليهودي. بحلول منتصف الأربعينيات شعرَ أبي بخيبة أمل من البالماخ، وذلك لأنه رأى أنهم لم يجتهدوا بما يكفي في قتال البريطانيين، وإذا لم يقاتلوا فلا فائدة من البقاء معهم. وبالتالي، لقد قام بشيء ينسجم مع شخصيته، وكان هذا الشيء يعتبر خارج إطار التفكير في ذلك الوقت: نعم ترك البالماخ وذهب للمدرسة.

عام 1946، هو وأمي – زيكا كاتزنيلسون – تزوجا. وفي الحي اليهودي الصغير في القدس، لم يكن ذلك الزواج شيئاً قليلاً. ابنة عائلة كاتزنيلسون تتزوج رجلاً قادماً من عائلة ليست لها أهمية أو منصب. قالت أمي لي يوماً خلال



PASSPORT

Chief Passport Officer

المندوب السامي

جواز السفر

صادر من المندوب السامي لصاحب الجلالة في فلسطين

نطلب ونرجو، باسم جلالته، كل من له اختصاص ان يسمح لحامل

هذا الجواز بحرية المرور من غير توان ومع تذليل كل صعوبة في

سبيله وان يبذل له كل ما يحتاج اليه من مساعدة ورعاية

حرر في القدس في اليوم ... من ... سنة ١٩

פספורט

PASSPORT

PALESTINE

PASSEPORT.

No. of Passport / No. du Passeport 148906

Name of Bearer / Nom du Titulaire

Mr Matityahu Peled

Accompanied by his wife (Maiden name)

Nationality Palestinian under Article ... of the Palestinian Citizenship Orders 1925-1942

جواز سفر أبي الصادر في فبراير، عام **1947**، وتظهر فيه الجنسية: فلسطيني.

حديث دار بيني وبينها في المطبخ: «عدة أناس من أصدقاء أبي حاولوا ثنيي، ولكنني أحببت أباك». كنت حينها كبيراً، وكنت أجمع معلومات لكتاب مستقبلي.

تمكنت الأسرة من أن تجمع - وإن كانت قد فعلت ذلك ببعض الصعوبة - بعضَ النقود كي يتمكن أبي من الالتحاق بكلية الحقوق في لندن. ولأنهم لم يكونوا ميسوري الحال، فقد ذهب أبي وحده، تاركاً أمي بعد الزواج مباشرة. في جواز سفره الذي أصدرته له حكومة صاحب الجلالة ظهر في خانة «البلاد»: فلسطين، و»المواطنية»: فلسطيني. بعد تسعة شهور، وُلدَ أخي الأكبر يوآف، وعاد أبي. وبينما كان في البلاد في خريف عام 1947 اندلعت الاشتباكات التي ستعرف في ما بعد «بحرب الاستقلال». ظل أبي للمشاركة في القتال، ولم يعد لدراسة الحقوق مطلقاً.

خدم أبي كقائد للفوج 51 في لواء جفعاتي، وقاد سرية المشاة الثانية أو ما

كان يعرف بالسرية (ب). وأصبح دور السرية (ب) مادة للأسطرة.

في صحيفة احتفظ بها، يصف أبي كيفية إعادة بناء السرية بعد أن تعرضت لخسائر فادحة في الحرب، وكيف تم نقل قائدها. كتب عن رفع المعنويات وترسيخ المبادئ في نفوس جنوده الذين كانوا خليطاً من المهاجرين الجدد الأغرار، وآخرين مخضرمين صهرتهم الحرب العالمية الثانية؛ كلهم تطوعوا للقتال من أجل القضية اليهودية. ووجدت أن ما كتبه عن الجنود الجرحى في الحرب مشوّق:

> جرح أحد الرقباء وقائد مجموعة ولكنهما استمرا في التقدم دون شكوى. أعتقد أن سلوكهما كان مسؤولاً وذكياً. ولكن أحد الجنود جُرح فأخذ يصرخ. هُرعت إليه وصرخت فيه طالباً منه أن يسكت... ليس هناك أضر بالمعنويات من جنود جرحى يصرخون... إن الجندي الذاهب للمعركة يعرف أنه ربما يتعرض للإصابة، فلماذا الصراخ إذاً؟

أذكر أنني وجدت تلك المذكرات بينما كنت أقلب أوراقَ مكتبه، بعد موته بأيام قليلة. كانت قراءتها ممتعة. ولكن هذه الكلمات شدتني أكثر من أي شيء آخر. هل هو فعلاً لم يكن يفهم السبب وراء صراخ شاب جريح وخائف على حياته ويعاني من ألم مبرح؟ ربما كان يتوقع أن لدى كل شخص ما لديه هو من رباطة جأش وتجرد فرضهما على نفسه. لم يكن يرى أن هذا الشيء من المستحيل توقعه.

لقد أصبح تفكيره الهادئ والمباشر سمة له بين كل من عرفوه. في أكتوبر 1948، لعبت السرية التي قادها دوراً في معركة حاسمة من معارك العملية يوآف – التي اتفق اسمها مع اسم أخي يوآف صدفةً – والتي كانت من أجل الاستيلاء على منطقة النقب في القسم الجنوبي من البلاد. سقط عدد من أبناء السرية ضحايا، وانقطع الاتصال معهم، وتوفي ضابطان في المعركة. وبمجرد استعادة الاتصال، جاءته التوجيهات بالانسحاب ولكنه أصر على المضي، فجرح الجندي الثالث، ولم يكن هناك أحد يستطيع أن يحمل الجرحى. ورغم ذلك عقد العزم



أبي حين كان ضابطاً شاباً.

على إكمال المهمة.

والظاهر أن الجنرال يجال آلون، قائد المنطقة الجنوبية، تدخل في تلك اللحظة. وأقنع الضابطُ الصغيرُ الجنرالَ آلون بأنهم يمكنهم الصمود بقية الليلة. وحيث أثبتت المحاولة جدواها، فقد انسحبت القوات المصرية قبل الصباح؛ وكان نصراً مهماً وإن كان مُكلفاً. فكاد أبي يفقد عينيه نتيجة لقنابل يدوية انفجرت إلى جانب رأسه، وبقيت في الجزء الخلفي منه شظية لازمته طوال حياته. ما زالت أمي تحتفظ بالقبعة التي حمت حياته في غرفة دراسته.

أذكر أنني درست عن هذه المعركة بالذات وأنا في الصف السادس في درس التاريخ. وكان أبي حينها أستاذاً للأدب العربي في جامعة تل أبيب. لقد جلست أستمع وأنا أسير خليط من الإعجاب والانزعاج حيث كنا نتعلم أنه قاد السرية (ب) الأسطورية التي وصفها الشاعر أبا كوفنر بقوله: «تميزت بنفسها عن الجميع... وحولت الضعف إلى شجاعة»، ودفعت الجيش المصري إلى الوراء، وفتحت نقطة تقاطع ربطت بين المناطق الجنوبية والوسطى مما سيصبح في ما

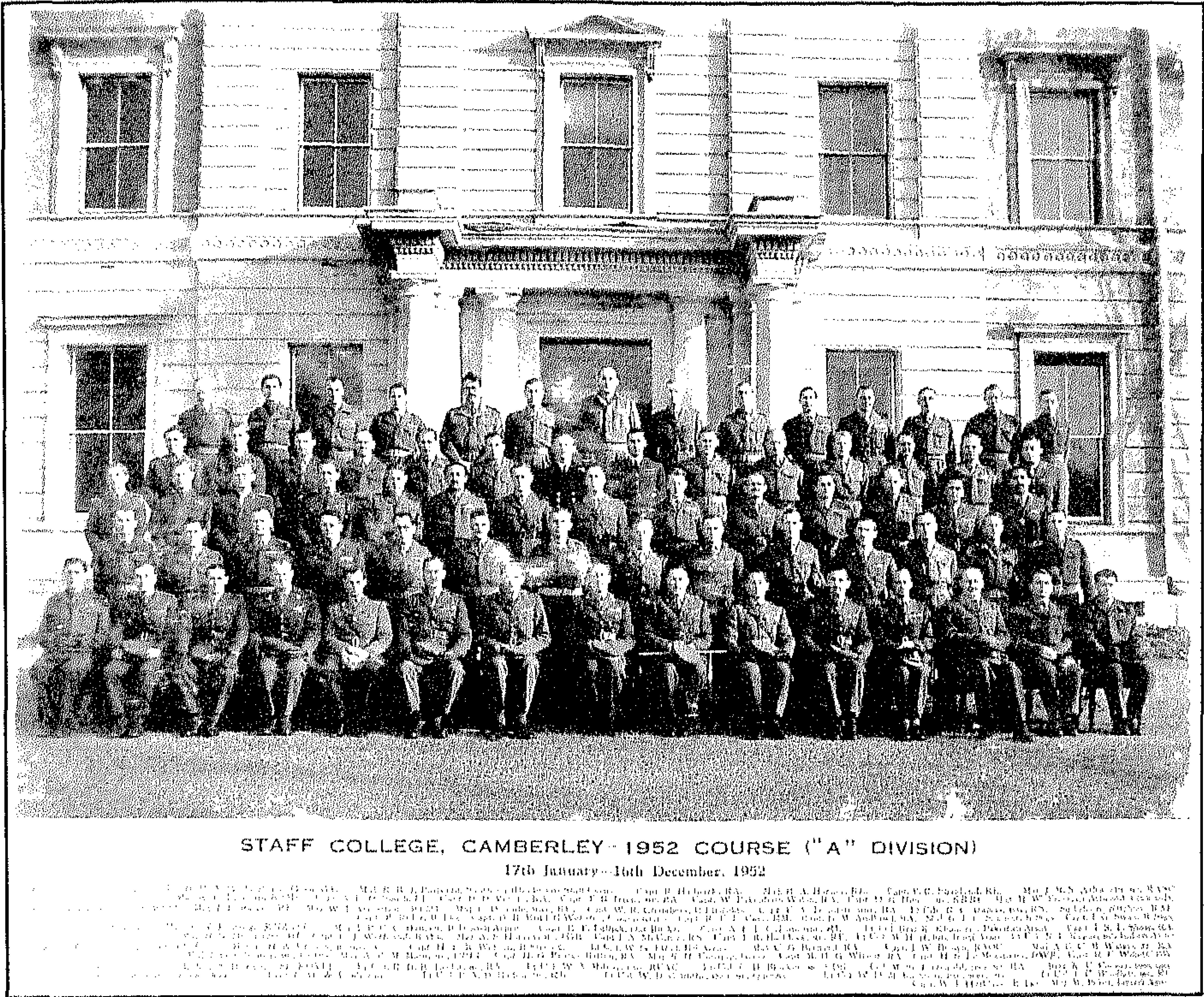
بعد دولة إسرائيل.

الإعجاب الذي شعرت به كان إلى حد ما بسبب أنني لم أسمع من قبل بالقصة في سياق أوسع من هذا. كنت أسمع أجزاء متناثرة عن المعركة من أبي عندما نكون في الجنوب ونمر في تلك المنطقة حيث وقعت المعركة. في ذكرى يوم الاستقلال، كنا نخرج في رحلات مع أصدقائنا الذين شارك عدد كبير منهم في حرب الاستقلال. وعند الغداء، كان الجميع يجلسون معاً، وكان الآباء يحكون قصص الحرب. وكان الجميع يطلبون من أبي أن يحكي تلك القصة بعينها، وكان دائماً يوافق. كنت حينها قد كبرت. ورغم أن والدي كان بطلاً لكنه بالنسبة لي يظل أبي، ولم أكن أتوقف عن الشعور بالحرج نوعاً ما عندما كان يحكي القصة في حضور أقراني.

أثناء الحرب، عاشت أمي وأخي يوآف في القدس مع والديها. ونظراً إلى كونها زوجة ضابط، عرضوا عليها منزلاً في حي القطمون؛ وهو حي فلسطيني أُجبر أصحابه على الهروب منه نتيجة للحرب. بيوت الفلسطينيين الواسعة الجميلة كلها تم الاستيلاء عليها من قبل الجيش الإسرائيلي، وأعطيت لعائلات إسرائيلية. تتذكر أمي كيف نهب الإسرائيليون محتوى تلك البيوت التي كانت تملكها عائلات ثرية.

قالت أمي: «كنت أعرف العائلات الفلسطينية؛ نظراً إلى كوني طفلة نشأت في القدس. أيام السبت، كنت أمر في الحي وأرى العائلات جالسة على شرفاتها. كانت هناك دائماً شجرة ليمون في الأمام، وحديقة فيها أشجار فواكه في الخلف».

رفضت أمي أن تأخذ بيت عائلة أخرى. وتساءلت: «هل يمكن أن آخذ بيت عائلة ربما تعيش الآن في مخيم لاجئين؟ بيت أم أخرى؟ هل يمكنك أن تتخيل كم يفتقدون بيتهم؟». لقد أخبرتني هذه القصة مرات كثيرة، وكانت تصر على أن أنتبه إلى رسالتها الكامنة فيها. قالت: «رفضتُ، وبقينا جميعاً نعيش مع الجدة سيما؛ الأمر الذي لم يكن سهلاً لأي واحد منا، خاصة وأنت ترى الإسرائيليين يقودون سياراتهم المحملة بالغنائم من قطع أثاث وسجاد جميل. لقد كنت أشعر بالخزي من جراء فعلهم، ولم أدرِ كيف تمكنوا من فعل ذلك».



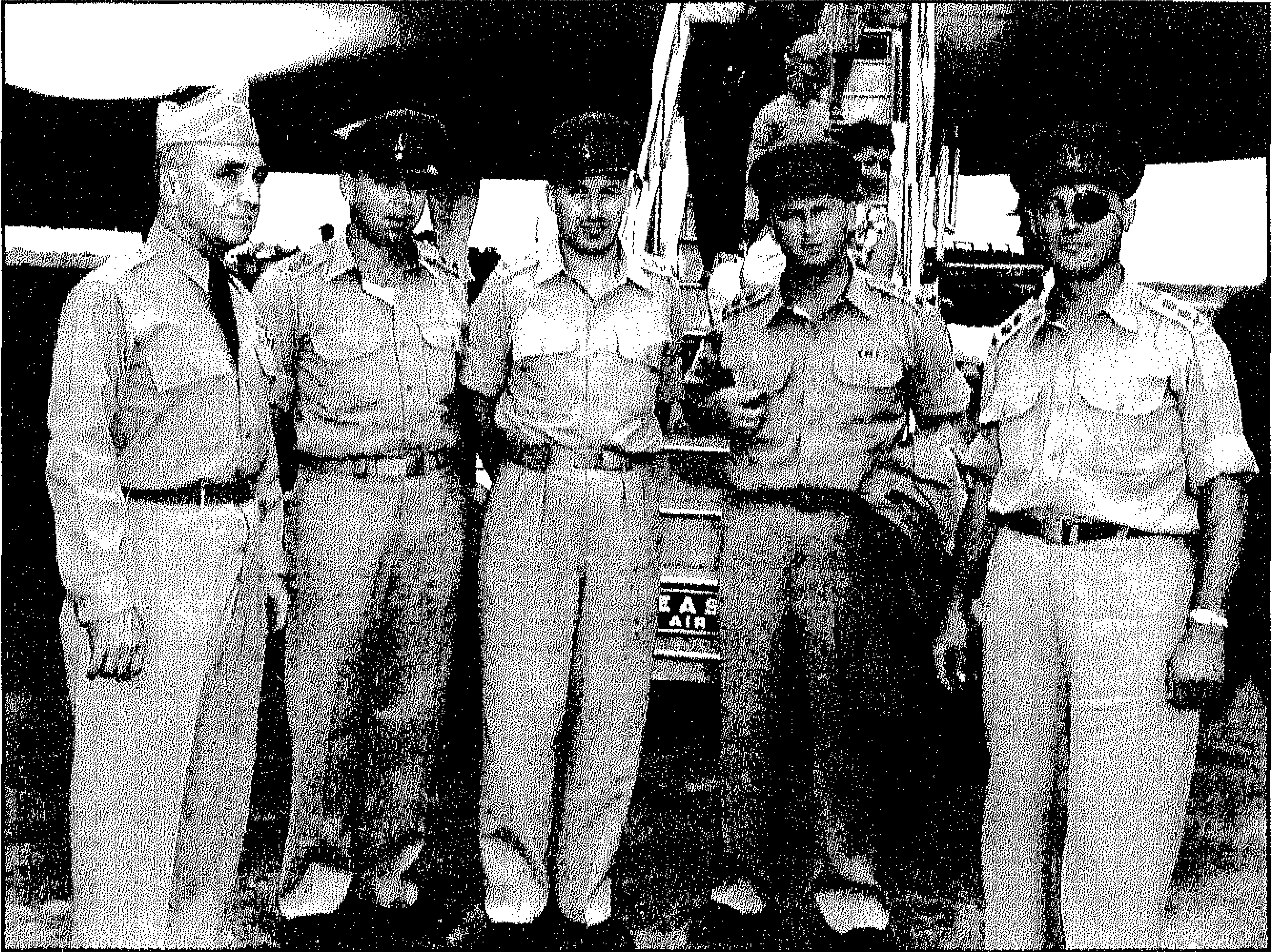
أبي في كلية الضباط الكبار في كامبرلي عام **1951**.

وبرفضها أخذ البيت في القطمون ضيعت أمي فرصة الحصول على بيت جميل وواسع لعائلتها في حي مميز في القدس، وبلا مقابل. لم يكن بإمكان والديّ الحصول على بيت مريح إلا بعد سنين؛ عندما تسلم والدي راتبه من الجيش، ولم يكن ذلك بلا تضحيات ومساعدة من جدتي سيما. أتمنى لو أتذكر متى أخبرتني أمي هذه القصة أول مرة ولكني لا أستطيع. ما أذكره هو أنني أعرف ذلك الأمر منذ أن أدركت.

بعد أن انتهت الحرب طُلب من أبي أن يبقى في الجيش كضابط. وتم إرساله مرة أخرى لإنجلترا، وفي هذه المرة كانت الوجهة إلى الأكاديمية العسكرية الملكية في ساندهيرست. كانت نوريت قد ولدت، وقضى أربعتهم سنة في إنجلترا. وعندما عاد أبي من إنجلترا، تم إلحاقه بفريق من الضباط؛ كلهم من خريجي الأكاديمية العسكرية الملكية، وهم الذين أسسوا كلية هيئة كبار الضباط.



أبي في كامبرلي، جالساً على اليمين في نهاية الصف الأول.



شارك أبي في أول بعثة عسكرية إلى الولايات المتحدة. يظهر في هذه الصورة ومعه حاييم هيرتصوغ، ويتسحاق رابين، وموشي ديان.

وفي عام 1951 كان أبي أحد أعضاء أول وفد عسكري يزور الولايات المتحدة.

حددت المنافسات السياسية والاضطرابات التي حدثت في إسرائيل في منتصف الخمسينيات وبدرجة كبيرة العلاقة بين الحكومة المدنية المنتخبة والجيش، وكان لذلك أثره على سيرة أبي المهنية. كان بإمكان المرء على وجه التقريب أن يصنف منهجين للعلاقات الإسرائيلية العربية في الحركة العمالية الحاكمة: الأول، منهج معتدل ودبلوماسي يقوده موشي شاريت؛ أول وزير خارجية لإسرائيل، وثاني رئيس وزراء. آمن شاريت بأن إسرائيل يجب أن تتجنب الحرب وتبحث عن مفاوضات تنتهي إلى تسوية سلمية مع جيرانها العرب. والثاني، منهج هجومي يريد أن يؤسس إسرائيل المتفوقة عسكرياً في المنطقة، وبالتالي لن تكون بحاجة إلى أن تتفاوض من أجل تسوية سلمية. وكان ديفيد بن غوريون – أول رئيس وزراء لإسرائيل – قائد ذلك المنهج، وكانت تؤيده في ذلك قيادة الجيش العليا. في عام 1953، قرر بن غوريون الاستقالة من رئاسة الوزراء ومغادرة السياسة، كما قرر أن يعيش في منطقة صحراوية بعيدة في جنوب البلاد؛ تاركاً منصبه لشاريت.

في عام 1955، ونتيجة لفشل العملية السرية العسكرية الاستخباراتية في مصر والتي أدت إلى استقالة وزير الحرب بنحاس لافون، عاد بن غوريون إلى السياسة وزيراً للحرب. وبمجرد عودته، حاول هو ورئيس الأركان، الجنرال موشيه ديان، أن يطرحا خطة لهجوم إسرائيلي على مصر. عارض رئيس الوزراء شاريت هذه الخطة، وقاد تحالفاً نجح في تعطيلها. أغضب هذا بن غوريون. وعندما جرت الانتخابات في شهر يوليو في ذلك العام، قاد بن غوريون حملة شرسة وفاز بالانتخابات كرئيس للوزراء. وكان هذا الأمر مألوفاً في السياسة الإسرائيلية، كما لو كان لعبة «كراسٍ موسيقية» سياسية، وأصبح شاريت مرة أخرى وزيراً للخارجية. ولكن شاريت كان يشكل معضلة لبن غوريون، وذلك لأنه كان معارضاً صلباً في وجه بن غوريون وخطته لمهاجمة مصر؛ وهي خطة كان شاريت يرى أنها قد تؤدي إلى حرب شاملة لا حاجة لنا إليها، وعليه فقد أحبط عدة محاولات لبن غوريون بالتورط في عمليات عسكرية. وفي النهاية، طرد بن غوريون شاريت. المعتدلون والذين كانت لديهم ميول ليبرالية في المجتمع الإسرائيلي والذين كانوا

ينظرون إلى شاريت على أنه «آخر حصون الاعتدال» كانوا غاضبين، ولكن قرار بن غوريون كان نهائياً، لا عودة عنه.

في عام 1956، وبابتعاد شاريت عن طريق بن غوريون، وقع الأخير ميثاقاً سريًّا مع فرنسا وبريطانيا للهجوم على مصر، غزت إسرائيل بموجبه قطاع غزة وسيناء في ما عرف «بحملة سيناء»، ودامت الحرب من 29 أكتوبر وحتى 5 نوفمبر. تكبدت إسرائيل 171 ضحية، وخسرت مصر من ألفين إلى ثلاثة آلاف قتيل، وأخذت إسرائيل 6000 أسير حرب، وأسرَ المصريون أربعةَ إسرائيليين. ومثلما توقع بن غوريون وديان تماماً، كانت تلك ضربة مدمرة للجيش المصري.

كانت تلك أول مرة تحتل إسرائيل فيها غزة، وهي منطقة تم تحديد حدودها بشكل اصطناعي على الساحل الجنوبي الشرقي للبحر المتوسط وتحيط بمدينة غزة القديمة؛ المكان الذي سيق إليه اللاجئون الفلسطينيون الذين تم نفيهم عام 1948. بعد حملة سيناء تم تعيين أبي - الذي كان عقيداً حينها - حاكماً عسكرياً لغزة. حدد هذا الدور شخصية أبي؛ الأمر الذي ترك أثراً في حياته كلها في ما بعد.

لم يكن أبي يتحدث إلي أو إلى إخوتي. وإذا أراد أن يقول لنا شيئاً ما، كان يتفوّه به ثم يغادر بعد أن ينهي حديثه. لعدة سنوات وعندما كنت في المدرسة الثانوية كان يتأخر في محاضراته حتى المساء، ولم يأتِ للبيت إلا قرابة منتصف الليل. قبل أن تذهب أمي للنوم، كانت تجهز له شوربة ساخنة طيبة كي يتناولها عندما يعود للبيت. كنت دائماً أنتظره وكنا نتناول الشوربة معاً، ونتحدث.

وفي واحدة من تلك الليالي المتأخرة، كشف لي عن أفكاره بخصوص الوقت الذي قضاه في غزة. قال: «عندما تلقيت التعليمات التي حددت وظيفتي كحاكم عسكري شعرت بالرعب. كانت تشبه وظيفة المندوب السامي، أو حاكم فلسطين. لم أكن فقط أمثل المحتل الأجنبي، بل كنت الحاكم. لا أستطيع نسيان كيف كنت شاباً، وكيف كنت مملوءاً بالعزم على قتال البريطانيين الذين حكموا فلسطين والذين اعتبرتهم محتلين أجانب. حقاً، إنك لا تعرف كيف يمكن أن تتحول الأشياء في هذا العالم».

عندما رجعت للمرة الأولى لأرشيف الجيش في تل أبيب كي أبحث عن معلومات تخص والدي وسيرته المهنية، نصحني أحد الموظفين – وكان قد قدم لي المساعدة – أن أنظر في تقرير غزة. قال لي: «إنه واحد من الوثائق الدالة التي كتبها أبوك». في هذه الوثيقة، عبر أبي عن مدى شعوره بالرعب عندما دخل غزة كي يتولى القيادة. أدركت أن لغة الوثائق ومفرداتها مثلت صوت والدي الذي كان واضحاً، وخالياً من العواطف، وتحليلياً؛ ولكنه كان ناقداً لا يهادن رؤساءه والمؤسسة العسكرية على العموم.

بعد احتلال غزة بعدة أيام، تم إرساله ليحكمها؛ وعمت حينئذ الفوضى. فقد «كان الجنود الإسرائيليون هناك إلى جانب شرطة الحدود بلا أوامر واضحة، ولم يكن هناك مركز قيادة؛ الأمر الذي أدى إلى اضطراب ونهب في كل مكان». وبسرعة، أسس والدي مقر قيادته، واعتقل اللصوص، وجمع السلاح من الناس واستعاد الانضباط. ووضع إرشادات لاستعادة الخدمات الأساسية كالصحة والتعليم. وأجرى إحصائية وصفت حال كل العائلات سواء أكان أفرادها لاجئين أو غير ذلك، مع تبيان مكان إقامتهم؛ من أي بلدة أو قرية، ومن أين تم نفيهم. لقد وصف التقرير مستويات التعليم، والملكية والماشية، كما اشتمل على كم كبير من المعلومات عن المكان وسكانه.

وكحاكم لمئات الآلاف من الفلسطينيين، أدرك أبي أنه لم يكن يعرف شيئاً عن لغتهم أو ثقافتهم أو طريقة حياتهم. ولم تعجبه حقيقة أنه كان يحتاج إلى مترجمين كي يتواصل مع الناس الذين يحكمهم فقرر أن يتعلم العربية، وحصل على شهادة البكالوريوس في اللغة العربية من الجامعة العبرية في القدس. قال: «في حديثي مع الأهالي أذهلني أنهم لم يكونوا مصرين على الانتقام بسبب ما أنزلناه بهم من عَنَت، ولا كانت لديهم رغبة في أن يتخلصوا منا. لقد كانوا واقعيين وبرجماتيين وأرادوا أن يكونوا أحراراً».

وبسبب ضغط هائل من إدارة إيزنهاور، أُجبرت إسرائيل في مارس 1957 على أن تترك المناطق التي احتلتها. ورغم أن إسرائيل لم تكن تتلقى مساعدات مالية من حكومة الولايات المتحدة في تلك الأيام، فقد كان على والدي أن



أبي يتفقد الجنود برفقة الرئيس الإسرائيلي الثاني، يتسحاق بن زفي.

يغادر خلال أسبوعين بعد أن قال الرئيس الأمريكي كلمته. لقد ترك غزة خلال يومين، ولكنه كان منزعجاً جداً. أخبرتني أمي وأختي نوريت أن هذه القضية عذبته شهوراً. قالت نوريت: «لم يكن يستطيع النوم في الليل، ولم يكن يتحدث عن شيء غير غزة». وأخبرتني أمي أشياء مشابهة.

لم أكن قد ولدت بعد، ولكن يمكنني أن أتخيل خيبة أمله عندما علم أن عليه أن يسحب كلمته. سمعته يتحدث عن هذا الأمر بعد سنين. كان يقول: «أكد لي رؤسائي أن بإمكاني أن أخبر الناس في غزة أنهم إذا تعاونوا معنا، فإننا لن نرجعهم إلى مصر. صدقتني القيادات الأهلية وتعاون الجميع معي، وعندما غادرنا غزة دفعوا ثمناً غالياً لذلك». ولقد عاد لهذا الأمر وكتب عنه بعد أن تقاعد، فقد كتب في مقالة له:

كان قدري أن أخبر قيادات المدن والقرى في غزة في ذلك اليوم البارد من شهر إبريل عام 1957 أن الحكومة الإسرائيلية سوف تتخلى عنهم.



أبي حين كان قائداً لكتيبة القدس، مع رئيس الوزراء ديفيد بن غوريون.

وعليه، إنني أشهد أن نظرات الناس المرسومة على وجوههم كانت تشي بأنهم لم يريدوا أن يصدقوا أنهم يسمعون، ولكنهم أدركوا ما جلبوه لأنفسهم من ضَنَك بسبب تصديقهم الحكومة الإسرائيلية[1].

كان التكليف الأكبر التالي لوالدي هو قيادة كتيبة القدس التي أمنت وحمت الحدود القلقة لغرب القدس مع الأردنيين الذين حكموا شرق القدس. لم تكن القدس مجرد منطقة فقط. فقد كانت محط أنظار اليهود والمسيحيين والمسلمين، وهذا يعني أنه كان على أبي أن يتعامل مع دبلوماسيين وقادة دينيين من كل أنحاء العالم. لقد كان ذلك منصباً دبلوماسياً في غاية الحساسية، كما كان منصباً عسكرياً كذلك.

في بداية الستينيات، كان أبي مستشاراً للتسليح لنائب وزير الحرب الذي كان حينها شمعون بيريز. تلك كانت الفترة التي بدأت إسرائيل فيها تنشئ برنامج

(1) ماتي بيليد، «المسألة الفلسطينية»، معاريف، 27 يونيو 1969.

السلاح النووي، تحت توجيه بيريز. لم يتحدث أبي عن دور له في ذلك البرنامج قطّ، ولم أجد عنه معلومات؛ ربما بسبب طبيعته السرية للغاية.

في عام 1964، وكنت حينها في الثالثة من عمري، تمت ترقية أبي لرتبة لواء (ألوف بالعبرية)، وعين رئيساً لدائرة الدعم اللوجستي للجيش الإسرائيلي. وكانت تلك أعلى رتبة في الجيش الإسرائيلي باستثناء شخص واحد؛ وهو رئيس الأركان. كانت مسؤولياته تشمل التسليح، التكنولوجيا، الدعم اللوجستي، الدعم في المجال الطبي، الأسلحة، ومشتريات أخرى، وإدارة ميزانية ضخمة. أما المنصب الذي أراده هو فهو منصب رئيس الاستخبارات العسكرية. فبما أنه الجنرال الوحيد الذي كان يتحدث العربية في ذلك الوقت، ربما كان هذا هو الخيار المنطقي. ولكن منصب رئيس الدعم اللوجستي كان منصباً مهماً؛ بما يقتضيه من مسؤوليات، بالإضافة إلى أن وضع الدعم اللوجستي في الجيش كان صعباً وفي حاجة إلى إصلاح، ولذلك رشحه رئيس هيئة الأركان إسحاق رابين لهذا المنصب وظل فيه لمدة أربع سنين.

كان يشعر أن الحرب قريبة، وأن عمليات التزويد بالدعم اللوجستي كانت في حاجة إلى تحديث؛ وعليه كانت خطته في الأيام المائة الأولى من رئاسته أن يعيد ترتيب النظام من جديد حسب خطة. وقد نُشر كتاب عن اللوجستيات في الجيش الإسرائيلي بعد ذلك بسنين، ووصف عملية الإصلاح التي قام بها كالتالي:

«بطريقة لم تكن معهودة في الجيش، قاد نقاشات قصيرة ومثرية. وخلال ستة أشهر من استلامه قيادة الدعم اللوجستي صادق رئيس هيئة الأركان، إسحاق رابين، على الإصلاحات. وبعد ثلاثة شهور كانت الإصلاحات قد تمت».

ينتهي الوصف:

«لم يكن يستطيع أن يجري هذا التغيير الشامل بهذه الأبعاد غير ضابط ذي رؤية شاملة وفهم لحاجات الجيش وعزم تنفيذي استثنائي (كعزم الجنرال ماتي بيليد)»[1].

(1) القوات الإسرائيلية، تاريخ دائرة الدعم اللوجستي بالقوات الإسرائيلية، (معارشوت، دار النشر الخاصة



خدم أبي كمدير لدائرة الدعم اللوجستي في الجيش الإسرائيلي. وكان برتبة عميد، وكانت تلك أعلى رتبة في الجيش الإسرائيلي باستثناء رتبة واحدة، هي رتبة رئيس هيئة الأركان.

في أيام الجُمع كان أبي يأتي للبيت مبكراً. وبعد العشاء، كان يجلس في غرفة المعيشة ويستمع إلى الأخبار من جهاز المذياع الخشبي الجميل الكبير في بيتنا. لم أكن قد اجتزت الرابعة أو الخامسة من عمري حينها، ولكني أذكر ذلك كما لو أنه قد حدث بالأمس. كان يجلس هناك، في بذلته العسكرية، ويستمع إلى خطابات الرئيس جمال عبد الناصر وقادة عرب آخرين في ذلك الوقت. كان أبي وقتها يتكلم العربية بطلاقة. أذكر أنني كنت أسمع التصفيق الحاد للمستمعين، وكنت أرى أنهم عدد كبير من الأحجار على رقعة شطرنج ألقيت مبعثرة في صندوق. ورغم أنني لم أكن أفهم أي كلمة، فقد كنت أجلس في صمت تام؛ حيث كان يستمع لساعات لهذه الخطابات. فقد كان مستغرقاً في ما كان يعمل، ولم يشعر بوجودي أو وجود أي أحد غيري. ومع ذلك، شعرت وقتها كما لو أنني كنت أشهد شيئاً في غاية الأهمية.

بعد ذلك بقليل، لاحت الحرب في الأفق مرة أخرى. ففي ربيع 1967، طرد رئيس مصر، جمال عبد الناصر، قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة، والتي كانت تراقب وقف إطلاق النار بين البلدين، من شبه جزيرة سيناء. وأرسل قوات مصرية إلى قناة السويس وإلى سيناء المنزوعة السلاح، وهدد بإغلاق مضيق تيران وبعدم السماح للسفن الإسرائيلية بالمرور نحو ميناء إيلات الإسرائيلي. انتهكت هذه التصرفات بوضوح بنود وقف إطلاق النار الذي تم توقيعه بين مصر

بقوات الدفاع الإسرائيلية).

وإسرائيل. الجيش كان يرى في ذلك مبرراً معقولاً لشن الحرب.

وطبقاً لوثائق وجدتها في أرشيف وزارة الحرب ومصادر أخرى، زودت حكومة الاتحاد السوفييتي المصريين بمعلومات خاطئة مفادها أن إسرائيل كانت تخطط لضربة مفاجئة لسوريا؛ فقد زعم السوفييت أن إسرائيل حشدت جنودها على الحدود مع سوريا، وكان بين مصر وسوريا ميثاق أمن مشترك، وكان على الرئيس عبد الناصر أن يتصرف دفاعاً عن حلفائه السوريين. وبينما كان مجلس الوزراء الإسرائيلي يعدد خياراته، في 26 مايو 1967، أرسل رئيس الوزراء السوفييتي رسالة لرئيس الوزراء الإسرائيلي، ليفي إشكول، عبر السفير السوفييتي في تل أبيب، يدعو فيها إلى حل سلمي للصراع. وعندما سلم السفير السوفييتي الرسالة لرئيس الوزراء إشكول دعا الأخير السفير كي يرى بنفسه أن الدعوى ليس لها رصيد؛ مؤكداً أن إسرائيل لم تحشد جنوداً على حدودها مع سوريا.

أوصى الجيش بضربة استباقية ضد مصر. ولكن مجلس الوزراء كان متردداً،



الجنرالات الإسرائيليون وهم يجهزون للمعركة وهم رابين، وبارليف، وبيليد.

وأراد وقتاً كي يستكشف خيارات أخرى قبل أن يذهب إلى حرب شاملة. تطورت الأمور في اجتماع عاصف لهيئة الأركان ومجلس الوزراء في 2 يونيو 1967. وبعد الافتتاح، أكد أبي بكل ما لديه من ثقة، أن المصريين يحتاجون ما بين سنة ونصف إلى سنتين كي يكونوا جاهزين لحرب شاملة. واتفق الجنرالات الآخرون بأن الجيش الإسرائيلي كان جاهزاً، وأن الوقت مناسب لضربة مدمرة أخرى.

في ذاك الاجتماع، قال والدي لرئيس الوزراء إن: «عبد الناصر يتقدم بجيش سيّئ التجهيز لأنه يعتمد على تردد مجلس الوزراء، وهو مقتنع بأننا لن نهاجمه. إن ترددك لصالحه». وفي رده على والدي، قال رئيس الوزراء: «لا بد لمجلس الوزراء أن يفكر في الأمهات اللاتي يمكن أن يفقدن أولادهن».

ازداد الإحباط عند الجنرالات وازداد التوتر. بالنسبة لرابين الذي كان مدخناً شرهاً، أشيع عنه أنه تسمم بالنيكوتين، وأنه تعرض لانهيار عصبي. كلهم كانوا يدركون ما يدركه أبي؛ وهو أن النصر محقق. فنظراً إلى دوره كرئيس للدعم اللوجستي، كان يدرك أن التعبئة الطويلة للاحتياطيين الذين تم استدعاؤهم في ذلك الوقت، والذين يشكلون نسبة مهمة من قوة إسرائيل، قد تربك اقتصاد البلاد، وربما تؤدي إلى انهيار؛ إلا إذا تحرك مجلس الوزراء بحزم. قال أبي: «إن الروح المعنوية للجيش عالية، وسننتصر سواء أهاجمنا اليوم أو بعد ثلاثة أسابيع. ولكن الاقتصاد الإسرائيلي لا يمكن أن يصمد لوقت طويل. لسنا جاهزين للانتظار طويلاً، ونحن لا نحتاج إلى ذلك». وهدد الجنرال عزر وايزمان، صديق عمر لأبي، بالاستقالة من منصبه كنائب لرئيس الأركان. أما الجنرال أرييل شارون، الذي أصبح رئيساً للوزراء بعد سنين، فقد قال إنه يجب على إسرائيل أن تشرع في ضربة استباقية ضد الجيش المصري و«تدمره بالكامل ودون تأجيل».

وطبقاً لجميع الروايات التي وردتنا عبر السنين على لسان من حضروا ذلك الاجتماع، فإن كلمات أبي لرئيس الوزراء كانت قاسية على نحو خاص. فقد تساءل مستنكراً: «لماذا يجب على هذا الجيش الذي لم يخسر معركة أن يتحمل إهانة مجلس الوزراء؟». هذا اللقاء بين مركزي القوة عرف في ما بعد «بانقلاب الجنرالات». بعد سنوات، عندما أصبح الموضوع قضية رأي عام، سألت أبي:

«ماذا تقول لمن يقول إن ذلك كان انقلاباً؟».

رد بلهجة حاسمة وباستخفاف: «هراء!». لم يكن يسره أن يتعرض حبه والتزامه لدولة إسرائيل إلى المساءلة. وعندما كان هذا يحصل، كان يعرب عن استيائه. ولكنه كان يؤمن بقوة أن الحكومة المدنية وحكم القانون لهما السلطة الأعلى. وقد دافع عن تصرفاته في خطابات ومقالات مرات كثيرة. كانت كلماته الدقيقة هي: «إن على قيادة الجيش الالتزام بتقديم المشورة لمجلس الوزراء وتوضيح وجهة نظرها. وكأي ذراع للحكومة، إن الجيش ملزم بتقديم رأيه؛ تماماً كما يقدم المختصون آراءهم في قضايا الاقتصاد. ولذلك، كنا ملزمين كخبراء عسكريين أن نعطي رأينا». وفي مقالة نشرها في معاريف في 15 يونيو 1973، أشار إلى ذلك مرة أخرى: «أستطيع أن أشهد أنه لم يكن هناك أي ضابط من ضباط الجيش الكبار يجادل في السلطة المكفولة للحكومة في أن تقرر، أو في أن الجيش يطيع».

ولكن من يقرأ نص محضر الاجتماع، يرى بوضوح أن والدي تحدث إلى رئيس الوزراء بلهجة خشنة أكثر مما هو مقبول في بلد ديمقراطي مدني.

استمعت لهذه القصة أكثر من مرة على لسان عزر وايزمان (وكنا نناديه أيزر) عندما كان يزورنا. كان يقول بلهجة فيها حماسة: «كان عليك أن ترى والدك، فقد كان يعرف كيف يضرب على الطاولة وينجز المهمة». وكان كل شيء مصدر سرور لامحدود لوايزمان.

حسناً، لم يقم الجنرالات بأي تقدم. كما أن أعضاء مجلس الوزراء قرروا الانتظار، وفضلوا أن تحل الأزمة بالوسائل الدبلوماسية، وتبعت ذلك حالة من الاستقطاب بين الحكومة والجيش فاقت التخيل. كان هذا أكبر من خلاف في الرأي إزاء حل الأزمة. كما كان هناك اختلاف أجيال شكّل عاملاً آخر. فقد كان الجنرالات في أول الأربعينات ومنتصفها، ومعظمهم تطوع وهو شاب في البالماخ. وكلهم - عدا خمسة - ولدوا في فلسطين، وكانوا متحمسين في إيمانهم بأن إسرائيل يجب أن تكون حاسمة وقوية. من جهة أخرى، كان أعضاء مجلس الوزراء في الستينيات من العمر. وكلهم تقريباً كانوا من جيل جدي، وكانوا قد

هاجروا إلى فلسطين من أوروبا الشرقية، وكانت لديهم ذكريات حية عن اضطهاد اليهود وقتلهم. على أي حال، حدث هذا بعد ثلاثين عاماً فقط من الهولوكوست.

قـرر الجيـش أن يعلـن التالـي: «إن التأخيـر فـي الهجوم حصـل لاعتبارات دبلوماسـية، ولكـن التهديـد الوجـودي مـا زال ماثـلاً». وتـم إقنـاع المواطنيـن الإسـرائيليين بـأن الجيـوش العربية قادمة لتغتصبهـم وتقتلهم، مثلما فعل النازيون قبل ثلاثين عاماً.

ووقعـت الحكومـة تحـت ضغط الجمهور ومطالبـه من جهة، وتحت ضغط الجنرالات من جهة أخرى كي تتصرف بحسم. أما إشكول الذي كان وزيراً للدفاع بالإضافة إلى صفته كرئيس للوزراء - وهو أمر شائع في الإدارات الإسرائيلية - فقـد تـم الضغـط عليـه حتى يترك منصب وزير الحرب. وقـد كان ذلك إهانة له، وكان انتكاسة سياسية كبيرة. واضطر إشكول أن يدعو الجنرال موشي ديان، رئيسَ هيئة الأركان السـابق وتلميذ بن غوريون والذي يحظى بالإعجاب الشـديد،، إلى مجلس الوزراء كوزير للدفاع. ودعا إشـكول أحزاب المعارضة لتشـكيل حكومة وحدة وطنية، وهي التي أعطت الشرعية لضربة استباقية ضد مصر. ومرة أخرى، كانت اليد العليا للمنهج العسكري.

كان عمـري خمسـة أعـوام فـي ذلـك الوقت. ولكني أذكـر الهيعة التي تلت ذلك والتجهيزات للحرب. ولـم يخف البالغون خوفهم، وشـغلت الإذاعات أكثر من الأيام العادية، وكانت العناوين الكبيرة في الصحف تبهر عيني بشكل مكثف؛ ولم أكن أبلغ من العمر أكثر من خمس سنين. وكان أبي يقضي نهاره وليله في مقـرات الجيـش. أمـا أخـي يوآف الذي كان وقتها ملازمـاً أولاً وقائد فصيل فيلق المدرعات، فكان على رأس عمله، ولم نره بعد ذلك ولـم نسمع عنه.

كنت على نحو خاص قلقاً لأنهم أخبرونا بأن حي موتسا عليت، حيث كنا نعيش، كان في خطر شـديد. فعلى بعد أقل من ميل من منزلنا كانت هناك قلعة بنيـت أيـام الصليبيين، واسـمها «القلعة». في عـام 1948 وفي معركة دامية حدثت هناك بين قوات الهاجاناه والمقاتلين الفلسـطينيين، قُتل القائد الفلسـطيني والبطل الوطنـي عبـد القـادر الحسـيني. وكان موتـه ضربة قوية للقـوات العربية. يقال إن

العرب خططوا لأخذ القلعة والانتقام لموت عبد القادر الحسيني. ماذا كان هذا يعني؟ هل كان من الممكن أن يأتوا ويقتلونا جميعاً؟ احتفظت بقلقي لنفسي، وكان منظر بطارية مدفعية متموقعة في الوادي القريب مصدر راحة لي.

لم يكن في منزلنا أي ملجأ، وربما كان المنزل الوحيد في البلاد الذي لم يكن به ملجأ. كان أبي يؤكد أن: «الملجأ عديم الفائدة وليس ضرورياً». ولم يكن هناك أي سبيل لإقناعه بأن يبني واحداً. وعندما كان يفكر في شيء، لم يكن يفسر ما يفعله. لم يكن لديه صبر على أولئك الذين يناقشون سلطته أو قدراته المعرفية. ورغم أن بيتنا كان قد بُني حديثاً، لم يكن لنا أي مكان نقيم فيه عندما تنطلق صفارات الإنذار. كان عندنا في البيت مكان في المنزل يصلح للاحتماء على نحو ما؛ وهو الحمام الصغير الواقع تحت السلم، في الطابق الأرضي تحت الحمام الواقع في الطابق الثاني. كان أكثر الأماكن أمناً في المنزل. ولذلك كانت أمي وأختاي وأنا، حيث كنا وحيدين في المنزل أثناء الحرب، نسرع إلى الجلوس هناك بمجرد أن نسمع صفارة الإنذار. ولكي تضفي على المكان شيئاً من الجمال، وضعت أمي باقة ورد فيه، وعلقت على حائطه صورة لبن غوريون بتوقيعه. وكان الحمام صغيراً لدرجة أنه لم يكن يكفي أكثر من اثنين في الوقت نفسه.

كان بيتنا ملاذاً غير كامل من نواحٍ أخرى. فلأن أبي كان يريدنا جميعاً أن نكون قادرين على الاستمتاع بمشهد تلال يهودا التي كانت تحيط ببيتنا - من المطبخ ومن غرفة المعيشة - فقد صنع أبواب الطابق الرئيس الكبيرة من الزجاج. وهذا كان يعني خطر انشطار الزجاج في أي لحظة. بالتالي، ساعدتُ أوسي ونوريت في إلصاق الشبابيك بأشرطة من القماش.

خلال النهار، كان كل شيء يبدو وكأنه مناسبة مهرجانية، لأنه لم يكن هناك دوام مدرسي، وكنا في البيت معاً. ولكن، في الليل كنت أخاف، إذ كنت أرى التيار اللامتناهي من طائرات المروحيات التي كانت تأتي بالجنود الجرحى لمستشفى هداسا الذي كان يقع على التلة مباشرة مقابل بيتنا. كنت أنهض وأنزل عبر الممر باتجاه غرفة أمي، كي أجد أخواتي هناك أيضاً. كنا نحاول تخفيف جزعنا بمشاركة أمي الفراش.

كنت طفلاً؛ ولم تكن لدي معرفة بمعنى الحرب. كل ما كنت أعرفه أننا نحن الإسرائيليين أبطال، وأننا سوف ننتصر. ومثل أطفال إسرائيليين آخرين، تعلمت أننا سليلو المكابيين الذين هزموا الإمبراطورية الإغريقية، ومن أحفاد الملك داوود الذي لم يكن سوى طفل عندما قتل جالوت الفلسطيني. كنت أعلم أنه رغم أننا قلة وهم كثرة، فقد انتصرنا في كل حرب منذ إنشاء إسرائيل. وقد سمعت قصصاً من أمي عن مقاتلي الهاجاناه الشجعان الذين قاتلوا البريطانيين والعرب وأسلحتَهم المتفوقة. تفوقنا عليهم وهزمناهم في كل مرة.

وكما تبين في ما بعد، لم يدم الأمر طويلاً؛ فالضربة المفاجئة أدت إلى تدمير قوة مصر الجوية بالكامل، كما ألحقت ضرراً كبيراً بالجيش المصري، وأعادت غزو قطاع غزة وشبه جزيرة سيناء في غضون أيام. الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية أكدت أن الجيش السوري والجيش الأردني لم يكونا بمستوى الجيش الإسرائيلي. وبعد أن مضت الحملة على مصر بيسر، قرر القادة الميدانيون المتواطئون مع موشيه ديان أن يستولوا على الضفة ومرتفعات الجولان، وتانّك المنطقتان كانت إسرائيل ترنو للسيطرة عليهما منذ سنين. فكلتا المنطقتين فيهما موارد مائية استراتيجية وتلال مطلة على مناطق إسرائيلية. وشملت الضفة الغربية قلب أرض إسرائيل التوراتية، بما ذلك «درة التاج»، وهي مدينة القدس القديمة.

الحقيقة أن الضفة الغربية ومدينة القدس القديمة ظلتا في أيدي العرب عام 1948، وكانت هذه الحقيقة مصدر تنغيص لعدد كبير من الضباط الكبار. ولذلك، لمّا لاحت لهم الفرصة مرة أخرى تصرفوا بسرعة وبحسم. لقد أشاروا إلى تلك العملية بعبارة «إنهاء المهمة».

في عام 1953، عندما كان أبي ما زال ملازماً أولاً شاباً، دعاه موشي شاريت ليتحدث أمام وفد من اليهود الأمريكيين. وكان كل من شاريت وبن غوريون حاضرين، وكلاهما أعلنا عن سعادتهما بفصاحة والدي ومحتوى المحاضرة. في مذكراته، كتب شاريت أن أبي أكد بكل ثقة أن الجيش كان يحضر للحرب: «من أجل أن نكمل غزو أرض إسرائيل وندفع حدود إسرائيل الشرقية إلى موقعها على ضفتي النهر».

لما أتت الفرصة، فعل الجيش ذلك دون انتظار أوامر السلطات المدنية. ففي ستة أيام، كان الأمر منتهياً. الضحايا العرب كان عددهم 700، والمناطق التي تمت السيطرة الإسرائيلية عليها أصبحت ثلاثة أضعاف من حيث الحجم. وأصبح لدى إسرائيل ليس فقط الأرض والموارد التي أرادتها لوقت طويل، ولكن أكبر كمية من الأسلحة السوفييتية خارج الاتحاد السوفييتي. ورسخت إسرائيل صورتها مرة أخرى على أنها قوة إقليمية كبيرة.

أذكر البهجة التي سادت حينذاك. وأذاعت محطّات الراديو أهازيج النصر، وأصبحت أغنية «قدس الذهب»، تلك الأغنية التي كتبها نعومي شيمير من الأغاني العالمية. وعاد أبي في النهاية للبيت، وكانت هناك أخبار بأن أخي يوآف بخير. وبمجرد الصدفة المحضة، التقى والدي في الميدان بعد أن تم الاستيلاء على صحراء سيناء. ولدى والدتي صورة التقطها صديق، يظهر فيها يوآف الشاب المتعب، يعلوه تراب الصحراء، وجهاً لوجه مع والدي وهما يتحدثان. وبعد ذلك بدأت المراسيم. أذكر أننا ذهبنا إلى مقر الجيش في تل أبيب بينما كان الجنرالات المنتصرون يُمنحون شارات النصر. ففي صورة ما زلت أحتفظ بها وأحتفي بها يظهر الرئيس الإسرائيلي زالمان شازار (دود زالمان) مُحاطاً بكل الجنرالات وعليها توقيع كل جنرال في الأسفل. كنت فخوراً جداً في ذلك الوقت، فقد شعرت أنني يمكن أن أطير.

لم تكن لدي أي فكرة عن أن أبي كان قلقاً إزاء التبعات غير المقصودة لهذا النصر على الدولة اليهودية. وكان الراحل زئيف شيف - أهم المحللين العسكريين الإسرائيليين - يقول إن دور أبي كرئيس للدعم اللوجستي وإسهامه في النجاح في الحرب كانا غير مسبوقين، ولا يمكن لأحد أن يفيه حقه. فإن كان ورفاقه ضباطاً صغاراً عام 1948 وجعلوا النصر ممكناً، فإنهم الآن جنرالات صنعوا النصر في عام 1967، وأكدوا عودة أرض إسرائيل الكاملة بعد ألفي عام إلى الأيدي اليهودية. وفوق ذلك، حصل هذا بعد أقل من ثلاثين عاماً على مضي القتل المنظم على يد أوروبا التي كان النازيون يسيطرون عليها.

لكن هذا الغزو الكبير للأراضي أزعج والدي. فعندما كان يدفع باتجاه



الرئيس الإسرائيلي، زالمان شازار، مُحاط بجنرالات هيئة الأركان بعد خروجهم منتصرين من حرب 1967.

الحرب، كان يتخيل أنها ستكون حرباً محدودة مع مصر؛ عقاباً لها على خرقها وقف إطلاق النار، كما أن الحرب كانت ستؤكد على شرعية إسرائيل وقوتها العسكرية. إن الاستيلاء على الضفة الغربية وقطاع غزة ومرتفعات الجولان لم يكن قطّ جزءاً من الخطة الرسمية. وفي مقالة في صحيفة معاريف، عرض الصحفي حاييم هانجبي وصفاً مليئاً بالحيوية لأول اجتماع أسبوعي لهيئة الأركان بعد حرب الأيام الستة. قال إن رئيس هيئة الأركان – إسحاق رابين – والجنرالات الآخرين كانوا مبتهجين بالمجد والنصر. ولكن، عندما شارف الاجتماع على الانتهاء تحدث والدي. ليس للمرء أن يستريح بعد الإنجاز. تنحنح وبدأ الحديث بأسلوبه التحليلي المعروف، مبيناً أن النصر قدم لإسرائيل فرصة فريدة كي تحل مشكلة الفلسطينيين بالكامل. وأضاف: «لأول مرة في تاريخ إسرائيل، نحن وجهاً لوجه مع الفلسطينيين، دون الدول العربية التي كانت تقسمنا. والآن، إن لدينا فرصة لعرض دولة على الفلسطينيين خاصة بهم». وصرح في ما

بعد مؤكداً أن البقاء في الضفة الغربية والسيطرة على الناس المقيمين فيها كانا مناقضين لاستراتيجية إسرائيل طويلة الأمد التي تقتضي بناء ديمقراطية يهودية فيها أغلبية يهودية مستقرة. فإذا احتفظنا بهذه الأراضي فمن المؤكد أن المقاومة الشعبية للاحتلال ستتنامى؛ الأمر الذي قد يعرض وقف هذه المقاومة للاستنزاف، وستكون لهذا نتائج غير أخلاقية وكارثية. واختتم كلامه بالقول إن هذا الحال سيحول الدولة اليهودية إلى دولة احتلال وحشية، مما يؤدي في النهاية إلى دولة ثنائية القومية.

قال أبي ذلك وفوهات البنادق لا تزال تنفث دخانها، وقبل أن تبدأ إسرائيل بناء المستوطنات في الضفة الغربية وقطاع غزة. استمع الجنرالات الآخرون، ولكنهم لم يريدوا أن يناقشوا هذه القضية. فقد زعموا أن الفلسطينيين لن يقبلوا بتسوية يأخذون فيها الضفة وغزة فقط، وسيطالبون بالمزيد من الأراضي. ولذلك واصل حديثه مستشهداً بتقارير استخباراتية تظهر بوضوح أن الغالبية الساحقة من الفلسطينيين لم يكونوا يختلفون عما قاله. وفي النهاية، أخذه إسحاق رابين جانباً وأخبره بشكل شخصي، بأن المناخ السياسي لم يكن مناسباً لمناقشة الموضوع.

رغم أن عمري لم يكن أكثر من ست سنوات عندما تقاعد أبي من الجيش، فقد تأثرت حياتي بمهنته كعسكري. ففي إسرائيل، يعد الجيش أكبر من كل شيء، وحيث كان يُنظر إلى جيل الـ1948، أو «جيل البالماخ» على أنهم أشباه آلهة، فلم يكن الجيش صنعة عادية.

في تلك السنين المبكرة من عمري بدأت ألتحم بالوطنية، وتبلور إيماني بالقضية الصهيونية. فبعد أن ولدت إسرائيلياً يهودياً في ذلك الوقت من التاريخ، كانت لدي رغبة بأن أقرر مصيري وأحققه، وأخدم حينما يأتي دوري. في ذلك الوقت، كنت أريد بقوة أن أكون بطلاً وجنرالاً عظيماً مثل والدي.

الفصل الثالث

ضد التيار - العمل الأكاديمي والنشاط السياسي

كانت خطة والدي أن يستقيل بعد حرب 1967، ولكن رئيس هيئة الأركان الجديد، حاييم بارليف، طلب منه أن يمدد خدمته سنة أخرى. فقد كانت هناك حاجة لعملية تسليح ضخمة، ولتنظيم دائرة الدعم اللوجستي بعد الحرب، فوافق أن يظل حتى ينجز المهمة. ولكن والدي لم يكن لديه اهتمام بأن يحكم أمةً محتلةً، وكان يتوق لأن يمضي في حياته على نحو آخر. ولذلك قرر التقاعد عام 1968 والشروع في مسار حياة أكاديمي واضح المعالم. لقد تبرع بمكتبته العسكرية الكبيرة للجيش، وملأ غرفة دراسته بكتب عن الأدب العربي.

إن التحول من الحياة العسكرية المضنية إلى الحياة المدنية ليس بالأمر السهل، وقد استغرق هذا الانتقال بعض الوقت حتى استطاع أبي التكيف. في السنين الأولى بعد التقاعد، لم يكن يرد على الهاتف، فقد تعود على أن يكون لديه سكرتير؛ وكان هذا مفهوماً. فإذا رفعتُ سماعة الهاتف، كان علي أن أعرف من المتصل، وبمجرد إخباره كان يسأل بصرامة: «حسناً، ماذا يريد؟». وهو سؤال لم يكن لدي جواب له. وفي ما بعد، قرر أن يرد على الهاتف بنفسه، ولكن نبرته كانت تدل على أن المكالمة تشغله عن شيء مهم.

والحق أنه كان كذلك. كان ماتي بيليد دائماً مشغولاً في أمر مهم. لقد كان العمل متعته العظمى، وكان ينظر إلى عمله ويمارسه بمنتهى الجدية. ولم يكن يحب أن يقاطعه أحد عن عمله.

حين تقاعد والدي، كانت لديه خيارات عمل مُجدية. فنظراً إلى كونه رئيساً

لدائرة اللوجستي في الجيش الإسرائيلي، كان على رأس مؤسسة إدارية ومالية ضخمة، ونجح بشكل منقطع النظير. وعندما تقاعد كان عمره فقط 45 عاماً، وكان يُنظر إليه على أنه بطل كبير. وقد كان بوسعه أن يقوم بأي شيء يريده في ذلك الوقت. تلقى عروضاً لرئاسة بعض أكبر الشركات الإسرائيلية وأنجحها. وكانت لديه عدة خيارات مغرية في الحكومة والسياسة، ولكن شيئاً من ذلك لم يشده.

لم يكن يؤمن بأن المرء ينبغي أن يختار العمل لأنه ينطوي على مال أو موقع، بل كان يقول: «إن عمل المرء يجب أن تحدده المبادئ، والقدرة على المساهمة، أو تحدده اهتمامات المرء في الحياة».

بالنسبة له، كان المبدأ دافعه لبناء جيش للدولة اليهودية، كما كانت اهتماماته وراء تحوله إلى باحث في الأدب العربي. أما قدرته على المساهمة في بناء النسيج الأخلاقي للدولة التي حارب من أجل بنائها للشعب اليهودي فقد تجلت في انغماسه في السياسة، ودفاعه عن حقوق الفلسطينيين. عندما نضجتُ وعرفت منافع المال، سألته عن سبب رفضه تلك العروض السخية، فقال لي: «لماذا تسأل عن السبب؟ هل تريدني أن أقضي عمري وأنا أصنع الملابس؟». وتلك كانت طريقته للإشارة إلى أي شيء ليست منه فائدة للعالم.

وبالتالي، لقد انتقلت عائلتنا - مباشرة بعد تقاعد أبي - إلى لوس أنجلوس وظلت هناك مدة ثلاث سنين كي يستطيع والدي أن يتابع مهنته الجديدة؛ كأستاذ للأدب العربي الحديث. وخلال تلك الفترة، استطاع أن يكمل الدكتوراه في جامعة كاليفورنيا، بلوس أنجلوس.

كان عمري حينها ست سنوات، وكنت مسروراً بالذهاب إلى أمريكا. وقد كنت أفخر أمام زملائي بمعرفتي بأمريكا: «في أمريكا، لديهم سيارات أوتوماتيكية الحركة وهواتف تستطيع من خلالها أن ترى الشخص على الجانب الآخر من الخط!». وكنت في الحقيقة أظن أن مبدل سرعة السيارة يتحرك وحده، وكم شعرت بالخيبة عندما علمت أنه لم يكن كذلك إطلاقاً. وكنت مسروراً لأننا ركبنا الطيارة كي نصل إلى هناك.

رغم أنني أحببت أمريكا، فقد كانت هذه السنين الثلاثة من أصعب السنين

على العائلة. فقد حصل والدي على منحة، ولكنها لم تكن سخية بما يكفي، وعشنا في شقة في مكان يسمى سكن جامعة كاليفورنيا للطلاب المتزوجين. وكان هناك عدة طلاب فقراء، بعضهم لديهم أولاد، وكان هناك عدد قليل من اللاجئين المحترمين الذين اضطروا في كثير من الأحيان أن يغادروا بلدانهم نتيجة لانقلاب عسكري. وكان هناك زوجان إسرائيليان لديهما قطتان، وكنت أقضي مع القطتين الكثير من وقتي. لكن أفضل أصدقائي كانوا فيتا من تنزانيا، وبيرنو من الإكوادور، وبيوس من الهند. عائلة فيتا كانت تسكن في قسم من الطابق، فيما سكنت عائلة بابيكيان في القسم الثاني. أما عائلة بابيكيان فقد كانت أمريكية من لبنان. أذكر الأم واسمها مارجوت التي أصبحت هي وأمي صديقتين حميمتين. وكان لديها ولد أصغر مني، واسمه أرييل، كنت ألعب معه دائماً.

إن خطة التقاعد من الجيش لم ينتج عنها مال وفير في تلك الأيام، وبالتالي كانت ميزانيتنا محدودة. ورغم أنني لم أكن بحاجة لأي شيء، فقد أدركت حينها حجم الضغط والصعوبة اللذين عانى منهما أبي وأمي جراء التقاعد. كنت صبياً مرحاً، وكانت أمي وأختي نوريت والأصدقاء كلهم يعملون جاهدين لكي أستمتع بوقتي. وقد استمتعت. كنا نذهب لبركة السباحة في الحرم الجامعي كثيراً ونشارك في المخيمات الصيفية هناك.

أخي يوآف غادر بعد سنة وعاد إلى إسرائيل. وسافرت نوريت بعد ذلك بفترة قصيرة للدراسة في السوربون في باريس. أوسي، أختي الأكثر قرباً لي من حيث السن، وأنا بقينا السنوات الثلاث مع والدي. أدركت أمي حجم الضغط الذي وضع أبي نفسه تحته، كما شعرت بمدى تأثير مزاجه على العائلة، ولذلك عملت جهدها لكي تظل مرحة وتجعل حياتنا قابلة للاستمرار.

عندما وصلنا أول مرة إلى لوس أنجلوس، أقمنا في بناية جميلة ليست بعيدة من الجامعة. كانت الشقة واسعة، وكانت الممرات المؤدية لها مفروشة كفندق مريح. كانت هناك بركة للسباحة، وبما أن معظم المقيمين كانوا كباراً في السن، فقد كانت البركة بمثابة ملك خاص لنا. ولكن تبين أن المنحة لم تكن تكفي، وبالتالي انتقلنا إلى شقة أصغر في شارع سوتيل؛ بين عائلات شابة، أضعف حيلةً

وأقل ثراءً. لم أكن أعرف الإنجليزية عندما وصلنا، ولكن بما أنني كنت في سن السادسة وبما أن هناك تلفازاً، فقد تعلمتها بسرعة. ودرست الصف الثاني والثالث والرابع في مدرسة شارع كلوفر بلوس أنجلوس.

أحببت العيش في الولايات المتحدة، ومنحتني تلك التجربة ميزة جلية. فقد أصبحت أتحدث الإنجليزية بطلاقة؛ الأمر الذي جعلني ثنائي اللغة في وقت مبكر. وتعرفت على الثقافة الأمريكية، وأكثر من ذلك، تعرفت على الطبيعة التعددية للوس أنجلوس؛ وخاصة جامعة كاليفورنيا في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات. أذكر أنني ذهبت مع والدي إلى المسرح المفتوح لمشاهدة المصارعة الشهيرة بين جو فريزر ومحمد علي، حيث هَزم فريزر محمد علي. وعندما عدنا كان جميع أهل الحي في حالة من الصخب، وخاصة الأفريقيين الأمريكيين الذين عاشوا هناك. لقد كانت أكثر من مصارعة؛ فهي لعبة سياسية واجتماعية كبيرة؛ رغم أن فريزر ومحمد علي كانا من الأفريقيين الأمريكيين. كان محمد علي رمز المتمرد الأفريقي الأميركي المناهض للحرب وللمؤسسة الرسمية في ذلك الوقت. وقد رأى الكثير من الناس أن هزيمته ظالمة، ورأوا فيها خسارة للكفاح الأفريقي الأمريكي.

كنا هناك أيضاً أثناء الانتخابات الرئاسية؛ عندما انتصر ريتشارد نكسون على هبرت همفري. من الصعب الآن التصديق أن أبي أيد نكسون ضد همفري. فقد كان مع قصف أمريكا لكمبوديا وفيتنام، لأنه كان بشكل كامل ضد الشيوعية ومناصراً لأمريكا. وفي أيامنا الأخيرة في الولايات المتحدة، بدأت فضيحة ووترجيت تطفو على السطح.

وحتى بعد أن رجعنا إلى إسرائيل، ظللت متابعاً للسياسة والثقافة الأمريكيتين؛ أكثر بكثير من معظم أقراني الإسرائيليين. وظللت على اطلاع على مؤسسات ثقافة البوب الشهيرة في ذلك الوقت، مثل: برنامج بينَتس الكوميدي، والشاب مايكل جاكسون، ومعظم المسلسلات التلفزيونية والبرامج التي كانت علامة على تلك الفترة، وظلت كأيقونات في الثقافة الأمريكية. ولذلك، لمّا جئتُ إلى جنوب كاليفورنيا وأنا كبير، كنت كمن يرجع إلى بلده بمعنى من المعاني.

كان لأبي مكتب بجامعة كاليفورنيا مقره الطابق العاشر، في واحد من أعلى المباني في الحرم الجامعي، وكان يقضي معظم وقته هناك. وفي المساء، كان يشاهد الأخبار بعد العَشاء، وكنت أجلس إلى جانبه بعد ذلك لمشاهدة حلقة من «بونانزا»، أو الغرب البري، أو لمشاهدة دراما بوليسية، قبل الذهاب للنوم.

وكما استمتعت بالعيش في أمريكا، فقد سعدت لأنني عدت في النهاية إلى القدس. ولكن أموري لم تسر بسهولة في إسرائيل. كنت قد درست اللغة العبرية في الصف الأول، ولما عدت التحقت بالصف الخامس، ولم أتلق أي مساعدة كي أعوض ما فات. أضف إلى ذلك أن ما كان سهلاً في الولايات المتحدة لم يكن بالضرورة سهلاً في إسرائيل. فهنا لم يهتم أحد إذا انتصرت جامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس على جامعة جنوب كاليفورنيا في لعبة كرة السلة. ولم تكن لدي أي معرفة بأنواع الرياضة المحلية؛ وجعلتني الأخلاقيات الأمريكية التي تعلمتها غريباً عن المجتمع منذ البداية.

في اليوم الأول للمدرسة، أنزلتني أمي عند بيتنا في 18 شارع راشبا، وهو بيتنا القديم حيث كانت جدتاي تسكنان، وقالت: «ما عليك إلا أن تتبع الأطفال الآخرين، فكلهم ذاهبون إلى المدرسة نفسها». لم أكن أعرف الطريق، ولذلك شعرت بالخوف، ولكني فعلت ما أمرتني به. وبمجرد أن دخلت المدرسة، لم تكن لدي فكرة إلى أين أذهب. كان هناك المئات من الأطفال الذين كان واضحاً أنهم يعرفون ما يفعلون وأين يذهبون، وشعرت بالحرج من الاعتراف بعدم المعرفة. في النهاية وجدت الفصل الذي سأدرس فيه، وأعطاني المدرس بطاقات كُتبت عليها أسماء، وطلب مني أن أمررها على كل الطلبة، ولم يكن يدرك أنني لا أستطيع أن أقرأ العبرية بشكل يمكنني من قراءة الأسماء.

في أول سنتين بعد العودة إلى إسرائيل، كنت أخاف كثيراً أن يطلب مني أحدهم أن أقرأ بصوت عال فيكتشف الآخرون أنني لم أكن أحسن القراءة. تراجعت في كل المواد، وكان هذا إلى جانب آراء والدي التي لم تكن مقبولة في المجتمع، مصدر أوقات عصيبة بالنسبة لطفل عمره عشر سنوات. فلأن والدي - الجنرال المتقاعد - نادى بالتسوية وانتقد الدولة فقد سمي «بحبيب العرب»،

وكذلك أنا؛ رغم أنني لم أكن قد بلورت آرائي السياسية بعد. طبيعي أن أفترض أن الأطفال الآخرين كرروا ما سمعوه في البيت، ولم يكن هناك فرق بين أن أحمل آراء والدي أو أرفضها. وقد قضيت ثلاث سنين وأنا أحاول التعويض عما فاتني في المدرسة وفي المجتمع. ولدى وصولي إلى الصف الثامن، شعرت بتحسن الوضع، وكان لدي بضعة أصدقاء. بالنسبة للمدرسة، كانت ثقتي بنفسي دائماً ضعيفة، وكان أدائي سيئاً؛ إلا في اللغة الإنجليزية التي كنت أتقنها. ولذلك، بينما كانت السنوات الثلاث في الولايات المتحدة فرصة رائعة، كانت العودة للوطن صعبة؛ لأنه ما من أحد حاول أن يساعدني في الفترة الانتقالية.

في تلك الأثناء، كان أبي يساعد في تأسيس قسم الأدب العربي في الجامعة العبرية. واشتهر بأنه باحث جاد ومبدع، ولذلك كان أول أستاذ للأدب العربي يستحدث دراسة النثر والشعر الفلسطيني ويُدخلها في المنهج. قام بالتدريس في جامعة تل أبيب، وفي جامعة حيفا حتى تقاعد للمرة الثانية عام 1990.

عندما كنا في الولايات المتحدة بدأ أبي يكتب عمودَ رأي أسبوعياً في معاريف، وهي صحيفة يومية واسعة الانتشار تصدر في إسرائيل. وبناء على سيرته الذاتية، فقد توقع الجميع منه أن يصطف إلى جانب سردية الحكومة الإسرائيلية التي تزعم أن إسرائيل تعرضت لهجوم وحشي من قبل ثلاثة جيوش عربية في عام 1967 ودافعت عن نفسها ببطولة؛ وذلك لأنها كانت تملك القدرات والقرار. وأكثر من ذلك، كانت تملك الأرضية الأخلاقية العالية. وزعمت تلك السردية أيضاً أن حقوق إسرائيل في أرض إسرائيل كانت مطلقة؛ إن لم يكن لأسباب دينية فلأسباب تاريخية وأخرى عسكرية وأمنية.

ولكنه رأى الأشياء بطريقة مختلفة. فقد صرح علناً بأن حرب 1967 لم تكن حرب وجود بل كانت حرب اختيار:

> فاجأني عبد الناصر عندما قرر أن يموقع جنوده بالقرب من حدودنا. لا بد أنه كان يعلم بالخطورة المترتبة على قواته نتيجة هذه الخطوة. ولأن الجيش المصري كان على مقربة منا، فقد كان بإمكاننا أن نضرب وندمر في أي لحظة نراها مناسبة، وما من خبير إلا وكان يدرك ذلك. فمن

وجهة نظر عسكرية، لم تكن القوات الإسرائيلية في خطر، وإنما الجيش المصري الذي حشد جنوده على الحدود الإسرائيلية[1].

لقد انتقد بشدة بناءَ الجيش لخط دفاع بتكلفة باهظة في صحراء سيناء على طول شواطئ السويس. فقد كان يرى أن الجيش كان يجب أن يظل سهل الحركة، لأنه من الواضح تاريخياً أن خطوط الدفاع كانت مكلفة وغير فعالة. هذا الخط عرف في ما بعد بخط بارليف، على اسم رئيس هيئة الأركان حاييم بارليف. وخلال الحرب العربية الإسرائيلية عام 1973[2]، اقتحم الجيش المصري هذا الخط، وكان الوضع كارثياً لأنه لم يعمل كخط دفاع مطلقاً. وبعد الحرب كان الجميع يتداول تلك الطرفة:

سؤال: ماذا بقي من خط بارليف بعد الحرب؟

جواب: العمارات الفاخرة التي بناها المقاولون الذين بنوه.

وفي رد له على تعليق لإسرائيل جاليلي، الذي كان أحد أعضاء مجلس الوزراء، وأحد صناع السياسة الكبار في عهد جولدا مائير، كتب أبي مقالة أخرى دعا فيها إلى السماح للفلسطينيين في الضفة الغربية وغزة بأن يُجروا انتخابات ديمقراطية[3]. كانت مزاعم جاليلي، التي تم تداولها في ما بعد، أنه إذا كان هناك ممثلون عن الفلسطينيين منتخبون ديمقراطياً، فإن إسرائيل يمكن أن تنظر في شأن التفاوض، ولكن في غياب هؤلاء الممثلين، فإن إسرائيل ليس لديها خيار سوى الحفاظ على الوضع الراهن. وكان أبي يرى أن مزاعم جاليلي غير مستقيمة.

---

(1) ماتي بيليد، «إن الجمال لم يشحب»، معاريف، 15 يونيو 1973.

(2) حرب 1973 في الشرق الأوسط، والتي تعرف أيضاً بحرب يوم كيبور. بدأت في يوم العطلة اليهودي، يوم كيبور، في 6 أكتوبر 1973، حيث هاجمت القوات المصرية والسورية إسرائيل، آخذة الجيش الإسرائيلي على حين غرة، وأدت إلى هلع ووقوع العديد من الضحايا داخل الجيش الإسرائيلي. وقد قامت لجنة تحقيق خاصة - وهي لجنة أجرانات - بالتحقيق في الفشل العسكري الإسرائيلي، ووجدت أن قيادات الجيش الإسرائيلي مسؤولة عن ذلك الفشل. وكان على عدد من الجنرالات بمن فيهم رئيس هيئة الأركان أن يستقيلوا. كما استقالت رئيسة الوزراء جولدا مائير نتيجة للاحتجاج الشعبي، رغم أن اللجنة لم تنتقدها.

(3) ماتي بيليد، «المسألة الفلسطينية»، معاريف، 27 يونيو 1969.

وفي المحصلة، إن حكومة إسرائيل التي يعمل لديها جاليلي هي التي كانت تمنع الفلسطينيين من إجراء انتخابات في الضفة الغربية وغزة.

وفي مقالة أخرى نشرها أبي في عموده في الذكرى الثالثة لحرب الأيام الستة، قارن أبي بين عجز الحكومة وقلة شجاعتها للعمل من أجل السلام - سلام كان يرى أنه ممكن بعد الانتصار الهائل الذي حققه الجيش - وقلّة الشجاعة والعجز اللذين عُرفا عن الحكومة في الأسابيع التي أدت إلى الحرب. كتب عن التضحيات العظيمة التي بذلها إلى جانب كل من حارب لإعادة أجزاء من أرض إسرائيل مقابل السلام: «لا أظن أنني سأكون نزيهاً لو أنكرت أن لهذه الأرض أهمية كبيرة عندي، والتي يجب أن نتركها من أجل السلام خارج حدود دولتنا». وواصل حديثه بعاطفة جياشة عن تجاربه وهو شاب: «لقد ذرعتُ هذه البلاد طولاً وعرضاً؛ ليس بدافع الالتزام ولكن بدافع الحب»[1].

في عام 1973 ألقت رئيسة الوزراء جولدا مائير خطاباً في مدينة إيلات، جنوبي إسرائيل أمام حشد من طلاب المدارس الثانوية. وفي هذا الخطاب، ادعت أنها لم تسمع بالشعب الفلسطيني قبل عام 1967، وزعمت أنه تم اختراع الفلسطينيين وأنهم لا هوية وطنية لهم. وعليه، ليس لهم أي حقوق وطنية في أرض فلسطين. ومباشرة رد أبي في عموده رداً لاذعاً على خطاب جولدا مائير:

«ماذا يُسمي العالمُ أولئك السكان الذين يعيشون في الضفة الغربية؟ ماذا كان يطلق على لاجئي 1948 قبل أن يتعرضوا للنفي؟ ألم تسمع (جولدا مائير) حقاً بالشعب الفلسطيني قبل عام 1967؟ في المناقشات التي لا بد أنها شاركت فيها بصفتها سفيرة ووزيرة خارجية ماذا كانت تسمي أولئك الناس؟ ومع ذلك، إنها تقول إنها لم تسمع بالشعب الفلسطيني قبل 1967. إن هذا مدهشٌ حقاً!»[2].

ولكن الصدمة كانت عندما طالب أبي الحكومة الإسرائيلية في منتصف

---

(1) ماتي بيليد، «تأملات في بداية السنة الرابعة»، معاريف، 5 يونيو 1970.

(2) ماتي بيليد، «من سمعَ بالفلسطينيين؟» معاريف، 23 مارس 1973.

السبعينيات أن تتفاوض مع منظمة التحرير. كان أبي يرى أن منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي للشعب الفلسطيني. وعليه، يجب أن تكون شريك إسرائيل على طاولة المفاوضات. وصرح أن إسرائيل تحتاج أن تتحدث إلى أي شخص يمثل الشعب الفلسطيني؛ الشعب الذين نتشارك معه هذه الأرض. ولم يفتأ يُذكِّرُ الجميعَ أنه لا يمكن لأيّ شيء أن يحافظ على ديمومة وجود دولة إسرائيل يهودية وديمقراطية غير السلام مع الفلسطينيين.

في تلك السنين، سافرت أحياناً مع أبي عندما كان يلقي محاضرات في أنحاء مختلفة من البلاد. كان دائماً يُدعى كخبير ليتحدث عن قضايا سياسية وعسكرية كبرى راهنة. كانت تلك وسيلة جيدة لمشاهدة أماكن لم أرها من قبل، ولكي أقضي بعض الوقت معه. أذكر مرة أننا زرنا كيبوتس بارعام في شمال الجليل. ويقع كيبوتس بارعام في أراضٍ كان فلسطينيون من قرية بارعام يملكونها. كانت المحاضرة في الكيبوتس مساءً، وفي اليوم التالي ذهبنا إلى أطلال القرية. في ذلك الوقت، لم أكن أعي تماماً دور الدولة في تهجير الفلسطينيين.

في بعض الأحيان، كانت أمي تذهب معنا في تلك الرحلات. كانت المحاضرات في مساء الجمعة، ولذلك كنا نذهب بالسيارة ظهر الجمعة، ونتناول العشاء ونقضي الليلة في الكيبوتس. وفي يوم السبت كنا نشاهد معاً معالم المنطقة.

في كثير من الأحيان، كانت المحاضرات ساخنة جداً، ولم يكن الناس مؤدبين مطلقاً عندما كانوا يسمعون آراء والدي. لن أنسى الغضب والحنق اللذين واجههما عندما تحدث عن «أشاف»، المختصر العبري لمنظمة التحرير، إذ تساءل البعض: «كيف يمكنك أن تتحدث مع إرهابيين يريدون تدميرنا؟ إنهم يريدون يافا وحيفا والرملة، ويريدون أن يذبحونا جميعاً».

وكان يرد بأن: «الإرهاب شيء مريع. ولكن الحقيقة تقول إن أي أمة صغيرة تخضع لقوة أكبر منها سيكون الإرهاب الوسيلة الوحيدة المتاحة لديها. لقد كان هذا هو الحال دائماً، وأخشى أنه سيبقى كذلك. إذا أردنا أن نتخلص من الإرهاب، فعلينا أن ننهي الاحتلال ونصنع السلام». لقد كان يصر على أن

الفلسطينيين يمكن أن يكونوا حلفاءنا الطبيعيين، وأن يكونوا جسراً لنا لكل الشرق الأوسط؛ حيث قررنا - نحن الإسرائيليين - أن نبني وطننا.

جنرال عسكري يقترح التفاوض بدلاً من القتال؛ لقد كان من الصعب على الإسرائيليين أن يتقبلوا ذلك. أعتقد أن هذا أغضب الناس الذين لم يجاريهم في تفكيرهم المسبق الذي وضع إسرائيل دائماً موضع الحق، والعرب موضع الخطأ. وأكثر من ذلك، كان يطالبنا أن نتخلى عمّا أصبح مبادئ أساسية في الصهيونية التي تقتضي عدم التخلي عن الأرض أبداً وعدم قبول مزاعم العرب تجاه إسرائيل والفلسطينيين.

لقد كان يؤكد على أهمية الحوار مع الناس الذين تعلمنا أن نكرههم ونخشاهم. كان الناس يقولون لأبي، ولي عندما أفتح فمي ضدهم إن «هؤلاء الذين يسمون فلسطينيين يريدون بيوتنا، يريدون أرضنا»، وهم في ذلك بخلاف المصريين والأردنيين والسوريين واللبنانيين الذين لهم دول. وكمعظم الإسرائيليين، تعلمت أن مصطلح الفدائيين[1] يعني متسللين وإرهابيين، قبل أن أعرف أنهم يسمون فلسطينيين بوقت طويل. قد يُعبرُ الناس عن مخاوفهم بطريقة عدائية بل وعنيدة: «تريدُ أن تصنع سلاماً مع هؤلاء الإرهابيين الذين يزعمون بلا غموض أنهم سيسترجعون مدن يافا والرملة واللد وسيلقون بنا في البحر». ظن الناس أن الجنرال بيليد فقد عقله أو على الأقل فقد الاتجاه.

كثيراً ما يسألني الناس عن كيفية تطوير أبي مثل هذه الأفكار المتبصرة إزاء هذه القضية، والجواب الوحيد الذي يخطر لي هو أنه كان رجل مبادئ على طول الخط. لم يكن يقبل ازدواجية المعايير. وعليه، كان يؤمن أننا نحن الشعب اليهودي نستحق العيش على هذه الأرض؛ تماماً مثل الفلسطينيين، ولكننا نسلب الفلسطينيين هذا الحق. وكانت لديه مخاوف كبيرة على طبيعة الديمقراطية اليهودية، وكان يدرك أن احتلال أرض شعب آخر يدمر النسيج الاجتماعي للجيش. لم يكن يريد أن يرى الجيش وهو يتحول إلى قوة وحشية تقوم على

(1) الفدائيون أناس يتطوعون للقتال من أجل قضية. كانوا مقاتلين فلسطينيين من أجل الحرية، ولكننا كنا نسميهم إرهابيين.

اضطهاد أمة سوف تهب حتماً لمقاومة الاحتلال. وكان هناك صهاينة آخرون - مثل البرفيسور المحترم يشعياهو ليبوفتش والصحفي يوري أفنري وغيرهم الكثير - فكروا وتكلموا مثله تماماً. ولكن، عندما كان يقول هذه الأشياء، كان الأمر أشد إزعاجاً للناس؛ لأنه كان جنرالاً عسكرياً ومن جيل البالماخ.

لم يمض وقت طويل حتى توقف الأصدقاء عن دعوته ودعوة أمي للقاءات الاجتماعية. فقد أصبح شخصاً غير مرغوب به سياسياً واجتماعياً. بالنسبة لأبي كان هذا دافعاً للعمل، ولذلك لم يبالِ. ولكن كان هناك الكثير من المناسبات التي كانت أمي تخبرني بحزن أنها لم تُدعَ لها. كانت تقول: «لقد دعوا الجميع ما عدانا». كانت أمي توافق على آراء أبي السياسية. ولكنها كانت تصر على أن الطريقة المتعجلة والفجة التي يبث بها أفكاره كانت تأتي بردات فعل عكسية؛ لأنها عزلته وعزلتها. كانت تقول: «لا يستطيع الناس تفهم رسالتك عندما تكون فجاً. وهذا مؤذٍ لك بالدرجة الأولى».

وعلى نحو ما، وصلت أنا وأختي نوريت وأخي يوآف إلى الأفكار السياسية نفسها مثل والدنا. فقد كان منطقه قوياً وواضحاً ومقنعاً على الدوام. كان هناك وقت للحرب، والآن حان وقت السلام. لقد قاتل جيله حتى يعيش جيلنا في ديمقراطية، وكان الاحتلال والاضطهاد يحولان دون السلام. أوسي لم تتدخل في السياسة مثلنا نحن الثلاثة قطّ. وبينما كنا نحن الثلاثة ننتقد أبانا ولا نتفق معه في كثير من الأحيان - ولكن ليس في حضوره - فإننا جميعاً كنا صفاً واحداً معه؛ حتى إن كان ثمن ذلك باهظاً في بعض الأحيان.

كوني آخر الأبناء لشخصية عامة لها هذا الكم من الآراء المقيتة شعبياً كان صعباً عليّ، إذ كنت وطنياً كأي شخص يحب وطنه، وكنت أعرف أن والدي كذلك، ولذلك لم أفهم سبب شكّ الناس فيه. وبينما كنت أشعر أن شيئاً ما يدفعني خارج الثقافة السائدة، فإنني لم أكن أعرف سبب ذلك في البداية على وجه التأكيد.

ومع مرور السنين، أصبحت آراؤه السياسية أكثر اختلافاً مع التيار السائد في إسرائيل؛ رغم أن الجميع كانوا يناصرون المبدأ الذي كان ينادي به وهو

الديمقراطية، وحرية التعبير، وفوق كل ذلك؛ السـلام. ومع الزمن، بلورتُ آرائي التي كانت منسجمة مع آرائه، ولذا وجدت نفسي ضد البيئة المحيطة. وكم فاجأني أن أحداً لم يكن مستعداً ليسمع المنطق الذي تقوم عليه آراؤنا. في بعض الأحيان، كنـت أعبـر عـن آرائي في المدرسـة؛ راكبـاً الأمر الصعب وأنا أناقش المدرسـين والطـلاب. هـذه النقاشـات شـحذت قدراتي الحوارية، ولكنهـم كانوا في الغالب يصرخون في وجهي بأنني محب للعرب.

أذكـر مـرة وأنـا فـي الصـف الخامس، أن والـد أحد الزمـلاء، وهو صحفي معـروف، جـاء ليلقـي محاضرة. كان أول شـيء قاله: «أعرف أن بينكم ابناً لماتي بيليد. أين هو؟». شعرت أن وجهي يشتعل لمّا رأيت العيون تتحول إلي، ورفعت يدي وعرفت بنفسـي. كنت دائماً أحتاج إلى الدفاع عن وطنيتي وحبي وإعجابي لبلدي وجيشه؛ على أساس أنني وأبي دائماً نسير ضد التيار.

فـي بدايـة السـبعينيات، كانـت إسـرائيل علـى عهدهـا فـي تسـيير المواكب العسـكرية فـي ذكـرى يـوم الاسـتقلال. وكان أبـي يعتقـد مـن كل قلبـه أن هـذه المواكب ينبغي أن تكون جزءاً من احتفالات يوم الاستقلال، لأنه بدون الجيش لم يكن هناك اسـتقلال على الإطلاق. كانت احتفالات هائلة وكنت أحبها. فقد كنا نرى الدبابات وقاذفات الصواريخ وكتائب المشاة الذين يستعرضون ألوانهم. كانوا يدخلون استاد الجامعة العبرية في القدس، حيث نصبت منصة للشخصيات المهمة. وكان الاستاد يمتلئ بالناس الذين يشاهدون تحليق طائرات الفانتوم إف 5 الأمريكيـة الصنـع، ومقاتـلات الميـراج النفاثة الفرنسـية الصنـع. كنا نجلس في قسـم الشـخصيات المهمة، وكنت أظن أن هذا أفضل شـيء في العالم. في تلك الأيام، كان من الشـائع أن ترى الجنرالات المتقاعدين يرتدون بزاتهم العسـكرية في مواكب يوم الاستقلال، ولكن أبي كان يرفض اتباع التقليد.

كنـت أتمنـى أن يرتـدي بزتـه، وكنـت أقول له: «هيا يا أبـي، لِمَ لا؟». فكان يقول بصرامة: «هذه المناسبة ليست حفلة تنكرية، والبزة (العسكرية) ليست لباساً عادياً». كنت أنظر بإعجاب إلى بزته النظيفة المكوية التي كان يضعها في الخزانة، وكنت أتساءل: متى يمكن أن يلبسها مرة أخرى؟ لم يلبسها قطّ. كنت أعبث في

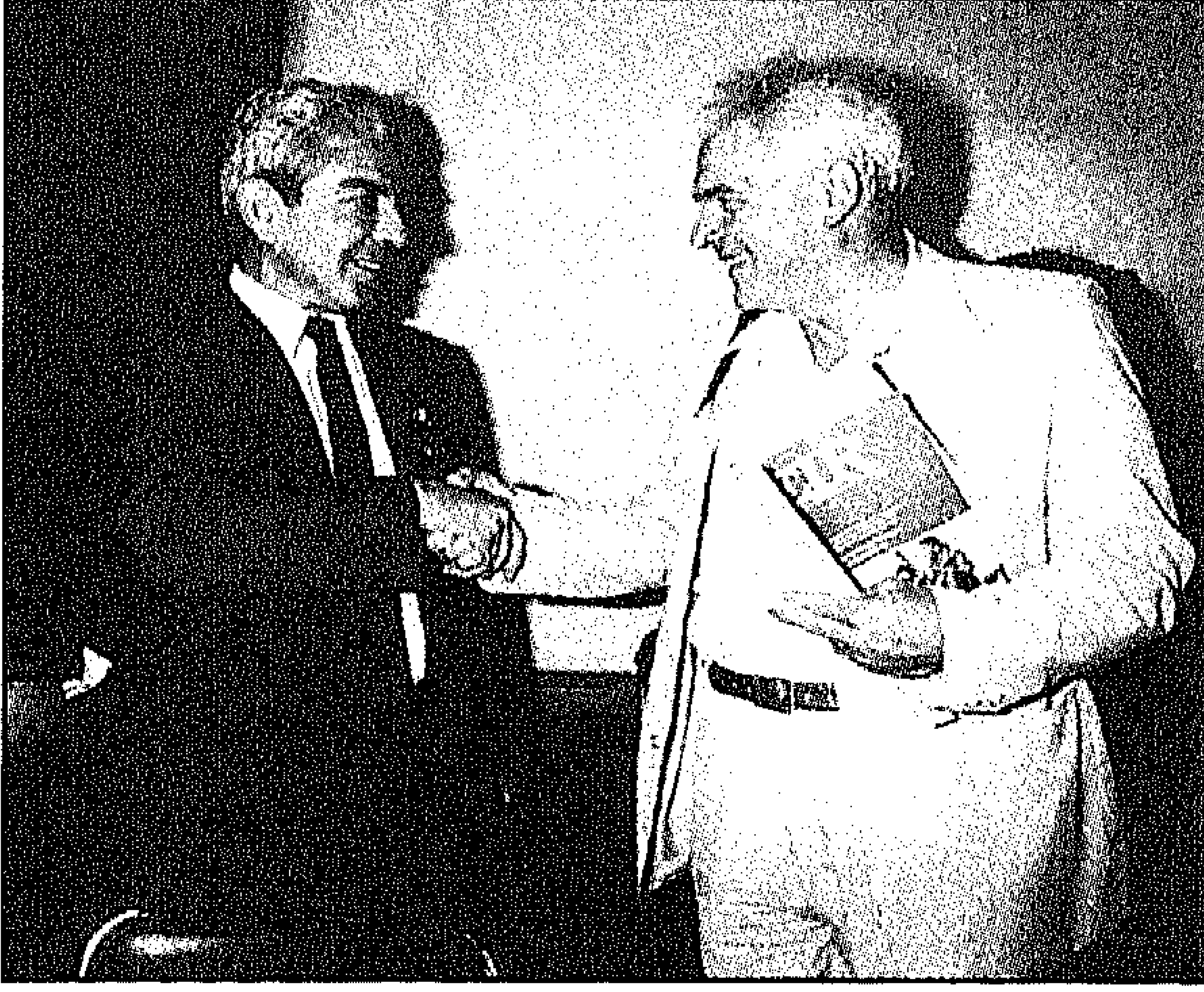
بزاتـه القديمـة، فأعتمـر القبعـة وأضع الميداليات متظاهراً أننـي جنرال، ولكنه لم يشجع هذا قطّ. لم يكن يرى أي مزية خاصة للبزة العسكرية؛ فقد كان يرى أنها وسيلة وليست هوية.

بعد الحرب العربية الإسـرائيلية في عام 1973 التي أسـميناها «يوم كيبور»؛ لأنهـا بـدأت فـي أقـدس العطل اليهودية، أخذ التغير عند أبي منحى أشـد؛ مبتعداً عـن التيـار، ومصطفـاً إلى جانب اليسـار الاشـتراكي الصهيوني في إسـرائيل. فقد كانت علاقته بيوري أفنري على سبيل المثال تحولاً كبيراً. ويوري أفنري صحفي مخضرم، وناشط سياسي ويساري مناهض للمؤسسة الرسمية طوال حياته. دامت علاقة أبي بيوري سنوات طويلة.

وبعد ذلك أسس والدي، ومعه يوري أفنري وياكوف أرنون وعدة أشخاص آخرين انشـقوا عن المؤسسـة الصهيونية، المجلس الإسـرائيلي للسلام الفلسطيني - الإسرائيلي.

سـعى المجلس لتعزيز الحوار غير الرسـمي بين الإسـرائيليين والفلسطينيين، وكان أمله أن يؤدي إلى مفاوضات رسـمية بين إسـرائيل ومنظمة التحرير. ودعا ميثـاق المجلـس إسـرائيل للانسـحاب من المناطق التـي احتلتها عام 1967، وإلى دولة فلسـطينية مسـتقلة في الضفة الغربية وغزة تكون عاصمتها القدس الشـرقية. في تلك الأيام، كانت الفكرة راديكالية بشكل يفوق التخيل.

أذكر أنني وأشخاصاً كثراً تفاجأنا بالاهتمام الذي حظي به المجلس وخاصة مـن الصحافـة الأجنبيـة. ومباشـرة جـاءت الأخبار عبـر القنـوات الخلفية وبعض الوساطات بأن شخصيات مهمة في منظمة التحرير، من رجال أبي عمار، يريدون اللقاء. وكان لدى منظمة التحرير قرار بالحديث فقط للإسرائيليين غير الصهيونيين الذيـن كانـوا متفقيـن مـع فكرة «دولة ديمقراطية علمانية» في كل فلسـطين، حيث يعيش اليهود والفلسطينيون في دولة واحدة. هذه الفكرة كانت مرفوضة تماماً من قبل والدي: فقد كان صهيونياً، وكان يؤمن بأهمية وجود دولة للشـعب اليهودي في أرض فلسـطين. بالنسـبة له، إنّ أي حل آخر قد يؤدي إلى سـفك الدماء إلى ما لا نهاية. ومع ذلك، إنني أتساءل إن كان التزامه بالصهيونية سيضعف لو كان



الدكتور عصام السرطاوي صديق مقرب من أبي وأحد الثقات المحيطين بياسر عرفات، وممثل منظمة التحرير في باريس.

حياً ورأى ما نراه.

قبل اللقاء الأول، كان عليهم أن يأخذوا الحذر الشديد، وكان عليهم التغلب على المنسوب الهائل من عدم الثقة. وكان اللقاء الأول في باريس؛ حيث تم تقديم[1] أبي لعصام السرطاوي، وهو من الثقات الذين كان ياسر عرفات يعتمد عليهم. وقد عمل ممثلاً لمنظمة التحرير في باريس. وكانت تلك؛ حسب التعبير الوارد في فيلم كازابلانكا: «بداية صداقة جميلة». فقد أصبح د. عصام وأبي شريكي سلام.

في مقالة نشرها في عام 1977، قدم أبي وصفاً دقيقاً للقائه الأول بعصام السرطاوي وكيف كانت أفكاره قبل الاجتماع وأثناءه[2]. (عندما نشرت المقالة، لم تكن هوية عصام السرطاوي قد عرفت، ولذلك لم يذكره أبي في المقالة بالاسم). تساءل أبي: «كيف يشعر المرء عندما يقترب من مقابلة عدوه؟». وواصل حديثه:

أذكر أنني كنت أجلس على كرسي مريح، وأحاول دون نجاح أن أقرأ مقالة في صحيفة اللوموند، عندما دق جرس الباب ودخل رجلان. هذان

(1) لعب هنري كوريل، وهو شيوعي مصري - يهودي كان يعيش في المنفى بباريس، دوراً رئيساً في بداية هذا التواصل وترتيبه. تم اغتياله في عام 1978. ولم يعرف من قتله حتى اليوم.

(2) ماتي بيليد، «لقاءاتي مع ممثلي منظمة التحرير». معاريف، 1 يوليو 1977.

همـا الرجـلان اللذان سـافرت إلـى باريس كي ألتقيهما. وقـد كان دوري سـهلاً نسـبياً. منـذ بدأنـا بالعـودة إلى وطننـا، وقصة شـعبي لا تغيب عن ذاكرتي...

وبينما كان أبي يتأمل، كان السؤال الرئيس هو: «هل يسمح لنا بالعيش بسلام وأمان... وأن نكون سادة مصيرنا؟». أي شخص يسمح لنا بذلك هو صديقنا. «هل الشخص الذي أتحدث إليه مستعد لأن يكون صديقنا؟». وتساءل أيضاً: «هل الواقع يمكن تغييره؟». وكان جوابه: «أي إنسان لا يعتقد أن الواقع يمكن تغييره فهو يجرد نفسه من القدرات العظيمة التي منحتها الطبيعة للإنسان».

على مر السنين، التقى أبي السرطاوي في أماكن عدة؛ كلها في أوروبا وشمال أفريقيا. قضيا بعض الوقت معاً في بالما دي مايوركا على شـواطئ إسـبانيا، وفي المغرب، وفي تونس. وقد سهل الراحل برونو كرايسكي - المستشار النمساوي - كثيراً هذه اللقاءات، ومثله لاندرم بولنج، (كويكريبيي؟؟؟) والرئيس السابق لكلية إيرلهام في إنديانا؛ وهو الذي أصبح من أصدقاء أبي الحميمين. لاندرم كان ناشط سـلام طـوال حياتـه. أخبرنـي مـرة عـن الوقت الـذي كان فيه وكذلك المستشـار كرايسـكي بصحبة أبي وعصام السـرطاوي في مايوركا. انسـحب هو وكرايسـكي وتـركا د. «عصـام» وأبـي يتمشـيان وحيديـن فـي المنتجع السـاحلي، غارقين في الحديـث. قـال لاندرم للمستشـار النمسـاوي: «لو أن الأمر تـرك لهذين الرجلين، لتم حل الصراع مباشرة». ووافقه كرايسكي الرأي.

قبل أن يذهب إلى مثل هذه الاجتماعات، كان أبي يقول: «سأذهب للخارج عدة أيام، ولا أستطيع أن أخبركم عن الهدف، ولكن لا تقلقوا». وكانت أمي تظل قلقة جداً حتى يعود سـالماً إلى البيت. وبينما كنا نتسـامرُ حتى وقت متأخر في إحدى الليالي، أخبرني أبي عن اجتماع في منتجع ناء في شمال أفريقيا، قال: «لقد كان المنتجـع فخمـاً بصـورة تفوق الخيال، وكان يبعد أميالاً عن أي مكان، وأراد عصـام أن يطمئننـي أننـا فـي مأمن، فقال إنه لا يمكن لأحد أن يعرف أننا هناك». وتوقف أبي عن الحديث برهة، قبل أن يبدأ الحديث عن النقطة الجوهرية قائلاً:

«نظرت من حولي وأشرت إلى موظفة استقبال جميلة وسألته: هل أنت متأكد من أنها لا تعمل مع الموساد؟». لم يكن أبي يأخذ الأشياء على وجه الضمان، إذ كان يعرف إلى أي مدى يمكن أن تصل أذرع المخابرات الإسرائيلية.

ظلت الاتصالات بين أعضاء المجلس ومنظمة التحرير طي الكتمان، لأن القليل من الإسرائيليين يمكن أن يتفهموا فكرة الحديث إلى منظمة التحرير والكثير من الفلسطينيين كانوا معارضين شرسين للحوار مع الإسرائيليين الصهاينة. وعلى مر السنين، أصبح عصام وزوجته د. وداد السرطاوي، صديقين شخصيين لأمي وأبي. وبعد ذلك بسنين، لما أصبح عمر ابني إيتان عشر سنوات، قضى - وكنت معه إلى جانب أمي وأختي نوريت وأفراد آخرين من عائلتنا - أوقاتاً لا تُنسى مع وداد وأفراد عائلتها في منزلهم في باريس.

في عام 1977، عقد التلفزيون الإسرائيلي حلقة نقاش حول طاولة مستديرة مع هيئة أركان الجيش التي كانت موجودة عام 1967، وذلك بمناسبة الذكرى العاشرة للحرب. وكانت الطاولة المستديرة تبث في برنامج اسمه «موكد»، وتم دمجها في الوثائقي الرائع الذي أخرجه إيلان زيف وصدر في عام 2007 تحت اسم «ستة أيام من يونيو».

وعند نقطة معينة من الحوار، أشار أبي إلى أنه لا يذكر أنه سمع أو رأى أي توجيه من مجلس الوزراء بالاستيلاء على الضفة الغربية. وتلك كانت المرة الأولى التي رأيته فيها ينتقد قرار قادة الجيش باحتلال الضفة دون إذن من مجلس الوزراء. قال: «كان من المهم جداً أن يكون هناك توجيه استراتيجي حتى نتجنب غزو مناطق مأهولة بالسكان». وأضاف: «إن الاستيلاء على الضفة الغربية في وجود السكان العرب على أرضهم ناقض المبدأ، ولا أذكر أنني سمعت أو رأيت مثل هذا التوجيه من الحكومة».

وبينما كان يقول ذلك، انسحبت الكاميرا لتظهر وجوه الآخرين الجالسين إلى الطاولة. وكان عدم ارتياحهم لكلماته واضحاً. لم يكن أبي فقط يُذكر الجميع بأن الضفة الغربية وغزة تم الاستيلاء عليهما دون مصادقة من مجلس الوزراء؛ وهو الشيء الذي دافع عنه من قبل، ولكنه الآن يشير إلى أن الجنرالات أنفسهم



الجنرالات الإسرائيليون بعد عشر سنين من الحرب.

قد عملوا بعكس مقتضى التوجيه الاستراتيجي دون تفويض.

وبسبب توجهه السياسي اليساري، تلقى أبي أحياناً تهديدات بالقتل. وفي بعض الأحيان، تم اتهامه بالخيانة من قبل جماعات يهودية متطرفة؛ لم يخدم معظم منتسبيها يوماً واحداً في الجيش، ولم يرتدِ بزة عسكرية. كان يبلغ الشرطة بهذه التهديدات، ورغم أنه لم يبدُ عليه أنه منزعج منها، فقد كان ينام دائماً وسلاحه بجانب سريره وفيه الذخيرة. وفي لحظة معينة، انتشر الخبر بأن هناك تهديداً بالقتل، واتصل بعض المراسلين من راديو إسرائيل لإجراء مقابلة معه. سأله المراسل: «هل أنت خائف على حياتك سيدي؟». جاء جوابه هادئاً وعقلانيًّا كالعادة: «تم إبلاغ الشرطة بالحدث، وأنا واثق بأنهم سوف يتعاملون معه بشكل مناسب». رد المراسل: «أفهم سيدي، ولكن يا حضرة الجنرال بيليد، سؤالي هو هل أنت خائف على حياتك؟». أجاب مرة أخرى: «استلمت الشرطة التقرير، وأنا متأكد أنهم يعرفون ماذا يفعلون». رد المراسل: «نعم سيدي، أفهم بأنك تثق بقوة الشرطة، ولكن هل أنت خائف؟». أجاب أبي: «ليس عندي ما أضيفه».

رفض أن يضيف شيئاً، وأنهى المقابلة. بمعنى من المعاني، لم يكن رده

بعيداً عن موقفه من عدم بناء ملجأ لنا في البيت. وإن كان هناك شيء يمثل معنى له، فهو أنه لم يكن يسمح لعواطف مثل الخوف أن تحول دون التفكير السليم. وهكذا أنهى المحادثة.

عندما أتأمل الموقف بأثر رجعي، أعتقد أنه كان محقاً في الطريقة التي قدم فيها جوابه طالما أنه لم يرد أن يستسلم للأسطورة الشاملة القائلة إنّ هناك تهديداً فظيعاً يمكن أن يصل إلى كل مكان، وأننا كلنا يجب أن نعيش في خوف. لا، فقد كان هناك منطق وأسلوب معقول لحل مثل هذه القضايا، وكانت لدى أبي ثقة بقدرات الناس وفي دولة إسرائيل.

بالتأكيد، كان بإمكانه أن يقوم بمهمته على نحو أفضل بالتعبير عن نفسه في بعض الأحيان، آخذاً بعين الاعتبار حقيقة أن بقيتنا كانوا يخافون، وربما كانوا في حاجة لطمأنتهم بدلاً من الأوامر والمراسيم، ولكنه في النهاية كان جنرالاً.

في كل مرة كان الدكتور السرطاوي يتصل بنا من باريس - كان اسمه الرمزي «الصديق» - كان يقول: «هلو، هل ماتي بيليد في البيت؟ الصديق يريد أن يتحدث إليه». عندما كنت أسمع ذلك، كنت أمتلئ بالإثارة والاهتمام، وأسرع لكي أنادي والدي، ثم أترك الغرفة مباشرة.

كانت إحدى المناقشات بينهما تدور حول إنشاء دولة فلسطينية في الضفة الغربية وغزة، وهو الذي عرف في ما بعد بحل الدولتين. بالنسبة لياسر عرفات، كانت فكرة تسليم كل فلسطين لليهود باستثناء الضفة الغربية وغزة، وهما جيبان يمثلان 22٪ من مساحة فلسطين، تنازلاً هائلاً لا يمكن القبول به قبل مفاوضات رسمية. وقد كان الموقف الرسمي لفتح - وهي الحركة الرئيسة وفصيل كبير من فصائل منظمة التحرير - يدعم فكرة الدولة الديمقراطية العلمانية الواحدة التي يمكن أن تشمل العرب واليهود وتسمح بعودة اللاجئين الفلسطينيين. ولكن، كان حول عرفات أناس جادون، وكانوا يؤمنون بحل الدولتين كخيار براغماتي وعملي أيضاً. وكان هناك آخرون داخل فتح عارضوا الفكرة بقوة، وكانوا يقولون إنهم لا يستطيعون أن يتخلوا عن ملايين الفلسطينيين الذين يريدون العودة لمنازلهم وأرضهم في ما يعرف اليوم بإسرائيل. وكان على عرفات أن يخطو بحذر بين

هذين المعسكرين. ولم يصادق رسمياً على حل الدولتين حتى جاء عام 1988، ولكن الفكرة كانت قد ولدت في تلك السنين الأولى عندما ترك مستشاريه يتحدثون إلى صهاينة مرموقين.

وعندما كان أبي يعود من مثل تلك الرحلات، كان يلتقي إسحاق رابين الذي كان حينها في دورته الأولى كرئيس للوزراء. وكان أبي يضع رابين في صورة مفاوضاته مع الفلسطينيين كي يقنعه بأن الوقت قد حان لأن تدخل إسرائيل في محادثات رسمية مع منظمة التحرير. فالجميع ينظرون باحترام كبير لرابين كشخص، ويؤمنون بقدراته كضابط وكقائد. وعندما كنت أسمع أبي يبدأ جملة بالقول: «قال إسحاق» كنت أدرك أنه يريد أن يقول شيئاً مهماً. ولكنه لم يكن إعجاباً أعمى مطلقاً؛ فلقد انتقد أبي رابين عدة مرات وبقوة.

أذكر مرة عندما جاء رابين إلى بيتنا كي يسمع آخر الأخبار. لقد زار بيتنا قبل ذلك لمناسبات اجتماعية، وأفراح، واحتفالات تخص أفراداً آخرين من العائلة، وكانت عائلته تعرف عائلتنا بشكل جيد، وذلك لأن الرجلين عملا معاً حينما كانا في الجيش. وحتى في الأيام الأولى، كان مجيء رابين إلى بيتنا أمراً مهماً دائماً؛ لأنه كان موضوع إعجاب كبير. فقد كان البعض يسأل أمي: «هل سيكون إسحاق هنا؟ هل سيأتي إسحاق؟». وكانت تجيب: «نعم، سيأتي إسحاق».

والآن، إنه لأمر عظيم أن يزور رئيس الوزراء بيتنا. فإن هذا يعني أن العملاء السريين سوف يقفون عند كل من المداخل الكثيرة التي تؤدي إلى منزلنا. وكانت الجيبات العسكرية تقف على التقاطعات الرئيسة التي تؤدي إلى بيتنا، فيما المروحيات تحلق فوق رؤوسنا. وبعد ذلك يظهر الموكب الخاص برئيس الوزراء، وكنا نخرج للقائه وتقديم التحية له.

كان الاثنان يجلسان في غرفة المعيشة، وكان أبي يطلب ألا يدخل أحد عليهما. كان عمري حينها 12 أو 13، ولذلك كنت أخرج وأتحدث مع رجال الأمن.

كبرت وأنا أؤمن بأن السلام – حتى إن كان صعباً – قادم لا محالة. وقد تعزز هذا الاعتقاد في نوفمبر عام 1977 عندما أعلن رئيس مصر أنور السادات

أنه سيزور إسرائيل. وأنه سيزورها دون أي ضمانات بأن زيارته ستحقق نتائج ملموسة.

لقد كان هذا الأمر خارج إطار التفكير، بل وصعب التصديق. فقد كان تصرفاً شجاعاً صدر عن إيمان عميق. وجلست كل الأمة تشاهد التلفاز، بينما كانت طائرة الرئيس المصري تهبط في تل أبيب. الكثير من الناس ظنوا ببساطة أن هذا لا يمكن أن يحدث حتى رأوا السادات المثير للإعجاب يخرج من الطائرة.

وقام حرس الشرف الإسرائيلي بتقديم لحن عسكري بينما كان السادات ينزل على سلم الطائرة، ويتفحص الجنود حسب المراسيم. وكان كل الطريق السريع رقم 1، وهو الطريق الرئيس الذي يربط بين تل أبيب والقدس، مغلقاً من أجل المناسبة. ولأننا نقيم على بعد دقائق من الطريق السريع، فقد ذهبت أنا ومجموعة من الأصدقاء لنشاهد الموكب ونشاهد لوحات كتب عليها بالعربية: «أهلاً وسهلاً بالرئيس السادات!».

وقد استقبل الحاخام الأكبر السادات على مدخل القدس بالخبز التقليدي والملح. وذهب السادات ليصلي في المسجد الأقصى في مدينة القدس القديمة. وبعد ذلك تحدث في الكنيست بالعربية أمام حشد كبير من الزوار. لقد كان يوماً مليئاً بالبهجة العميقة؛ السلام مع أمة عربية كان في المتناول.

كنت حينها في المدرسة الثانوية، وكان أبي في بعثة دراسية في هارفارد. وكانت لديه علاقات حسنة مع السفير المصري في الولايات المتحدة، وأدى هذا بالإضافة إلى النوايا الحسنة التي أفرزتها زيارة السادات، إلى دعوته ودعوة أمي لزيارة مصر. لا بد أن جوازَي سفر أبي وأمي كانا من جوازات السفر الإسرائيلية الأولى التي ختمت بالتأشيرة المصرية.

ذهب أبي وأمي في جولة داخل مصر، والتقيا الكاتب المصري الشهير نجيب محفوظ الذي نال جائزة نوبل للأدب في ما بعد؛ زاراه في بيته في القاهرة. لقد كتب أبي رسالته (الدكتوراه) عن نجيب محفوظ. ولكن، نظراً إلى كونه إسرائيلياً وجنرالاً متقاعداً لم يكن بإمكانه أن يزوره؛ حتى جاءت تلك اللحظة. وبمرور السنين، زار أبي نجيب محفوظ عدة مرات. لقد أحب الانسيابية الكامنة في



أبي في القاهرة مع الكاتب المصري والحاصل على جائزة نوبل، نجيب محفوظ.

ركوب الحافلة من تل أبيب إلى القاهرة، ومن ثم إلى المقهى الذي اعتاد نجيب محفوظ أن يرتاده، ليجلس مع الكاتب العظيم لساعات. لقد كان يحب العالم العربي؛ ذلك الحي الذي أُنشئت إسرائيل فيه، وليس قطعة الأرض التي أنشأت فيها دولتها.

وإثر النجاح الذي تحقق في اتفاقية السلام عام 1979 مع مصر، مُنحَ مناحيم بيجن دورة ثانية كرئيس وزراء في انتخابات عام 1982. ومع ذلك، وُصمَ هذا العام بغزو لبنان في حرب مدمرة وصفت في ما بعد بفيتنام إسرائيل. ذاهباً إلى أبعد مدى ممكن كعادته، قام أبي بمهمة سرية إلى تونس، وذلك في أوائل عام 1983؛ بعد خروج عرفات من بيروت بفترة قصيرة نتيجة للغزو الإسرائيلي. التقى أبي في هذه الزيارة رئيس منظمة التحرير الفلسطينية. وكان برفقته يوري أفنري، ود. ياكوف أرنون؛ وهو اقتصادي ومدير عام سابق لوزارة المالية الإسرائيلية وصديق مقرب من أبي. وكان على الجانب الفلسطيني محمود عباس وعصام السرطاوي برفقة الزعيم عرفات. في ما بعد، تم الإعلان عن الاجتماع، وانتشرت



المجلس الإسرائيلي من أجل السلام الفلسطيني الإسرائيلي في اجتماع مع ياسر عرفات في تونس.

الصورة التي جمعتهم في وسائل الإعلام في كل أنحاء العالم.

لم يطل الوقت بعد هذا الاجتماع حتى قُتل د. عصام السرطاوي، وذلك في 10 إبريل 1983، أثناء اجتماع لمؤتمر الاشتراكية الدولية في البرتغال. وكان المتهم في ذلك مجموعات «أبو نضال» التي كانت تعمل من العراق، لف الغموض ولاءها وما زال.

كان يوم موت الدكتور السرطاوي يوماً مظلماً في بيتنا. وقد صادف أنني كنت أشاهد التلفاز عندما حصل ذلك. كان الدكتور عصام ملقى على الأرض في بركة من دمه في وضح النهار في بهو الفندق. واستغرقت عدة ثوانٍ قبل أن أستطيع أن أنادي: «أبي، أسرع، قتل السرطاوي!». قتل السرطاوي وحوله نواب برلمان، ورؤساء دول، وكان من بينهم شمعون بيرس الذي كان حاضراً بصفته رئيس حزب العمل.

كان أبي في غرفة دراسته عندما ناديته. عندما أدرك الموقف، تسمر مكانه ولم يستطع الحركة. ورغم أنه لم ينبس ببنت شفة، فقد ذكرني منظره بموت أخيه

العزيز ديوبك الذي كان يوم موته أكثر الأيام حزناً في حياته. في ما بعد، صرح أبي قائلاً: «قتل السرطاوي لأنه كان يلتقي صهاينة، لقد ضحى بحياته من أجل السلام». ذكر أبي الناس بهذا كل مرة كان هناك شك فيها في رغبة الفلسطينيين في السلام.

في العام التالي، كان أبي أحد الأعضاء المؤسسين للحزب اليهودي العربي، القائمة التقدمية للسلام. وكان شركاؤهم هم الفلسطينيين الإسرائيليين(1) يتقدمهم محمد معياري؛ وهو ناشط سلام مخضرم ومحامٍ مختص بحقوق الإنسان، والأسقف رياح أبو العسل رئيس الكنيسة الأنجليكانية في الناصرة؛ وهو الذي أصبح أسقف القدس في ما بعد. لقد أعطى أبي اسمه وشهرته لعدة أحزاب سياسية على مر السنين، ولكن لم تكن لديه رغبة فعلاً في أن يصبح سياسياً. ومع ذلك، فقد وافق على أن يكون اسمه هو الاسم الثاني في القائمة التقدمية للسلام في انتخابات عام 1984.

حاولت أحزاب يمينية قومية عدة مرات تقديم دعاوى لنزع الشرعية عن القائمة التقدمية للسلام ومنعها من دخول الانتخابات، وقارنت بينها وبين حركة كاخ العنصرية التي كان يقودها الحاخام مائير كاهناً أمريكي المولد، وقيل إن التخلص من الحزبين صفقةٌ عادلة. ولكن حركة كاخ كانت حزباً يهودياً عنصرياً بلا غموض، وعبارة عن محفل يدعو إلى ترحيل الفلسطينيين بالقوة إلى خارج البلاد. كانا حزباً يدعو إلى السلام والمصالحة، وآخر يدعو إلى التطهير العرقي، ثم يأتي من يقول إنهما يتساويان في التطرف.

رأت المحكمة العليا الإسرائيلية أنه من السخيف أن يعدَ حزبٌ شارك في تأسيسه ماتي بيليد، «خطراً على أمن الدولة». وبالتالي، قضت بأن كلا الحزبين له الحق في أن يستمر. فازت القائمة التقدمية من أجل السلام بمقعدين في الكنيست في الانتخابات التالية، شغل أبي أحدهما وظل فيه دولة كاملة مدتها أربع سنوات.

(1) الفلسطينيون الإسرائيليون فلسطينيون يعيشون داخل إسرائيل ولديهم جنسية إسرائيلية. ويشير الإسرائيليون إليهم دائماً على أنهم «الإسرائيليون العرب». وهم حوالى 1.5 مليون فلسطيني يعيشون كمواطنين إسرائيليين في إسرائيل.

لقد استمتع بالسنوات التي كان فيها برلمانياً، ومثل كل شيء قام به، عمل بكل جوارحه وقلبه وروحه وعقله. وتوافقت الدورة التي كان فيها نائباً بالجو المشحون الذي تلا الانتفاضة الفلسطينية الأولى، ولكنه لم يوقف وقته على مناقشة الصراع؛ فكان اهتمامه في عدد من المواضيع، وفي بعض الأحيان كان يجد بينه وبين المنافحين عن الجناح اليميني أرضية مشتركة.

وقد اشتهر سريعاً؛ نظراً إلى كونه واحداً من الأعضاء الفاعلين والمكرسين أنفسهم لعملهم في تاريخ الكنيست. لقد كان يقرأ لمدة أسبوع كي يحضر لخطاب مدته عشر دقائق، وكان يقال إن خطاباته كانت تشبه المحاضرات. ولم يكن من النشاز أن يصرخ عليه خصومه من اليمينيين - وكثير منهم لم يخدم في القوات المسلحة - ويصفوه بالخائن.

لقد شعر بالتقزز من مطاردة بعض البرلمانيين لوسائل الإعلام، ومحاولة جذب انتباهها؛ الأمر الذي كان شائعاً بين أعضاء الكنيست، ورفض إدخال سطور أو كلمات مثيرة في خطاباته كان يمكن أن تصبح عناوين رئيسة في الصحف. لم يتغيب عن اجتماع واحد طوال السنوات الأربع؛ الأمر الذي كان غير عادي في المجلس الذي غالباً ما تكون مقاعده فارغة.

ومع ذلك، ظل يفضل الأدب العربي على السياسة. وعندما انتهت السنوات الأربع في عام 1988، كان سعيداً لأنه رجع إلى الحياة الأكاديمية. ومباشرة ذهب في بعثة دراسية إلى هارفارد، وكانت والدتي برفقته حيث استمتعا معاً.

في تلك الفترة، كنا جيلا وأنا قد تزوجنا. في أواخر عام 1987، وقبل أن يترك أبي الكنيست، غادرنا اليابان - حيث عشنا هناك نحو عامين - وقضينا عدة أسابيع في إسرائيل. كنا في الواقع نود أن نرى أبانا في الكنيست، ولذلك أخذنا في جولة، والتقينا زملاءه وحضرنا إحدى الجلسات. ثم بعد ذلك، وفي خريف العام نفسه انتقلنا - جيلا وأنا - إلى الولايات المتحدة؛ عازمين على ألا نقضي أكثر من عامين ثم نعود إلى القدس. وعندما وصل والداي إلى هارفارد، زارتنا أمي في كاليفورنيا، وبعد ذلك ذهبت مع جيلا إلى ماساتشوستس وقضينا أسبوعاً ممتعاً مع والديّ في شقتهما في كامبردج.

كانت الانتفاضة الفلسطينية قد بدأت قبل ذلك الوقت. وانتشرت الصور في كل أنحاء العالم، وفيها الجنود الإسرائيليون يضربون الأطفال الفلسطينيين ويطلقون النار عليهم؛ وما ذنبهم سوى حملهم الحجارة بأيديهم. كانت تلك ثورة جماهير حقيقية فاجأت الجميع. وبينما كانت إسرائيل تبحث عن طرق لقمع هذه الثورة الشعبية، كانت أوامر وزير الحرب غير الرسمية التي ذاعت في كل أنحاء العالم هي «كسر عظام الفلسطينيين وإنتاج ضحايا». وبالفعل، تم قتل الكثير من المواطنين، وادعى المدافعون عن إسرائيل أن إسرائيل تستخدم الرصاص المطاطي حتى تتجنب القتل أو تؤذي أحداً؛ ولكن فقط لإخافة الفلسطينيين.

كان أبي يحتفظ برصاصة مطاطية في جيب معطفه، وكان يخرجها عندما يلقي خطاباً عن الصراع في إسرائيل، ويزيل المطاط عنها ليبين أنها من الحديد، ولكنها مغطاة بطبقة رقيقة من المطاط. ولم يكن الحديث في أمريكا أمراً جديداً على أبي. فقد زارها كشخصية مهمة جداً؛ أقصد كجنرال تحدث باسم الحكومة. وبالتدريج، عندما بدأت آراؤه تتغير، تغيرت أحاديثه أيضاً. فقد تمت دعوته من قبل عدة جماعات سلام، وربما مكث أسبوعاً كاملاً وهو يتنقل من مكان إلى آخر متحدثاً عن الوضع. ولأنه كان عضو كنيست، وخبيراً عسكرياً في دائرة اللوازم فقد كان جاهزاً للنقاش من الناحية السياسية ومن الناحية العسكرية بأن إسرائيل كان بإمكانها أن تكون في وضع أفضل لو أنها صنعت السلام بدلاً من تسليح نفسها والإبقاء على احتلال الأراضي التي احتلتها عام 1967.

وكانت لديه نقطة كثيراً ما يرددها؛ وهي أن أفضل شيء يمكن أن تفعله أمريكا لإسرائيل هو أن تتوقف عن بيع السلاح لها، وتتوقف عن منحها الدعم المالي. أخبر مرة حشداً من هيكل إيمانويل في سان فرانسيسكو في إحدى المناسبات أنه «حتى 1974، لم تتلق إسرائيل دعماً مادياً خارجياً، وكان الوضع جيداً». ثم نظر إلى الجمهور وواصل: «إن المال الذي يأتيك دون جهد عملية إفساد واضحة». وقد رأى أنّ السلاح الذي تبيعه الولايات المتحدة لإسرائيل يفسد البلاد، كما أنه يستخدم لإبقاء الاحتلال واضطهاد الفلسطينيين.

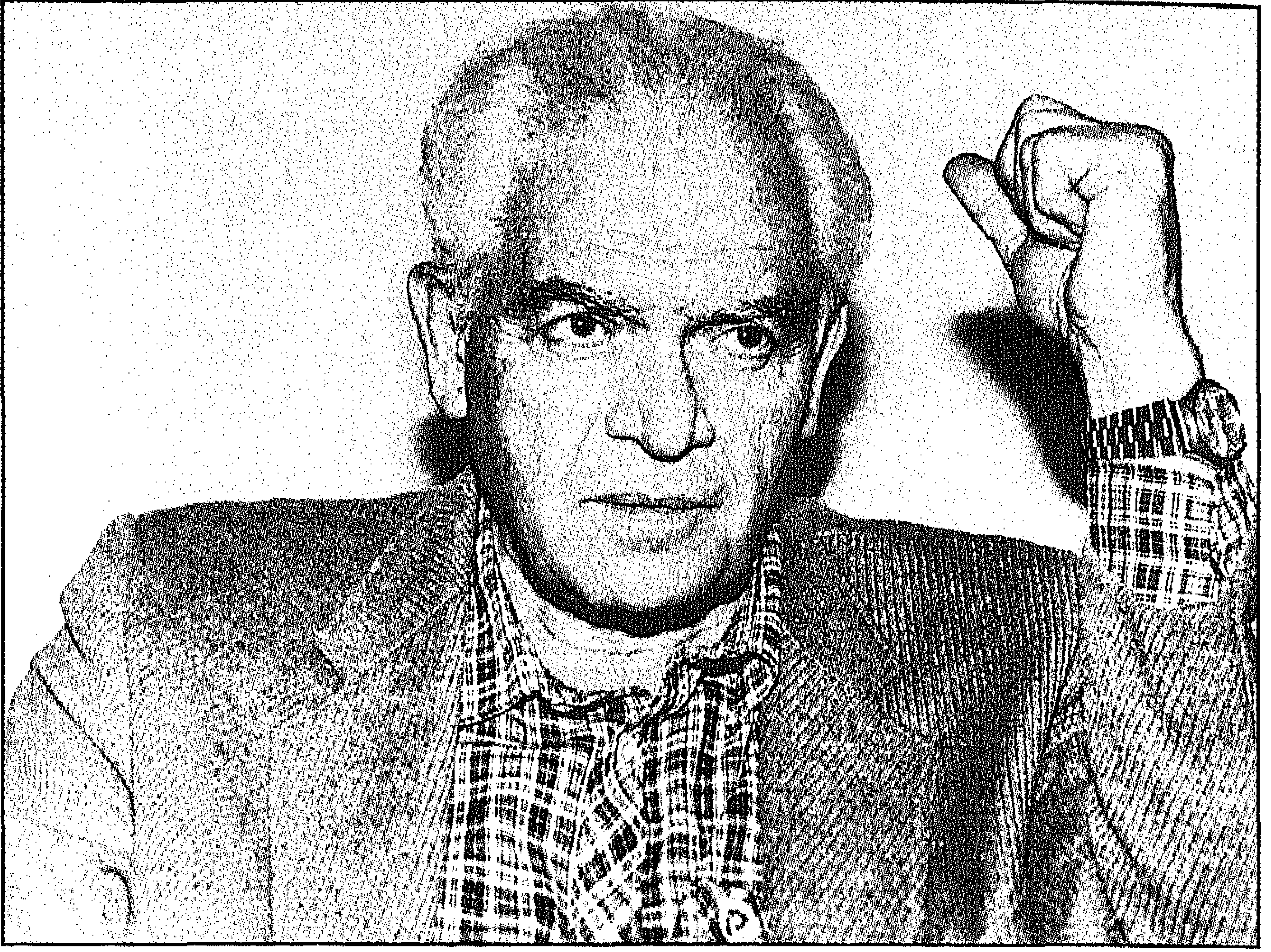
كان دائماً يقول: «إنه مضر بإسرائيل، وليس أخلاقياً، وليس قانونياً». وفي

نهاية عام 1992، تم انتخاب إسحاق رابين رئيساً للوزراء مرة أخرى، وتعهد بأن يصنع السلام. وبحلول نهاية 1993، كان في ما يبدو قد توصل إلى النتيجة نفسها التي توصل لها أبي، ووقع اتفاقية السلام التي عرفت باتفاقية أوسلو وصافح ياسر عرفات. كان ذلك في فناء البيت الأبيض، وكان العالم كله يتابع. وآمنتُ حينها بأن ذلك كان بداية إنهاء الصراع، وكان استكمالاً للجهد العظيم الذي بذله والدي والدكتور السرطاوي وآخرون مثلهما. وأصبح حل الدولتين الذي لم يكن أحد يفكر فيه أمراً سائداً ومألوفاً. وشعرت واثقاً بأن السلام أصبح حتمياً.

كانت العملية طويلة، ولكن المصالحة بدت سريعة الخطو. فقد انسحب الجيش الإسرائيلي من المدن الفلسطينية الكبيرة، وبدأ المغتربون الفلسطينيون بالعودة لبناء بلدهم الذي ظنوا أنه سيكون مستقلاً في وقت قريب. وبدأ الإسرائيليون يزورون المدن الفلسطينية كسائحين وضيوف وليس كجنود. وبدأت الأشياء تتحرك بسرعة. وكانت البهجة منتشرة في الجو.

أيد والدي اتفاقيات أوسلو بقوة في البداية، وكتب يقول إن رابين «عبر الروبيكون» (والإحالة هنا إلى يوليوس قيصر وجيشه الذين عبروا نهر الروبيكون عند عودتهم من إيطاليا. وبكلمات أخرى، كان ذلك تصرفاً لا رجعة عنه، وكان مغزاه عظيماً). لقد تم التوقيع في العام نفسه الذي أسس فيه والدي ويوري أفنري وآخرون حركة «جوش شالوم»، وهي كتلة جماهيرية تنادي بالسلام.

ومع مرور الوقت فقد أبي الصبر. ثم صرح قائلاً: «استمرَ التوسع في بناء المستوطنات في الضفة الغربية، وفات وقت المواعيد التي قررتها إسرائيل تعبيراً عن حسن النية؛ كل هذا نتيجة للتمنع الإسرائيلي». وقد أدرك أن خطى السلام البطيئة المتزامنة مع التوسع الاستيطاني المستمر سوف تكون فرصة مناسبة للمتطرفين من الجانبين لتجديد العنف. لقد انتقد ذلك ووصفه قائلاً: «رابين يؤجل ويتجاهل بعض بنود الاتفاقية التي تؤدي إلى دولة فلسطينية متينة؛ مثل إنهاء اعتماد الاقتصاد الفلسطيني بالكامل على إسرائيل». وقال أيضاً إن «عرفات الذي بذل كل جهد من أجل السلام كان يتم التعامل معه باحتقار». وعلى عكس السادات الذي زار القدس مصحوباً بكثير من الاحتفاء وسمح له بالصلاة في



عندما كان أبي يريد توضيح نقطة، كان دائماً ما تتم مقارنته بالأنبياء الذين كانوا يوبخون الشعب الإسرائيلي.

المسجد الأقصى، فإن عرفات لم يسمح له بدخول المدينة مطلقاً.

وكعادته في إخلاصه لمبادئه ولطبيعته، قرأ أبي تفاصيل اتفاقية أوسلو ووجد أنها كانت مليئة بالثغرات. وفي ذكرى ميلاده السبعين، أجرت معه صحيفة معاريف مقابلة أصبح موضوعها الخبر الرئيس في عدد نهاية الأسبوع. جاء العنوان الرئيس فيها: «رابين لا يريد السلام»[1].

هذه المقابلة أدت إلى قطع العلاقات نهائياً بين رابين وأبي؛ وهما رجلان منطويان وحديديان قاتلا جنباً إلى جنب مدة ثلاثين عاماً، وعملا معاً في بناء الجيش الإسرائيلي، وفي عام 1967 قادا الجيش في غزوه الأخير «لأرض الميعاد».

في مقابلة أخرى أجرتها معه يدعوت أحرنوت في نهاية عام 1994، قال أبي «إن الفلسطينيين آمنوا بأن اتفاقيات أوسلو سوف تقود إلى دولة فلسطينية، ولكن

(1) سيما كادمون، «رابين لا يريد السلام»، معاريف، 16 أغسطس 1993.

رابين ليست عنده النية بأن يدعها ترى النور». مرة أخرى وبأسلوبه التحليلي الذي يخلو من العاطفة، قال إن «الفلسطينيين يمكن أن يسمح لهم بجمع قمامتهم، وطباعة جوازاتهم، ولكن هذه الدولة الصغيرة سوف تكون في النهاية تحت السيطرة الإسرائيلية». في هذه الأثناء، كان الباقون منا قد اتبعوا ما أملته عليهم قلوبهم، وآمنا بأن القيادة سوف تصنع السلام الذي رغبنا فيه. وفي النهاية، كان أبي محقاً في ما يتعلق باتفاقيات أوسلو.

في نهاية 1994، وبعد عدة أشهر من ولادة ابني الأول إيتان في سان دياغو، شعر أبي بألم شديد في أسفل ظهره، وكان ذلك إشارة بأن والدي يعاني من سرطان في البكرياس لا يرجى شفاؤه. كنا نعلم بالألم منذ فترة، وكنا نظن أنه وجع في العظام يمكن علاجه. ولكننا تلقينا مكالمة تفيد بأنه سرطان.

ورغم الألم والتدهور السريع لصحته، ظل أبي نشيطاً حتى آخر أيامه، ومكرساً نفسه لدراسة الأدب العربي، ولتطوير الحوار القائم على الاحترام المتبادل بين الإسرائيليين والفلسطينيين، وللوقوف إلى جانب الجنود الذين تم اعتقالهم بسبب رفضهم الخدمة في المناطق المحتلة، ولكتاباته السياسية.

كان آخر أعماله الأكاديمية ترجمة من العربية للعبرية. فقد ترجم كتاباً عنوانه «فقهاء الظلام» من تأليف الكاتب الكردي السوري سليم بركات. لقد كان مشروعاً كبيراً، وكانت بينه وبين الكاتب مراسلات كثيرة استمتع بها كثيراً. واستخدم المودم كي يتواصل مع الكاتب عبر الإنترنت. فاز أبي بجائزة جمعية المترجمين الإسرائيليين لترجمته هذا الكتاب الذي كان آخر أعماله. أعطاني نسخة عليها توقيعه وما زلت أعتز وأحتفظ بها.

كانت آخر مقالة سياسية كتبها أبي بعنوان «قداسٌ من أجل أوسلو»، وظهرت في مجلة نشرها المجلس الإسرائيلي للسلام الإسرائيلي - الفلسطيني[1]. تنبأ أبي في هذه المقالة بالنهاية الكارثية لعملية السلام. ورأى أن العملية قد وصلت إلى مرحلة الأزمة التي ربما لا تستطيع التعافي منها. وقد كتب بوضوح أن «الفشل كان بسبب رفض رابين سحب القوات من الضفة الغربية، وعدم السماح بإجراء

(1) ماتي بيليد، «قداس من أجل أوسلو»، إسرائيل الأخرى 65 (فبراير - مارس 1995).

انتخابات عامة في الأراضي المحتلة». وواصل حديثه:

> إن السبب الحقيقي وراء موقف إسرائيل هو أن نتائج الانتخابات العامة التي تؤكد أن عرفات زعيم للفلسطينيين بلا منازع يمكن أن تضع الجانب الفلسطيني على الطريق نحو الدولة أقرب من أي وقت مضى.

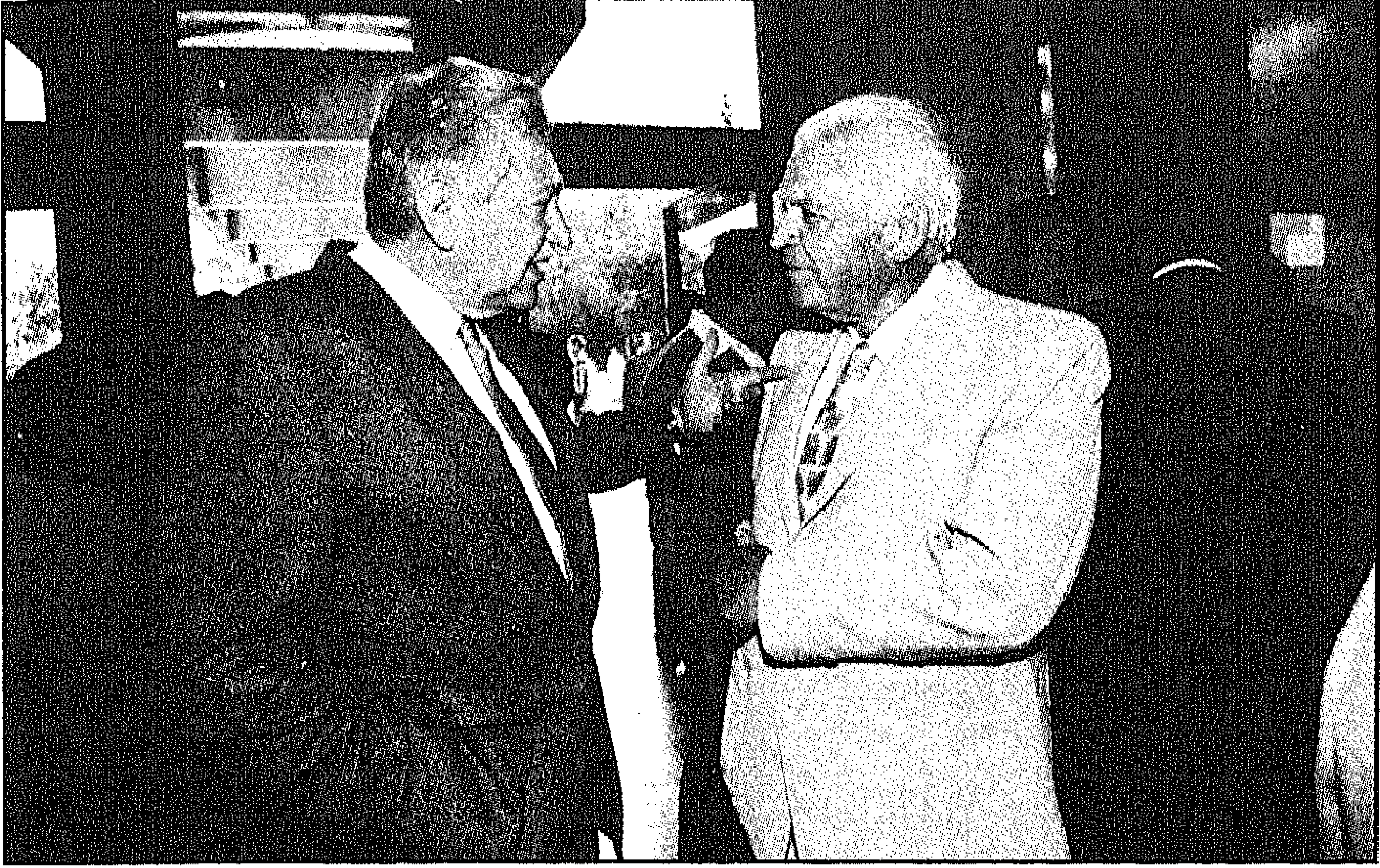
كان ذلك في الفترة التي استلم فيها رابين جائزة نوبل للسلام ورآه العالم كرجل سلام. ولذلك، مرة أخرى، كان أبي يفكر خارج الصندوق.

عندما علمنا بمرض أبي، قررنا – جيلا وأنا – ألا ننتظر حتى نأخذ إيتان لكي يرى جده. ولذلك قمنا بزيارتين لكي نرى أبي؛ مرة في أكتوبر 1994، ومرة في ديسمبر.

لقد كان مؤثراً أن أرى والدي هزيلاً ولكنه قوي ومبتسم. والتقطنا له عدة صور وهو يحمل إيتان. وحظينا بتجمع عائلي رائع، مع إخوتي الثلاثة؛ يوآف، ونوريت، وأوسي وأنا؛ مع أزواجنا وأولادنا. وقد حدثنا أبي قصصاً التي قصدنا أن نستمتع ونحن نسمعها، ذلك لأننا كنا نشك في أن هذا الاجتماع كان الأخير الذي كان بمقدوره أن يتكلم فيه. والآن، أتمنى لو أنني سجلت تلك اللحظات، لأنني مهما حاولت، فلن أستطيع تذكر كل القصص التي أخبرنا إياها في ذلك المساء. خلال الأيام والأسابيع التي قضيتها معه، ظللت أطلب من والدي أن يكتب عن نفسه وعن حياته، ولكنه رفض. وكان يصر على أنه يرى «أنه من الممل أن أكتب عن نفسي»، ولم يقبل أن أسجل ما يقوله أيضاً. كان متفائلاً جداً بخصوص شفائه، وكان مزاجه معظم الوقت مسترخياً.

صمدار كانت هناك أيضاً. نعومي شيمير، كاتب الأغنيات الشهير والمحبوب جداً في إسرائيل وصديق العائلة القديم، كتب قصيدة على شرف والدي. تبدأ القصيدة بالبيت التالي: «خيانة الجسد، وفاء الروح»، والإحالة هنا إلى حدة ذكاء الوالد وقدراته؛ حتى إن كان السرطان ينهش جسده.

وواظبت على الزيارة بمفردي كل عدة أشهر. فعندما ساءت حالته الصحية، لم يكن هناك معنى لمجيء جيلا وإيتان. المرة الثالثة التي زرته فيها، كان والدي



عيزرا وايزمان، الرئيس السابق للقوات الجوية الإسرائيلية ونائب رئيس الأركان. كان واحداً من أصدقاء العمر القليلين بالنسبة لوالدي. هنا في آخر منصب رسمي له، وهو رئيس دولة إسرائيل.

قد بدأ مرحلة العلاج بالكيماوي وذهبت مباشرة من المطار إلى المستشفى. سألته: «كيف حالك؟». وكان منظره فظيعاً.

قال: «بائس»، ثم أضاف: «عليك أن تذهب للبيت، وتستريح. لا بد أنك مرهق من الرحلة الطويلة». لم يكن شخصاً ضعيفاً مطلقاً ولكنه كان أكثر استرخاءً بوصفه جدًّا لأولادي أكثر من كونه أباً. لقد أظهر المرض مزاجه على حقيقته؛ فعندما كان يشعر بتحسن، كان يبتهج ويمالح الآخرين، ولكن عندما كان المرض يضربه أو يعالج بالكيماوي، فإن البؤس كان يلفه.

مكثت هناك حوالى 10 أيام. وقررت أمي أن تعتني به في البيت بدلاً من تركه في مشفى المحتضَرين. وفي زيارتي الرابعة، ظللت حتى النهاية. لقد تمسك بالحياة قدر استطاعته، مؤمناً حتى النهاية بأن العلاج يمكن أن يشفيه. وفي النهاية، وفي الساعات المبكرة من يوم 10 مارس 1995، استسلم للمرض. كانت أمي وإخوتي يتناوبون في البقاء إلى جانبه. لما كانت الساعة الرابعة صباحاً كنت عنده عندما أخذ آخر نفس. مات في فراشه في البيت الذي شغف بحبه.

قررنا ألا ندفنه في المقبرة العسكرية في جبل هيرتزل في القدس. فلقد كان تراثـه أكبـر بكثيـر من خدماته العسـكرية، ولو دفناه في المقبرة العسـكرية، فلربما قال قبره ببسـاطة: لقد كان جنرالاً عندما ولد وعندما مات. ومع ذلك، فقد كان أكثر من نصف حياته يعيش لأشياء أخرى منها الأدب العربي، والنشاط السياسي، والسـلام. ولذلك اشـترت أمي قطعة من الأرض في مقبرة هيلسـايد في كيبوتس ناشـون، قريباً من القدس. لقد شـعرنا أنه من الأنسـب أن نتركه يسـتريح في غابة جميلة قرب بيته في القدس، حيث يمكننا أن نكتب على شاهدة قبره ما نريد.

كانت الجنازة عسكرية المراسيم تماماً. فعندما مر الجيب ببيتنا وفيه الكفن، قبـل أن يسـتمر فـي طريقـه إلـى المقبرة، خرجنا لنـراه ونقول: وداعـاً. لقد حمل أبي ستُ جنرالات وجلسوا حول الكفن يتحدثون. وعندما ركبنا الجيب، أسكت بعضهم بعضاً إجلالاً للموقف. وضعت أمي يدها على الكفن وبكت.

جيـل أبـي مـن الضبـاط اللامعيـن الذين كسـبوا حـرب 1948 وواصلـوا حتى أصبحوا جنرالات حرب 1967 كانوا أيقونات، ودور أبي في التحضير لحرب الأيام السـتة وصل في الغالب إلى حد الأسـطورة. ذلك وحده كان بإمكانه أن يصنع من الجنازة حدثاً ضخماً. فقد ضمت الجنازة مزيجاً غير مسبوق من جنرالات إسرائيل ورؤسـائها، مع ناشـطي سـلام راديكاليين وكذلك قادة فلسـطينيين. وجاءت رسـائل التعزية من كل من حكومة إسـرائيل، وياسـر عرفات. وجاء د. أحمد الطيبي ليمثل عرفـات (حيـث كان عرفـات ممنوعـاً من دخول القدس)، ووضـع إكليلاً على القبر بالنيابـة عنـه. وضـع ذاك الإكليـل على قبـر والدي إلى جانب الإكليل الذي أرسـله رئيس إسرائيل. وعندما أتذكر ذلك، أشعر أنه من الصعب أن أصدق أن هذا حصل. أول رئيس فلسطيني يرسل إكليلاً ورسالة تعزية إلى قبر جنرال إسرائيلي. ولاحظت وسائل الإعلام ذلك، ونشرت صورة الإكليلين جنباً إلى جنب في كثير من الصحف.

فمن يوري أفنري من اليسار إلى آرييل شارون من اليمين الجميع جاء ليقدم احتراماته. طلب مني حاخام الجيش الأكبر، وهو الذي أشـرف على المراسـيم، أن أقـول كديـش أو «صـلاة الميـت» وأنا أضفت «لأجل أبـي». لقد تلفظت بهذه الكلمـة «كديـش» ولكنـي لـم أتوقـف عن التفكير في ما لـو أن أبي عرف بذلك،

لقال حينها إن هذا هراء. ذلك لأنه لم يكن متسامحاً مع الدين ولا مع المراسيم الدينية. لقد كان موت أبي مصدراً لعدد لا يحصى من الأخبار في إسرائيل؛ وفي كل أنحاء العالم. وكثير من هذه الأخبار حاولت تحليل تاريخه وشخصيته. وهناك مقالتان أرى أنهما مؤثرتان على نحو خاص. الأولى كتبها فلسطيني هو في الحقيقة بروفيسور مشهور عالمياً؛ وهو وليد الخالدي[1]، والثانية كتبها صحفي مخضرم وناشط سلام طوال حياته؛ وهو يوري أفنري[2]. إن علاقة أبي الحميمة بهذين الرجلين والكلمات اللطيفة التي كتباها بعد موته تظهر القفزة الهائلة التي قفزها خلال السنوات التي تلت إنهاءه الخدمة العسكرية. قال الدكتور الخالدي ضمن أشياء أخرى أن ماتي بيليد «لم يكن دبلوماسياً. ولكنه كان سابقاً لعصره وضد المعارضة المزعجة. ولقد تنقل خلال الصراع العربي الصهيوني الذي دام قرناً وطورَ اعتقاداً عميقاً في ما يخص هذا الصراع وحله».

أنهى أفنري مقالته بكلمات من مسرحية هامليت التي كتبها شكسبير: «كان رجلاً عظيماً. خذوه، فإني لن أرى مثله أبداً».

صحيح أن ماتي بيليد ربما كان صعب المراس، ولكنه حظي باحترام وإعجاب كبير. إذ ميز نفسه بالتزامه أولاً كخبير عسكري، ثم كناشط سلام ومدافع عن الحقوق. وصحيح أيضاً أنه لم يسمح بالنقاش كثيراً، ولكن محاضراته على طاولة العشاء كانت دائماً تنويرية، ولقد تعلمت منه الثقة بنفسي كيهودي إسرائيلي.

حضر إسحاق رابين الجنازة، وكان حينئذ رئيس الوزراء. حضرها بموجب البروتوكول، ولكنه لم يتصل قطّ ليقول لوالدي وهو يُحتضر وداعاً مثلما فعل جميع رفاقه، كما لم يزر بيتنا ليقدم العزاء خلال «شفيعا» وهي الأيام السبعة التي تخصص للحداد. بعد ثمانية أشهر، قُتِلَ رابين بشكل مأساوي؛ قتله صبي يهودي نشأ في خليط مسموم من اليهودية الأرثوذكسية والصهيونية الراديكالية. لقد كانت خاتمته مرحلة وبداية مرحلة من الشك الكبير.

---

(1) وليد الخالدي، «مسارات متباينة»، إسرائيل الأخرى، إبريل 1995، كامبريج، إم أي.
http://israelipalestinianpeace.org.issue/66toi.htm#Converging

(2) يوري أفنري، «لن أرى مثله مرة أخرى»، معاريف، 3 مارس 1995. مؤرشفة على:
http://www.Israelipalestinianpeace.org.issues/66toi.htm#I

الباب الثاني

بعيداً عن الوطن

الفَصْلُ الـرّابع

القبعة الحمراء

في عام 1974، عندما انتقلت من المدرسة الإعدادية إلى المدرسة الثانوية، اتضح لي أنني لم أكن فقط ضعيفاً أكاديمياً، ولكن تبين أن لدي مشكلة أخرى، وهي مشكلة لم تطفُ على السطح حتى ذلك الحين؛ وهي وراثية على الأرجح، ألا وهي: أنني سليط اللسان. هناك أمور لم أكن أستطيع أن أسكت عنها، ولم أكن أريد أن أسكت بغض النظر عن من كان أمامي. وفي ما بعد أدركت أن هناك استثناء، وذلك أن شخصاً واحداً التزمت الصمت أمامه، إنه أبي.

وفي أول نقاش بين الفصل الذي كنت أدرس فيه ونائب المدير كان الحديث عن قضية الانضباط في المدرسة. قلت له إن الانضباط فكرة قديمة وليست عادلة. أما الأستاذ الذي علمني الرياضيات والفيزياء، وهما من المواضيع التي كنت أعاني منها على كل حال، فكان مهاجراً جديداً من شرق أوروبا. كان عنيداً، وشديداً، ولا يثق بنفسه. لم يبتسم قطّ، ولم يؤمن بفرصة ثانية. كنت مرعوباً منه طول الوقت أثناء الدرس، ولم أكن أشارك؛ وبحلول نهاية العام الدراسي الأول من المدرسة الثانوية، كنت قد أغضبت مدرس الرياضة رغم أنني كنت رياضياً جيداً، ورغم أنني كنت أحب الأستاذ والدرس في الواقع. لقد كان المدرب قديم الطراز، وكان ينغص على الأولاد غير الرياضيين حياتهم.

في يوم من الأيام، أهان الأستاذُ تلميذاً سميناً، ودعا كل الفصل ليسخر منه وهو يتعثر أثناء التمرين. انتظرت بعد نهاية الدرس وذهاب الطلاب، وقصدت المدرس وقلت له: «ألا تشعر بالخزي من نفسك؟ هل كان ضرورياً أن تهينه بهذه الطريقة وتدعو الطلاب ليسخروا منه؟». من نافلة القول أنه لم يكن معتاداً على سماع توبيخ من شاب يافع، ووجدت نفسي في مكتب المدير في وضع

صعب. قال لي: «كيف تجرؤ على الظن أنك تعلم أكثر مني؟».

وعندما انتهى العام، كان من الواضح أن هذه المدرسة عينها لن تكون مناسبة لي. وفي الصف العاشر، انتقلت إلى مدرسة أقرب إلى البيت في حي موتسا. وفي الواقع، كان عاماً مثمراً. فقد كان فيها أستاذ علمنا التاريخ، والعلوم الإنسانية ورحبَ بي رغم لساني السليط، إذ كان معجباً بأبي. انسجمنا تماماً معاً، وتحسنتُ في كل المواد، وكنت في الحقيقة سعيداً.

وفي تلك السنة، ونزولاً عند اقتراح بعض الأصدقاء، بدأت أمارس لعبة الكاراتيه، وأحببتها، فأصبحت في النهاية مهنة حياة. ومع ذلك، بعد الصف الحادي عشر أدركت أن البيئة المدرسية التقليدية كانت قيداً بالنسبة لي وليست مجالاً يمكن أن أنجح فيه، فقررتُ أن أذهب إلى ما كان يسمى مدرسة «خارجية»؛ وهي مدرسة ثانوية تُدرب الطلبة على اختبارات القبول في الجامعة. يقضي الطالب في المدرسة ثلاث ساعات أو أربع كل صباح، ثم يصبح وقته ملكه. كان هناك شعور عام سلبي تجاه تلك المدارس، فلم ينظر لها على أنها مثل ذلك النوع من المدارس التي يرتادها «الطلبة الناجحون»، ولكني لم أبالِ؛ لأنني أدركت أنني لن أتحسن إذا بقيت في المدرسة التقليدية، وأنني لن أجتاز اختبارات القبول الجامعي. وقد كان أبي في ذلك الحين في دراسته في هارفارد، ولم يكن له رأي خاص في ذلك، وبالتالي كانت موافقة أمي فقط مطلوبة. وجدت أمي الأمر صعباً، ولم تحبذ الفكرة، ولكنها وافقت بعد أن قابلت المدير الذي كان رجلاً رائعاً ومعلماً عظيماً.

وقد ثبت لأمي أن مخاوفها كانت وهماً. فقد التقيت طلاباً ممتازين في المدرسة، وكانت تلك السنة مثرية بالنسبة لي. وكانت نتائج اختبارات القبول الجامعي جيدة؛ الأمر الذي يعد مهماً جداً في إسرائيل.

لما كانت أيامي في المدرسة تسير إلى نهايتها، وكنت أقترب من سن التجنيد بدأت أشعر بمشاعر مختلطة حول الالتحاق بالعسكرية. لقد أقنعني أبي بأن الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية وغزة خطأ. ولكن كصهيوني مخلص، فقد اعتقدت بوجوب أن يكون لإسرائيل جيش، وليس فقط جيش، بل أفضل جيش

ممكن. وكنت أعتقد أنه إذا التحق أناس كثر مثلي بالجيش، فسوف يكون الجيش محترماً وأخلاقياً. وبالتالي، دخلت في صراع، فقد كنت أود أن أخدم وأقدم مثالاً حسناً، ولكني أردت أيضاً أن أحتج على الظلم.

في ذلك الوقت، كنت أمارس لعبة الكاراتيه منذ عامين، وهذا من الأشياء التي أثرت على تفكيري وشكلت الدافع لدي. تعلِّمُ الكاراتيه الانضباطَ وتكبح العنف. ولكنني وجدت أن متطلبات الكاراتيه أكثر من أي شيء جربته في حياتي سواء أكان على المستوى الجسدي أو المستوى العقلي. لقد استمتعت بفكرة اليقظة الكامنة في لعبة الكاراتيه، ولذلك كنت أتوق لكي أواصل تحدّي نفسي بهذه الطريقة، وهذه أشياء يمكن أن أجدها في الجيش.

ولما كنت شاباً إسرائيلياً وأتمتع بصحة جيدة تمكنني من أن أكون جندياً مقاتلاً، فقد كان لدي خياران. إما أن أتطوع في وحدة خاصة على أمل أن يتم قبولي، أو أترك الأمر للجيش ليقرر أين أذهب. لم يكن أبي ينظر بتقدير كبير لوحدات القوات الخاصة، فقد كان رأيه أن تلك الوحدات قد تم تمجيدها أكثر من اللازم، كما كان قلقاً لأنهم كانوا يؤسسون وحدات جديدة طوال الوقت. كان يقول: «إن كتيبة الدبابات المصفحة أهم قوة في ميدان المعركة». وكان قوله ذلك محاولة منه ليؤثر في قراري. وأضاف: «الدبابة ماكينة معقدة، وأن تفهم كيف تقود دبابة، بكل مكوناتها المُحوسبة، سوف يكون مفيداً لك في حياتك المدنية». غير أنه لا مجد في الدبابة، وليس فيها إلا العمل المضني والقذر لما فيه من زيوت.

في النهاية، فعلت مثلما يفعل الكثير من الشباب الإسرائيليين الصالحين. ذلك أنني عندما التحقت بالجندية عام 1980، تطوعت للالتحاق بكثير من وحدات الكوماندو في القوات الخاصة. فقد شدني إلى ذلك التحدي الذهني والجسدي الكامن في التدريب، والذي كنت أعرف أنه خشن، ولكني لم أكن أعرف نسبة الخشونة، وكنت مقتنعاً تماماً بصورة الجندي الإسرائيلي البطل. وأردت الأدوات والرموز الدالة على المكانة مثل القبعة الحمراء، والأسلحة نصف الأوتوماتيكية، والأحذية بنية اللون، والشارات التي تعد علامةً على أرقى الطبقات في إسرائيل. من الصعب تحديد أيهما كان الدافع الأقوى في اختياري: الافتخار الذاتي أم

الوطنية، ولكن كليهما لعبا دوراً في قراري.

تم إرسالي إلى التدريب الأساسي في معسكر لتدريب المظليين في صانور في الضفة الغربية قرب المدينة الفلسطينية جنين. كانت هناك لوحة على المدخل مكتوب عليها: «إن لم نعمل معاً، فسنشنقُ معاً». يختلف معناها بالعبرية لأن تهجئة كلمتي «الاعتماد» و«الشنق» واحدة بالعبرية: (تالوي). وكانت الفكرة أننا يجب أن نتصرف كفريق، ويجب أن نكون قادرين على أن يعتمد بعضنا على بعضنا الآخر. وإن لم نستطع، فسوف ننتهي أمواتاً. وكانت هناك لوحة أخرى كُتبَ عليها: «المظليون هم الذراع الطويلة للقوات الإسرائيلية».

تقع صانور في منطقة رعوية خضراء شمال الضفة الغربية. وتقع القاعدة بجوار تلة مرتفعة وخطرة ويرقد في قمتها قبر شيخ مسلم. لقد صعدنا تلك التلة عدداً من المرات أكثر من أن أهتم بإحصائه. لم أشغل نفسي يوماً بالتفكير إن كانت هذه الأرض فلسطينية حتى خرجنا في مسيرة ليلية. كان علينا أن نحمل معدات ثقيلة، وأن نتحرك بسرعة وفي صمت مطبق. ورغم الإرهاق، فقد كنت ألاحظ أننا نمشي في أرض مزروعة وندوس محاصيل أناس آخرين. مشيت بأقصى سرعة ممكنة كي ألتحق بالملازم لأخبره أننا ندمر المحاصيل. لم أكن أدرك كم كانت ملاحظتي سخيفة، فقد أمرني أن أواصل الصمت وأمضي في المسير.

كان التدريب خشناً جداً جسدياً وذهنياً لدرجة أننا استنزفنا جميعاً، وما كان همنا غير أن نصبر حتى ينتهي الأسبوع. أصعب شيء بالنسبة لي، كان عدم السماح لنا بالنوم في الليل. فقد كان الملازم يوقظنا في أي لحظة بشكل مفاجئ من أجل تفقد، أو مسيرة، أو تدريب. وكان يحتفظ بدفتر ملاحظات سجل فيه كل خطأ ارتكبناه طوال اليوم. وفي الليل، كان يأمرنا بالنهوض من الفراش وينزل بنا كل أنواع التدريبات المرهقة من باب العقوبة.

ولكن، كانت هناك امتيازات لكون المرء في وحدة نخبة. فحتى المجند المستجد له الحق في طعام أفضل من الطعام الذي يقدم لبقية الجيش، ويمكنك زيارة بيتك مرة في نهاية الأسبوع. إن الذهاب للبيت يعني نوماً لا ينقطع، وطعاماً مطبوخاً في البيت، ولقاء صديقتك، وهذه هي الأشياء التي كانت تهم المجند المستجد.

عندما كان موعد العودة للبيت يحين، كانت حافلة عسكرية تأخذنا من الضفة الغربية إلى محطة حافلات كبيرة في إسرائيل، ومن ثم يأخذ كل واحد منا المواصلات العامة. لن أنسى الرحلة الطويلة التي كنت أقوم بها إلى القدس كل جمعة. كانت الحافلات مزدحمة بجنود مرهقين مثلي، وقليل من المدنيين. وكان الجنود ينامون دائماً، حتى وهم واقفون. إن كنتَ محظوظاً وحصلت على مقعد، فستنام ورأسك مستريح على كتف غريب على المقعد المجاور، وسلاحك يَخزه في جنبه.

وكلما تقدمنا في التدريب، بدأنا نشارك في مهمات أمنية بسيطة؛ مثل القيام بدوريات في شوارع المدن الفلسطينية مثل رام الله ومدينة القدس القديمة وقرى بعيدة في الضفة الغربية. ولم تكن لدي يوماً فكرة عما كنا نقوم بتأمينه. وكل ما رأيته مدنيون يذهبون لأعمالهم. وعندما كنا في مناطق بعيدة، لم نرَ شيئاً سوى المساحات الرعوية في الضفة الغربية وكروم العنب وحقول الزيتون. أتذكر مرة حين كنا نجهز أنفسنا قبل أن تبدأ الدورية في رام الله. أعطونا هراوات وقيوداً. في تلك الأيام، لم تكن هنا انتفاضة ولا احتجاجات. وكنا وحدة مشاة صغيرة ومدربة تدريباً عالياً، وكان تخصصنا في الحرب ضد الدبابات، وأتذكر كيف كنت أفكر في سبب وجودنا في مدينة مليئة بالمدنيين، وفي ما سنفعله بالهراوات والقيود.

أخبرنا الملازم قبل أن نذهب لرام الله أننا سندخل الشوارع، وأي شخص ينظر إلينا سوف نسارع إلى ضربه، أو كما قال: «اكسروا كل عظمة في أجسامهم». بدا ذلك متطرفاً: كسر عظام الناس لمجرد نظرهم إلينا! كيف يمكن لأي شخص أن يتجنب النظر إلينا؟ كنا فصيلاً من الجنود المدججين بالسلاح في وسط مدينة مليئة بالمدنيين. لم أستطع هضم ما يحصل. ولكن الجنود لا يطرحون أسئلة، وإنما يطيعون الأوامر. وعندما تكون في تدريب أساسي، فإن ضابطك هو الآمر الناهي، حتى لو كان أبوك جنرالاً. كنت أخشى أن أسأل، بل كان من الصعب التفكير بالسؤال.

بعد سنين عديدة، عندما علمت أن الواقعين تحت الاحتلال العسكري يحق لهم قانونياً بالمقاومة المسلحة، أدركت كم كان حظي سعيداً لأن أحداً لم يهاجمني؛ لأن هناك الكثير من الأحيان التي وضعنا فيها قادتُنا بلا اهتمام في

عيـن الخطـر. عندمـا أدركت ذلك، أول شـيء خطر لي موقف معين؛ وهو عندما أرسلونا كي نحرس منطقة بعيدة في الضفة الغربية. كان ذلك صباح يوم الجمعة، ولم نكن قد نمنا منذ صباح الخميس الباكر. وكان الروتين أن نتدرب طوال يوم الخميس وبعد العَشاء نشرع في مسيرة شاقة طوال الليل. بعد المسيرة، كنا نجهز أنفسـنا لتفقد صباح الجمعة، وهذا معناه أنه لم يكن لدينا وقت للنوم. في ذلك اليوم بالذات توقعنا أن نأخذ إجازة، ولكن بدلاً من الذهاب إلى محطة الحافلات، زجوا بنا في شـاحنة عسـكرية كبيرة وأخذونا إلى منطقة نائية في الضفة الغربية، وذهبنا لحراسة أماكن مختلفة في المنطقة. وأرسلتُ أنا وجندي آخر لحراسة تلة معزولة. كنا نحمل بندقيّتيْنا وماء ووسائل اتصال، وكانت الإرشادات الوحيدة التي تلقيناها هي: الأفضل لك ألا تنام. وكان ردنا: حاضر سيدي!

لـم تكـن هنـاك قوة في الأرض يمكـن أن تمنعنا من النوم. فقد كنا مرهقين جسدياً وذهنياً نتيجة تدريب أسبوع كامل تُوجَ بليلة لا نوم فيها ولا راحة، فضلاً عـن أنهـا كانـت طويلة وتخللتها مسـيرة شـاقة إلى هذه المنطقـة النائية. ومما زاد الطين بلة أنه كان يوماً حارًّا، وكانت الشمس تسطع في عيوننا. ومنعنا القادة من وضع نظارة شمسية أو مضغ العلكة؛ وهما أمران كان يمكن أن يُبقيانا مستيقظين. أعلنوا أن: «أي واحد يقبض عليه وهو يمضغ العلكة، فسوف يقضي عطلة نهاية الأسبوع في القاعدة». وكان هذا يكفي لكي يمنعنا حتى من النظر للعلكة، فضلاً عن مضغها. وباختصار، بمجرد أن غادرنا رؤسـاؤنا، غرقت أنا وزميلي في النوم مثل دبين في الشتاء.

شـعرنا بالسـعادة لأنهـم لـم يقبضـوا علينا ونحـن نائمـان لأن العقوبة كانت صارمـة. ولقـد كان مـن جهلنـا أننـا ظننا أن هذا هو تخوفنـا الوحيد. إذ لم يخطر ببـال أيّ منـا أن أي شـخص كان بإمكانـه إلحـاق ضرر بنـا، وأن حياتينا كانتا في خطر. كان يجب أن نشـعر بالامتنان لأن المقاومة الفلسـطينية لم تعثر علينا. إن الإهمال الذي أظهره قادتنا بترك شباب صغار لا تجربة لهم وهم متعبون في مثل هذه الورطة لم يخطر لي إلا بعد سنين، وذلك عندما التقيت بعضَ الفلسطينيين الذين اعتقلناهم بتهمة مهاجمة الجنود؛ بل حتى بتهمة القتل في ظروف مشابهة.

فقد كانوا ينتظرون في كمين لمدة أيام حتى تسنح فرصة مثل تلك. لقد كنا محظوظين، ولكن كان هناك الكثيرون الذين لم يحالفهم الحظ. إن رمز قوات النخبة الخاصة في إسرائيل هو القبعة الحمراء. وكل واحد يريد واحدة منها. ومن أجل الفوز بها، على كل وحدة أن تقوم «بمسيرة القبعة». وهي مسيرة أطول وأصعب من أي مسيرة يمكن أن يمشيها جندي. فقد كان طول مسيرتنا 50 ميلاً، وكانت معنا حمالات مفتوحة. وهذا كان يعني أن كل ستة أشخاص أو ثمانية سوف يمشون وهم يحملون على أكتافهم حمالة ينام عليها جندي. في كل مرة، كان أربعة أشخاص يرفعون الحمالة على أكتافهم ويبدلون كل فترة. وعادة، لم يكن أحد يريد أن يستلقي على الحمالة، ولذلك كان هذا الدور يناط بأي شخص ليس مؤهلاً للمسيرة نظراً لجرح ألم به.

لقد كانت مسيرة كاسرة للظهر؛ فقد كانت تلك الليلة حارة ورطبة جداً. وكان كلّ منا يرتدي بزة كاملة؛ كُمّا قميصها طويلان ورِجلا بنطالها كذلك، وكنا ننتعل أحذية الجيش. وإلى جانب الحمالات، كان على كل جندي أن يحمل سلاحاً نصف أوتوماتيكي وكل أنواع المعدات الثقيلة. أجهدنا العرق حتى ابتلت بزاتنا طوال المسيرة؛ مما كان يعني أننا سنعاني من طفح جلدي مرعب، وعطش متواصل يصعب احتماله في الغالب ولا يمكن إطفاؤه. وقد كان هناك اقتصاد في الماء ولم نشرب إلا عندما كانوا يطلبون منا أن نشرب. وعندما كنا نشرب، كان هذا وفق نظام. كان كل منا يحمل الماء في قارورة، ولأنه كان قد طُلب منا عدم إحداث أي نوع من الضجة فإن القارورة كان يجب أن تكون فارغة تماماً أو مملوءة تماماً ومغطاة بقطعة من البلاستيك اللاصق قبل أن تختم وتغلق بغطاء. فإذا قمت بهذه العملية بطريقة صحيحة، فإن الماء لم يكن يصدر أي صوت عندما كنا نمشي. وبمجرد أن تفتح القارورة فإنها يجب أن تفرغ تماماً.

وكان على رأس فريقنا ضابط شاب رتبته متواضعة، تخرج حديثاً من أكاديمية الضباط، وكان قد أنهى دورة متخصصة وسرية جداً في الحرب الخاصة. وقبل مجيئه، كان هناك الكثير من الحديث والإثارة لأنه كان من مخضرمي وحدتنا، والآن عاد إلينا ضابطاً. وقد استلم القيادة قبل مسيرة القبعة بقليل. مشينا أثناء

الليل، واكتشفنا أثناء النهار أننا لم نسلك الطريق الصحيح، ففقدنا الاتجاه. ولذلك لم تصبح المسيرة أطول مما كان يفترض وحسب، بل فشلنا في أن نلتقي قيادة الوحدة في المكان والزمان المحددين.

ولأن هذه المسيرات شاقة جداً، كان يتم التعامل معها بجدية من قبل الجيش؛ بل إن أعلى مستويات القيادة كانت تهتم بكل التفاصيل. وفي الصباح، التقينا قائد الوحدة؛ وهو رائد في الجيش، وقائد الكتيبة؛ وهو عقيد، وكانا غاضبين من الضابط الشاب لخطئه في المسير. قالوا له: «هل هذا ما كنا نتوقعه منك؟». وبعد ذلك بعدة أشهر، تم طرده من الوحدة.

فبدلاً من إنهاء المسيرة في ساعات الصباح الأولى، أنهيناها في منتصف النهار عندما وصلنا أخيراً إلى المكان المقرر، وهو كفر يهوشوا. وهو حي زراعي جميل في شمال إسرائيل.

تم استقبالنا كأبطال، وكانت هناك مائدة في انتظارنا كأنها أُعدت للملوك، وكانت إلى جوارها بركة سباحة. ولكننا كنا مرهقين جداً ونشعر بالألم لدرجة أننا لم نستمتع بالطعام والاحتفاء. فقد كانت أرجلنا وأكتافنا تؤلمنا جداً، ولم نستطع الوقوف ولا الجلوس ولا الاستلقاء أيضاً. لقد استغرقنا عدة أيام حتى تعافينا جميعاً. كنا فخورين جداً عندما تسلمنا تلك القبعات الحمراء واعتمرناها قبل أن نتوجه إلى بيوتنا في ظهر ذلك اليوم. أذكر كيف توجهت إلى محطة الحافلات باذلاً كل جهد ممكن كي يرى الجميع القبعة طوال الوقت.

بقيت في هذه الوحدة مدة عام تقريباً. ولكن، قبل أن ينتهي التدريب أُصيبت ركبتي، ومكثت في عيادة القاعدة عدة أيام، ولما اتضح أن صحتي لا تتحسن، أرسلوني للمستشفى في بئر السبع، حيث قرر الأطباء أن ركبتي تحتاج إلى عملية جراحية. ومن حسن الحظ، كان أفضل جراحي العظام، وأفضل الأجهزة في إسرائيل متوافرين في مستشفى هداسا بجبل المشارف في القدس، وهو مستشفى حديث الإنشاء، ولا يبعد سوى أميال قليلة عن بيتنا.

وبعد العملية، تم إرسالي إلى البيت لعدة أسابيع بهدف التعافي، وكان ذلك في الحقيقة هدية. ثم قرر قادة وحدتي أن أتدرب في ما تبقى لي من وقت في

التدريب على أن أكون ممرض الفريق في الكلية الطبية قرب تل أبيب. دامت دورة التمريض ثلاثة أشهر ونصف، وقبل أن يأتي موعد التخرج، كنت على تمام الجاهزية للعمل مع فريقي.

كنت مسروراً بهذا التحول، وكنت مصمماً على أن أقوم بعملي على أكمل وجه حتى أعود للفريق. وقد حدث أمر أثناء تلك الشهور التي أمضيتها في التدريب الطبي؛ فقد أحببت كثافة التدريب قبل أن يصبح المرء جندياً، كما أحببت روح الصداقة والمودة التي تبلورت خلال التدريب. ولكن، قبل أن أكرس نفسي للعسكرية، وقبل السعي لاعتمار القبعة الحمراء، كانت لدي وجهة نظر أخرى وهي النظرة الإنسانية. ولما كنت متدرباً في لعبة الكاراتيه، فقد كنت أعارض العنف والقتل. بالإضافة إلى أن عائلتي ربتني على أن أعارض معاملة إسرائيل للفلسطينيين. نحن اليهود كنا نستحق دولة خاصة بنا في أرضنا التاريخية، وكانت الدولة بحاجة إلى جيش يحمي شعبها. هذه كانت حقوقنا؛ لم يكن لدي شك في ذلك، ولكن الوحشية التي مارسها الاحتلال كانت تزعجني جداً.

في الكلية الطبية وبعيداً عن كل الضغوط، كان لدي وقت لألتقط نَفَسي وأتأمل في ما حولي. وكنت أشعر أنني بين أهلي مرة أخرى، فقد كانت المناقشات ذكية، وكانت هناك تعددية في الآراء. وبكلمات أخرى، كانت كلية وليست قاعدة عسكرية. ولم يكن التدريب الطبي في الجيش محمِّساً ومنضبطاً دون وعي كبقية وحدات الجيش، وبالتأكيد ليس مثل الوحدات عسكرية الطابع. وقد منحني ذلك وقتاً استطعت فيه أن أعيد تقييم هويتي وما كنت أريده.

مع مرور الوقت، أدركت أني لا أستطيع أن أكون جندياً، وبدأت سعادتي بالقبعة الحمراء التي حزتها بعد جهد تنخفض شيئاً فشيئاً، ولم أستطع تجاهل أن ما رأيته كان خطأ. ولكني استمتعت بفكرة تعليم الناس كيف ينقذون الأرواح. فبعد نهاية كل دورة، كان مرشد الدورة يُزكي لقائد الدورة الطلاب المؤهلين للتدرب كمرشدين. وأدركت في ما بعد أن ذلك كان يتطلب عدة معايير. عليك أن تكسب حب هيئة التدريس وتكون لديك معرفة جيدة بالمادة العلمية. وأخطر مطلب كان القدرة على القيادة والضبط أثناء التدريب على المسؤولية الطبية

لثلاثين جندياً؛ كلهم شباب جائعون على الدوام، تغلبهم شهواتهم، مع رغبة في الذهاب إلى البيت.

لقد غمرتني السعادة عندما رشحني المرشدون - في نهاية الدورة الطبية - لكي أكون الضابط المسؤول الذي كان عليه أن يظل في كلية الجيش الطبية كي يصبح مرشداً. وهذا يعني أنني سوف أترك وحدتي وفريق المقاتلين الذي أنتمي إليـه، والذيـن كانـوا أعضـاء في أكثر قوة في إسـرائيل من حيـث التحديث. وكان علي أن أخدم في قاعدة تبعد بضعة أميال عن تل أبيب.

كانت محاولة عسـيرة طويلة. لم تكن وحدتي لتسـمح لي أن أغادرها بعد أشهر طويلة من التدريب، خاصة أنهم كانوا بحاجة لممرض. ومع ذلك، بعد أن أصبحت معوّقاً بعض الشـيء بسـبب العملية الجراحية فقد سـمحوا لي بالذهاب، وكنت أستطيع أن أبدأ دورة المرشد الطبي.

بدأت حياتي العسـكرية الجديدة بقرار سـأترك بموجبه القبعة الحمراء التي بذلت جهداً في الحصول عليها في البيت. ووجدت في البيت قبعة سوداء قديمة، وحـذاء عسـكرياً أسـود، فاعتمرت القبعـة، وانتعلت الحذاء وذهبـت إلى التدرب كمرشد. دُهشَ زملائي والمرشد، فهم لم يروا من قبل شخصاً يتنازل عن اعتمار القبعة الحمراء. وكان ذلك أمراً يبعث على الاستخفاف، ولكن هذه الرموز كانت مهمة في تلك البيئة. وظن الموظفون الذين كانوا يزودونني من آن لآخر بالقبعة والحذاء والبزة العسـكرية أنني جُننت. معظم الشـباب يمكنهم أن يقتلوا حباً في الذهاب للبيت وهم ينتعلون حذاءً بني اللون ويعتمرون قبعة حمراء. أخبرتهم أن بإمكانهم أخذَ قبعتي وحذائي.

استمرت دورة المرشد الطبي شهرين ونصف الشهر، تعلمت خلالها الكثير، وشعرت بإيجابية إزاء ما كنت أقوم به. وعندما بدأت أعلم الطلاب وأعتني بهم حتـى يصبحـوا جاهزيـن تماماً وممرضين مؤهلين، شـعرت حينها أنني كنت فعلاً أخدم بلدي.

فـي عـام 1979، وبعـد عدة سـنين مـن المفاوضات، وقعت إسـرائيل اتفاقية سلام مع مصر، وكان أحد البنود يقتضي إعادة إسرائيل شبه جزيرة سيناء لمصر،

وتفكيك المستوطنات الإسرائيلية التي بنيت هناك. وسيناء صحراء فاتنة بتلالها الرملية التي لا نهاية لها، وجبالها المهيبة، وحيدُها المرجاني على طول ساحل البحر الأحمر. وفيها أيضاً عدد قليل من آبار البترول، وهي المدخل الرئيس لقناة السويس. ومع ذلك، لم يبدُ أن إعادة كل هذه الأشياء كان مشكلة حقيقية لإسرائيل مثل مشكلة تفكيك المستوطنات وإخلاء الإسرائيليين الذين عاشوا هناك.

كان شائعاً أن هذه المستوطنات أقيمت على أرض محتلة. وأي شخص قرر السكن هناك كان يعرف أنه يخاطر؛ لأنه سوف يتم إخلاؤه يوماً ما. ومع ذلك، فقد برزت مشكلة عندما جاء وقت إخلاء تلك المستوطنات التي كانت في القسم الشمالي من سيناء؛ بمحاذاة حدود إسرائيل. فعندما حان وقت الإخلاء استولى بعض المتطرفين من المستوطنين على مستعمرة ياميت ورفضوا الإخلاء سلمياً. ولكن معظم النساء والأطفال كان قد تم إخلاؤهم قبل ذلك، وتم إرسال الجيش ليخرج المتشددين.

وكنت هناك ضمن الفريق الطبي. في الواقع، كان شعوراً جيداً أن أرى لأول مرة في حياتي أن الذين آمنوا بالسلام يتفوقون. بعد كل هذه السنين التي كنت أتعرض فيها للسخرية لأنني داعية سلام محب للعرب، شعرت في النهاية أنني كنت على صواب. واصطف بلدي إلى جانبي؛ وكان الجيش هناك لإخلاء الإسرائيليين المتشددين المسلحين ولإحلال السلام. وابتسمت مفتخراً لأنني كنت جزءاً من ذلك التاريخ. أتذكر كيف كنت واقفاً وأنا أنظر إلى الحافلات المحملة بالمسلحين الإسرائيليين الذين تنقلهم إلى إسرائيل. بعضهم كان يهذي ويحاول أن يقفز من الحافلة وهي تسير. كنت واقفاً إلى جانب صديق كان مبتهجاً بما يحدث عندما قفزت امرأة من الحافلة، وصرخت علينا وهي تسير: «كيف يمكنكما أن تقفا هنا؟! إن هذا يوم مظلم ومرعب لإسرائيل وأنتما تقفان هنا وتبتسمان!».

قلت لها: «بالعكس، هذا يوم لصالح إسرائيل؛ حيث سيصبح السلام واقعاً».

وتحولت السياسة الإسرائيلية. فقد كان هناك مجلس وزراء جديد، واستدعى رئيسُ الوزراء مناحيم بيجن آرييل شارون ليكون وزيراً للحرب. عندما كان

شـارون في الخدمة العسـكرية، كان ينظر إليه باحترام وعلى أنه عسـكري لامع. فقد كانت لديه كاريزما، وكثيراً ما تمت مقارنته مع الجنرال جورج باتون لمقدرته علـى إنهـاء المهمـات على أكمل وجه هو وجنـوده. ولقد كتب أبي وتحدث عن قدرته الفذة كعسكري. وعندما دخل شارون السياسة كان واضحاً أنه رجل لديه رسـالة. فقد آمن أن القتال مع الفلسـطينيين يجب أن يسـتمر حتى نهايته المرة؛ المرة بالنسـبة للفلسـطينيين. ودعت اتفاقيات السـلام للاسـتمرار في المفاوضات وأن تشمل الفلسطينيين، ولكن السلام الشامل كان أبعد شيء عن عقل شارون.

فمن وجهة النظر الإسرائيلية، كانت مصر هي البلد العربي الوحيد الذي كان يمكن أن يتحدى إسرائيل عسكرياً. والآن وقد تم تحييدها نتيجة لاتفاقية السلام، فقد رأى شارون المناخ ملائماً للقضاء على القيادة الفلسطينية التي كانت في ذلك الوقت في المنفى ببيروت، ولتشـكيل حكومة لبنانية يسـيطر عليها المسـيحيون، وتكون موالية لإسرائيل.

كنت في البيت في إجازة عطلة نهاية الأسبوع في شهر يونيو المصيري من عام 1982، عندما بدأت إسـرائيل غزوها العنيف للبنان، وذلك بعد أقل من سـتة أشـهر مـن توقيـع الاتفاقيـة مع مصـر. وتلقيت مكالمة تقول إنه علـي العودة إلى القاعـدة العسـكرية اسـتجابة للموقـف الطـارئ. وهي مكالمـة يتوقعها كل جندي إسـرائيلي في يوم من الأيام. ومباشـرة، ارتديت بزتي العسـكرية وذهبت للشـارع الرئيس أبحث عن سيارة تقلني إلى القاعدة.

كانت القاعدة التي أخدم فيها في صرفند، وهي قاعدة بريطانية قديمة وليست بعيـدة مـن تـل أبيـب. عندما وصلـت للقاعدة، عدد قليل منا بـدؤوا الحديث عن الحـرب المقبلـة. فقـد قيـل إن الاجتياح يصل إلى حوالـى 25 ميلاً داخل جنوب لبنـان؛ الأمـر الـذي قامت به إسـرائيل مرات عديدة كـي تتخلص من مجموعات فلسطينية على حدودها مع لبنان. ولكن، عندما استمرت الحرب، جاءت التقارير من الجنود الذين وصلوا إلى ضواحي بيروت. وكان هؤلاء الجنود يستمعون إلى إذاعة إسرائيل التي تتحدث عن اجتياح «محدود» عمقه 25 ميلاً في جنوب لبنان.

ولكن بيروت أبعد بكثير من 25 ميلاً داخل لبنان. وتقدم جيش نحو عاصمة

دولة لها سيادة لم يكن أمراً بسيطاً. ووصلت أولى الإشارات للإسرائيليين عن الوضع السيئ، بعد معركة شرسة للسيطرة على قلعة الشقيف التي بناها الصليبيون في جنوب لبنان. وقد حملت الطائرة رئيس الوزراء مناحيم بيجن ليرى المكان ويتحدث للجنود. وبُثت الزيارة بثاً حياً مباشراً. وكان هناك ضابط شاب تشي تعابيرُ وجهه بصمته الغاضب. التقى مناحيم بيجن هذا الضابط عندما نزل من الطائرة، وكان هناك شعور يتولد لدى المشاهد عند رؤيته سلوك الضابط بأن الأمور لم تكن على ما يرام.

كانت كاميرات التلفزيون مركزة على بيجن عندما سأل الضابط الشاب: «كيف كانت المعركة؟ هل قاتلوا بشجاعة؟ هل كانت لديهم أسلحة أوتوماتيكية؟». وظل الضابط صامتاً متبرماً، ثم رد بصوت لا يكاد يسمع: «نعم، قاتلوا بشجاعة». وكان واضحاً أن رئيس الوزراء لم تكن لديه فكرة عن قوة العدو. هل كان يتوقع أن يقاتلوا بأقواس وسهام؟!

بعد الزيارة، أعلن رئيس الوزراء مناحيم بيجن أنه تم الاستيلاء على القلعة دون وقوع ضحايا. وتم الكشف في ما بعد أن المقاتلين الفلسطينيين قاتلوا بشجاعة، وأنها كانت معركة شرسة. فقد قتل ستة جنود إسرائيليين على الأقل، والكثيرون سقطوا جرحى. وكان الرائد جوني هرنك من بين الجرحى. وهو قائد واحدة من أفضل وحدات النخبة في إسرائيل. أصبحت أمه قائدة حركة لإنهاء الحرب وإعادة الجنود إلى بيوتهم. كان جهل بيجن بالحرب محرجاً، وكان من الواضح أن آرييل شارون هو الذي كان يدير الموقف.

وكان الاستياء من الحرب في انتشار، وفي أول مسيرة خرجت في تل أبيب ضد الحرب، تحدث أبي قائلاً: «أيها الأصدقاء، هذه أول مرة في تاريخ إسرائيل يحتج الناس فيها ضد الحرب وهي دائرة». وفي ما بعد دعم أبي الجنود الذين رفضوا الذهاب إلى لبنان والمشاركة في الحرب. لقد قال أكثر من مرة إن قصف بيروت وحصارها كانا جريمة حرب لا ينبغي على أي جندي إسرائيلي المشاركة فيها. وعندما استقال إيلي جيفا احتجاجاً على قصف الأهداف المدنية في بيروت، دعم أبي قراره وقال: «لقد كان هذا هو التصرف الأخلاقي الوحيد الذي يمكن أن

تقوم به». وكان إيلي جيفا عقيداً مشهوراً في الجيش، وكانوا يتوقعون له مستقبلاً واعداً. ومع ذلك، لم يتغير شيء، ولم يتصدَّ أحد من مجلس الوزراء ولا من الجيش لشارون حتى تعدى الحدود.

كُتب الكثير عن المجازر التي ارتكبت في المخيمين الفلسطينيين صبرا وشاتيلا غرب بيروت. كان ذلك في شهر سبتمبر 1982، وكانت لدى شارون خطة «لتطهير» الوجود الفلسطيني من بيروت، والسماح لمليشيات المسيحيين اللبنانيين الموالين لإسرائيل، وهم الكتائب، بالسيطرة. وأغلق الجيش الإسرائيلي المخيمين، وسمح لقوات الكتائب بالدخول؛ فأناروا الليل المعتم بفوانيس أضاءت السماء. استمر القتل عدة ساعات دون تمييز تحت أنظار الجيش الإسرائيلي، وبدعم لوجستي من قيادته العليا. في ما بعد، اتضح أن الجنود والضباط الإسرائيليين الذين أدركوا ما كان يحدث وحاولوا تنبيه القيادة تمت طمأنتهم بأن كل شيء كان تحت السيطرة: عرب يقتلون عرباً؛ وهذه ليست مشكلتنا.

تورط شارون في مذابح صبرا وشاتيلا كان سبب سقوطه. وكانت الاحتجاجات الهائلة في إسرائيل وفي كل أنحاء العالم سبباً في تشكيل لجنة تحقيق خلصت إلى أن شارون يتحمل مسؤولية شخصية عن المجزرة. وأجبر على الاستقالة، ومنع من قيادة وزارة الحرب. ولمدة 18 عاماً بعدها، ظل شارون معزولاً سياسياً.

بالعودة إلى قاعدتنا العسكرية، كان العسكريون متحمسين للذهاب إلى لبنان. لقد امتلأوا بروح الحرب عندما وجدوا أنفسهم مسلحين بالأحذية ذات اللون البني التي استلموها من دائرة اللوازم (ربما كان حذائي أحدها). ورجع الذين تم إرسالهم من قبل ومعهم تذكارات معظمها نتيجة السطو. بالنسبة لي، كانت إرادتي للخدمة فوق العادة، ولكني لم أكن لأذهب إلى لبنان أو إلى الضفة الغربية كجندي تحت أي ظرف. ومن حسن الحظ، لم أكن بحاجة إلى ذلك.

كانت تلك هي السنة الأخيرة في الخدمة بالنسبة لي، وشعرت بأنني أصبحت أقل تسامحاً إزاء تلك الأشياء. فلقد كانت الحرب والسياسة تناقضان معتقداتي على الدوام. والكثيرون من أصدقائي الذين كان من المتوقع أن ينهوا خدمتهم

قبلي، تم تمديد خدمتهم من أجل الحرب. وكنت أخشى أن يمددوا لي كذلك. وأصبحت متوتراً وغاضباً بينما الشهور تمر، وانعكس ذلك على عملي وعلى علاقاتي مع رؤسائي.

قال أحدهم: «ميكو لا يستطيع أن يكون جندياً». وتم وصمي أنا وأصدقائي ذوي الميول اليسارية في القاعدة بأننا «شواذ ويساريون». ولم يخفِ أحدٌ منا نحن الذين كنا ننتقد إسرائيل نفسه. وبما أنه لم يكن مقبولاً أن يكون المرء شاذاً جنسياً ولا أن يكون «محباً للعرب»، فقد تم وضعنا جميعاً في سلة واحدة. كنا في إحدى المرات في رحلة جماعية مع الوحدة، واندمجت في حوار ودي مع الضابط المسؤول ونحن في الحافلة. كان مقدماً أحب الجيش وكره الأشخاص الذين على شاكلتي، وكره أصدقائي الذين كانوا ناقدين لإسرائيل وتصرفات الجيش في الضفة الغربية وغزة. وفي لحظة معينة، قررت أن أنصب له فخاً. قلت له: «موشي، (وكنا نادي بعضنا بعضاً بالاسم الأول) إنه لمن السيئ حقاً أنك لا تسكن في مستوطنة في الضفة الغربية».

رد قائلاً: «حقاً؟ لماذا؟ إن هذا شيء رائع للغاية لدرجة أن حدوثه صعب التصديق».

لقد وقع في الفخ.

قلت: «لأنهم سوف يرجعونك في النهاية عندما يعيدون هذه المستوطنات للفلسطينيين». وانفجر كل من في الحافلة ضاحكين. ظل موشي صامتاً طوال الطريق، ولكن أصدقائي أخبروني أنه أقسم أن أدفع ثمن ذلك قريباً عندما نرجع إلى القاعدة. بلغ إحباطه مني في الواقع حدًّا دفعه إلى التقاط كرسي وإلقائه عليّ.

الشيء الوحيد الذي أخذته معي عندما أنهيت خدمة الجيش كان جيلا. كانت هناك الكثير من الفتيات في القاعدة ولذلك كانت الفرص كثيرة. وأثناء السنة الأخيرة، أصبحت جيلا طالبة في دورة النساء الممرضات. أعجب بها المرشدون، وكانت لديها كل المواصفات التي تؤهلها لأن تكون مرشدة؛ ولذلك تمت تزكيتها لتظل حتى تصبح مرشدة. وكان شلومو أمير واحداً من أفضل أصدقائي في القاعدة، وما زلت على تواصل معه. تقاعد شلومو بعد

سـنين، وكان كبيـر الأطبـاء برتبـة عقيـد. وفي ذلك الوقـت كان يحمل رتبة رائد. لم يكن يهتم بالشـكليات والبهارج ولذلك انسـجمنا معاً. كان أمير مسـؤولاً عن مقابلـة المرشـحين وتحديـد من يقبل لدورة الإرشـاد. أذكـر أنني كنت إلى جوار مكتبـه عندمـا جـاء دور جيـلا للمقابلة. لم أكن أعرفها جيداً، ولكني كنت أشـعر أنها فاتنة. كان لديها شعر منسدل على كتفيها، وعينان سوداوان دافئتان وتبدوان وكأنهما تبتسمان لك.

بـدأت جيـلا تدريبها كمرشـدة، ولكن لم نبـدأ بالتلاقي حتى أنهتِ التدريب وبدأتِ التدريس. في ذلك الوقت، كنت في الشهور الأخيرة من الخدمة، وكان قد تبقى لها عام آخر. تواصلت معها أول مرة عندما كانت تعطي درساً في الفصل. شعرتْ بالحرج لما دخلتُ، وتضاحكت الفتيات الخمس والعشرون، اللاتي كانت تدرسهن عندما خرجتْ للحديث معي. قررنا الذهاب معاً لمشاهدة أحد الأفلام. وبعد أن وافقت على الخروج معي، أسـرعت إلى مكتب أمير لأخبره. وأظن أنه فرح أكثر مني.

قضاء الوقت مع جيلا كان نعمة من السماء في تلك الشهور القليلة الأخيرة مـن الخدمـة. فقـد قضينا أوقاتاً ممتعة معاً داخـل القاعدة وخارجها. ولدت جيلا ونشأت في كيبوتس جميل وصغير على الشاطئ، وقضينا وقتاً طويلاً على الشاطئ وفي بركة سباحة هناك.

ومن حسـن الحظ، لم يتم تمديد خدمتي، فانتهت في ديسـمبر 1983؛ بعد سـنتين وعشـرة أشـهر وأربعة عشـر يوماً. أصبحت حراً لأول مرة في حياتي. لقد أنهيت المدرسة، وأنهيت خدمة الجيش، وهما مؤسستان محافظتان جداً لم أكن أشعر بالراحة تجاههما. وفي النهاية، صار بإمكاني أن أقوم بما أردته. لقد كانت تلك الأيام من أجمل الأيام في حياتي.

من المفارقة أنني قبل أن أترك الخدمة العسكرية، تسلمتُ شارة مُنحَت لكل الذين شـاركوا في الخدمة العسـكرية أثناء الحملة على لبنان. كان اسـم الحملة: «عملية سلام الجليل». وفي اللحظة التي تسلمنا فيها الشارات، قام عدة أصدقاء بإلقائها على الأرض ودفناها في القذارة بأحذيتنا.

الفصل الخامس

الكاراتيه

كانت جيلا واحدة من أولئك الأصدقاء القليلين الذين كانوا يعرفون حبي للكاراتيه ويقدرونه. فلقد أحببت تلك اللعبة منذ بدأت أتعلمها عام 1977، حين كنت لا أزال طالباً في المدرسة الثانوية.

كانت مدرسة الكاراتيه، أو ما يعرف «بدوجو»، جزءاً من نادي ألعاب مدرسيّ في حي معالوت دَفنا في القدس. كانت الدروس تشبه في كثافتها التدريب الذي تلقيناه في الجيش من وجوه عديدة. ولذلك، أصبحت مفتوناً بالمتطلبات الشاقة لكل من الكاراتيه والتدريب العسكري. ولكني اكتشفت أن الكاراتيه كانت على عكس العسكرية؛ إذ تقوم على قاعدة أخلاقية صلبة لا تساوم. ففي ليالي القدس الماطرة والباردة، كان سنسي[1] دان، يأخذنا للركض مسافات طويلة ونحن حفاة. وكنا نتوقف في الطريق لنقوم بتمارين ضغط الصدر في برك مياه المطر الباردة، لنجد أنفسنا عند العودة وقد ابتللنا، ولكننا نشعر بالدفء والحيوية. وكنت أحياناً أحضر درسين، وهذا يعني أنني كنت أمكث في «دوجو» من بعد الظهر وحتى الساعة التاسعة مساءً. أذكر كيف كنت أجلس في حافلة آخر الليل عائداً للبيت، وأنا أفكر في العشاء الذي أعدته أمي وما زال ينتظرني.

وعلى عكس التدريب العسكري، حيث كان الهدف كسر إرادتك وتحويلك إلى قاتل، أراد سينسي دان أن يبنينا ويطورنا كي نصبح واثقين بأنفسنا ورحماء. وتقوم أوكناوان والفنون القتالية اليابانية على مبادئ أخلاقية راسخة؛ فيتم تعليم طالب الفنون القتالية ألا يسيء استخدام قوته. ولا يختلف الفن الذي أمارسه وهو

---

(1) سنسي كلمة يابانية تعني المدرب؛ المترجم.

أوكناوان غوجو – ريو كاراتيه – دو[1] في ذلك عن بقية الفنون. فبينما تخلط الثقافة الشعبية بين الكاراتيه والعنف، فإن الحقيقة هي أن الكاراتيه – مثل بقية الفنون القتالية – تدعو إلى فلسفة المودة والرحمة والابتعاد عن العنف.

وقد كان مدربنا دان رسل – والذي كنا ندعوه سنسي دان – بريطانياً قرر أن يعيش عدة سنين في القدس. وقد كان طالباً يدرس التأمل على مذهب البوذية المنتشرة في التبت قبل أن تصبح أمراً شائعاً. وقد علمه التأمل الأستاذ تشوغيام ترونغبا؛ المعلم المعروف للبوذية التبتية، وكان من روادها في الغرب. لقد عرف دان ترونغبا جيداً وتحدث كثيراً عنه وعن منهجه الفريد في تأمل الحياة. تعود أصول سنسي إلى مدينة نيوكاسل، وقد حصل على درجة الماجستير من جامعة كامبردج. وقد عرّفه أحد زملائه في دراسة التأمل برياضة الكاراتيه. وحسب ما يقوله فقد «أسرته» تلك الرياضة بما يكمن فيها من «طاقات ذهنية وروحية هائلة».

وبمجرد أن بدأتُ التدرب، أسرتني بمزجها بين اللطف والجمال والكثافة. فكنت أشاهد لأوقات طويلة الطلاب الذين كانوا أعلى مستوى مني وهم يؤدون أدوارهم. كان هذا في وقت بدأت فيه الأفلام الصينية عن الفنون القتالية تظهر في الغرب. وقد ذهبت للسينما وشاهدت جميع تلك الأفلام. لقد كان دان معلماً قاسياً، ورغم أن الدروس كانت تتطلب قوة جسدية، فقد كانت تزدحم بالطلبة التواقين للتعلم والتدرّب. وكان لديه عدد قليل من المرشدين المساعدين، ولم يكونوا كلهم أكبر مني بكثير، وكانوا يعرفون كيف يقلدون شدته. لقد كان من الواضح لي منذ البداية أنه كان علي أن أختار ما بين السباحة والغرق، ولم أكن أريد الغرق.

وأدركُ الآن أنني وجدت الكاراتيه في مرحلة من حياتي لم يكن هناك ما يناسبني فيها غير الكاراتيه. فقد شاركت في النشاطات الرياضية في المدرسة لعدة سنين، وكان معظمها حول الركض والقفز. ولكن مع مرور الوقت، شعرت بعدم الرضا وبالملل، ولم أر طائلاً من الاجتهاد من أجل هزيمة شخص في

(1) وهو أوكناوان غوجو – ريو واحدة من الأشكال الأصلية من الكاراتيه، وتتميز بأنها حافظت على شكلها الأول، وطرق التدريب التقليدية الخاصة بها كما حافظت على أصولها الأخلاقية المنضبطة.

منافسة قفز أو ركض. لقد كنت أبحث عن شيء فيه معنى بالإضافة إلى التحدي الجسدي. وتنطوي الكاراتيه على فلسفة تتناول كل القضايا التي كنت أهتم بها في تلك الأيام وما زلت. كانت من بينها فكرة فهم العنف، وصعوبة تعريف اللاعنف، وكيفية التغلب على خصم يبدو من المستحيل هزمه معنوياً، وعلاقة العقل بالجسد، وطول العمر، والصحة.

الفنون القتالية التقليدية تأخذ في الاعتبار أننا نتغير جسدياً وعاطفياً أثناء عملية النضج. وهذا الأمر يسمح لنا بممارسة مهاراتنا وتحسينها حتى ونحن نكبر. وقد جذبتني على نحو خاص حقيقة أن التحدي في الكاراتيه لم يكن التغلب على الآخر قطّ، بل التغلب على أفكاري المسبقة عما كنت أستطيع إنجازه وما لم أستطع إنجازه. وقد ساعدني هذا في ما بعد وأنا في أصعب مراحل التدريب في الجيش. ففي التدريب الأساسي، كان يبدو لنا دائماً أننا يجب أن نحاول القيام بالمستحيل، ولكن الفكرة هي أنه لم يكن في ذهني أي مكان للمستحيل، وقد ساعدني هذا على المثابرة.

في الدوجو انتقلت بسرعة من الممارسة يومين في الأسبوع إلى ستة أيام، وأدركت أنها لم تكن بالنسبة لي مجرد هواية. وقد كان سنسي دان يعود إلى بريطانيا، وفي غيابه كان مساعده يدربنا. ولم يطل الوقت حتى كنت واحداً من المرشدين، واكتشفت أنني أحببت تعليم الكاراتيه.

قال لي سنسي دان يوماً قبل أن يبدأ الدرس: «لك عندي مفاجأة». وقدمني إلى صديقه ومرشد الكاراتيه، سنسي جورج أندروس، وهو رجل إنجليزي فخور بنفسه، وعاش معظم حياته في أحياء شرق لندن ذات الطبيعة الخشنة. وكان يتحدث باللهجة الكوكنية[1]، ويحب كوب الشاي الإنجليزي كما أحب البيرة. وقد تعلم الكاراتيه كي يحمي نفسه في الشوارع القاسية الطبيعة أثناء طفولته، أو كما يقول بلهجته الكوكنية: «أكره الهرب، ولذلك كان علي أن أتعلم كيف أقاتل، أليس كذلك؟». وأصبحت الكاراتيه أخيراً خياراً روحياً لجورج، وأصبح معلم كاراتيه مميّزاً.

---

(1) لهجة محلية من لهجات اللغة الإنجليزية، منتشرة في شرق لندن؛ المترجم.

وعندما التقيا، شجعه دان رسل على أن يترك بيئته حيث كان شرب المسكرات والقتال طريقة حياة. ونصحه بالمجيء إلى إسرائيل لتعليم الكاراتيه لعدة أشهر. أحب جورج إسرائيل، وأصبحت المكان الذي يذهب إليه في العطلة، كما علّم فيها الكاراتيه لشباب بعيونٍ لامعةٍ مثلي. التقيت سنسي جورج أول مرة في عام 1979؛ إذ تم إخبارنا بأننا سوف نذهب لبحر الجليل في رحلة لمدة أسبوع، يسمى ذلك في اليابانية «جاشوكو». وكانت لدى أحد الطلاب شقة على البحيرة، وقضينا الأسبوع بكامله هناك ضيوفاً عليه. تدربنا وأكلنا ونمنا، ثم تدربنا مرة أخرى في الخارج على ضفتي بحر الجليل. تعلمنا كثيراً، وأصبح جورج بطلاً وقدوة عظيماً بالنسبة لنا. وعندما ذهبت للتجنيد، قررت أن أذهب إلى لندن بعد أن أنتهي من التدريب العسكري وأتدرب في «الدوجو» الخاص به، وفي أي لحظة كنت أشعر فيها بالتعب والإرهاق من شدة التدرّب، كان هذا الشعور يدفعني للمواصلة.

عندما أنهيت التدريب العسكري، التقيت عدداً قليلاً من أصدقائي الذين كانوا معي في «الدوجو» القديم، وكنا نذهب في بعض الأحيان ونتدرّب في بيت أحدهم أو حتى في الهواء الطلق في واحدة من حدائق القدس. في ذلك الوقت، كنت أشعر بالدافعية للعمل من أجل السلام. وقد حصل ذلك بعد الحرب على لبنان ومذابح صبرا وشاتيلا، وبعد توصيات لجنة كاهان[1] التي حققت في المذابح وخلصت إلى أن وزير الحرب أرييل شارون مسؤولاً بشكل شخصي عن المذابح. وقد رأت اللجنة أن جهل شارون وإهماله في حماية السكان المدنيين في بيروت - التي أصبحت تحت السيطرة الإسرائيلية - ارتقيا إلى الإهمال في أداء الواجب، وتمت التوصيات بأن يطرد من منصبه كوزير حرب. وقد رفض رئيس الوزراء مناحيم بيجن أن يطرده، ورفض شارون أن يستقيل. وفي 10 فبراير 1983 قامت منظمة غير حكومية اسمها الآن السلام بتنظيم مسيرة إلى القدس كي

(1) وهي لجنة تقصٍّ للأحداث التي حصلت في مخيمات اللاجئين في بيروت، وتم تشكيلها من قبل الحكومة الإسرائيلية في 28 سبتمبر 1982 بهدف التحقيق في مذابح صبرا وشاتيلا. كان رئيس لجنة كاهان هو رئيس المحكمة العليا، القاضي يتسحاق كاهان.

تطالب مجلس الوزراء، الذي كان بيجن يرأسه، بقبول توصيات لجنة كاهان وطرد شارون. كان المزاج العام متوتراً، وكان هناك الكثير من المعارضة للمسيرة من قبل الجناح اليميني الإسرائيلي المتشدد.

في ذلك المساء كان موعد درس الكاراتيه، وكان علي أن أقرر ما إذا كنت سأذهب إلى الدرس أو أشارك في المسيرة. وكان ذلك أكثر بكثير من تضارب مواعيد، لقد كان خياراً صعباً بالنسبة لي؛ اختياراً بين طريقين مختلفين تماماً. وظللت ممزقاً عدة أيام. وبعد تفكير، قررت أن أساهم في هذا العالم كمعلم كاراتيه وليس كناشط سياسي، وذهبت إلى الدرس. وفي تلك الليلة، وبينما كان المحتجون مجتمعين أمام مجلس الوزراء في القدس، قام أحد أعضاء واحدة من المنظمات اليهودية الإرهابية بإلقاء قنبلة على الحشد، فقتلت ناشط السلام إميل جرنزويج وجرحت تسعة ناشطين سلام آخرين. لا أحد يعرف أين كنت سأقف لو أنني شاركت، وماذا كان يمكن أن يحصل لي.

وبالنسبة لي، لقد كانت تلك اللحظة نقطةَ تحول؛ رغم أنني شعرت ليلتها أنني اتخذت القرار الصائب بالذهاب إلى درس الكاراتيه. غير أنني سأغير رأيي وأعود للنشاط السياسي بعد سنين طويلة.

في صيف ذلك العام، سافرت أخيراً إلى إنجلترا للتدرب مع سنسي جورج. وقد كان جدُ جيلا وجدتُها يعيشان في لندن، وتكرما بالسماح لي أن أمكث عندهما. وكان منزلهما في حي ميل هيل في شمال لندن، وهو حي تسكنه علية الناس. تدربت مع سنسي جورج لمدة شهر، ثم ذهبت لأرى سنسي دان الذي كان قد عاد إلى المملكة المتحدة، وكان يعيش على الحدود الاسكتلندية الإنجليزية. ونويت حينها أن أمكث وقتاً طويلاً، ولكني اشتقت إلى جيلا بشدة، ولذلك قطعت الرحلة وعدت.

قال دان: «لا تعد بالطائرة، إنها مملة». وأضاف: «انزل إلى الطريق، وستفاجأ بعدد الناس الطيبين الذين ستلاقيهم». وكانت توجيهاته أن أتجنب فرنسا وأعود عن طريق ألمانيا. وبدلاً من الذهاب مباشرة بالطائرة إلى إسرائيل، أخذت المعدية

من دوفر إلى هولاندا، وتنقلت مع الناس في سياراتهم[1] من أوروبا إلى إيطاليا، ومن هناك أخذت الطائرة إلى إسرائيل.

بحلول نهاية العام، أنهت جيلا خدمتها العسكرية. وفي فبراير 1984، قررنا السـفر إلـى إنجلتـرا معـاً. وقـد كنت عازماً على مواصلة التدرب على يد سنسـي جـورج، وكانـت جيـلا مبتهجة لأنها سـتخرج وتـرى العالـم. وكان حلماً يتحقق بالنسبة لي أن أعيش وأتدرب في لندن. لقد أُعجبت بسنسي جورج، وأردت أن أعيش في مكان حيث يمكنني الالتزام بدوام كامل في الدوجو.

جيـلا وأنـا اسـتقللنا حافلـة من تـل أبيب إلى القاهرة، وقضينا أسـبوعين في مصـر، ثـم أخذنـا الطائـرة إلى اليونان، ومن ثم انتقلنـا بالمعدية إلى إيطاليا، ومن هناك بالقطار إلى لندن. ورغم أن السفر إلى لندن كان مغامرة بلا نهاية واضحة، فقد كانت نيتي دائماً هي العودة للقدس وتعليم الكاراتيه هناك.

مكثنا في لندن سنتين؛ عملَ كلانا خلالهما، وأنا تدربت قدر الإمكان. كانت لندن باردة ورطبة وغير مريحة، ولم يكن لدينا نقود. فقد عشنا في الأشهر الأولى في شقة صغيرة تحت الدوجو، وكانت تلك الشقة تستخدم كمخزن. ولكن بمجرد أن انتظمنا في أعمالنا، انتقلنا إلى شقة في بركستون هيل واستقرت حياتنا.

وكان الدوجو[2] الخاص بسنسي جورج في منطقة ينتشر فيها العنف، وهذا يعنـي أن النـاس عنيفـون كذلـك. وكان الدوجـو يقع في بنايـة تاريخية قديمة في شـارع كامبرويل واسـمها مصنع الرخام. كانت تبعد ميلاً تقريباً عن محطة القطار المعروفـة؛ إيلافانـت آند كاسـل. هناك لم يكن للشـبابيك زجـاج، ولم نجد نظام تدفئة ولا تبريد، ولذلك كان الشتاء شديد البرودة والصيف شديد الحرارة.

وكان لدى جورج حس رائع بالسـخرية، ولا مكان عنده للكسـل. لم يكن يعنيـه مـن أنـت، ولكنه يؤمن بأنك إذا لم تعرق وأنت مبتهج، فسـوف يعلمك أن تعرق وأنت تعاني. كنت قبل ذلك قد تدربت في الدوجو في القدس، كما كنت

(1) كانت تلك العادة منتشرة في أوروبا قبل عقود، حيث يقف المسافر على الطريق السريع وينتظر حتى تأتي سيارة فيقف له صاحبها، ويأخذه معه دون أجرة؛ المترجم.

(2) الدوجو كلمة يابانية معناها مدرسة تدريب الكاراتيه.

قد تدربت في العسكرية، ولذلك كنت جاهزاً لتدريب سنسي جورج، وللمتطلبات الجسدية اللازمة لدروسه. ومع ذلك، كنت أرى الانسجام بين نواياه ومبادئ الكاراتيه، إذ كان يسعى لبناء طلابه ويساعدهم لكي يكونوا أناساً أفضل.

وعندما أشرفت السنتان على النهاية، وقع لي أمران مهمان. جيلا وأنا تزوجنا، وكانت مراسيم زواجنا متواضعة وتمت في ساوثورك، بلندن. وحضر المراسيم كلّ من روز؛ والدة جيلا، وعمتها نوني، وكذلك حضر صديقانا تشارلي رامبل وزوجته فرانسيس. وجاءت أختي أوسي برفقة زوجها حاييم إلى لندن لحضور المناسبة. وبعد ذلك، ذهبنا نحن الأربعة بالسيارة في رحلة إلى ويلز. والشيء الثاني هو أنني حققت حلمي وحصلت على الحزام الأسود في أوكناوا غوجو – ريو من سنسي جورج.

وبعد أن حصلت على الحزام الأسود، أدركت أنني يجب أن أتعلم أكثر. وكنت أعلم أن كاراتيه غوجو – ريو، فرع أوكناوان الذي كنت أمارسه يوفر عمقاً كبيراً لي، ولم أرد أن أخسر شيئاً منه. وتحدثت مع سنسي جورج فاقترح أن أسافر إلى اليابان كي أكمل التدرّب مع موريو هيغونا، المدرب الأول لكاراتيه غوجو – ريو.

وتساءلت مندهشاً: «هل يمكنني أن أذهب وليس معي غير الحزام الأسود؟ ما زلت في الدرجة الأولى، هل يمكن أن يقبلني؟». وقال جورج إنه سيتحدث مع سنسي. وبما أن جيلا وأنا كنا نريد أن نسافر إلى آسيا على أي حال، فقد قررنا الذهاب إلى اليابان.

لقد أسرتني الكاراتيه بالكلية في تلك الفترة، وكل ما أردته هو أن أتدرب وأتعلم أكثر، وكان ذلك من أيسر القرارات التي اتخذتها في حياتي. لم أكن أتعجل العودة إلى إسرائيل، فقد رأيت أنني بمجرد أن أنهي التدرب سأعود إلى القدس كي أعلم الكاراتيه. وكنت حينها قد قررت أن هدفي أن أصل إلى الحزام الأسود درجة ثالثة، وهي الرتبة المناسبة ليصبح المرء مدرباً.

كنت مسروراً جداً لأنني سأذهب لليابان، وبإمكاني القول إن كل أفكاري وتوقعاتي المسبقة قد تبخرت عندما وصلت إلى طوكيو في أكتوبر 1985. لا

أستطيع تبين السبب، ولكني توقعت مجتمعاً حديثاً جداً، يتحدث كل شخص فيه الإنجليزية، وكل شيء يتحرك بسرعة وبكفاءة. غير أن ما وجدته هو أن الذين يتحدثون الإنجليزية قليلون للغاية. والناس الذين التقيتهم كانوا ودودين ومؤدبين؛ يهبون للمساعدة تاركين مصالحهم. ولكني كنت أشعر أن اليابانيين جعلوا بيني وبينهم حاجزاً لأنني كنت «غيجن»، أي «غريب». كانت مراكز المدينة الكبرى في طوكيو سريعة وصاخبة. ولكن، عندما ذهبت إلى الأحياء السكنية، رأيت الحياة تتحرك بوتيرة مختلفة؛ إذ كانت التقاليد اليابانية القديمة هي الناظمة للحياة هناك.

توقعت أن يصطف الطلاب طوابير بالمئات للتدرّب على يد المعلم هيغونا لشهرته العالمية؛ إذ تشير التقارير إلى أنه درب في طوكيو لأكثر من عشرين سنة، وكان لديه أكثر من ألف طالب. ولكنه كان قد عاد إلى طوكيو للتو بعد أن أمضى بضع سنين في بلده أوكناوا. وقد قل أتباعه عن ذي قبل، بل لم يكن لديه دوجو دائم خاص به، فكان يعلم في عدد من الدوجيات[1] في أنحاء طوكيو.

لم يكن شيء من ذلك مهمًّا. فقد استمتعت بكل جوانب الحياة في اليابان، وكان التدريب على الكاراتيه صارماً، وفي بعض الأحيان مؤلماً، وهذا ما أردته. كنت أتدرب مرتين، وفي بعض الأحيان ثلاث مرات في اليوم، خمسة أيام في الأسبوع. وقضيت ما استطعت من وقت مع سنسي هيغونا. في ذلك الوقت، كان المتدربون غالباً من بريطانيا، وأستراليا، ونيوزيلاند، وأوروبا. معظمهم جاء لكي يقضي عدة أسابيع للاطلاع على الكاراتيه في اليابان. وكان بمقدوري أن ألتقي أعظم المعلمين اليابانيين من خلال العالم التقليدي للفنون القتالية، وأدركت الاحترام الهائل الذي يكنه بقية المعلمين من جميع فروع الكاراتيه لمعلمي الجديد.

جيلا وأنا التقينا إسرائيليين هناك بعد فترة قصيرة، وعشنا جميعاً في «غيجن هاوس»، حيث كنا نستأجر غرفة. وكانت تلك هي المرة الأولى التي نتواصل فيها مع إسرائيليين منذ غادرنا إسرائيل، وقد راقنا ذلك؛ رغم أن جيلا شعرت أنها بين أهلها أكثر مني. ومع أننا لم نتحدث كثيراً في السياسة مع الإسرائيليين الآخرين،

(1) جمع دوجو.

إلاّ أنهم عرفوا سريعاً أنني ابن ماتي بيليد، وتعرفوا على موقفي من القضايا الهامة.

وقد كنت بعيداً عن المجموعة لأنني كانت أتبع نظاماً صارماً جداً، يتطلب جهداً هائلاً. فقد كنت أذهب ستة أيام في الأسبوع للتدرّب وأبدأ يومي من الساعة 8:30 صباحاً، ولا أعود حتى منتصف الليل. وكان لدى شركائنا في البيت وقت فراغ أكثر مني، حيث كانوا يستيقظون عند الظهر ويجلسون معاً قبل الذهاب للعمل أو الاستكشاف. وكنت أعود للبيت مرهقاً وأذهب للنوم مباشرة، بينما كان الآخرون يتسامرون حتى الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً. وأدى هذا إلى شيء من الخلاف بين جيلا وبيني؛ إذ كانت تريدني أن أنسجم أكثر مع الآخرين.

ومع ذلك، استمتعت بأنني كنت مع إسرائيليين، وشعرت أنهم جميعاً كانوا يحترمون ما أقوم به. ولكي أجمع بعض المال، كنت أعمل نادلاً في مطعم فرنسي فاخر اسمه لاسكالا بمنطقة كوجيماشي الغنية بطوكيو. وكان في المطعم بيانو في الطابق العلوي، وكان العازف إيطالياً اسمه سيرو. وربما كان يشعر بالملل أحياناً أو يحتاج إلى شراب فيعزف لحن الأغنية الإسرائيلية (هافا ناجيلا) فأصعد إليه ونتحدث.

كان التدريب يبدأ كل صباح من الساعة العاشرة حتى الظهر. ثم أذهب بعد ذلك مع هيغونا برفقة طالب أو طالبين لتناول الغداء. وعلى الغداء، كان هيغونا يحكي لنا قصصاً ويحدثنا عن أشياء ممتعة. وتحدث مرة عن أستاذه أنيشي مياغي الذي لم يكن يحب الأضواء ولم يعرفه الكثيرون. قال هيغونا، مشيراً إلى سياسية أستاذه في التعليم: «إذا لم يرَ الناس، فلن أخبرهم». كان يؤمن أن المعرفة يجب أن تؤخذ بالاجتهاد. في ذلك الوقت، كان يجري بحثاً مكثفاً عن جذور لعبة كاراتيه غوجو - ريو وتاريخها، وكان يحدثني عن نتائج بحثه كثيراً. كنت سعيداً لأنني هناك، بل حزت فرصة أن أتدرب مرات كثيرة على يد سنسي مياغي عبر السنين.

وفي يوم من الأيام، قال سنسي هيغونا لي باليابانية: «أكتوبر يو نيدان[1]

---

(1) درجات الحزام الأسود تُسمى «دان» باليابانية، وهي تعني مستوى. ونيدان هي الدرجة الثانية، أو هي الدرجة الثانية بعد الحزام الأسود.

جردنج»، ويقصد: يمكنك أن تقدم لاختبار الحزام الأسود درجة ثانية في أكتوبر. شعرت بالدهشة. لم أحصل على الحزام الأسود، درجة أولى إلا قبل عام، ولذلك فإن حصولي على الدرجة الثانية بهذه السرعة يعني مكافأة كبيرة وتميّزاً. في ما بعد، قالت لي زوجته، وهي أمريكية ومتدربة كاراتيه: «ميكو، لقد كنت تتدرب باجتهاد، وهذه مكافأتك التي تستحقها بعد كل تلك الساعات الكثيرة من التدرب المضني الذي قضيت فيه وقتك منذ جئت لليابان». لقد كنت سعيداً جداً لسماع إطراء لقاء اجتهادي بعد سنة قضيتها مع أستاذي المتحفظ. وكانت تلك واحدة من مرات قليلة مدحني فيها؛ ولو بشكل غير مباشر.

أعتقد أن سنسي هيغونا كان يشبه أبي من عدة نواحٍ. هيغونا لم يعبر بوضوح عن إعجابه أو قلقه. ومعظم الوقت، كنت أظن أن اجتهادي لا يعني له الكثير؛ إلا ما ندر. ولم يكن بعيداً عن والدي في عادته، فقد كان يتحدث قليلاً ولكنه إذا تحدث فقد كان يحاضر... ولا يرى لزوماً لأن يتحدث الآخرون أو يقدموا آراءهم. في هذه الأثناء، كنت معجباً بتمكنه من الكاراتيه وسلطته تماماً؛ كما كنت مأخوذاً بذكاء أبي، وإنجازاته العسكرية، وفي المحصلة بشخصيته الكلياتية. وبعد ذلك بسنوات، وذلك بعد أن أصبحت أباً ومدرساً، أدركت النقص الكامن في هذا النوع الصامت من الكلياتيين. وأشعر أنّه تعبير عن شعور حاد بعدم الأمان. إن عملية طلب الكمال التي لا تنتهي وساعات التدريب الطويلة التي فرضها هيغونا على نفسه ما زالت تذكرني بمنهج أبي الصارم وتكريسه نفسَه ووقتَه لعمله.

في تلك الأثناء التي حصلت فيها على الترقية الجديدة، توفرَ لنا – أنا وجيلا – مال كافٍ يمكننا من تحقيق حلمنا بالذهاب في رحلة إلى آسيا. وقد دعانا صديقنا القديم تشارلي رامبل الذي كان يعيش في كاتاماندو لنقضي بعض الوقت عنده. وكان تشارلي قد حضر زفافنا، وكان زميل تدريب في دوجو لندن، وحصل على دكتوراه من جامعة أكسفورد. وقد كنا نعلم أنه سوف يرشدنا إلى الوجهة الصحيحة في سفرنا، وقررنا أن نبدأ من عنده. وقد قضينا شهرين ونصف الشهر في النيبال ونحن نسافر ونخرج في رحلات مشي طويلة. وكانت النيبال متخلفة،

وليس فيها نظام صرف صحي فكان الوضع سيئاً للغاية. ولكن في الوقت نفسه، كانت مكاناً فاتناً. ومرضت جدًّا بالأميبة وخسرت حوالى عشرة كيلوجرامات. واقترحت جيلا مرة أن نذهب لنرى منجماً هندياً يعيش في كتامندو، وكان اسمه إندو، وهو سليل عائلة منجمين عريقة. وكانت المشكلة هي أنه كان علي أن أعرف التوقيت الدقيق لميلادي، والوسيلة الوحيدة كانت الاتصال بأمي. وبينما كان جرس الهاتف يرن، وكنت أنتظر أن يرفع أحدٌ السماعة، وجدت نفسي مشغول الفكر في من سيرد: «اللهم اجعلها أمي، لأنني لا أريد أن أضطر لتفسير هذا لوالدي». ولما رفعت السماعة جاء صوت أبي المتعجل «هلو» على الناحية الأخرى، وتبادلنا الحديث، فحاولت أن يبدو الأمر وكأنه عادي وسألت أبي: «هل تذكر الساعة التي ولدتُ فيها؟».

لقد كان ذكياً جداً، وسألني: «لماذا؟ هل ستذهب للقاء مُنَجم؟». ولم يكن بإمكاني أن أخفي نيتي؛ الأمر الذي بدا له سخيفاً. ولم يكن عندي خيار غير الاعتراف بأن هذا بالفعل ما دفعني للسؤال عن التوقيت. لم يستهجن الفكرة، ولكنه كان رجلاً عقلانياً، ولم يزد رد فعله عن قوله: «حسناً، لكن لا تأخذ ما يقوله على محمل الجد».

نصحنا تشارلي أن نسافر براً من النيبال إلى الهند. وبالنسبة لي، كانت الهند حباً من أول نظرة. نعم، كان الفقر واسع الانتشار، ولكن ذلك لم يخف جمال البلاد وأهلها الهائل. أخذنا الحافلة من الحدود، وبمجرد أن رأيت الأرض الهندية شعرت بثراء تلك البلاد: أنهار كبيرة، وغابات لا نهاية لها، ومناطق زراعية ضخمة، وريف واسع جداً.

كانت رحلة طويلة. ولأن المواعيد في الهند مختلفة عن الغرب واليابان - وبكلمات أخرى، لم يكن للاهتمام بالمواعيد أولوية هناك - ولذلك لم نكن نعرف متى يمكن أن نصل إلى وجهتنا. فقد كانت الحافلة تتوقف عدة مرات على الطريق ليتمكن الناس من شراء الشاي والطعام. كان بائع الشاي يجهز إبريق شاي كبيراً بالحليب والتوابل الهندية. وكان يقدم الشاي في كأس على طبق. وأذكر أول مرة رأيت فيها هندياً وهو يصب الشاي في الطبق ويشرب الشاي من الطبق

بدلاً من الكأس أنني تساءلت مستغرباً: «لماذا يفعل الناس هذا؟». وخطر لي في ما بعد أنها كانت طريقة لتبريد الشاي وجعله سهل التناول.

وصلنا إلى وجهتنا، وهي باتنو، عاصمة ولاية بِهار بعد منتصف الليل، بدلاً من الوصول في الوقت المقرر وهو التاسعة مساءً. وكانت المدينة هادئة تماماً، ولم نرَ أحداً في الطرقات. ومشينا لبعض الوقت ونحن لا ندري ما نفعل، عندما جاء سائق عربة صغيرة لها عجلتان، وعرض أن يأخذنا إلى فندق. استرحنا تلك الليلة، وفي اليوم التالي ارتحلنا إلى بودهغايا، وكنا نسير على خطى غوتاما بوذا.

لم أزر يوماً بلداً بمثل ذاك الجمال والكرم. وشعرت أن تلك البلاد وأهلها كانوا يقدمون الكثير ولا يريدون إلا القليل بالمقابل. فعندما زرت تماثيل جبل «أبو» الضخم أو الفن المعماري الآسر في فاتابيور سكري بالقرب من أجرا، فكرت في أعمال فنية ومعمارية عظيمة يراها المرء في إيطاليا. في الهند، ليس هناك ذكر لاسم الفنان أو المعماري على العمل الفني أو المعماري، وكأنها كانت على عكس الوضع في الغرب حيث يظهر اسم المبدع على مقدمة المبنى في إشارة إلى ارتباط كل مبنى باسم صاحبه. ولم يكن هذا يعني أن الفن المعماري في الهند كان أقل جمالاً من نظيره في أوروبا، ولكني شعرت أن المبدعين في الهند كان لديهم حس عالٍ بالتضحية والكرم والتجرد.

في فبراير 1987، وبعد فترة شهرين ونصف الشهر قضيناها في الهند، عدنا إلى اليابان لنواصل العمل والتدريب. وبعد عدة أشهر، ألقى سنسي هيغونا قنبلة: «سنسافر إلى أمريكا، إن أردت المجيء فأهلاً وسهلاً بك». فقد قرر وهو وزوجته المولودة في كاليفورنيا أن يأخذا ابنهما ويعيشا في جنوب كاليفورنيا حيث قررا أن يفتحا دوجو. وكنت بحاجة إلى الدرجة الثالثة بعد الحزام الأسود، ووجدت أن الذهاب إلى كاليفورنيا بعد كل تلك السنين يشدني. ولذلك كان واضحاً جداً لي أنني سأتبعه، ووافقت جيلا.

وقررنا أن نزور إسرائيل قبل الذهاب للولايات المتحدة. وكانت تلك هي زيارتنا الأولى منذ غادرنا عام 1984. قضينا ستة أسابيع مع عائلتينا، وشعر كلانا أننا لا نريد أن نغادر. فقد أدركنا كم كان حبنا وشوقنا لوطننا وأهلنا. في ذلك

الوقت، كان لدى أخي وأختيّ أطفال صغار، وكنا نود أن نكون جزءاً من ذلك. ومن نواحٍ عديدة، كان البقاء أسهل بكثير من البدء في رحلة أخرى إلى بلد جديد. ولكن شيئاً ما كان أقوى في نفسي من كل ذلك، وكان يشدني بعيداً. وشعرت أنني يجب أن أواصل التدرّب والدراسة، فما أنجزته في ذلك الوقت لم يكن كافياً. قررنا الذهاب إلى كاليفورنيا والبقاء هناك سنتين، وهو وقت كافٍ للحصول على الحزام الأسود، درجة ثالثة. أما بالنسبة لجيلا فقد كان مناسباً لها أن تدرس شيئاً، رغم أنها لم تكن قد قررت بعد ما هو. ولما اقترب وقت السفر، كنا نشعر بالتمزق والانكسار.

وصلنا إلى لوس أنجلوس في يوم الهالوين وذلك عام 1987، وكان معنا 3000 دولار. وكنت أشعر أنني أعرف لوس أنجلوس وأذكرها بإعجاب. أخذنا أحدُ الأصدقاء في السيارة إلى سان دياغو حيث فتح سنسي هيغونا الدوجو الخاص به. وصلنا ليلاً، ولبست بزتي وذهبت للتدرب مباشرة. وفي اليوم التالي، تم الافتتاح الكبير للدوجو، أو مراسيم الافتتاح كما يسمونها، واستعرضت ضمن الحائزين على الحزام الأسود.

في البداية، شعرنا أننا وحيدان وتائهان في الولايات المتحدة، ولكن سرعنا ما بدأنا التركيز. وقضيت ساعات طويلة في التدرب مع سنسي هيغونا، والتدريس في الدوجو الخاص به، والعمل بمهن مختلفة. وعملت جيلا كمربية أطفال، وأخيراً انتسبت إلى مدرسة تعلم العلاج بالإبر الصينية. ولكن ذلك لم يكن سهلاً؛ فأنا لم أرد أن أعمل نادلاً. وأذكر أنني عملت في أحد المطاعم وتظاهرت أنني من أهل المنطقة، ولكني في الحقيقة لم أكن أعرف محتويات قائمة الطعام. وجاء أحد الزبائن وطلب سلطة ليس فيها خبز محمص، ولم أكن أعرف ما يريده، ولذلك أحضرت له سلطة مليئة بالخبز المحمص. وكنت أنتظر اليوم الذي أستطيع فيه أن أحصل على المال بطريقة أخرى.

في عام 1989، حصلت على الحزام الأسود درجة ثالثة، وصرت جاهزاً لأفتح الدوجو الخاص بي عندما تحين الفرصة. وأخبرني أحد معارفي اليابانيين بأن سنسي هيغونا سيفتح مدرسة للكاراتيه وطلب منه أن يرشح له مدرباً يدير

المدرسة ويعلم فيها. ولقد كان ذلك بداية مهنة رائعة وفيها إنجاز. في الحقيقة، كان ذلك حلماً جديداً يتحقق، وغادرت فكرة العودة إلى القدس والتدريب فيها عقلي تماماً. ومنذ تلك اللحظة فصاعداً، أدى شيء ما إلى شيء آخر، ولم يكن هناك مفر من الاستمرار.

فتحت مدرسة الكاراتيه في 27 مايو 1989 في منطقة سكانية في سان دياغو. وقد ساعدني بضعة أصدقاء في تغيير الجدران وتحويل بيت عادي إلى صالة للتدرب على الكاراتيه. وزينا عمودين والمظلة الأمامية بكلمات يابانية هي غوجو – ريو كاراتيه – دو. لم يخطر لي أنني أحتاج إلى لوحة بالإنجليزية. ولما فكرت في وضع لوحة إلى جانب رقم الهاتف على إحدى النوافذ، بدأ الناس يتصلون. وبعد عام، صار عندي 10 إلى 15 طالباً، واحتجت أن أنتقل إلى مكان آخر. ووجدت طابقاً تحت الأرض في بناية جديدة على الناصية.

في السنة التالية وهي 1991، كان المطر في سان دياغو أكثر من قدرة المدينة على الاستيعاب. وكانت النتيجة طوفاناً في كل مكان؛ بما في ذلك الطابق الأرضي حيث كان الدوجو خاصتي. وحتى عندما بدأت الجدران تتحول إلى اللون الأخضر نتيجة الطحالب، ظل الآباء يحضرون أبناءهم إلى دروسي.

وبعد عدة شهور قضيناها في الطابق تحت الأرض، لقيني موظف إعلانات من مجلة محلية تهتم بشؤون الأسرة محلية. ولقد كان هذا مذهلاً، لأنني لم أكن أستطيع توفير ثمن لوحة، فقد باعني إعلاناً بمبلغ 400 دولار، وهو مبلغ لم يكن بحوزتي، ولذلك قررت الاتصال بأخي يوآف، وهو بروفيسور في العلوم السياسية في جامعة تل أبيب، وصادف أنه كان في بعثة دراسية في فلوريدا في ذلك الوقت، فتكرم وأقرضني المبلغ.

ولقد أحدث ذلك فرقاً هائلاً. ومباشرة ازداد عدد الطلاب عندي من 15 إلى 50؛ الكثيرون منهم من ضواحي مدينة كورنادو الجذابة. وفي الوقت الذي حلت فيه الذكرى الثانية لبدء العمل، كان علي أن أنتقل مرة أخرى. ووجدت صالة واسعة، كانت فيها مدرسة لتعليم الفنون القتالية في السابق. وقد كانت ممتازة؛ إذ كانت طويلة وواسعة وفيها مكتب وغرفة اجتماعات. وازداد عدد الطلاب بشكل

ثابت؛ وسرعان ما أصبح عدد الطلاب مائة. وأخيراً، بدأت أعطي بعض الدروس في كورنادو عدة مرات في الأسبوع، ثم فتحت دوجو أدرب بدوام كامل هناك. وبعد أن حاولت أن أتنقل بين المدرستين لبعض الوقت، أدركت أن ٪80 من طلابي من كورنادو. وبعد سنة غزيرة الأمطار أدت إلى طوفان دمر بعض أجزاء البناية، أغلقت تلك الصالة، وكرست نفسي بالكامل للدوجو في كورنادو.

مرة أخرى، كانت الأمور تسير بسرعة، وازداد عدد الطلاب من 100 إلى مائتين في فترة وجيزة. في 26 يناير 1994، ولد لنا الولد الأول، إيتان. وبعد ستة أشهر انتقلنا إلى كورنادو. وبعد عامين من ذلك الحين، تحديداً في 19 أغسطس 1996 ولد ابننا الثاني. ولأنه ولد في يوم ذكرى ميلاد أمي السبعين، قررنا أن نسميه دورون، وهي كلمة عبرية تعني «هدية». وبعد ست سنين ولدت طفلتنا أفيتال زيكا، ومختصرها تالي.

في عام 1998، أصدر التلفزيون الإسرائيلي مسلسلاً عنوانه «تكوما» ومعناه «الإحياء» بالعبرية. كان المسلسل من 22 حلقة، ويغطي أول خمسين سنة من تاريخ دولة إسرائيل. واشترى نسيبي رامي السلسلة كاملة، وأرسلها لي في الولايات المتحدة. وكتب بخط يده رسالة حميمة يقول فيها:

> هذه هدية خاصة مني إليك. إنها رمزٌ للحب والإعجاب اللذين أكنهما لك... من وقت لآخر، أتذكر شاباً شغوفاً يناقشني كأنه ذاهب للحرب. كان مسلحاً بقليل من الحماسة العظيمة، ولديه أفكار دون تصور كامل، وحقائق تاريخية مزدوجة المنافع والمساوئ، كنت أقابلها ببرودتي التي لا يمكن غفرانها، وسخرية قاسية وعدم قدرة على أن أسمع كي أقتنع.

وبينما كنت أقرأ هذه الرسالة تذكرت النقاشات الحامية التي كنت أخوضها مع رامي عندما كنت شاباً يافعاً، وكيف شحذت تلك النقاشات عقلي ومكنتني من مهارات الحوار. لقد كانت تلك النقاشات حول أصغر التفاصيل وأكثرها دقة؛ لأننا لم نكن نختلف على القضايا الكبيرة، كما أننا لم نختلف مع والدي الذي أحببناه.

قال رامي في رسالته أيضاً:

ولكننا كبرنا وهدأت نفسانا منذ ذلك الحين، وبدأنا نفهم حقائق الحياة الصعبة والمؤلمة... إن مشاهدة هذه السلسلة لن تكون سهلة. ستبكيك أحياناً، أو تجعلك ترفع قبضتك في الهواء بغضب، ولكنها ستذكرك وتذكر أولادك من أين أتيت وإلى أين ستعود يوماً ما؛ كما آمل.

مع الحب،

رامي.

شاهدت كل فصول السلسة. وعندما تم عرض الأحدث التي أعرفها من خلال قصص أسرتي - مثل هجرة اليهود العرب للوطن الجديد، والتمييز البغيض الذي عانوه في إسرائيل - أو الأحداث التي عشتها في الواقع - مثل زيارة السادات، أو حرب لبنان - كنت أتذكر نقاشاتي مع رامي. وكنت أشعر بصدى كلماته يتردد في أذني. عرفت أن هذه البلاد سوف تكون دائماً جزءاً مني. ولكن، هل سأعود إليها يوماً؟

فقد كانت الأشياء تسير بيسر معي في كاليفورنيا. واشترينا بيتنا الأول في كورونادو. وللمرة الأولى في حياتي كنت أمد جذوراً وكنت أفعل ذلك بعيداً عن عائلتي وبعيداً عن بلدي الذي أحببته كثيراً. عدت إلى جنوب كاليفورنيا، وكأن القدر يجرني، وبنيت بيتاً وأسرة هناك.

الفَصْل السَّادس

أيلول الأسود

في خريف 1997، حلت بنا مصيبة عظيمة لم يكن أحد يفكر بها، إذ فجرَ شابان فلسطينيان جسدَيهما في شارع بن يهودا في القدس، وقتلا ابنة أختي. كانت صمدار مع أصدقائها تشتري كتباً مدرسية، وكانت أمي قد عادت للتو من زيارتنا في كاليفورنيا، ولو أنها اختارت صمدار لتستقبلها في المطار، فربما ما كانت صمدار لتقتل في ذلك اليوم.

كل ذلك كان يتجلى شيئاً فشيئاً؛ بينما كنت جالساً وأنا لا أستطيع فعل شيء، أو قول شيء، في بيتي الهادئ في جنوب كاليفورنيا. كانت صمدار أول حفيدة في عائلتنا، وكان عمرها سيصبح 14 عاماً خلال أسبوعين. كانت من ذلك النوع من الأطفال الذين لا تشبع منهم. لها عينان جمعتا معاً بين البراءة والحكمة. وقد زارتنا في كورونادو قبل عامين، قبل ذكرى ميلادها الثانية عشرة؛ عندما تصبح البنت اليهودية امرأة. كان شعرها طويلاً ومنسدلاً وعسلي اللون حينئذ، وكانت محببة للقلب وخجولة بعض الشيء. كانت ترفض أن نلتقط لها صوراً، ولكننا كنا نلتقط لها الصور على كل حال. وبعد عدة أيام قضتها معنا، لاحظنا أنها تبدأ كل جملة بعبارة «على أي حال...»، وكان ذلك تقليداً منها لطريقة جيلا في الكلام.

قبل ذلك اليوم الرهيب بعدة أسابيع فقط، زرت أنا وجيلا وابنانا إسرائيل. في ذلك الوقت، كانت صمدار أكثر طولاً وأشد ثقةً بنفسها، وكان جسمها قد اكتمل كفتاة شابة. كان شعرها مصبوغاً باللون الأسود. واشتكت أمي من ذلك بقولها: «إن شعرها جميل جداً، لماذا يجب عليها أن تصبغه؟». ولكن صمدار كانت مراهقة، وكانت بحاجة إلى أن تؤكد ذاتها. وربما تحولت من شخص جاد ومستقل إلى طفلة مرحة في غضون دقائق. كانت تلعب مع ابنيّ؛ إيتان الذي كان

عمره 3 سنوات، ودورون الذي كان عمره سنة. بل وكانت تستريح لفكرة تغيير حفاضات دورون بنفسها.

عندما اتصلت بي أمي من إسرائيل لتخبرني أن ابنة أختي كانت بين المفقودين، حاولت تفسير ما يحصل وقلت لنفسي: لا بد أن صمدار في بيت إحدى صديقاتها، ولا تدري بالتفجير. ففي القدس، وفي الوقت الذي أصبحت فيه شاباً، لم أكلف نفسي دائماً عناء الاتصال بالبيت وأنا في الخارج؛ حتى عندما كنت أسمع عن تفجير ما وأنا مع أصدقائي. وربما عدت إلى البيت وسألت وأنا داخل من الباب: «هل كل شيء على ما يرام؟». وكان ذلك النوع من الاستقلالية الانفصالية والبلادة وما يتبناه الشاب ليخلق جواً تبدو فيه الأشياء طبيعية حيث المصائب تكون جزءاً من الحياة.

ومع ذلك، انتابني شعور مخيف بأن شيئاً ما كان خطأ، شعورٌ بأن الأسوأ حدث في الحقيقة. وظللت أحدث نفسي بأن عواطفي ليست دقيقة، وأن بنتاً في ذكائها وحيويتها لا يمكن أن يحدث ما يضرها.

مرت عدة سيارات في شارعنا المغلق آخره، وهب نسيم المحيط. وكنت وحدي في غرفة لعب وَلَدَيّ أشاهد الأخبار على السي إن إن. وعلق أحدهم بالقول: حدثَ آخر هجوم قبل ستة أسابيع في سوق مفتوحة في القدس. نعم، أنا أذكر هذا، كان يوم جمعة. كانت السوق تعج بالمتسوقين الذين كانوا يشترون الطعام تحضيراً ليوم السبت، وكان الدم في ذلك اليوم غزيراً. وبمجرد أن سمعت التقارير، اتصلت بالبيت في إسرائيل كعادتي في وقت التفجيرات للاطمئنان أن الجميع بخير. وشعرت بالراحة عندما سمعت صوت أمي وأختي تطمئنانني بأن الجميع في أمان. ومضيت في يومي متظاهراً أن كل شيء على ما يرام. ولكن، حتى لو لم تصب عائلتي بأذى، فإن الأمور ليست ما يرام. وذلك لأن كل عمل عنيف يقابله عمل عنيف، ولم تتوقف الدائرة. وكنت في أعماقي أشعر أن الوقت لن يطول قبل أن أسمع أن شيئاً من هذا القبيل قد حصل، وأن قريباً قد قتل.

وانتقلت السي إن إن بالبث الحي المباشر إلى القدس. ركزت نظري على

الصور القادمة على الشاشة، بينما كانت أذناي تسمعان صوت سيارات الإسعاف على بعد آلاف الأميال. ورأيت المسعفين وهم يحملون الموتى والجرحى، ولاحظت جسد فتاة على حمالة، ولكن الكاميرا لم تظهر سوى ظهر الفتاة.

لا. وانتابني شعور مرعب وأنا أتساءل عن هوية هذه الفتاة. مستحيل. فشعر هذه الفتاة قصير، وقد رأيت صمدار قبل عدة أسابيع، وكان شعرها طويلاً ومصبوغاً باللون الأسود.

وتواصلت الاتصالات من القدس إلى كاليفورنيا وبالعكس بينما كان يمر اليوم. وكانت كل مكالمة تزيد آمالي ثم تمحوها. لم تكن صمدار مع هذه الصديقة، ولا مع تلك. ولم يرها أحد في أيٍّ من غرف الطوارئ في مستشفى المدينة. ولم أكن أعرف إن كانت هذه أخباراً سارة أم سيئة.

وسرعان ما جاء وقت درس يجب أن أذهب كي أعطيه في منطقة الساحل. وكنت قد افتتحت مدرسة ثانية للكاراتيه في بووي على بعد 30 ميلاً شمال كورونادو. وكنت أحاول أن ألتزم بالجدول وأستمر في العمل كالعادة. وعزمت على أن أركز في عملي، وقلت في نفسي إن المكالمة التي ستطمئنني بأن صمدار بخير قد تأتي في أي لحظة. ووجدت نفسي وأنا في السيارة أهاتف مكتب السفريات الذي أتعامل معه، وهو إسرائيلي متفهم. قلت له: «ربما سأحتاج إلى تذكرة للسفر حالاً للبلاد». وبمجرد أن أنهيت الاتصال، أدركت أنني كنت أحاول كبح شعور خانق.

انتظرت الشرطة حتى وقت متأخر من الليل كي تخبر أختي، وكأنهم أرادوا أن تصل نوريت وزوجها رامي إلى النتيجة الحتمية وحدهما. وبعد أن عاد والدا صمدار من ثلاجة الموتى، حيث تعرّفا على ابنتهما الصغيرة، اتصلت بي أوسي. وعندما كنت أجهز حقائبي، لاحظت مرعوباً أن جوازي قد انتهت صلاحيته. لا أستطيع السفر بجواز منتهي الصلاحية، وعملية التجديد قد تستغرق أياماً، وليست لدي أيام، بل لم يكن لدي يوم واحد. فالشعب اليهودي يجب أن يدفن موتاه في 24 ساعة. يجب أن أكون في القدس الآن.

اكتشفت أن الحزن يكثف بعض الذكريات، ويشطب أخرى. فحتى ذلك

اليوم، لم أكن أذكر شيئاً من إجراءات الذهاب إلى القنصلية الإسرائيلية في لوس أنجلوس. لم أذكر إن كنت قد سافرت بالسيارة إلى لوس أنجلوس أو بالطيارة. ولكني أذكر أن بعضهم قدم لي التحية بنبرة خافتة، فقد كانوا يعرفون أن ابنة أختي قد قتلت في حادث التفجير الأخير، ويعرفون أنها حفيدة الجنرال الراحل ماتي بيليد، ويعلمون أن الجنازة الرسمية تم تأجيلها حتى يعود خالها من أمريكا، فأدخلوني بسرعة إلى مكتب القنصل العام.

لقد عاملوني بلطف وتبجيل كبيرين يليقان بمن هم في مثل هذا الموقف. ففي إسرائيل، يصبح أولئك الذين فقدوا عزيزاً في الحرب أعضاء في سلسلة مقدسة، لا يلمسهم أحد لأنهم محزونون.

وتجاوز المسؤولون كل الرسميات، ولكني ظللت فاقداً التوازن. خرجت من باب القنصلية ومعي جوازي خلال عشرين دقيقة وتوجهت للمطار. في الطائرة، كنت مأخوذاً بالحزن، وغمرتني أفكار مرعبة، ووجدت نفسي أتمنى أن يُلقى القبض على المسؤولين عن هذه العملية ويُقتلا، وهو أمر عبثي لأنهما كانا بالفعل من بين القتلى. وعلى أي حال، كيف يكون الانتقام لموت من هذا النوع؟ وكما كتب الشاعر العبري حاييم ناحمان بيالك «لم يخترع الشيطان بعدُ طريقةً للانتقام لدم طفل صغير». ولطالما رددت أختي نوريت هذه الأبيات.

وصلت إسرائيل فجراً. وكان في استقبالي أخي يوآف فأخذني إلى شقة نوريت ورامي في القدس. كنا نسير بالسيارة والصمت مطبق، وكان يوآف غارقاً في تفكيره. وأخيراً قال: «لماذا هي وحدها من بيننا... أقصد، الكثيرون منا قاتلوا في الحروب ونجوا، ورغم ذلك فقد وقع الاختيار على هذه البنت الصغيرة البريئة وهي تمشي في الشارع. لا معنى لهذا على الإطلاق».

وكان محقاً جداً. عندما وصلنا، كان الشارع فارغاً وجلست في السيارة لبعض الوقت. ولما خرجت من السيارة وقعت عيني على جريدة الصباح ملقاة في الحديقة ورأيت العنوان الرئيس التالي: «مقتل حفيدة ناشط السلام، الجنرال ماتي بيليد في عملية تفجير فلسطينية...».

وصعدت إلى شقة نوريت ورامي، حيث يسكنان في البيت الذي ولدت فيه،

18 شارع راشبا في القدس. لقد كان صعودي على السلم أطول من أي رحلة أخرى قمت بها في حياتي. وعندما فتحت نوريت الباب، سقط كل منا بين ذراعي الآخر وغمرنا البكاء دون انتباه إلى الأطفال الذين كانوا ينظرون إلينا. وإلى الآن، حينما يحل الرابع من سبتمبر كل عام فإنني لا أدري ما أفكر فيه، وما أقوله في تلك الذكرى. وما زال الشعور نفسه يتملكني، وما زلت أبكي مثلما بكيت بين ذراعي أختي، مرة بعد مرة، حتى بعد مضي تلك السنين.

تم دفن صمدار بجوار والدي في مقبرة هيلتوب الصغيرة قرب القدس. وبينما كانت الشرطة تخلي الطريق للجنازة، طاف في خيالي أن هذا المنظر قد حصل من قبل، إذ سلكنا هذا الطريق نفسه قبل سنتين برفقة الشرطة. ولكن الفرق أننا كنا نتبع كفن أبينا في المرة الماضية وهو في طريقه إلى مثواه الأخير. كان ذلك الحدث مشحوناً بالعواطف، فقد كانت جنازة رسمية حضرتها شخصيات رسمية؛ إسرائيلية وفلسطينية، وممثلون من كل ألوان الطيف السياسي، والصحافة. والفرق أن عمره كان 72 عاماً، وكان رجلاً أنجز الكثير. أما صمدار فقد كان عمرها 13 عاماً، وكانت قد بدأت للتو في الإزهار.

لم يخطر ببالي قطّ أننا يمكن أن نسير للمقبرة مرة أخرى بهذه السرعة، وفي ظل مثل تلك الظروف التي لم نتوقعها مطلقاً. ولم أكن أعرف أيضاً أن حياتي ستتغير بشكل جذري، وأي رحلة بحث كانت تنتظرني من غير توقعٍ مني، والتي ستكون نتيجة لهذا الحزن الكاسح.

عندما نزلنا من السيارة، اقترب أحدهم مني وقال: «هل يمكن أن تساعدنا في حمل الكفن؟». وشعرت أن قلبي أثقل على نفسي من الكفن الصغير الذي كان على كتفي. إسرائيليون وفلسطينيون – من العائلة ومن خارجها، من الأصدقاء ومن كل ألون الطيف السياسي – وقادة مشهورون وأناس عاديون؛ كلهم جاؤوا ليؤبنوا صمدار ويعبروا عن حزنهم لهذه الخسارة التي تعقد الألسنة. وحتى هذه اللحظة، لا تستطيع نوريت أن تسامح نفسها لتركها ابنتها وحيدة في التربة الباردة الموحلة.

طوال الأيام السبعة التالية، كان بيت نوريت ورامي مزدحماً بالقادمين من



ابنة أختي صمدار التي قُتلت في عملية تفجيرية في القدس.

السادســة صباحاً وحتى منتصف الليل. شــخصيات رســمية، مراســلون، مُعزون، أصدقاء، وأفراد العائلة دخلوا جميعاً من باب واحد إلى شقتهم؛ إنه الباب نفسه الذي دخل من خلاله من قبلُ رجال دولة، وجنرالات، ودبلوماسيون؛ وهو الباب نفسه الذي يحمل ملصقاً يقول: حرروا فلسطين.

كان إيهود أولمرت من بين الذين جاؤوا لتقديم واجب العزاء، وكان حينئذ عمـدة القـدس، وسـيتولى في ما بعد رئاسـة الوزراء. كما جـاء إيهود باراك الذي يُعد أكثر جنود شعب إسرائيل تميزاً، وقد تولى رئاسة الوزراء في ما بعد، وأصبح وزير الحرب، ولكن في ذلك الوقت كان يتزعم حزب المعارضة وكان يعمل كل ما بوسعه ليفوز في الانتخابات ويصبح رئيساً للوزراء. وكان ينظر إلى باراك على أنـه وريـث رابيـن. وكانت التوقعات أنه إذا فاز فسـوف يلعب دور صانع السـلام الذي لعبه رابين، ودفع حياته ثمناً له. وعندما كان جالسـاً عندنا، حاول أن يقنع الناس أنه إن أراد أن يصنع السلام، فعليه أن يدخل الانتخابات دون الإعلان عن نيته بإحلال السـلام حتى لا يخسـر أصوات بعض الناخبين. وجلسـت هادئاً وأنا أتساءل عمّا إذا كان أحد في الواقع يصدق هذا الهراء. وأخيراً لم أحتمل الصمت،

فقلت: «لماذا لا تقول الحقيقة؟». وأطبق الصمت في الغرفة. وأضفت: «لماذا لا تخبر الناس أن هذه المأساة وغيرها تحصل لأننا نحتل أرض أمة أخرى؟ وكي نحافظ على الأرواح فإن الشيء الصحيح الذي يمكن أن نفعله هو إنهاء الاحتلال والتوصل إلى سلام عادل مع شركائنا الفلسطينيين». كلنا في العائلة كنا نؤمن بهذه الحقيقة. والحق أننا كنا نؤمن بها منذ سنين. في تلك اللحظة، لم أستطع أن أخفي رأيي، فقد كان في تلك الغرفة صانع قرار مهم وصانع سياسة محتمل، وقد كان بحاجة إلى دعمنا.

تلقيت نظرة استهجان من باراك. وعندما كان يتأهب للمغادرة، صافح الجميع، ولم تكن تصرفاته معي ودودة. وبعد ذلك تلقيت محاضرة من بعض أتباعه حول جهلي بالسياسة وسذاجتي.

كان هناك شخص لعب دوراً مهماً في هذه المأساة، وهو بنيامين نتنياهو، أو بيبي[1]. فقد كان رئيس الوزراء حين قتلت صمدار. كانت نوريت زميلة في المدرسة مع بيبي، وكانت زوجته الأولى صديقة عمر لنوريت. وأذكره منذ كان في الحي الذي قضيت فيه طفولتي في القدس. وقد كان صورة للشاب الإسرائيلي الكامل، فهو مظلي وعضو في وحدة قوات النخبة، «سَيرِت مَتكال» (بالعبرية) والتي تعرف ببساطة «بالوحدة»، وكانت أحدث نسخة من نسخ قوات إسرائيل الخاصة. وبالنسبة لعقلي ذي السنوات الخمس، كان محط إعجاب كبير ببزته العسكرية، ونظراته اللطيفة، وقبعته الحمراء. عمل بيبي كاحتياطي في الوحدة، وشارك في عدة مهمات بطولية. وكنا نزوره في بيته كلما عاد للبيت لنسمع قصصه. أصيب مرة بجرح طفيف في عملية إنقاذ طيارة سابينا البلجيكية التي تم اختطافها في مايو 1972 وحطت في تل أبيب. لبس أعضاء الوحدة زي فنيين يريدون إصلاح الطائرة، واستطاعوا دخول الطائرة، وأنقذوا المسافرين وقتلوا الخاطفين. أصيب بيبي وعانى من جرح في ذراعه. وبعد العملية، ذهبتُ مع نوريت لنزوره. وبدت لي الضمادات على ذراعه كميدالية شرف.

(1) في إسرائيل، ننادي الناس بأسمائهم الأكثر شيوعاً أو بأكثرها اختصاراً. فإيهود يُنادى أودي، أفراهات، آفي أو رامي أو ميكو. بنيامين نناديه بني أو بيبي، حتى لو كان رئيس الوزراء.

كان الأخ الأكبر لبيبي واسمه يونتان أسطورة كذلك، فقد كان قائداً «للوحدة» وقتل في يوليو 1976 في عملية شهيرة هي عنتيبي[1]. وبعد مقتل يونتان زرنا أنا ونوريت العائلة مرة أخرى. لن أنسى منظر وجه أبيهم؛ فعلاً كانت نظرة والدٍ محزون. وظل إعجابي الساذج ببيبي لسنوات طويلة على حاله. ولكن لما دخل السياسة، تلاشى إعجابي بسرعة. فقد بدا غير مخلص، وانتهازياً، وكانت آراؤه متشددة لا تقبل التسويات. وقد كان واضحاً بالنسبة لي أن حكومة تحت رئاسته لن تقدم شيئاً للسلام.

تم انتخاب نتنياهو رئيساً للوزراء عام 1996، ودخل مكتب رئيس الوزراء بعد مقتل رابين، مستثمراً خيبة الأمل العامة في البلاد تجاه عملية أوسلو للسلام وعدد كبير من التفجيرات، ووعد نتنياهو بوقفها. كانت حملته تحت شعار: «صناعة سلام آمن». ولم تبدُ الأشياء آمنة أو وادعة في تلك اللحظة.

بعد أن تم تأكيد مقتل صمدار، اتصل بيبي بنوريت كي يقدم العزاء، وأضاف: «لا أعتقد أن «رامي» يريد أن أحضر». وكان ذكياً بما يكفي لكي يعرف أن «رامي» ونحن أيضاً كنا نبغض سياسته وحملناه مسؤولية مقتل صمدار. وردت نوريت بلهجة واضحة: «لا، إنه لا يريدك أن تأتي».

فقد كانت نوريت وهو مثل أخ وأخت، ولكن بيبي لم يأتِ إلى جنازة صمدار، ولم يزرنا ولو لمرة واحدة خلال أسبوع العزاء، الشيفا. وبعد عشر سنين في عام2007، التقت نوريت صدفة ببيبي وكنت أنا وأولادي برفقتها. التقيناه في أحد المقاهي بجوار البركة في الجامعة العبرية في القدس، وكان بيبي هناك مع

(1) في 27 يونيو 1976، قام فلسطينيان من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ومعهما ألمانيان باختطاف طائرة من الخطوط الجوية الفرنسية كانت في طريقها من تل أبيب إلى باريس، وحولوا مسارها إلى عنتيبي في أوغندا. طالبوا بالإفراج عن أربعين فلسطينياً معتقلين في إسرائيل، و13 آخرين معتقلين في كينيا وفرنسا وسويسرا وألمانيا الغربية. وهددوا بأنه إذا لم تُلبَّ تلك المطالب، فإنهم سوف يبدؤون بقتل الرهائن. وظل الرهائن محتجزين لمدة أسبوع في قاعة انتظار في مطار عنتيبي. وطارت أربع طائرات إسرائيلية سراً إلى مطار عنتيبي تحت غطاء الليل، وتسلل من كان على متنها إلى الصالة، وقتلوا الخاطفين (قُتِلَ ثلاثة رهائن في تبادل إطلاق النار)، وتم إنقاذ الرهائن تحت إطلاق النار من قبل الجيش الأوغندي، ومقتل 45 جندياً أوغندياً. وكان يونتان (يوني) نتنياهو هو الجندي الإسرائيلي الوحيد الذي قُتل.

ابنته الكبرى. ولم يكن رئيساً للوزراء في ذلك الوقت. تحدثنا معاً، وأشار إلى أنه لا يزال يذكرني وأنا طفل. وكانت نوريت ودودة وهادئة. وبعد أن غادر، لاحظ ابني إيتان، وكان عمره حينئذ حوالى 13 عاماً، أن هذا الرجل يبدو مهمًّا، فسأل: «من يكون هذا الرجل؟». قلنا له: «هذا الرجل كان رئيساً للوزراء، يعني شيئاً مثل الرئيس». وسأل دورون الذي كان عمره يقترب من 11 عاماً ولم يفته شيءٌ من الحديث: «ولماذا لديه حراس؟». وردت نوريت بهدوء وهي تحتسي شاي إيرل غري: «لا بد أنه فعل شيئاً مرعباً، وهو الآن خائف على حياته». وقد كانت بذلك تقارن بين هذا السياسي المتشدد ورؤساء المافيا الذين لا يزول الدم عن أيديهم. وحسب رأيها، إن كل سياسي إسرائيلي لم يُنهِ الاحتلال الإسرائيلي واضطهاد الفلسطينيين كان مسؤولاً عن موت الإسرائيليين والفلسطينيين. وكان منطقها – ولا يزال – أن ذلك ليس مسألة سياسة أو عدم قدرة على الوصول لاتفاق، ولكنها مسألة قسوة، وطمع في الأرض، ورغبة في السيطرة، وعدم امتلاك الإرادة لإنهاء الصراع. وبعد مقتل صمدار، بقيت في القدس طيلة أسبوع العزاء، ثم كان علي العودة إلى البيت في الولايات المتحدة واستئناف الروتين اليومي. ولكني بقيت أفكر: «كيف يفعل الناس هذا؟» و»كيف يستمر الناس في العيش وكأن شيئاً لم يكن؟». لقد غنى الناس أغنيات كثيرة، وكتبوا قصائد وقصصاً عن تلك المشاعر؛ مشاعر المرء عندما يقع ما لا يتوقع، ولكن العالم لا ينتهي. وصف بيالك ذلك في ملحمته «في مدينة الذبح» عندما كتب «الشمس تشرق، والأشجار تثمر، والجزار يذبح».

وكان من المستحيل الاستمرار هكذا. وكانت أمي زيكا تقول دائماً إن الحياة أقوى من الموت، وكانت محقة. دورون كان عمره سنة واحدة، وكان عمر إيتان بالضبط أربع سنوات، وكان لدى كل منا – جيلا وأنا – عمل نقوم به. وكنت دائماً أشعر بالانزعاج الشديد إزاء الوضع السياسي في إسرائيل. ولكن بعد مقتل صمدار، أصبح الأمر مسألة شخصية بشكل أعمق من ذي قبل بكثير. وحتى تلك اللحظة، كنت سعيداً بالقرار الذي اتخذته قبل ذلك بسنين وهو ألا أتدخل في السياسة. ولكن بعد أن قتلت صمدار، لم يعد يرضيني مطلقاً أن أجلس ساكناً.

للأسـف، ما من أحد حولي كان يهتم بالشـرق الأوسـط. فحياتنا في جنوب كاليفورنيـا لـم يكـن فيهـا أي صديـق إسـرائيلي أو حتى أمريكـي - يهودي، ولم يعرف جيراننا ومن حولنا شيئاً، ولم يهمهم بلدي ولا مشكلته. إضافة إلى ذلك، إن مناقشـة القضية الفلسـطينية الإسـرائيلية مع الأصدقاء الذين كنا نعرفهم كانت مصدراً للملل والثقل؛ لأنها كانت خارج نطاق المواضيع التي يهتمون بها. وفوق ذلك، كان الحديث عن صمدار غريباً. وقد مكثت وقتاً طويلاً قبل أن أشـير إلى ما حدث لها دون أن أشعر بالاختناق. وعندما كنت أتحدث عنها، لم يكن الناس يعرفـون مـا يجـدر بهـم قوله أو التفكيـر فيه. لم أكن أتحدث في الواقع لأحدٍ إلا إذا هاتفت أمي أو أختيّ في القدس.

ومـع مـرور الوقـت، كان هناك شـيء يحثني على إبـداء المزيد من الاهتمام بالسياسـة، ويـزداد قـوة كل يـوم، ولكنـي لم أجد منفذاً لذلك. انتسـب رامي إلى منتدى العائلات الثكلى، وهي مؤسسـة تجمع عائلات إسـرائيلية وفلسـطينية معاً، وتكـرس نفسـها لتعزيـز المصالحة. فـي عام 1998، التقى نسـيبي: «رجلاً ضخماً وحسن الهندام وعلى رأسه قبعة منسوجة»؛ كما وصفه. وظن رامي أن هذا الرجل عضو في غوش إيميونيم؛ منظمة المسـتوطنين الإسـرائيلية اليمينية (وكانت القبعة علامـة علـى الأرثوذكسـية اليهوديـة التي تبناها المسـتوطنون). كان رامي مخطئاً. أخبر إيتسحاق فرانكنثال «رامي» أن ابنه خُطف وقتل على يد مسلحين من حماس فـي عـام 1994، وبعـد ذلـك أوجد مؤسسـة لأولئـك الذين فقـدوا أحباباً لهم في الصراع، ولكنه ما زال يؤمن بالسلام.

وفجأة تعرف رامي على وجه الرجل. فقد كان واحداً من الآلاف الذين زاروا بيته أثناء عزاء صمدار. قال رامي غاضباً: «كيف تجرؤ على دخول بيت شخص آخر فقد للتو ابنته وتتحدث عن السلام والمصالحة؟ من أين لك الأعصاب لتقول ذلك؟».

لـم يصمـت فرانكنثـال؛ فالألم الـذي يُحدِثه فقدان عزيز ليـس جديداً عليه. وحسـب مـا يـروي رامـي، «لـم يشـعر بالإهانة مـن كلماتي. وإنمـا دعاني بهدوء أن أذهـب وأرى بنفسـي كيـف تكـون تلك اللقاءات». وعليـه، ذهب رامي لأحد

اللقاءات. قال رامي: «وقفت أشاهد الناس وهم يصلون بالحافلة. نساء فلسطينيات ثكالى فقدن أولادهن، وآباء فلسطينيون إلى جانب إسرائيليين من كل مناحي الحياة، وكلهم فقدوا أشخاصاً أعزّاء. ولأول مرة في حياتي شعرت بالأمل». ومنذ تلك اللحظة أعطى رامي قلبه وروحه لمنتدى العائلات الثكلى وقضية المصالحة. فقد كانت رسالة المنتدى بسيطة: إذا كان بإمكان العائلات الثكلى الجلوس وتبادل الأحاديث، فإن بإمكان الباقين القيام بالأمر نفسه. ولذلك كان هناك شريك للسلام؛ وكان السلام ممكناً.

قال رامي: «منذ ذلك اليوم، كان عندي سبب يدفعني للنهوض من الفراش كل صباح». وذلك لأنه كرس نفسه لهذا الشيء بالذات؛ متنقلاً من مكان إلى مكان ومن شخص إلى شخص، ومخبراً كل من يستمع إليه أنّ مصيرنا ليس قدراً لا يمكن تغييره. «لم يكتب في أي مكان أننا يجب أن نعيش هكذا ونضحي بأولادنا». كما كان يقول.

في هذه الأثناء، كانت نوريت تتحدث وتكتب بكثافة عن الحاجة لإيقاف حمام الدم، مشيرة بإصبع الاتهام إلى أي شخص أرسل أطفالاً ليَقتلوا أو يُقتلوا. وقد اقتبست صحيفة نيويورك تايمز بعض كلماتها التي تقول فيها إن الحكومة الإسرائيلية التي يقودها نتنياهو «ضحت بأبنائنا من أجل شهوة السلطة؛ من أجل حاجتها للحكم والاضطهاد والسيطرة». وبعد يومين، نقلت عنها صحيفة لوس أنجلوس تايمز قولها: «هذا ثمرة أخطائهم (تقصد إسرائيل)، فهم يريدون أن يقتلوا عملية السلام، ثم يلوموا العرب». وكان لكلماتها صدى كبير داخل إسرائيل وخارجها. في ديسمبر 2001، حصلت نوريت على جائزة ساخاروف لحرية الفكر من البرلمان الأوروبي، بالتقاسم مع عزت الغزاوي، وهو كاتب فلسطيني وناشط سلام قتل الجنود الإسرائيليون ابنه.

أخذتُ إيتان معي إلى المراسيم، فقد كان دورون حينئذ صغيراً، ولذلك ظل في البيت وظلت جيلا معه. والتقى كلانا مع بقية العائلة في باريس؛ حيث قضينا عدة أيام، ثم أخذنا القطار إلى ستراسبورج، فرنسا، حيث كان البرلمان منعقداً. لقد كانت لحظة مؤثرة، ودعت نوريت د. وداد السرطاوي، أرملة شريك

أبينا الدكتور عصام، لكي تشاركنا. ألقت نوريت خطابها بالفرنسية في واحدة من جلسات البرلمان. قالت أمام الحضور: «أهدي هذه الجائزة لذكرى والدي ماتي بيليد ود. عصام السرطاوي، وأشكر أمي السيدة السرطاوي، لوجودها معنا اليوم». لم أستطع أن أحبس دموعي، وبدا أن لا أحد يستطيع، ولم تكن في ذلك الموقف عين دون دموع.

إن تكريس رامي ونوريت نفسيهما للمصالحة زاد من إعجابي الأصلي بهما. وعندما كنت أزور القدس كنت أرافقهما إلى لقاءات، أو أذهب معهما عندما كانا يذهبان لإلقاء محاضرة في إحدى المدارس، أو عندما كانا يزوران مجموعات كانت تحب أن تتعرف على الصراع. لم أر في حياتي أناساً مثلهما من حيث تكريسهما نفسيهما للقضية وانضباطهما. إن الرابط بين أولئك الذين فقدوا أعزاء واختاروا أن يتواصلوا بدلاً من التناوش رابط عميق وموثق. ومن خلال أختي ونسيبي، التقيت أناساً رائعين كثراً، ووجدت أنني أتمنى لو أقوم بشيء مشابه في سان دياغو. ولكني لم أكن أدري من أين أبدأ.

الباب الثالث

الطريق إلى فلسطين

الفصل السابع

بداية رحلة

بدأت رحلتي إلى فلسطين في سان دياغو في عام 2000، وكان عمري حينها 39 عاماً. كنت من قبل أنظر إلى القدس على أنها مدينة «مختلطة»؛ لأن كلاً من الإسرائيليين والفلسطينيين يعيشون فيها. ولكن الحقيقة المحزنة هي أن كلاً من الفلسطينيين والإسرائيليين يعيش منفصلاً عن الآخر تماماً. وكلما رجعت إلى الوراء وتأملت طفولتي في القدس، أدركت أنني ما صادقت عربياً واحداً طوال حياتي، بل لم يكن من معارفي أحد عربي. لقد كان هناك «نحن»، وكان هناك «العرب»؛ كما لو كان كل منا يعيش في كوكب مختلف.

كنت أظن أننا نعيش حياتين منفصلتين لأننا كنا في غاية الاختلاف: فالعرب يتحدثون لغة مختلفة، ويدرسون في مدارس مختلفة، بل بدا لي أنهم يلبسون ملابس مختلفة؛ فمدارسهم تلزمهم عادة بلباس معين، وعلى العموم فهم يرتدون أزياءهم بطريقة رسمية ومحافظة أكثر منا. أما طعامهم فمختلف أيضاً. وبينما كان المجتمع الذي أنتمي إليه يتقبل فكرة اختلاط الرجال والنساء، لم يكن الأمر كذلك في الدوائر العربية. عرفت كل ذلك دون أن أعرف أو حتى أقابل أو أتحدث إلى شخص عربي. وعندما كنا نخرج في رحلة إلى مكان ما مع العائلة أو الأصدقاء ونتوقف في بلدة عربية، كنا نلاحظ أنها مغبرة ومتخلفة؛ مما كان يعزز لديّ فكرتي المسبقة عنهم، وهي أنهم فقراء وأقل تطوراً منا.

كان عمري 10 أعوام أو 11 عاماً عندما بدأت أتساءل. وأذكر أننا في إحدى الرحلات زرنا قرية فقيرة جداً في مكان ما من النقب. لم يبدُ الأطفال مثلنا، فسألت أبي عن سبب قذارتهم، ولكنه لم يجب. وأذكر أنني سألته مرة عن سبب ضرب الرجال العرب زوجاتهم كما لو كان هذا الأمر حقيقة يعرفها الجميع. وقد

كانت تلك واحدة من الصور النمطية التي رسخت في ذهني ولكن لا أدري كيف. غضب أبي جداً من أسئلتي ولم يجب؛ الأمر الذي لم أفهمه حينها. حاولت أمي أن تقنعه بأن يتحدث معي في مثل هذه الأمور ولكنه لم يكن مستعداً للإجابة؛ فضلاً عن الاعتراف بوجاهة السؤال. في ذلك الوقت، كان أبي يدرس الأدب العربي، وأعتقد أنه كان غاضباً من هذا التنميط، ومن الحقيقة التي يطرحها ابنه بين يديه وفي بيته. ولأنه لم يكن يعرف كيف يتعامل مع هذه الأسئلة بغير الغضب، فقد فضل الصمت.

وعندما كبرت، بدأت آرائي التي كانت تزداد ليبرالية عن الصراع الإسرائيلي الفلسطيني تفصلني عن أصدقائي اليهود والإسرائيليين، ولم يفارقني الشعور بالصراع الداخلي والاضطراب. وذلك لأنني ما من مرة عدت فيها إلى إسرائيل، إلا وكنت أجد أن أصدقائي القدامى - الذين كان بعضهم يوافقني الرأي - قد التحقوا بالإجماع العام الذي يتحول باطراد نحو اليمين والشوفينية. وعندما كان ابن أفضل أصدقائي على أبواب التجنيد، سألتُ الولد عن المكان الذي سيخدم فيه، فأخبرني أنه يريد أن يلتحق بالقوات الخاصة. نظرت إلى صديقي مندهشاً، ثم في ما بعد قلت له: «أنت تعرف أن ما يفعلونه خطأ. ألم تخبره؟». فأجاب قائلاً: «إنك لا تفهم. أنت لا يهمك ابني، كل ما يهمك هو أصدقاؤك الفلسطينيون». أجبته قائلاً: «نعم، أهتم بأصدقائي الفلسطينيين، وما تقوم به القوات الخاصة ضدهم سوف تكون له نتائج عكسية، وسوف يتعرض ابنك للأذى بسبب ذلك أيضاً. لِمَ لمْ تخبره؟». كانت تلك آخر مرة نتحدث فيها معاً.

عندما التقيت يهوداً أمريكيين، كان موقفي من الصراع العربي الإسرائيلي يزعجهم. في الغالب، اليهود الأمريكيون كانوا يريدون أن يعتقدوا أن إسرائيل صالحة والعرب سيئون. أذكر أنني زرت طبيب عظام يهودياً؛ وبمجرد أن عرف أنني يهودي ومن إسرائيل سمح لنفسه بأن يشن هجوماً مسموماً ضد العرب؛ ظناً منه أنني أشاركه المشاعر عن «أولئك العرب السيئين». في البداية صدمت ولم أستطع الكلام، ثم أعطيته كرّاسة خاصة بمنتدى العائلات الثكلى، كي أفتح له مجالاً للتفكير في الأمر، ولم أره بعد ذلك.

لم يكن الشخص الوحيد الذي كان يفعل ذلك ممن حولي. ومرة بعد مرة، كنت أدرك أن المشاعر العدائية تجاه العرب والمسلمين تسيطر في المكان الذي كنت أظنه أمريكا «المعتدلة». وربما أعرضت عن الحديث عن سياسة الشرق الأوسط، حتى لا أفسد صداقتي مع اليهود الذين أعرفهم في الولايات المتحدة. ومن نافلة القول أنه لم يدم من هذه الصداقات إلا عددٌ قليل. وأذكر أنني فكرت مرة في أنني لو وضعت تلك القضية جانباً، وتوقفت عن الحديث والتفكير فيها، وواصلت حياتي فربما كنت قد «استرحت».

ولكن التفكير أعياني بعد مقتل صمدار، وأدركت أن «الاستراحة» ليست خياراً. إن الواقع السياسي في وطني لن يكف عن ملاحقتي - حتى لا أقول يتلبسني - طالما أنني على قيد الحياة؛ بغض النظر عن المكان الذي اخترت العيش فيه. وبحثت عن منفذ أقوم من خلاله بشيء في جنوب كاليفورنيا، ولم تأتِ الدفعة الأخيرة التي جعلتني أدخل المجال السياسي بكل قوة إلا بعد مقتل صمدار بثلاث سنين.

وكما هي العادة، كانت عملية التحول مرتبطة بالسياسة الداخلية في إسرائيل. ففي عام 1999 انتخبت إسرائيل إيهود باراك الذي وعد بالتوصل إلى حل للصراع مع الفلسطينيين عبر المفاوضات؛ مرة وإلى الأبد. وبعد الانتخابات بفترة وجيزة، زارتنا أمي في كورونادو، والتقينا على العشاء مع مارشال سوندرز، وهو صديق مقرب تعلمت منه الكثير. سأل مارشال أمي: «زيكا، ما رأيك بالسيد باراك، رئيس وزرائكم الجديد؟». قالت: «إنه ليس أكثر من جنرال مثل البقية. ليس لدي أي سبب يجعلني أؤمن بأن الأشياء سوف تختلف عما كانت عليه». أما أنا فقد كنت على عكس ذلك؛ إذ كنت مملوءاً بالتفاؤل، ولم تكن عندي أي فكرة عن سبب اعتقادها.

في صيف عام 2000، اجتمع باراك والزعيم الفلسطيني ياسر عرفات في كامب ديفيد في ميرلاند؛ بدعوة من الرئيس بيل كلنتون كي يتمموا اتفاقية سلام ويوقعوها. أصر عرفات حينها على أن الوضع لم يكن ناضجاً لعقد قمة، ولكن تم تجاهل رأيه، وعقدت القمة في 11 يوليو، وارتفعت التوقعات في كل أنحاء العالم. وقد كنت من بين المتفائلين؛ فقد توقعت أن الزعيمين سوف يصلان إلى

اتفاقية تؤدي إلى السلام، وفضلت الاعتقاد أن باراك سيبدأ من حيث انتهى رابين قبل مقتله، وأنه جاد بخصوص السلام والتسوية. وقررت أن أعتقد أن حلاً سلمياً في شكل دولتين أمرٌ بات محتوماً.

وشاع الخبر أنه لم يتبقَّ غير التوقيع على الاتفاقية. ولكن المحادثات استمرت دون إشارة إلى أن هناك اتفاقية. وتحدثت مع رامي بشكل متواصل لأنه كان على اتصال ببعض أعضاء الوفد الإسرائيلي. وأكد رامي مراراً أنه: «لم يبق إلا الاتفاق على بعض التفاصيل الصغيرة؛ فالصفقة جاهزة، وهذه معلومات من مقربين جداً من عملية صناعة القرار في الوفد».

وفي 25 يوليو شعرت أن الأرض مادت من تحتي، إذ تم الإعلان أن الوفود ستفترق دون التوصل إلى اتفاقية. حطمني هذا الخبر كما حطم ملايين الفلسطينيين والإسرائيليين حول العالم الذين كانوا يأملون بإنهاء الصراع. وخرج الرئيس كلنتون من القمة ليقول: «رئيس الوزراء أبدى مرونة أكثر من الرئيس عرفات»[1]. وكان ذلك اتهاماً خطيراً من الرجل الذي يفترض أنه «وسيط نزيه». فقد ألقى باللوم على عرفات لأنه لم يكن مرناً بما فيه الكفاية. «لقد أزحنا اللثام عن وجه عرفات»، ونعلم الآن أن عرفات لا يريد السلام بعد كل ما قدمناه.

شعرت أن الأمر يعوزه المنطق، وذلك لأنني تابعت العملية عن كثب، وكنت أعلم أن عرفات كان على انسجام مع مبادئه طوال السنين الماضية. فقد كان على استعداد لأن يتنازل عن حلم كل الفلسطينيين بالعودة إلى بيوتهم وأرضهم من أجل السلام. كما كان على استعداد للاعتراف بإسرائيل؛ الدولة التي دمرت فلسطين، واستولت على أرض شعبه، وحولتهم إلى أمة من اللاجئين. وكان مستعداً لتأسيس دولة فلسطينية مستقلة في الضفة الغربية وغزة - وهي مساحة لا تتجاوز 22 ٪ من مساحة أرض فلسطين - تكون عاصمتها القدس الشرقية.

كان مستعداً ليقوم بكل ذلك، وما كان بوسعه أن يتنازل أكثر من ذلك. وقد كان واضحاً في ما كان يعتقده بخصوص بنود السلام.

(1) جين بيرليز، «أزمة في كامب ديفيد: النظرة الإجمالية؛ كليتون ينهي محادثات إنهاء الجمود في عملية السلام»، نيويورك تايمز، 26 يوليو 2000، http://nyti.ms/zxvZGv

وفي النهاية، تبين أن شعوري العميق كان صحيحاً. فبمجرد أن بدأت ترشح إلى السطح تفاصيل المفاوضات، من خلال بعض المقالات، وروايات الذين حضروا المفاوضات، والكتب التي كتبت مثل كتاب هراكيري: إيهود باراك: الفشل - وهو كتاب كتبه رفيف دروكر - تبين أن ما طلبه الإسرائيليون في كامب ديفيد هو في الواقع التنازل الفلسطيني الكامل عن الحقوق الفلسطينية. وكان من الواضح أن إيهود باراك أصبح بغيضاً إلى مساعديه، ولم يبق أحدٌ من حلفائه السياسيين إلى جانبه نتيجة فقدانهم الثقة به. فقد طالب باراك أن يوقع عرفات على اتفاقية تنهي الصراع إلى الأبد، مقابل السماح له بإنشاء دولة فلسطينية على قطعة من الأرض لا يمكن تحديدها لأنها كانت مقسمة إلى جيوب لا رابط بينها من الناحية الجغرافية. كما عرض باراك واحدة من الضواحي الصغيرة للقدس الشرقية كي تكون عاصمة للدولة الفلسطينية بدلاً من القدس الشرقية العربية. ولم يوافق عرفات على ذلك.

وفي سبتمبر عام 2000، بلغ الإحباط والخيبة مدى بعيداً، وكان الجو مشحوناً عندما قرر أرييل شارون؛ المعارض لعملية السلام منذ البداية، المسير إلى جبل الهيكل في القدس. ودخل القدس محاطاً بمئات من رجال الشرطة المدججين بالسلاح ومعدات مكافحة الشغب. تبلغ مساحة جبل الهيكل، أو الحرم الشريف كما هو معروف في العالم الإسلامي، 35 هكتاراً، وهو عبارة عن مكان مفتوح يغطي سدس مساحة مدينة القدس القديمة. وفي هذا المكان تقع قبة الصخرة؛ البناء الأكثر تبجيلاً في القدس، وفيه أيضاً المسجد الأقصى. ويعتقد أن هذا المسجد بُني على المكان الذي اصطحب إليه إبراهيم (عليه السلام) ابنه كي يقدمه قرباناً. ويعتقد أنه موقع الهيكل الأول والثاني، وهو المكان الذي صعد منه الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى السماء. وهو مقدس جداً لدى اليهود المتدينين لدرجة أنهم يحجمون عن دخوله خشية أن يهتكوا حرمة قدس الأقداس. أما بالنسبة للمسلمين في كل العالم، فليس هناك ما هو أقدس من المسجد الأقصى إلا مكة والمدينة.

ادعى شارون أنه كان يمارس حقه بزيارة المكان. ولكنه كان غزواً أكثر منه

زيارة. وكانت ردة الفعل مباشرة ومتوقعة. ورأى المسلمون من كل الأطياف أن هذا تدنيس لأرض مقدسة، واندلعت احتجاجات هائلة، فردت إسرائيل بالقوة العنيفة. وتدهور الوضع، وأصبحت إسرائيل أكثر قسوة وقمعاً، وتمثل ذلك في اجتياحات كبيرة قامت بها مرات عديدة للضفة الغربية وغزة. واحتج الفلسطينيون - الإسرائيليون في شمال إسرائيل، وتم قمعهم بردة فعل عنيفة من الشرطة التي قتلت 13 مواطناً منهم. لقد أشعل شارون الفتيل في برميل متفجرات؛ وهكذا ولدت الانتفاضة الثانية.

ثم تحطمت كل عملية السلام، وهوت حكومة باراك. لقد كانت لديه مشكلات سياسية داخلية خطيرة، وكان أمله أن التوصل إلى صفقة سلام قد ينقذه سياسياً، ولكن في النهاية تم إجباره على أن يدعو لانتخابات مبكرة. وأجريت الانتخابات في فبراير 2001، وتعرض باراك لهزيمة مهينة، وكان حكمه أقصر حكم في تاريخ الوزارات الإسرائيلية. وفاز شارون - خصم باراك - فوزاً ساحقاً. ونسي الناس كل نقائص شارون وتجاوزاته القديمة، وتقدم إلى الصدارة ليجلس على مقعد رئيس الوزراء.

ولكي نفهم السبب وراء فوز شارون، علينا أن نفهم كيف تنظر إسرائيل إلى جنرالاتها، وخاصة شارون. لقد كان شارون، أو كما يسمونه في إسرائيل: أريك، أوسع من الحياة، فقد كان بطل حرب. إذ قاتل في حرب 1948، وكان على رأس الوحدة الخاصة 101[1]، وقاتل في حرب 1956 في الحملة على سيناء،[2] وبرهن على قدرته كقائد في حرب 1967. وبدا أنه من المقرر أن يكون رئيس هيئة أركان الجيش، ولكنه اتضح في بداية 1973 أنه لن يحصل على المنصب، وأُجبر على الاستقالة. فرئيس هيئة الأركان في الجيش الإسرائيلي منصب سياسي كما هو

(1) الوحدة 101 واحدة من وحدات الجيش الإسرائيلي. أسسها شارون وقادها بناءً على أوامر من رئيس الوزراء بن غوريون في أغسطس 1953. تم إنشاؤها من أجل تعامل أفضل مع اللاجئين الفلسطينيين الذين كانوا يتسللون إلى إسرائيل. وتم دمج الوحدة في الفرقة العسكرية النظامية 890 عام 1954، وكان ذلك نتيجة لمقتل عشرات الفلسطينيين العزل على يد الوحدة خلال غارة لها، عُرفت بمذبحة قبيا.

(2) وتعرف حملة سيناء أيضاً «بأزمة السويس»، 5 نوفمبر 1956.

عسكري. ولن يقبل الجمهور ولا الجيش برئيس آخر لهيئة الأركان طالما أنه على رأس عمله في الجيش، ولذلك اضطر شارون لإنهاء حياته العسكرية وللاستقالة. وبعد أن استقال، كتب أبي مقالة عبر فيها عن أسفه لأن الجيش خسر «واحداً من العباقرة العسكريين»[1]. وكتب أن أريل شارون كان يمكن أن يكون رئيس هيئة أركان بارعاً، وذلك لأنه «يجمع بين القدرة على أن يكون عسكرياً بارعاً وقائداً يحظى بالإعجاب ويستطيع أن ينظم عمله ويخرج بأفضل نتائج ممكنة في أرض المعركة».

وعندما اندلعت حرب 1973 - وهي الحرب الوحيدة التي لم تقم إسرائيل بشنها؛ حيث أُخذت إسرائيل بها تماماً وعلى حين غرة - تم استدعاء شارون للجيش. وقاد فرقة احتياطيين، وأنقذ الجيش الإسرائيلي من هزيمة مهينة. فقد كان جسوراً لا يخشى شيئاً، وجسد بسلوكه إسرائيل التي أرادها الإسرائيليون أن تعيش: قوية، وجسورة، ومباشرة. وقد كان شارون من ذلك النوع من الجنرالات الذين جاءوا من بين الناس. فقد نشأ وعاش في مزرعة، ولم يكن من أولئك الجنرالات الذين يقضون أوقاتهم مع الأغنياء وذوي السلطة. ويتم تدريس المعارك التي قادها في كل أنحاء العالم، وكثير من قادة إسرائيل الكبار عملوا تحت يده وهم ضباط صغار. كان شارون بارعاً وخطراً، على غرار جورج باتون، بطل الحرب العالمية الثانية الأسطوري الذي كثيراً ما تمت مقارنة شارون به. وشاع في إسرائيل شعور بأن لا أحد يستطيع أن يحقق الأمن الذي يريده الإسرائيليون سوى شارون، وبالتأكيد لا أحد يمكنه أن يعاقب العرب مثله؛ وهو أمر له فيه باع طويلة، وسجل حافل.

وشعرتُ بأن هناك مصيبة تقترب، ولم يعد بوسعي السكوت. فبإلاضافة إلى مقتل صمدار، كانت هذه التطورات السياسية أكثر من طاقتي على الاحتمال. وكان علي أن أقوم بشيء.

كانت الخطوة الأولى هي البحث عن أناس يمكن التحدث إليهم. ولكن، كيف؟ نشرتُ بعضَ الإعلانات بقسم الإعلانات في صحيفة سان دياغو؛ بهدف

(1) ماتي بيليد، «تقاعد غير ناضج»، معاريف، 20 يوليو 1973.

البحث عن جماعات حوارية ولكن لم أتلق أي رد. وبحثت في الإنترنت، وأخيراً عثرت على اللجنة الأمريكية العربية ضد التمييز التي أحالتني إلى جورج مجيد خوري، وهو فلسطيني من القدس يعيش في سان دياغو. وتواصلنا عبر الإيميل والتلفون لعدة أسابيع، حيث لم نستطع أن نلتقي بسبب انشغال كلينا. وأخيراً التقيته في مكتبه في سان دياغو.

لن أنسى ترحيبه الدافئ. قال عندما التقينا: «أخيراً التقينا!». كنت متوجساً قبل أن ألتقيه، ولكن ترحيبه أراحني مباشرة. وجلسنا في ركن الاستقبال في مكتبه، وأخبرني عن مجموعة الحوار اليهودية الفلسطينية في سان دياغو. قال: «نحن نلتقي مرة كل شهر. ونحن مجموعة فتية، ونشيطة، وتملؤنا الحيوية. إن أردتَ الحضور، فعلي أن أستأذن من أعضاء المجموعة، ولكني سأوصي بأن تلتحق بنا».

ومرّت عدة أسابيع دون أن أسمع ردًّا. وأرسلت إيميل لمجيد فرد بدعوتي إلى لقاء في بيته. وعندما حل يوم اللقاء، خشيت جيلا أن يصيبني مكروه، وقالت: «إنك لا تعرف هؤلاء الناس، ماذا لو كان هذا فخاً. احرص على أن تهاتفني، وأسرع بالعودة للبيت ما استطعت». ووعدتها بذلك.

في تلك اللحظة، لم يكن لدي شعور بمثل هذه المخاطر. وإن كان هذا الشعور موجوداً فقد تلاشى في غمرة الشعور بأنني على وشك أن أشرعَ في أمر جديد ومهم. ولقد كنت مبتهجاً وأنا أقود السيارة إلى المكان، حتى إنني نسيت الطريق فاستغرقت الرحلة ساعة، وكان يفترض أن لا تزيد عن نصف ساعة.

وعندما وصلت في النهاية إلى البيت، رأيت على الباب لوحة كُتب عليها «مجيد وهيفا خوري». ووقفت برهة وأنا أنظر إلى كلمة «هيفا»[1]. وكانت تلك أول مرة في حياتي أنتبه فيها إلى أن «حيفا» اسم عربي، وقلت في سرّي: لعل مدينة حيفا كانت مدينة عربية قبل أن تكون إسرائيلية.

ودخلت البيت في تردد، وكان هناك حوالى اثنا عشر شخصاً. شعرت أن بعضهم كانوا يهوداً أمريكيين وبعضهم الآخر فلسطينيون. جلسوا جميعاً في غرفة

(1) على اعتبار أنه لا فرق بالإنجليزية من حيث اللفظ بين «هيفا» و«حيفا»؛ المترجم.

المعيشـة حول طاولة وضع عليها طعام شـرق أوسـطي: حمص وفلافل وتبولة، وهي أطعمة مشـتركة بين الإسـرائيليين والفلسـطينيين. وسـمعت امرأة تشـير إلى السَـلطَة التـي تصنـع من الخيـار والطماطم وزيت الزيتون وبعـض الليمون، على أنها «سلطة إسرائيلية».

ورفعت إحدى النساء حاجبها مستنكرة: «سلطة إسرائيلية! ماذا يعني ذلك؟ هل تخبرينني أننا كنا نأكل سـلطة إسـرائيلية طوال السـنين الماضية؟». وشـعرت بعدم الارتياح إزاء هذا الحوار، ولكن الجميع ضحكوا. فقد كان ذلك من ناحية أخرى إيذاناً ببدء الحوار الحقيقي.

وأشارت امرأة يهودية أخرى بأنها سوف تذهب قريباً في زيارة إلى الوطن. وتساءلَ آخر: «الوطن؟! ما هو البلد الذي تسمينه الوطن؟ دعينا نكون واضحين بشأن شيء واحد، هذا البلد هو وطني». ولم يثر هذا الكلام أي غضب أو شحناء بل المزيد من الضحك. ثم جلسـنا حول طاولة الطعام، وبدأنا بالتعارف. وكنت الإسرائيلي الوحيد. وكنت في معظم الأحيان الإسرائيلي الوحيد الذي كان يحضر تلك اللقاءات. وكانت أعصابي مضطربة.

وعندما جاء دوري لتقديم نفسـي، خفضت بصري، وأخبرتهم بسـرعة عمن أكـون، وعـن آرائـي. وأخبرتهـم عن عائلتي وعن والـدي، وعما حصل لصمدار. قلـت لهـم: «أنـا صهيونـي، وأؤمن بالدولـة اليهودية، وأؤمن أيضـاً بقوة بأن دولة فلسطينية يجب أن تنشأ في الضفة الغربية وغزة، تكون عاصمتها القدس الشرقية».

قالت دوريس بيتار، وهي إحدى المنظِمات للقاء: «انتظر لحظة». وأحضرت نسخة من مجلة الجديد وهي مجلة باللغة الإنجليزية تُعنى بتغطية الأخبار الثقافية العربية الأمريكية، وسألتني: «هل أنت أخو نوريت؟».

والـذي حصـل أن مجلـة الجديـد أصـدرت قبل شـهر قصة عن فيلم اسـمه «التفجيـر». والفيلـم مـن إخـراج المخرج الفرنسـي سـيمون بتون، ويقـدم وصفاً للتفجير الذي قتلت فيه صمدار. وتعرفت دوريس على نوريت لأنها قرأت القصة في مجلة الجديد.

لم أكن أدري أن قصتنا قد شاعت، ولكن كل شخص في الغرفة بدا وكأنه

علـى علـم بهـا. وأخذت الجميعَ الدهشـةُ عندما علموا أننـي خال البنت الصغيرة التـي رويـت قصتهـا فـي الفيلم. وحقيقة أنني كنـت معهم في ذاك اللقاء في ذلك اليوم بدت لي وكأنها مصادفة جميلة.

قلـت فـي سرّي إن هـذه هـي المرة الوحيـدة التي أكون فيهـا بمكان حيث يلتقي اليهود والفلسطينيون كأنداد متساوين. فليس هناك احتلال أو محتلون (اسم مفعول). فكلنا مواطنون، حقوقنا متساوية ونتمتع بحماية القانون. وأحدثت حقيقة أننـا قـادرون علـى أن نتحـدث وأن ينظر بعضنا في عيون بعض فرقاً كبيراً. وربما كان ذلك ما جعل اللقاء ممكناً. لعلنا ما كنا نسـتطيع اللقاء بهذا الشـكل، لو أننا جميعاً كنا نعيش في الوطن.

وكانت تلك هي المرة الأولى التي أجلس فيها في غرفة واحدة مع فلسطينيين من كل الأعمار والخلفيات لنتحدث عن وطننا المشترك. ومن عدة نواحٍ، وجدت نفسـي منسـجماً مع الفلسـطينيين الذين في المجموعة أكثر من انسجامي مع كثير من يهود المجموعة. وكانت الأشياء التي طبعت الثقافة اليهودية الأمريكية بطابعها – مثل حس السخرية الذي يتمتع به يهود نيويورك، بالإضافة إلى الطعام اليهودي – كلهـا غريبـة علـي. من ناحية أخرى، كان حسـن الضيافة الفلسـطيني، والدفء الكامن في تعاملهم، بالإضافة إلى الطعام العربي، وصور الأرض المشتركة التي نعيـش عليهـا كلهـا تشـعرني بالراحـة تمامـاً. بل لـم أكن أرفـض أن أرى خريطة إسـرائيل وقد كتبت عليها فلسـطين من أولها إلى آخرها بدلاً من إسـرائيل، وهو أمر كان يفترض – حسب ما ظننت – أن يزعجني لأن شعبي ناضل بشدة حتى استعادها. لعل الحقيقة هي أننا نحن الفلسـطينيين والإسـرائيليين الذين نعاني من عزلة عشـنا في الحقيقة في الشـرق الأوسـط، ولدينا ذكريات عن المكان نفسـه؛ ولعل ذلك ولدَ انسجاماً سريعاً بيننا. لقد أحببت كل لحظة في ذلك اللقاء. قالت نوريت في ما بعد إن اللقاء بفلسـطينيين يجعلها تشـعر أنها في بيتها، ومع أهلها؛ وكانت محقة. وأخيراً وجدت قطعة من وطني في أمريكا.

بدأ اللقاء عند الساعة السابعة، وتوقعت أن ينتهي بعد ساعة أو ساعتين على الأكثر. وعندما بلغت الساعة العاشرة ولم أعد للبيت، قلقت جيلا. لم يذهب أي

واحد منا يوماً إلى بيت فلسطيني من قبل، ولم نكن نعرف أحداً من المجموعة قبل ذلك اليوم، وكانت خائفة جداً على حياتي، فاتصلت بهاتفي المحمول كي تطمئن، وأخبرتها أن كل شيء بخير.

كان اللقاء اليهودي الفلسطيني في سان دياغو مرة كل شهر، وتحدث في اللقاء كل شخص عن قصته بأدب واحترام. وسمعت من الفلسطينيين قصصاً عن الرحيل والنزوح والقسوة لم أتخيل أنها يمكن أن تحدث. ومع ذلك، لم نذهب إلى هناك كي نتجادل، وإنما ذهبنا كي نتبادل التجربة. وبمجرد أن أصبحنا أكثر ارتياحاً في علاقتنا، بدأنا في تناول قضايا خطيرة، وشرعنا في مناقشة مواضيع أبعد من مملكة الحوار «الآمن».

أشار مجيد إلى تجربة حياته بالقول: «لقد تعرضت للتطهير العرقي مرتين!». أولاً، عندما كان طفلاً. قال: «بسبب القصف المتواصل لحينا، أُجبرنا على ترك بيتنا في غرب القدس». ثم عندما كان يدرس في الجامعة الأمريكية في بيروت عام 1967، حين اندلعت حرب الأيام الستة ولم يسمح له بالعودة إلى عائلته التي تعيش الآن في شرق القدس. وكان انتقاده حاداً للقيادات العليا في منظمة التحرير الذين يعرف بعضهم شخصياً. وكان يشدد على أنهم «فاسدون وجناة ومجرمون».

وفي يوم من الأيام، وبعد أن حضرت عدة لقاءات، علمت أن منال سويرجو - وهي واحدة من مجموعة الحوار - سوف تلقي كلمة في كنيس محلي صباح الأحد. وكان الحاخام موشي ليفن من (مجمع بيت إل) وهو أيضاً عضو في مجموعة الحوار، قد دعاها لإلقاء هذه الكلمة. ولقد انطوى ذلك التصرف على خطر؛ فقد كان موشي يرأس واحداً من أشهر كُنُس سان دياغو؛ لم تكن دعوته فلسطينية لإلقاء كلمة يوم الأحد 'مراً سهلاً، لأن ذلك يكون حال انعقاد مدرسة الأحد وفي حضور الكثير من الناس. سمعت في ما بعد أنه تعرض لنقد شديد بسبب ذلك.

أما منال فقد كانت امرأة ضليعة، وتحمل الدكتوراه، وهي باحثة عالمية ومتكلمة بارعة. تملك ابتسامة عريضة، وعينين خضراوين جميلتين. أخبرت الحاضرين أنها «ولدت ونشأت في الكويت حيث كان أبي يعمل مدرساً. وأبي

لاجئ من المجدل (وهي الآن مدينة إسرائيلية اسمها أشكلون)». وأضافت: «كان أبي شاباً صغيراً عندما استولت إسرائيل على مدينتنا، وأُجبرت عائلته على الانتقال إلى مخيم في قطاع غزة». لم أكن أعرف ذلك، ولا أعتقد أن أحداً من الحضور الذين كان معظمهم من اليهود يعرف ذلك.

وفي ردها على أحد الأسئلة قالت: «في الكويت تعلمت العبرية، وكانوا يخبروننا أننا يجب أن نتعلمها لأن العبرية لغة الأعداء». وعندما سمعت ذلك شعرت برجفة في عظامي. أضافت: «بل تعلمنا أن نعبر عن تلك الفكرة حتى بالعبرية: من تعلم لغة قوم أمن مكرهم». وعندما قالت تلك الكلمات بالعبرية، ولكن بلهجة عربية لم أدر ماذا أفعل. لقد عصفت بي الأفكار والعواطف، ودهمني مزيج من الألم والاندهاش. بصراحة، شعرت بالإهانة الشديدة. فقد ربطتْ بين لغتي التي تربطني بالثقافة العبرية كخيط، لغة الكتاب العبرانيين الكبار في القديم والحديث، وبين قدرها كفلسطينية. ومباشرة خطر لي الشعراء الكبار من أمثال بيالك ولي جولدبيرغ، أنبياء العهد القديم والشاعر الخالد الذي كتب (نشيد الإنشاد). كيف يمكن للغتي أن ترتبط بعدو؟! يمكنني أن أرى الجنود الإسرائيليين والمستوطنين اليهود كأعداء للفلسطينيين، بالإضافة إلى بعض السياسيين الإسرائيليين. أما اللغة العبرية فقد كانت قلب الثقافة العبرية وروحها. هل كان ذلك يعني أيضاً أنني عدو؟ وفجأة شعرت أن هناك صلة بيني وبين الأشياء التي كنت أظن أنني انفصلت عنها. ولم تكن تلك هي المرة الأخيرة الذي يقول فيها شخص ما شيئاً يهزني من الأعماق. ولكنها كانت أولى الصدمات.

كتبت لمنال مباشرة. ليس لكي أجادل، ولكن كي أعبر عن سطوة الأفكار والعواطف التي اجتاحتني عندما سمعت كلماتها. وكان ردها أنها لم تكن تظن أن كلماتها سيكون لها هذا الأثر.

بعد سنين، وبعد ولادة ابنة منال، جاء أبوها لسان دياغو للزيارة. وذهبنا جيلا وأنا لرؤيتهم وكانت لحظة اللقاء بين جيلا ووالد منال مليئة بالعواطف. فقد أدرك كلاهما أنهما من المكان نفسه؛ وهو المجدل الذي صار الآن يدعى مدينة عسقلان، على بعد بضعة أميال من كيبوتس زِكيم، حيث ولدت جيلا ونشأت. لقد

نشأ كلاهما وهو يرى المكان نفسه ويستمتع فيه. وشعر كلاهما بالتأثر الشديد. كرر والد منال عدة مرات أننا «أناس طيبون»، وأنه لا يحمل أي نقمة علينا، وقال: «لم يكن الخطأ خطأكم».

أخبرتني منال في ما بعد، أن «تلك كانت المرة الأولى التي أشاهد فيها أبي يبكي على فلسطين». وكانت رحلة التحول تسير بشكل أكثر كثافة. ولم يطل الوقت حتى جاءت لحظة الحقيقة؛ رغم أنه تبين لي أنها كانت الأولى من لحظات حقيقة كثيرة؛ وهي لحظات بدونها يصبح الحوار حديثاً بارداً.

كنا في لقاء تحاوري في بيت مجيد. وكان مجيد يشرح إحدى النقاط عندما قال: «لم يكن لدى الفلسطينيين أكثر من عشرة آلاف مقاتل، بينما كان عدد قوات الهاجاناه والمليشيات اليهودية ثلاثة أضعاف ذلك العدد إن لم يكن أكثر. ولذلك، لما هاجم اليهود، لم تكن لدى الفلسطينيين أي فرصة». كانت تلك أكثر نسخة من التاريخ إثارة للغضب بالنسبة لي؛ وهي أن قوات المليشيات اليهودية المقاتلة في 1948 كانت متفوقة على القوات العربية، وأن اليهود هم الذين بدؤوا الهجوم.

فقد قاتل أبي وكل أصدقائه في تلك الحرب. وسمعت قصصاً مباشرة منه حول عمليات المحاصرة، والهجمات الشرسة، والمعارك الخاطفة حيث انتصرت قواتنا فقط بسبب الحنكة والأرضية الأخلاقية التي يقاتلون من أجلها. أخبرتني أمي أنه خلال حصار القدس كان عليهم أن يتقاسموا حبة الطماطم عند الأكل، وأنهم كانوا يسرعون إلى الآبار لنزح الماء بينما كانت القذائف تسقط، والقناصون يطلقون النار عليهم. وفي النقب حيث قاتل أبي، هزم قلةٌ من الإسرائيليين الجيشَ المصري الضخم.

لقد كنت على قناعة تامة - وبحسب ما عندي من معلومات خلفية - أنني أعرف أكثر من أي شخص آخر عن ذلك الجانب من الصراع، وأن ما كان مجيد يقوله لا معنى له. وبمعنى من المعاني، إنّ هذا يجرد قصة إنشاء الدولة اليهودية من الشرف الذي حازت عليه؛ الشرف الذي كان سببه عنصراً حاسماً؛ وهو أن القلةَ هزمت الكثرةَ. ولئن كان ما قاله صحيحاً، فإن ذلك يؤدي إلى تجريد القصة من كل مجدها.

لقد كان بالإمكان أن تكون تلك اللحظة لحظة افتراق بالنسبة لي. ولم أستطع أن أفسر السبب وراء تأكيد مجيد هذه الفكرة السخيفة؛ وهي أن إسرائيل لم تكن «داوود» يدافع عن نفسه ضد «جالوت» العربي، غير أني لم أكن مستعداً لاتهامه بالكذب.

لم أستطع أن أرفض ما قاله لأن الثقة كانت راسخة بيننا. وهذه الثقة سمحت لي أن أترك لنفسي مجال البحث و«المعرفة»؛ مما يمكنني من استكشاف المنطقة غير المعروفة من «الآخر». وكان ذلك صعباً جداً. وشعرت أنه حتى لو كان ما قاله ليس الحقيقة التي أعرفها، فإن علي أن أستكشفها.

لم أقل شيئاً في حينه لأنني لم أرد أن أبدأ الجدال. وبدلاً من ذلك، انتظرت حتى عدت إلى البيت في تلك الليلة، واتصلت بأخي يوآف الذي يحاضر في العلوم السياسية بجامعة تل أبيب. قال يوآف: «نعم، ما قاله صديقك يحظى بمصداقية. وإذا كنت تريد المزيد، فاقرأ بعض الكتب التي كتبها بني موريس، وإيلان بابه، وآفي شلايم». هؤلاء الثلاثة من «المؤرخين الإسرائيليين الجدد»، وكلهم كتبوا في الآونة الأخيرة كتباً أعادوا فيها قراءة تاريخ المؤسسة في إسرائيل. وفعلت بالضبط ما نصح به يوآف. وعلى مرور الشهور التالية، قرأت كل الكتب التي كتبها أولئك الكتاب. وكلما قرأت أكثر أردت أن أعرف أكثر. لقد أكدوا ما كان الفلسطينيون يقولونه منذ عقود. وفي الحقيقة، لقد أكدوا ما كان معظم العالم يعلمه منذ سنين: أن إسرائيل تم إنشاؤها بعد أن دمرت المليشيات اليهوديةُ فلسطينَ وأخرجت أهلها إلى المنافي بالقوة. لقد كانت تلك صحوة جريئة بالنسبة لي. أتذكر عندما كنت أشاهد المسلسل التلفزيوني «تكوما» أو البعث، الذي صدر سنة 1998 لإحياء الذكرى الخمسين للاستقلال. وفي أحد المقاطع التي تتناول حرب إسرائيل من أجل الاستقلال، تم توجيه سؤال إلى قائد مخضرم عاش حرب 1948، وكان السؤال حول ما إذا كانت قوات الهاجاناه قد قامت بحرق قرى عربية. رفع رأسه إلى الكاميرا ببطء، ثم صمت قليلاً، وقال: «مثل حرائق هائلة». وقد كان هذا يعني منهجاً جديداً ينظر المرء من خلاله إلى الصراع الإسرائيلي الفلسطيني.

إن هدف الحوار هو كسر الحواجز بين طرفين من خلال الاستماع والتفهم؛ وهو أمر سهل في النظرية وصعب في التطبيق حسب علمي. إن الاستعداد لكي تقبل الحقيقة كما يراها الآخر خطوة هائلة. إنها مثل رجفة قوية، وتأملها ربما يدفعك للتقيؤ.

في البداية، كنت أشعر أنني كطفل يتعلم المشي رويداً رويداً. ثم بدأت أدرك أنه من المقبول أن أترك ما كانت نفسي ترتاح إليه من قبل؛ وهو التشبث بما كنت «أظنه» الحقيقة. لقد فتحت هذه التجربة الباب لمناقشة قضايا يشعر الإسرائيليون تجاهها بالانزعاج الشديد، وتمثلت هذه القضايا في السؤال التالي: ماذا فعلت القوات الصهيونية في الواقع عام 1948؟ وبمجرد أن خطوت عدة خطوات باتجاه هذا العالم المجهول شعرت بالثقة، وما فاجأني أنني وجدت أن هناك شيئاً أكثر أماناً وموثوقية من الاعتماد على أساطير البطولة والخلاص التي سمعت عنها أثناء طفولتي. فالكثير من هذه الأساطير - إن لم تكن كلها - اختلقتها وكرستها الدولة اليهودية التي أرادت أن تعزز صورة داوود مقابل جالوت، ورسمت شعبي على أنهم أبطال نهضوا من بين الرماد لاستعادة وطنهم التاريخي. أما بالنسبة لي، فقد كانت الثقة هي الأمر الوحيد الأكثر أهمية من الأسطورة؛ الثقة التي كانت فعلاً متوفرة بين أعضاء مجموعة الحوار، وبدونها ربما ما كنا لنستطيع المضي إلى الأمام. فالمجموعة لم تكن عبارة عن اتهام واتهام مضاد، بل كانت للاستماع وإخبار قصص شخصية. وهذا ما أتاح لي ولأول مرة في حياتي أن أعرف أن الفلسطينيين لديهم روايتهم الخاصة بهم، وأنها كانت مختلفة عن الرواية التي تعلمتها. في الحقيقة، كان الاختلاف 180 درجة.

ولقد كان غاية في الإيلام أن أعلم ذلك، ولم يكن ذلك ممكناً إلا بجهود دوريس وزوجها جيم روح اللذين نظما مثل تلك اللقاءات ببراعة. ودوريس فنانة عربية - أمريكية من أصل فلسطيني ولبناني. وبعد أن ولدت في بغداد، نشأت وكبرت في نيويورك، وتشربت شيئاً من ثقافة تلك المدينة المطعمة ببعض المعاني اليهودية. لها شعر داكن وعينان سوداوان دافئتان، وترى في وجهها مشاعر أمومة لا تتوقف. وعندما تضحك أو تبتسم تنير الغرفة.

أما جيم فهو يهودي أمريكي، وبروفيسور اقتصاد ضليع بجامعة كاليفورنيا، في سان دياغو. وهو هادئ ومنضبط وحاد كشفرة. الجميع كانوا يشعرون بالراحة مع دوريس وجيم لأنهما يحترمان الثقافتين بشكل واضح، ولديهما قدرة فريدة على جمع الناس مع بعضهم بعضاً.

وعندهما قدرة على تنظيم الاجتماعات دون إقحام مواضيع شخصية فيها. ولقد عُقدَ الكثير من اللقاءات في بيتهما الجميل في سان دياغو، وكان اهتمامهما البالغ هو الذي منح المجموعة القدرة على المواصلة شهراً بعد شهر. فقد وهبا قلبيهما للمهمة الصعبة؛ وهي إنجاح الحوار. من وجهة نظري، نجحا في ذلك نجاحاً باهراً.

ومع مرور الوقت، نمت ظاهرة الحوار، فتشكلت في سان دياغو ثلاث مجموعات حوار نشطة أو أربع تولدت عن مجموعتنا؛ بما فيها واحدة أنا بدأتها. فأعطتني دوريس عناوين أشخاص ذوي اهتمام بذلك وأسماءهم، وتواصلت معهم لكي أرى إن كانوا جادين بخصوص المشاركة في مجموعة حوار. وانتهى الأمر بنا إلى أن نكون مجموعة مكرسة نفسها للحوار تماماً. لم يمضِ وقت طويل حتى تبين لي أنني مشارك جيد ولستُ منظّماً. فقد أردت أن أكون مساهماً نشطاً في الحوارات، وأن أعبر عن نفسي بالكامل، وليست لديّ القدرة على منع نفسي من أن أكون غير متحيز أو بلا لون؛ وهو الأمر المطلوب من المنظم. وبالتالي، اعتمدت على آخرين لينظموا الاجتماعات ويديروها.

وسرعان ما انتشر الخبر بأن هناك مجموعات للحوار اليهودي الفلسطيني في سان دياغو وحولها، وأن لدى هذه المجموعات شيئاً إيجابيًّا تقوله. وقد سُر أناس بهذا الخبر وغضب آخرون. واهتمت بنا الجرائد المحلية ومحطات التلفزيون المحلي، ونشرت صحيفة كريستيان سيانس مونيتور خبراً رئيساً عنا.

ولكن عبور الخط الفاصل من أجل فهم وجهة نظر «الآخر» لم يكن خطوة إيجابية بالنسبة للجميع. فلقد تحدث اليهود والفلسطينيون بألم شديد عن أناس في مجتمعاتهم، وبعضهم أصدقاء مقربون، قاطعوهم لأنهم يلتقون «الجانب الآخر». وقالت سيدة يهودية كبيرة في السن: «لقد أخبرونا أننا لسنا مرحّباً بنا

مطلقاً؛ لأننا نلتقي إرهابيين». وقال فلسطيني: «قيل لنا إننا يجب أن نشعر بالخزي من أنفسنا». ثم طُلبَ مني أن أشارك في حلقات نقاش برفقة أعضاء آخرين من المجموعة. وقد دُعينا للحديث في كُنُس، ومساجد، وكنائس. ودعتنا مؤسسات مدنية ونوادٍ خدماتية لإلقاء محاضرات. وكنا نجلس معاً على المنصة ونتبادل الأدوار، ويخبر كل منا قصته. وعندها، أدركت أن علي أن أتعلم حبس دموعي عندما أتحدث عن صمدار. بعد ذلك، كنا نتلقى الأسئلة من الحضور. من وقت لآخر، كان اثنان منا يدعيان للحديث، ولذلك كانت عندي فرص أتشارك فيها مع مجيد ودوريس ومنال. وبدأت ألاحظ أننا انتقلنا تدريجياً من تمثيل وجهات نظر متعارضة إلى تقديم رؤية مشتركة.

في عام 2002، قررت قناة تلفزيون إسرائيل العاشرة أن تخرج وثائقياً عن الإسرائيليين الذين يعيشون في الخارج. وجاء يهودا ليتاني – وهو صديق لنوريت ورامي – إلى سان دياغو كي يجري مقابلة مع طبيب فلسطيني يعيش هناك. وعندما سمعت نوريت أن يهودا كان قادماً إلى سان دياغو، أخبرته أنني أعيش هناك أيضاً، ولذلك قرر أن يكتب فصلاً عني كذلك.

كانت جيلا حاملاً بتالي عندما جاء، وأصبحنا جميعاً أصدقاء مقربين. وظل معي برفقة المصور لمدة أسبوع، وكان يصور مشاهد من دروس الكاراتيه التي أعلمها في الدوجو وعلى شاطئ كورونادو. ثم حضر أحد اجتماعات مجموعة الحوار، وأجرى مقابلات مكثفة مع نوريت وأمي. وكانت النتيجة وثائقياً عني مدته 40 دقيقة، عرج فيه على عائلتي وأبي وصمدار، بالإضافة إلى عملي في جماعات الحوار اليهودي الفلسطيني وتدريبي للكاراتيه. في نهاية الوثائقي، علق ليتاني بأنني كنت بمثابة سفير للنوايا الحسنة من أجل إسرائيل، وأبدى أسفه لأنني لم أعد أعيش في إسرائيل.

بالفعل، شعرت أخيراً أنني أفعل شيئاً، ولكنها لم تكن سوى البداية.

الفصل الثامن

علمان

انتقل اهتمامي إلى مستوى جديد عندما كونتُ مع نادر البنا شراكة من نوع غريب. في الظاهر، لم تكن بيننا أشياء مشتركة. فهو مسلم ملتزم وعربي فلسطيني، أما أنا فيهودي إسرائيلي وجدت نفسي علمانياً بالسليقة. كما أننا من جيلين مختلفين: ولد نادر عام 1949، وولدت أنا بعد ذلك بخمسة عشر عاماً. إضافة إلى ذلك، كانت ثقافتانا مختلفتين؛ إذ كانت تنشئته على الطريقة العربية التقليدية، فيما كانت تنشئتي على الطريقة الليبرالية الغربية. ومن الناحية السياسية، كان رجلاً محافظاً، فيما كنت ليبرالياً تقدمياً.

بيدَ أن قصة كل واحدٍ منا نتجت عن الدراما نفسها؛ دراما إسرائيل فلسطين. ومع ذلك فهما قصتان مختلفتان جداً. إن بعث وطن سياسي يهودي مستقل – الأمر الذي شكل مصدر الاعتزاز الأول لعائلتي – هو نفسه الذي سبب دمار فلسطين وتحطيمها، وصاغ قصة عائلته. ورغم أن كلينا عشنا في المنفى، فقد تركتُ بلدي باختياري، وكان بإمكاني العودة في أي لحظة أرغب فيها بالعودة، بينما كان نفيه بالقوة ولا يُسمح له بالعودة.

التقينا عن طريق القدر والمثابرة والإعجاب العميق. ومثل طفلين ولدا لأم واحدة، فإننا ابنا وطن واحد. ولو لم نترك وطننا فربما ما كنا لنتعارف مطلقاً؛ ولكن المنفى جمعنا.

التقيت ابن نادر، واسمه جميل، قبل أن ألتقي «نادر» شخصياً. في عام 2002، دعت دوريس «جميل» إلى اجتماع من اجتماعات مجموعة الحوار. أذكر أننا كنا في بيت مجيد في ذلك المساء عندما قدم جميل نفسه وأخبر المجموعة: «ولدتُ ونشأت في الأردن، وأنهيت تعليمي في الولايات المتحدة، ومع ذلك رباني أبي

على أن أكون فلسطينياً يعتز بنفسه».

وبينما كنت أنظر إليه وأستمع إلى حديثه لم أتوقف عن التفكير: هذا الشاب المتعلم المهذب، ذو الهندام الأنيق، والذي ولد ونشأ في الأردن وتعلم في الولايات المتحدة، لا يزال يرى نفسه فلسطينيًّا ويعتز بنفسه. وقد أعجبني هذا وأقلقني في الوقت نفسه، وذكرني بالقصص التي سمعتها عن اليهود الذين عاشوا في المنفى لقرون، ومع ذلك ظلوا مرتبطين بهويتهم ووطنهم. وقد قابلت «نادر» بعد ذلك العام. وفي تلك المرة، كنا في بيت دوريس وجيم اللذين كانا قد اشتهرا بأنهما والدا مجموعة الحوار اليهودي الفلسطيني في سان دياغو.

كان نادر يومها يرتدي معطفاً ويضع ربطة عنق. وعندما قمنا لتناول الطعام، اقتربت منه وقدمت نفسي إليه. أخبرني أن اسمه نادر، ويلفظه «نيدر» كما في رالف نيدر. قلت له: «لا بد أنك تقصد «نادر»». ولفظت اسمه كما يلفظ بالعربية. وقلت: «أنا إسرائيلي، وأعرف كيف يلفظ الاسم». وفجأة، استدار عني وترك الغرفة دون إضاعة وقته في المجاملات. فوجئت، فقد كانت تلك هي المرة الأولى التي أقابل فيها شخصاً من خلال المجموعة لم يكن مثل الباقين لطيفاً وودوداً.

استمر الاجتماع، وجاء دور نادر ليخبر قصته للمجموعة: «ولدت في الناصرة لعائلة مسلمة، وكان لنا جيران يهود ومسيحيون». في ما بعد علمت أن أسلافه جاءوا للناصرة مع إبراهيم باشا والي مصر الذي غزا فلسطين عام 1831. ولعائلة نادر مقبرة خاصة بها في الناصرة، حيث يدفن فيها أفراد عائلة البنا جيلاً بعد جيل.

وواصل نادر: «في عام 1948، أجبرنا على أن نغادر فلسطين، تاركين وراءنا بيتنا الجميل في الناصرة، وأجبرنا على العيش في خيمة في الزرقا، في الصحراء». كان عمر نادر سنتين ونصف السنة عندما تصرف أبوه كأي والد مسؤول وعبر بالعائلة نهر الأردن، وفي نيته العودة بمجرد أن ينتهي القتال. كما فعل آلاف الرجال الفلسطينيين الشيء نفسه. وانتهى بهم الحال في مخيم للاجئين في مدينة الزرقا شمال عمان. في تلك الأثناء، تعرضت فلسطين للتدمير، وشُرد أهلُها وتشرذموا، وأنشئت دولة إسرائيل. ولم تسمح الدولة الجديدة لأي فلسطيني

غادر بالعودة إلى بيته أو أرضه. وفُرِضَ عليهم أن يظلوا لاجئين إلى الأبد.

شمر نادر عن ساعد الجد، وبدأ حياته المهنية في الجيش الأردني، وتخرج أخيراً كضابط من الكلية العسكرية الملكية الأردنية. وظل في الجيش الأردني حتى سبتمبر [1]1970، عندما تقاعد من الحياة العسكرية وأصبح رجل أعمال. قرر أن يأتي بالعائلة إلى الولايات المتحدة عام 1988، تقريباً في الوقت نفسه الذي جئنا جيلا وأنا فيه للولايات المتحدة. لدى نادر ستة أولاد، وأصغر أولاده تقارب سنهم سنَ ولديّ إيتان ودورون.

وفي لحظة من لحظات الاجتماع، قال نادر شيئاً لفت انتباهي. قال: «كنت نقيباً في الجيش الأردني، وحاربت في معركة الكرامة». حارب أخي يوآف على الجانب الآخر في معركة الكرامة؛ إذ كان ملازماً على رأس فصيل دبابات في تلك المعركة. لم أكن على يقين من أن أصدقائي الأمريكان – اليهود كانوا على دراية تامة بمغزى هذه المعركة التاريخية أم لا.

لقد كانت علامة بارزة في تاريخ العلاقات بين إسرائيل والمقاومة الفلسطينية، وخاصة حركة فتح التي يقودها ياسر عرفات.

بدأت المعركة في ليلة 21 مارس 1968. فبعد إصرار وزير الحرب الإسرائيلي موشي ديان، قامت إسرائيل بهجوم كبير على قرية الكرامة، شرق نهر الأردن. وكانت مقرات فتح في تلك القرية، وكان ياسر عرفات يقيم هناك ومعه عدة مئات من المقاتلين الفلسطينيين، أو الفدائيين. في تلك المعركة التي كانت أول معركة مفتوحة بين الجيش اليهودي والفلسطينيين منذ عام 1948، استنفرت إسرائيل أكثر من مائة دبابة، وكل أفراد الكتيبة الخامسة والثلاثين الذين حُملوا جواً، ووحدات القوات الخاصة، وعدة أسراب من الطائرات المقاتلة، وكتيبة مشاة كاملة. وشكل عدد القوات الإسرائيلية الهائل عبئاً كبيراً على الجيش، فعَلقت الدبابات في

(1) أدت الصدامات المتواصلة بين القوات الأردنية والفدائيين الفلسطينيين إلى حرب أهلية شاملة في سبتمبر 1970، وكانت النتيجة أن تم طرد منظمة التحرير من الأردن. ورفض الفلسطينيون الذين كانوا يخدمون في الجيش الأردني القتال ضد إخوانهم الفلسطينيين، وبالتالي تم إعفاؤهم من الخدمة في الجيش.

الوحل، مما أجل الهجوم وأفسد عنصر المفاجأة. أشعرت المخابرات الأردنية عرفات - الذي لم يكن معروفاً جيداً على مستوى العالم حتى ذلك الحين - أنّ هجوماً عسكرياً إسرائيلياً واسع النطاق على البلدة كان على الأبواب. أثناء المعركة، تعرض الفلسطينيون لخسارات كبيرة ولكنهم صمدوا، مما فاجأ الإسرائيليين رغم جسارتهم. وتدخل الجيش الأردني الذي كان نادر ضابطاً صغيراً فيه، لصالح الفلسطينيين ودفاعاً عن مناطقه السيادية ضد الجيش الغازي.

وقفت الولايات المتحدة بقوة ضد الهجوم. وقال سفير الولايات المتحدة في الأمم المتحدة، آرثر جولدبيرغ، إن مثل هذه العمليات، وبهذا الحجم الهائل، «يجب أن تُستنكر بشدة». وحققت المعركة نجاحاً أسطورياً في العالم العربي. وفي ديسمبر 1968، نشرت مجلة التايم تقريراً عن فتح، ظهر فيه وجه عرفات على الغلاف، وكانت تلك هي المرة الأولى التي يخرج فيها عرفات للعالم. وكان العنوان على الغلاف: «القوات الخاصة العربية: قوة تحدٍّ جديدة في الشرق الأوسط».

بالنسبة لإسرائيل، أصبحت معركة الكرامة مرادفاً للإهانة.

وختم نادر كلامه عن المعركة بقوله: «قتل صديقي المفضل إبراهيم الشهشير بعد أن ضربته دبابة إسرائيلية بصاروخ فوسفوري؛ مات ببطء إذ كان يحمل سلاحه».

عندما انتهى الاجتماع أردت أن أذهب لنادر، ولكني لم أكن أدري بالضبط ما أقوله. ثم ذهبت إليه، وأخبرته أن أخي أيضاً حارب في الكرامة، وأعطيته دبوساً عليه علم إسرائيل وعلم فلسطين، وهو واحد من الدبابيس التي لا زلت أحتفظ بها منذ كان أبي ناشطاً من أجل السلام. وعندما كان أبي يضعه، كان إظهار العلم الفلسطيني غير قانوني في إسرائيل. لقد كان هذا يعني الكثير لي، ووضعته في كل اجتماعات الحوار. في ما بعد قال نادر: «في البداية، ظننت أن ميكو جاسوس أرسله الموساد، وكنت على ثقة أنني سأقاتله في تلك الليلة. ثم رأيته يضع دبوساً عليه العلم الفلسطيني على سترته. لم أر، بل لم يخطر ببالي، أنني يمكن أن أرى إسرائيلياً يضع على سترته علم فلسطين».

وبعد عدة شهور، جاءت ابنة نادر، رانية إلى اجتماع حواري. وهي طويلة،

ونحيفة ومحجبة - أي تضع الحجاب الذي تضعه المسلمة الملتزمة على رأسها - وتضع نظارات. وقد كان من الصعب التنبؤ بسلوكها وشخصيتها، في ظل سمتها الهادئ وغطاء رأسها الإسلامي التقليدي.

تحدثت رانية بهدوء، وقدمت أفكارها بوضوح قائلة: «عندما قررت أن ألتزم، تعلمت أن أضع غروري جانباً، وشجعني الإسلام على التعارف مع «الآخرين»، وعلى الاستماع بشكل أفضل، ولذلك قررت التواصل واللقاء مع يهود وإسرائيليين. ولهذا جئت هنا، وأعتقد أن هذا يجعلني أفضل». فاجأتنا كلمات رانية، فلم يحدث لأي أمريكي - يهودي من أفراد المجموعة أن قابل امرأة فلسطينية ومسلمة وملتزمة، وكنت مثلهم. وكانت الوحيدة التي تضع الحجاب من بين النساء الفلسطينيات المشاركات في مجموعة الحوار.

مرت عدة شهور أخرى دون أن أرى «نادر» مرة أخرى في أي من الاجتماعات. فقد أشار إلى أنه عضو في نادي الروتاري في إسكونديدو، وهي مدينة في شمال مقاطعة سان دياغو. وكنت قد التحقت بنادي الروتاري في كورونادو قبل ذلك بعدة سنين. لم تكن لدي أي فكرة عما يكون الروتاري قبل أن ألتحق به، ولكن سرعات ما علمت الحجم الهائل للأعمال المهمة التي يقوم بها الروتاري في كل أنحاء العالم. حتى في ظل شهرة الروتاري المحافظة، وآرائي المتحررة من كل شيء، فقد استطعت أن أجد أصدقاء وزملاء من خلال نادي الروتاري في كورونادو وفي كل أنحاء العالم.

وعندما علمت أن «نادر» عضو في النادي كوّن ذلك عندي فكرة عنه. فقد كان كلانا من الأرض نفسها، وكلانا شاركنا في حوار يهودي فلسطيني في سان دياغو، وكلانا عضوان في نادي الروتاري الكبير. كانت عند كل واحدٍ منا قصصٌ تستحق الإخبار، وعرفت أن أسلوبه في الحديث يؤثر في السامعين بقوة. وبالتالي قدمت مقترحاً:» لماذا لا نبدأ أنت وأنا بإلقاء محاضرات معاً في نادي الروتاري؟».

في البداية، بدا متشككاً، ولكنه تفهم أيضاً. ورغم أن الأمر أخذ بعض الوقت، إلاّ أن الثقة نمت بيننا تدريجياً، وأصبح نادر أكثر ثقة من حيث التعبير عن نفسه وهويته كأمريكي فلسطيني ومسلم. وبدأنا المحاضرات في نوادي الروتاري

في كل مقاطعة سان دياغو (وفيها 33 فرعاً) ولقي نشاطنا نجاحاً كبيراً. واشتهرنا بالإسرائيلي والفلسطيني الروتاريين اللذين رأيا صورة أكبر، واستطاعا أن ينسجما رغم اختلافهما الظاهر. ثم بدأنا نقضي معاً وقتاً أكثر، وبدأنا نصبح صديقين.

قلت له مرة: «يجب أن تحضر عائلتك لتزورنا في كورونادو». وكان متردداً في البداية. وأظن أنه لم يكن مستريحاً تماماً، لأنه لم يكن يعرف ما ينتظره. فهو لم يزر يوماً في حياته بيت عائلة يهودية. إن حقيقة تدمير الإسرائيليين لبلاده وطردهم عائلته إلى مخيم للاجئين في الصحراء لم تكن أمراً بسيطاً. لقد احتاج الأمر إلى قفزة إيمانية كي يضع عائلته تحت «رحمة» عائلة إسرائيلية أخرى.

وفي النهاية وافق. وكما يحب نادر أن يقول: «جئنا لكورونادو للزيارة وتناول الغداء، وكانت الخطة ألا نقضي أكثر من ساعتين». وصلوا بحدود الساعة الواحدة ظهراً. وكانت بصحبته زوجه عفاف وابناهما الصغيران سامي ويوسف. عفاف مسلمة ملتزمة من خلفية محافظة جداً، وجيلا إسرائيلية علمانية من كيبوتس. غير أن الانسجام بينهما بدأ من أول لحظة. فبدأتا الحديث، وأنا أخذت «نادر» لأريه شريط فيديو شاهدته حديثاً عن فلسطين. واختفى الولدان مع إيتان ودورون وذهبوا جميعاً للّعب معاً، ولكنهم كانوا يعودون من آن لآخر ليعلنوا: «نحن جائعون». تناولنا جميعاً الغداء، والساعتان أصبحتا أربعاً، والأربع أصبحت ستًّا. واصلنا الحديث، وواصل الأولاد اللعب. وخرجنا كلنا للتنزه على الخليج.

أشرت إلى الأولاد الذين كانوا أمامنا على زلاجاتهم وقلت: «انظر، أطفال إسرائيليون وفلسطينيون لا يعرفون أنه يفترض بهم أن يكونوا أعداء». نظر نادر إليهم وتنهد قائلاً: «إنهم المستقبل».

ودون أن نعرف كانت جيلا وعفاف تتحدثان عن تحضير العشاء. وأصرت عفاف قائلة: «يجب أن نغادر بعد العشاء». وعندما هموا بالمغادرة كان الوقت منتصف الليل، وخرج الأطفال من غرفة اللعب وسألني ولداي: «هل يمكن لسامي ويوسف أن يقضيا الليلة هنا؟». نظرتُ إلى جيلا وفهمتُ منها أنها لا تمانع وقلت: «بالتأكيد، ولم لا، إذا وافق والداهما». أُصيب نادر وعفاف بشيء من الدهشة. وأخذ الأمر دقيقة أو دقيقتين، ثم أعلنا موافقتهما.

لم أفكر في الأمر كثيراً في ذلك الوقت. فولدانا يستضيفان أصدقاءهما دائماً. ولكن، تبين أن هذا الأمر يعني لنادر مغزى خاصًا. وذلك لأنه لم يخطر بباله أن ولديه يمكن أن يقضيا ليلة في بيت عائلة يهودية إسرائيلية.

تميزت سنة 2002 بولادة ابنتنا تالي. حمل جيلا متعب، ولذلك استغرق الأمر ست سنين وأنا أحاول أن أقنعها بمشروع الطفل الثالث. وبعد حمل متعب فعلاً وولادة عصيبة، أنجبت جيلا تالي في 22 سبتمبر 2002.

في يناير 2003، قام أصدقاؤنا في نادي الروتاري، بدعوتي ودعوة نادر للالتحاق بلجنة جديدة للروتاري في مقاطعة 5340، وهي المقاطعة التي تقع فيها الفروع التي نشترك فيها. كان اسمها «مسارات للسلام»، وكانت رسالتها إبراز جهود نادي الروتاري في صنع السلام. وظننت أن هذه اللجنة الجديدة تمثل فرصة جيدة لنا، وقد كانت كذلك بالفعل. نادي الروتاري عبارة عن منظمة تتكون من أشخاص يتولون مهمات مستحيلة ولكنهم يحققونها، وهؤلاء هم نوع الناس الذين احتجنا أن نكون على تواصل معهم.

حتى تلك اللحظة، كنت قد شاركت في مجموعات حوار لمدة سنتين، وألقينا - نادر وأنا - محاضرات معاً لبعض الوقت. وبعد كل محاضرة، كان الناس يأتون إلينا غالباً والدموع في أعينهم، وكانوا يقولون: «ما تقومان به رائع، كيف يمكنني أن أساعد؟». أو «نتمنى عليكما أن تواصلا شراكتكما الرائعة، لقد منحتماني أملاً». وعبارات من قبيل: «أخبراني إن كان هناك شيء يمكن أن أفعله». في إحدى المرات، ألقينا محاضرة في معهد سوك قرب جامعة كاليفورنيا، سان دياغو. وبمجرد أن أنهينا جاءنا الناس وقالوا: «ما هو المطلوب؟ لماذا لا تطلبان المال، أو أي شيء يمكن أن يساعدكما كي تبدآ العمل؟».

هذه التعليقات، بالإضافة إلى حقيقة أنني كنت قد بدأت أشعر بالدافعية في أدواري المحدودة في الدعوة إلى السلام، جعلتني أعتقد أن الوقت قد حان للقيام بشيء أكثر من مجرد المشاركة في حوار. ولكن، ما هو هذا الشيء؟ وفي أحد الأيام، كنا نادر وأنا نتناول العشاء في مطعم علاء الدين بسان دياغو وطرحت الموضوع. وافق نادر قائلاً: «إنني أشعر بالأمر نفسه، ولكن نحتاج إلى أن نتحدث

أكثر». وكان نادي الروتاري في منطقتنا يضع اللمسات الأخيرة لمشروع إرسال كراسٍ متحركة لجمهورية مالي وقلت لنادر: «لماذا لا نقوم بمشروع كراسٍ متحركة؟». ومباشرة باشرت البحث، واكتشفت أن هناك حاجة ماسة لكراسٍ متحركة لدى الإسرائيليين والفلسطينيين. ففي ذلك الوقت، كانت غزة وحدها بحاجة إلى 20000 كرسي متحرك. «لماذا لا يكون مشروعنا كراسٍ متحركة للأرض المقدسة؟». واتفقنا على جمع التبرعات لشراء 1000 كرسي، خمسمائة منها لإسرائيليين وخمسمائة لفلسطينيين.

أخذنا هذه الفكرة وذهبنا لعرضها على لجنة مسارات للسلام، فأُعجب بها الجميع. وقال ماك باردن، وهو أحد رؤساء اللجنة: «إنها فكرة عظيمة. ولكن احذرا، إن الشيطان يكمن في التفاصيل». وكان محقاً.

قررنا أن تكون التبرعات بشكل فردي من أعضاء نادي الروتاري الذين يمكن أن يساهموا في المشروع مباشرة، والذي اتفقنا على تسميته «كراسٍ متحركة للأرض المقدسة». وتحدثنا عن الموضوع في اجتماعات نادي الروتاري، ولأكثر من عام ونحن نجمع التبرعات. وقد تأثر بعض الناس من أحاديثنا لدرجة البكاء وهم يروننا نقف جنباً إلى جنب، ونعالج القضايا باحترام كأصديقين وشريكين. ولكنه لم يكن إبحاراً سهلاً طوال الوقت. فبعض المحاضرات كانت شائكة، وكان علينا أن نجيب على بعض الأسئلة الصعبة. لماذا نساعد الفلسطينيين الإرهابيين، طالما أنهم لا يستطيعون مساعدة أنفسهم؟ لماذا يحصل الإسرائيليون على نصف الكراسي طالما أن الحاجة عند الفلسطينيين أكثر؟ وكان من المفيد أننا كنا معاً أثناء المحاضرات، فقد كنا نعرف أننا نمشي على حبل رفيع، ولذلك أردنا أن نبتعد عن السياسة قدر الإمكان وأن نركز على الجانب الإنساني.

في 22 مارس 2004، كنت قد وصلت للتو إلى مطار سان دياغو عائداً من إحدى الرحلات، عندما اتصل نادر، وبدا عليه الانزعاج الشديد. قال: «اذهب للبيت واستمع للأخبار».

فقد أطلقت طائرة أباتشي إسرائيلية ثلاثة صواريخ وقتلت قائد حماس الشيخ أحمد ياسين وهو خارج على كرسيه المتحرك من أحد مساجد غزة بعد صلاة

الفجر. والشيخ أحمد ياسين رجل مسن ومقعد، وهو مؤسس حماس وقائدها الروحي. وقد تم قتل سبعة من المارة حسب التقارير، ومن ضمنهم مرافقو الشيخ. وجُرح 12 آخرون من بينهم ابنا الشيخ ياسين. قال نادر: «كيف يمكن أن نظل نتحدث، بينما يستمر كل هذا؟ أريد منك أن تلغي محاضرة غداً، لا أستطيع القيام بهذا مطلقاً بعد اليوم». وقد كان من المقرر أن نذهب لنلقي محاضرة في اليوم التالي تم الترتيب لها قبل عدة أشهر.

واقترحت عليه أن يذهب للمحاضرة، و«أخبر الناس عن مدى صعوبة الأمر عليك. أخبرهم عن مشاعرك تجاه اغتيال الشيخ ياسين. لا يجب علينا أن ندعي أن كل شيء على ما يرام، فلو كان كل شيء على ما يرام، لما كان علينا أن نقوم بهذا العمل». وأقنعت نادر أن نلقي المحاضرة كما هو مقرر، وقد اتفق معي في ما بعد أن ما قمنا به في ذلك اليوم كان الأصوب. ومع ذلك، ما كان ذلك سهلاً عليه.

فعندما ذهبنا للمحاضرة في نادي الروتاري بكورونادو، وهو النادي الذي أرتاده، كان في انتظارنا حشد كبير جاء ليستمع إلينا. يلتقي أعضاء النادي عادة في فندق ديل كورونادو، وهم 200 عضو. وفي الاجتماعات العادية يحضر حوالى مائة عضو، وإذا كان البرنامج جذاباً، يزداد عدد الحضور. ولكن، هذه المرة طلبوا كراسي وطاولات كي يتسع المكان للحضور الكبير من الأعضاء والضيوف. وجاء نادر وهو مريض ويعاني من حُمى شديدة وقال لي: «سأكون بخير، لا تقلق، لن أخذلك أبداً».

كان اللقاء جيداً. وتم عرض الشرائح الخاصة بالمحاضرة بشكل سلس، وشعرت بالراحة، وكان المزاج العام في النادي كريماً وداعماً. ثم قاربت فترة الأسئلة والأجوبة على النهاية، وحينها جاءنا سؤال من الجانب الأيسر، وكان السؤال: «ما رأيك في ياسر عرفات؟». لقد أردنا أن نبتعد عن القضايا السياسية قدر الإمكان، ولم يكن هناك موضوع يثير الانقسام أكثر من شخصية ياسر عرفات. وقد كنت أرى أن نصف العالم، ومعظم الحاضرين يؤمنون أنه وغدٌ. والنصف الآخر بمن فيها أنا لم يعتقدوا ذلك. رجعت خطوة إلى الخلف كي ألملم أفكاري، ولم يكن هناك مفر من الإجابة دون إزعاج أحدهم.

وتحرك نادر نحو المايكروفون وقال: «ياسر عرفات مجرد إنسان يجلس في غرفة ومعه هاتف نقال، وكل ما يستطيع فعله هو أن يطلب البيتزا من خلال الهاتف النقال». فضحك الجميع، وكان ذلك اللقاء أفضل اللقاءات من حيث جمع التبرعات.

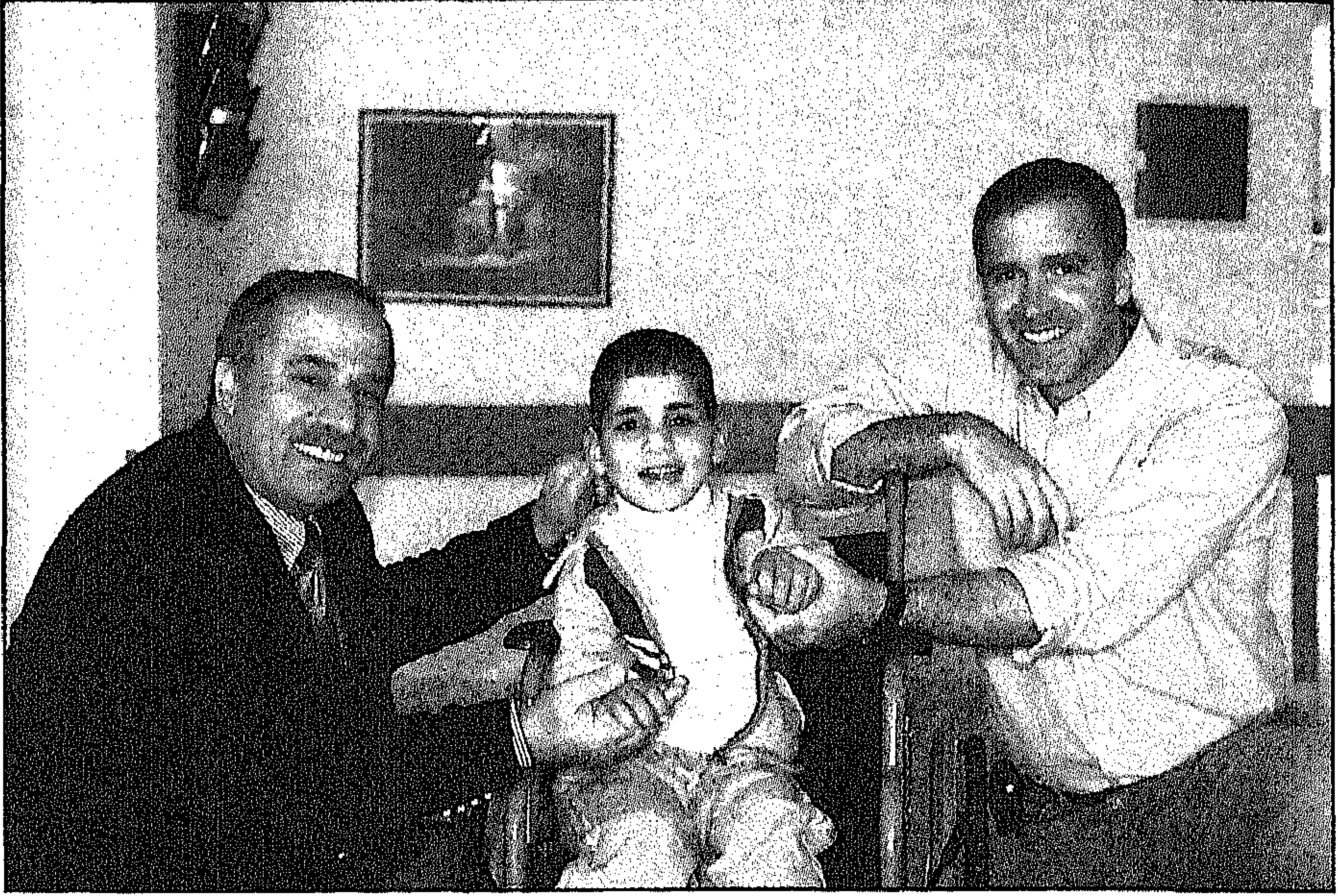
اتصلت بنا وزارة محلية مسؤولة عن الشباب لتدعم مشروعنا. وكانوا من الحماسة والإخلاص حيث إننا ظننا أن هذا فوق الخيال. ولكنه لم يكن كذلك. فقد عملوا مبادرة «المشي من أجل الكراسي المتحركة» لجمع التبرعات لمشروعنا، وجمعوا 8000 دولار؛ الكثير منها كان قطعاً نقدية صغيرة تم جمعها من أناس إمكانياتهم بسيطة ولكنهم آمنوا بقضيتنا.

وقدمنا طلباً لمنحة شبيهة من نادي الروتاري العالمي، وتمت الموافقة عليها وكان قدرها 25000، وبها بلغت التبرعات 84000 دولار. وكان هذا يعني أننا نستطيع أن نشتري 1280 كرسيًّا متحركاً، تحتاج إلى أربع حاويات لنقلها بحراً. وكنا في قمة السعادة. وقد علمنا أن مشاريع الروتاري السابقة اشترت الكراسي من مؤسسة الكراسي المتحركة (تي دبليو إف) وهي شركة تبرعت لنا بنصف المبلغ المطلوب، ورتبت صناعة الكراسي وإرسالها بالشحن البحري.

وبعد أن أرسلنا المال لمؤسسة الكراسي المتحركة، أرسلوا لي وصلاً بمبلغ 84000 دولار وملاحظة تقول: «شكراً لجمعك التبرعات من أجل إرسال كراسٍ متحركة إلى إسرائيل». واتصلت مباشرة كي أصحح الخطأ، وقلت لهم: «لقد صرحنا بتخصيص نصف عدد الكراسي لإسرائيل والنصف الآخر للسلطة الفلسطينية».

واستغرق الأمر عدة رسائل إيميل ومكالمات هاتفية لأدرك أن المشكلة لم تنتهِ. فقد قرر شخص ما أن يعرقل النصف الفلسطيني من المشروع. وبغض النظر عن عدد المرات التي أوضحتُ فيها أن هذا المشروع قائم على أساس المساواة الكاملة بين الإسرائيليين والفلسطينيين - دولار للفلسطينيين ودولار للإسرائيليين - لم أستطع أن أصل إلى أي شخص.

وفي النهاية، تحدثت مع رئيس الشركة، ووعد بالنظر في الموضوع. تحدثنا على التلفون عدة مرات، وكنت مصراً فأخبرته: «لن نساوم في هذه القضية، ولدي غداً مقابلة مع صحيفة سان دياغو يونيون تريبيون، وليست عندي مشكلة في أن



نادر البنا وأحد الأطفال المستفيدين من مشروع الكراسي المتحركة.

أخبرهم أن مؤسستكم تعرض المشروع للخطر. فقد أعطانا المال المئاتُ من الناس لأننا وعدناهم بالمساواة والعدل».

وعاد الرئيس إليّ في ذلك اليوم ليقول لي إنهم سوف يواصلون المشروع معنا، ولكن شركته ليست مسؤولة إلا عن إرسال الكراسي إلى أقرب ميناء إسرائيلي. وكان علينا أن نأخذ الكراسي من هناك إلى الضفة الغربية. وبمساعدة فرع أمريكي من جمعية فرسان القبر المقدس وهي منظمة غير حكومية، استطعنا أن نؤمن مكاناً للكراسي المخصصة للفلسطينيين في المستشفى العربي للتأهيل في بيت جالا بالقرب من بيت لحم، وكان هناك شخص جاهز ليأخذ الكراسي ويوصلها لمستحقيها.

وقد كان ما أخبرته لمؤسسة الكراسي صحيحاً. ففي مايو 2006، تواصل معي جون ويلكنز وهو مراسل كبير من مراسلي صحيفة سان دياغو يونيون تريبيون[1] وقال إنه يريد أن يعد تقريراً عن مشروعنا. وحصل أننا التقينا يوم ذكرى ميلاد نادر.

(1) تعرف الآن يو تي سان دياغو.

عرفت أن جون ويلكنز يعد تقارير رئيسة. ولكنني لم أكن جاهزاً لما كنت سأراه عندما فتحت صحيفة الأحد. فقد رأيت صورة كبيرة لنادر ولي ونحن نقف معاً، وقد كتب عنا قصة طويلة، وكانت الصفحة تحتوي صوراً صغيرة من رحلات سابقة إلى الشرق الأوسط كنت قد أعطيتها لجون. تلقيت مكالمات من أصدقاء يهود وغير يهود من الذين قرأوا الخبر واتصلوا ليهنئونا. وكانت مكالمة الدكتور ستيفن دروسمان الذي أشرف على ولادة أولادنا من أكثر المكالمات تأثيراً.

بعد ذلك، في صيف 2006، شنت إسرائيل عملية عسكرية واسعة ضد لبنان. وأدى هذا إلى أن يرد حزب الله[1] بإطلاق الصواريخ، كما أدى إلى إغلاق مؤقت لميناء حيفا. وأراد المختصون في مؤسسة الكراسي المتحركة أن يوقفوا المشروع بالكامل مرة أخرى. ومرة أخرى أصررت أننا لا نستطيع. ففي إسرائيل ميناءان في الجنوب: ميناء عسقلان وميناء أسدود. ولكن لم يكن بإمكان أي منهما أن يفي بالغرض.

وفي النهاية، وصلت الكراسي إلى ميناء أسدود في ديسمبر 2006، قبل ميعادها بشهر. ولم تكن هناك مشاكل في توصيل الحاويتين اللتين خصصتا لمنظمتين إسرائيليتين غير حكوميتين؛ وهما ياد سارة ونادي الروتاري في الناصرة، ولم تكن هناك أي مشكلة في التخليص الجمركي ووصول الكراسي إلى مستحقيها.

أما الحاويتان اللتان خصصتنا للسلطة الفلسطينية فلم تدخلا في حينه. فقد صرحت إسرائيل أن هناك اعتبارات أمنية، وبالتالي تم احتجاز الحاويتين لمدة شهرين. وقد استدعى الأمر تدخل القنصلية الأمريكية وقدراً كبيراً من الإصرار، معظمه كان من أصدقاء طبيين مثل تشك رادلوف الذي صادف أنه في إسرائيل في ذلك الوقت وعمل على إنجاز المهمة. وفي النهاية، ومع الشكر لمنى قطان التي كان دورها مؤثراً في توصيل الكراسي لوجهتها، والتي تطوعت ودفعت 7000 دولار – وهي رسوم الحجز التي جعلتهم إسرائيل يدفعونها بالنيابة عنا – وصلت الحاويتان إلى مستشفى التأهيل في بيت جالا. لقد أنجزنا المهمة فعلاً.

---

(1) حزب الله حركة إسلامية شيعية مقرها لبنان. ويعود الفضل جزئياً لقواتها في إجبار الجيش الإسرائيلي على إنهاء احتلاله لجنوب لبنان.

الفصل التاسع

فيروس الخوف

في عام 2003، حصل نادر على الجواز الأمريكي، وأصبح أخيراً بإمكانه بالعودة إلى وطنه كسائح وذلك لأول مرة بعد غياب دام خمسين عاماً. كنا - جيلا وأنا - في إسرائيل في ذلك الوقت، وقررنا الذهاب للناصرة كي نزوره ونلتقي عائلتَه الممتدة.

ولو أن أحداً سألني حينئذ عمّا إذا كنت خائفاً من العرب، أو من زيارة مدينة عربية أو بلد عربي، لكان جوابي: بالطبع لا. ولماذا أخاف؟ فقد كنت شخصاً متفتح العقل، أليس كذلك؟ وكان والدي ماتي بيليد؛ وهذا من الأهمية بمكان. وكنت أعرف مثلما كان الجميع يعرفون أن الفلسطينيين ليسوا جميعاً إرهابيين. غير أنني - وإلى حد ما - صُدمتُ في ذلك الصيف عندما أدركت إلى أي مدى كان الخوف كامناً في أعماقي في الحقيقة.

أثناء قيادة السيارة من القدس إلى الجليل في الشمال، كان المشهد جميلاً، والطرقات واسعة، أما المدن الفلسطينية التي رأيناها ونحن نسير على الطريق فكانت جميلة على طريقتها الخاصة؛ بمآذنها التي تلامس عنان السماء، وبيوتها القديمة المتلاصقة جنباً إلى جنب، إضافة إلى البيوت الفخمة التي تتمتع بمسحة جمالية كتلك التي يتمتع بها «الحجر القدسي».

ومع ذلك، وبمجرد أن دخلنا مدينة الناصرة، انتابني شعور بالاغتراب مثل سحابة مظلمة. فقد كانت إشارات الطريق ولوحات الإعلانات الكبيرة تصرخ علي بالعربية، وأدركت أنني محاطٌ بالعرب، وفجأة كل شيء صار ينذر بالخطر. تأكد لي أننا كنا هناك غريبين تغمرنا الحيرة والخوف. ومع ذلك لم أستطع أن أحدد بالضبط ما الذي كنت أخشاه. هل يمكن أن يهاجمونا؟ هل كانت هناك مجموعة

من الغوغائيين الذين ينتظرون اليهود في مكان ما، وهم جاهزون للانقضاض عليهم؟ أدرك الآن - أنني رغم منهجي السياسي - لم أسلم من الشعور بالخوف الذي كان يسكن في تجاويف عقلي، حيث يمكنني أن أدرك أنه قد وقرَ في قلبي منذ سنين. وأكثر من ذلك، كان علي أن أبذل جهداً هائلاً للسيطرة على هذا الشعور بالخوف ومنعه من إهلاكي.

بحثنا عن بيت أبي نجيب، وهو عم نادر الأكبر، وسرعان ما أدركت أنني لا أعرف كيف أبحث عن بيت أبي نجيب في هذه المدينة في ذلك الوقت؛ إذ كانت غريبة تماماً بالنسبة لي.

اعترفت لجيلا وأنا متردد: «علينا أن نقف ونسأل عن الاتجاهات». ونظرت زوجتي إلي وقالت: «ومن ينبغي علينا أن نسأل؟ وهل سنسلم من الأذى لو نزلنا من السيارة؟».

كان التفكير بالاعتراف أننا فقدنا الطريق، وأننا في لحظة ضعف في هذه البيئة العدائية في الظاهر مماثلاً لإغراء أحدهم بالهجوم. وفي تلك اللحظة، أصبحنا الإسرائيليين العزل والضعفاء كما تربينا أن نكون؛ تماماً مثل أسلافنا الذين عاشوا في الغيتو في شرق أوروبا.

ولكن، أي خيار كان بأيدينا؟ قلت لجيلا: «علينا أن نثق بشخص ما، وإلا فسنواجه احتمالية الاستسلام والعودة للقدس».

ومن منطق أنني كنت ناشطاً في جماعة حوار فعالة لسنتين في كاليفورنيا، لم يكن هناك بالتأكيد أي سبب للخوف من الحديث إلى فلسطينيين في وطني. ولكن، هل هذا وطني؟ فالناصرة لم تشبه في أي شيء الوطن الذي عرفته؟ فالمباني كانت أقدم، والشوارع أضيق وأكثر ازدحاماً، ودلت الإشارات واللوحات إلى مواقع نصرانية قديمة، وكانت كل الأحاديث في الشارع بالعربية. وأما الكثافة السكانية في المكان فهي عالية، والفوضى منتشرة، وهذا عائد في الغالب إلى أن التمدد السكاني صعب؛ لصغر المكان وانحصاره. وكذلك هو الواقع في كثير من المدن الفلسطينية؛ لأن إسرائيل احتلت الكثير من أراضي الفلسطينيين. على أي حال، لم تكن تلك إسرائيل المألوفة لدي. بل إنك لا تجد شرطة إسرائيلية في الناصرة.

أخذت نفساً عميقاً، وأوقفت السيارة، وسألت شاباً عن الاتجاهات. لم يعرف مكان البيت، ولذلك بدأ يسأل من حوله.

وقلت لنفسي: إنه أمر عظيم أن يعرف الجميعُ أننا يهود وتائهون.

وفي النهاية، وجد الشاب مَن يرشدنا إلى البيت. تحدث الشاب إلينا بالعبرية؛ الأمر الذي فاجأني حينها، ولكن عندما أتذكر الموقف بأثر رجعي، أعتقد أنه ما كان لحديثه بالعبرية أن يفاجئني؛ فقد كنا في إسرائيل. ولقد فعل كل ما بوسعه كي يساعدنا، فقد ترك دكانه وأخذ يرشدنا نحو الاتجاه الصحيح.

كان علينا أن نتوقف عدة مرات للسؤال عن الاتجاه، وكل مرة كانت أسهل من سابقتها. لم أتوقف عن التفكير في طيبة «هؤلاء الناس». ولم يطل بي الحال قبل أن أدرك مغزى هذه اللحظة، ليس فقط في ما يخص التغلب على مخاوفي، ولكن في ما يخص الإدراك والقبول بأنه كانت لدي مخاوف رغمَ نظرتي لنفسي.

وفي النهاية، وصلنا إلى بيت أبي نجيب. كان بيتاً كبيراً ويتكون من عدة أدوار. اجتمعت العائلة في غرفة المعيشة، وكان يجلس عند الباب شخصان من أقرباء نادر أكبر منه سناً، وكانا يؤديان ما أخبرني نادر أنه أغانٍ قديمة للاحتفاء بالولد العائد من المنفى. لم يكن الاحتفاء بنا، بل بنادر الذي لم ير عائلته منذ عقود. وكانت هناك طاولة عليها طعام، وكان الأطفال في كل مكان.

رحبوا بنا فور وصولنا، وشعرنا أننا في بيتنا، ولم أكف عن التفكير في الضوابط الغربية التي تبنتها ثقافتي، والتي تجعل الضيوف أقل ارتياحاً عندما يكونون في منزل آخرين للمرة الأولى. عندما أنهينا تناول الطعام، وهدأت الأجواء، اصطحبنا نادر كي نلتقي أعضاء نادي الروتاري في الناصرة، وهو واحد من أقدم نوادي الروتاري في الشرق الأوسط. ويشرف النادي على برامج لبناء عيادات صحية، وتمويل فرق الكشافة، وتوفير المساعدة للناس في الضفة الغربية بالإضافة إلى مشاريع أخرى كثيرة.

عندما قدمني نادر لهم، قال: «هل تعرفون والد ميكو؟ إنه ماتي بيليد». أنيرت وجوههم وقالوا: «أبو سلام! بالطبع نعرف «أبو سلام»». ونظر نادر نحوي وابتسم.

كانت تلك هي المرة الأولى التي أسمع فيها أن أبي اشتهر بهذا اللقب. كنت على علم بأنه عمل عن قرب مع فلسطينيين في إسرائيل، وكان معروفاً بالنسبة إلى فلسطينيي عام 1948. ولكن لم أدرك أثر نشاطه السياسي إلا في ذلك اليوم. في كل مكان زرته، سواء أكان داخل إسرائيل أو في الضفة الغربية، كنت أسمع عن أبي الذي يشارُ إليه بلقب «أبو سلام»، حيث كان الناس يصافحونني بحرارة. وسمعت قصصاً للمرة الأولى عن معارضته الشديدة للمصادرة الهائلة للأراضي الفلسطينية التي كان على الفلسطينيين أن يعانوا جرّاءها، وعن مساعدته أصحاب القضايا القانونية، وحديثه الصريح عن الظلم عندما يُعتقل الناس أو يُبعدون. والحقيقة أنني لم أكن أدرك حينها المعنى الكامل لجهود أبي من أجل السلام ومغزاها لكثير من الناس.

قضينا - جيلا وأنا - اليوم كاملاً في الناصرة، وتجولنا فيها وشاهدنا معالمها. وذهبنا لقرية الناصرة، وهي مماثلة لما كانت عليه الناصرة أيام عيسى عليه السلام. وزرنا بعض الكنائس والنُزل الجميلة، مثل كنيسة البشارة، أو القديس جبريل، وهي التي تشكل المشهد العام للناصرة. عدنا للقدس في وقت متأخر من الليل، وشعرت كما لو أن حملاً ثقيلاً أزيح عن صدري. لقد حررتني الرحلة من قيد الخوف.

وفي اليوم التالي، زارنا نادر وعائلته في القدس، والتقوا بنا جميعاً في بيت والدتي في حي موتسا. اصطحبت نادر لغرفة الدراسة الخاصة بوالدي، والتي ما زالت أمي تحتفظ بمحتوياتها مرتبة وأنيقة، وفيها صورة الدكتور عصام السرطاوي وصورة ديفيد بن غوريون لا تزالان معلقتين على الجدار جنباً إلى جنب.

بمجرد أن تبدأ الثقة، فإنها ستمنحك ثقة أكثر. والحق أن على المرء أن يتخلى عن منطقة الاستراحة وأن يلتقي في منتصف الطريق. ولقد كان هذا صحيحاً في كل تجربة عشتها، من أول رحلة إلى بيت مجيد خدوري في سان دياغو، ومن ثم الرحلة إلى الناصرة، وبعدها إلى المرحلة التالية من رحلتي؛ وهي رحلتي إلى الضفة الغربية.

والآن وبعد أن عرفت بوجود الخوف في حياتي، أردت أن أتخلص منه مرة وإلى الأبد. إن كان يراد للسلام أن يتحقق يوماً، فإن علينا بناء الثقة الكاملة



هذه اللوحة تتواجد على كل مدخل إلى المناطق الفلسطينية. هذه المداخل تسيطر عليها إسرائيل. مكتوب على اللوحة: «ممنوع دخول الإسرائيليين إلى منطقة (أ)، لأن الدخول يشكل خطراً، ويُعدُّ جناية!!».

أولاً، ولا يمكن لهذا أن يحصل إلا من خلال أفراد يعبرون الخط الفاصل، إن لم نقل يكسرونه. ولكن الإجراءات الأمنية الإسرائيلية جعلت التقاء أي من الطرفين بالآخر أمراً مستحيلاً من دون أن يتعرض لانتهاك القانون. فبموجب القانون الإسرائيلي، تعد زيارة إسرائيليين لمناطق (أ) غير قانونية، وهو توصيف يَشي بأن تلك المناطق معادية، وتشمل كل المدن الرئيسة في الضفة الغربية التي يفترض أنها تحت سيطرة فلسطينية كاملة.

لقد أغضبني أنني لا أستطيع أن أزور أناساً يعيشون في الجانب الآخر من حدود لم يصنعها أي واحدٍ منا.

في الحقيقة، بدأت حينها الاعتقاد بأن الأسباب الأمنية التي يتذرع بها المسؤولون الإسرائيليون كمبررات لبناء الجدار ونقاط التفتيش – والتي كانت تمنعنا من زيارة الناس في «الجانب الآخر»، والتعرف إليهم – لم تكن إلا تكتيكات ترهيب خُلقت لإطالة أمد الصراع.

ولذلك، لمّا أخبرني رامي ونوريت أنهما ذاهبان في زيارة نادرة إلى أصدقاء لهم في البلدة الفلسطينية بيت أُمَر، قرب الخليل، قررت بسرعة أن ألتحق بهم؛ وقد كان معهما ابنهما يجال، وهو الأخ الأصغر لصمدار، وكان عمره 11 عاماً في ذلك الوقت. وسألت ابني الأكبر إيتان إن كان بوده أن يرافقنا فأبدى رغبته.

كانت تلك رحلتي الأولى للضفة الغربية منذ خدمتي في الجيش، ولقد قررت الذهاب رغم قلق الكثير من الأعزاء. كانت أختي أوسي غاضبة، وقالت: «يمكنك أن تذهب في هذه المخاطرة الغبية، ولكن كيف تأخذ طفلاً لمكان معادٍ؟ هل فقدت عقلك؟». وكانت جيلا وأمي مرتبكتين؛ فقد كان رأيهما أن الحديث عن السلام والعدالة أمر جيد، ولكن المغامرة إلى «كيان معادٍ» – وهي النظرة السائدة عن الضفة الغربية لدى معظم الإسرائيليين – دليل على اللامبالاة والإهمال. وفي النهاية انتصرت، وتوجهنا إلى بيت أمر التي زرتها كثيراً في ما بعد.

ذهبنا للقاء خالد وعلي أبو عواد، وهما أخوان تعرف عليهما رامي ونوريت من خلال منتدى العائلات الثكلى. ولأن إسرائيل أنشأت طرقاً سريعةً على الطراز الحديث تؤدي إلى الضفة الغربية حتى يستخدمها المستوطنون، فقد كانت قيادة السيارة سهلة. إن السير على هذه الطرق غير مسموح للفلسطينيين، ومع ذلك لا تستطيع رؤية لوحات السيارات الفلسطينية الخضراء إلا عندما تكون على مسافة قريبة من بيت أمر. واللون الأخضر للوحات يميزها عن اللوحات الصفراء التي تخصّ الإسرائيليين.

عندما وصلنا، كان علي ينتظرنا في شرفة بيته التي كانت مزينةً بشريط لاصق كتب عليه بالعبرية: لن أتوقف حتى نتحدث إلى بعضنا بعضاً». ولعب إيتان ويجال مع أطفال كانوا هناك، ولم نزد على غير الجلوس والحديث. بيت أمر بلدة زراعية معروفة بأشجار العنب، ومشهورة بورق العنب الذي يحشى بالأرز، وعصير العنب المعروف بالدبس. كما أنها تشتهر بمئات الأنواع من أشجار التوت، والخوخ، والتفاح، والزيتون.

ربما تستغرق عملية التعارف بين اثنين عدة سنوات، ولكن روابط العلاقة بين عائلتي وعائلة أبو عواد تشتد عراها كل عام. خالد عنده القدرة على أن يكون

قائداً فطرياً في أي مجال يشغله. له شعر أسمر لامع وبشرة زيتونية، أما وجهه فجاد ومحزون كبطل مأساة إغريقية، ولكنه ليس حاداً. لغته العبرية عميقةٌ يُغبطُ عليها، وعندما تسمعه تظن أنه درسها في الجامعة، ولكن الأمر ليس كذلك.

أما علي فطويل ونحيف وشعره جعد، ولديه قدرات تنظيمية وطاقة هائلة. ويؤمن علي بالمقاومة اللا عنفية المنضبطة ضد الاحتلال الإسرائيلي. كلا الأخوين تم اعتقالهما في السجون الإسرائيلية لمشاركتهما في الانتفاضة الأولى. وكانت أمهما – وهي فاطمة أبو عواد – قائدة محبوبة لخلية فتح في بيت أمر، وقضت وقتاً طويلاً من عمرها وهي ما إن تخرج من السجن حتى تدخله.

في خريف عام 2000، أي في بداية الانتفاضة الثانية، أطلق المستوطنون النار على علي فأصابوه في رجله. وعندما كان يخضع للعلاج في المملكة العربية السعودية، وكان خالد يزوره وصلتهما الأخبار أن أخاهما «يوسف» قد أُصيب. وكان يوسف حينها يبلغ من العمر 31 عاماً ومتزوجاً وعنده طفلان. أخبروهما أنه أُصيب، ولكن عندما عادا إلى البيت، علما أن جندياً تشاجر مع يوسف في ما يبدو، فأطلق عليه النار من قرب، وأرداه قتيلاً. وقد حصل هذا الحادث عند نقطة تفتيش في مدخل بيت أمر.

وبعد عدة أشهر، وبالتحديد في فبراير 2001، قتل مستوطن إسرائيلي أخاً آخر – هو سعيد – وعمره 14 عاماً. لم يتم التحقيق في أي من الجريمتين، ولم يخضع أحدٌ للمحاكمة. غير أن بيت أمر فيها الكثير من القصص المشابهة.

قضينا فترة ما بعد الظهر كلها في بيت أمر. وحرصت نوريت على أن نصل إلى هناك بعد الغداء، وذلك حتى لا يشعروا أن عليهم أن يقدموا لنا طعاماً. عندما وصلنا، أكدت أننا نريد تناول الشاي فقط.

نظر علي إلى نوريت وابتسم ثم قال: «ستأكلون. السؤال هو متى. هل تريدون أن تأكلوا الآن أم بعد قليل؟».

وهكذا، وكالعادة، قضينا وقتاً أكثر مما خططنا، وأطعمونا كما يطعمون الملوك. وقد أكلنا – إيتان وأنا – المقلوبة؛ أحد الأطعمة الفلسطينية بامتياز، وقد أكلناها للمرة الأولى.

وقبل أن نغادر حلَ الظلام، ركبنا السيارة وغرقنا في الصمت لبعض الوقت. ثم قلت: «إنني سعيد لأنني ذهبت». واتفق معي رامي قائلاً: «نعم. وكان الأمر رائعاً وخاصاً جداً». كانت هذه طبيعة الزيارة لبيت أمر؛ فهي تتسم بالانسيابية، وليس هناك شيء أفضل من ذلك؛ باستثناء أننا كان من المفترض أن نكون أعداء.

وبينما كنا نعبر نقطة التفتيش، رن هاتف رامي. وكان خالد يتصل ليطمئن علينا بقوله: «هل عبرتم نقطة التفتيش بسلام؟». طمأنه رامي قائلاً: «نعم، نحن بخير».

وبعد 15 دقيقة اتصل خالد مرة أخرى لكي يتأكد أننا بخير. آخر مرة هاجمني فيها «فيروس الخوف» وكافحت بشدة حتى أتغلب عليه كانت في ديسمبر 2005. فقد قررت زيارة الضفة الغربية وحدي للمرة الأولى. وقدت السيارة من القدس إلى بلعين، وهي قرية فلسطينية تقع غرب رام الله. وقد ميزت تلك القرية نفسها بالتزامها بالمقاومة اللا عنفية ضد الاحتلال الإسرائيلي. وفي خبر ظهر في التلفزيون الإسرائيلي في ذلك الوقت، وُصفت بلعين بأنها قرية صغيرة ومحرومة. ولم تتم الإشارة إلى أن تلك القرية محرومة وصغيرة حتى صادرت إسرائيل 60٪ من أراضيها بغرض بناء مستوطنات يهودية وجدار الفصل العنصري. في الواقع، فصل الجدار معظم الفلسطينيين عن بعضهم بعضاً وعن أرضهم، وقد اعتبرته المحكمة الدولية في النهاية غير قانوني. وقد تم بناء مستوطنة اسمها مودعين عليت. وقدمت تلك المستوطنة عروضاً لليهود الأرثوذكس للسكن في أراضي بلعين وبأسعار بخسة.

ومنذ فبراير 2005 يقوم المواطنون المحليون كل يوم جمعة، ومعهم فلسطينيون من المناطق المجاورة بالإضافة إلى إسرائيليين وناشطي سلام دوليين بالتجمع والاحتجاج على مصادرة الأراضي. ورغم أن الاحتجاجات سلمية، فقد قوبلت بقبضة حديدية من الجيش الإسرائيلي. ويشمل ذلك كميات كبيرة من الغاز المسيل للدموع، والرصاص المكسو بالمطاط، والذخيرة الحية. وكلما أظهر أهل بلعين ثباتاً وصموداً، ازدادت وحشية القوة المستخدمة ضدهم على يد الجيش الإسرائيلي.

وقد كتبت لي ناشطة سلام إسرائيلية وحدّثتني عن بلعين، وخاصة عن محمد الخطيب، وهو أحد قادة حركة المقاومة اللا عنفية تلك في بلعين. واقترحتْ أن أتعرف عليه، وأعطتني رقم هاتفه النقال.

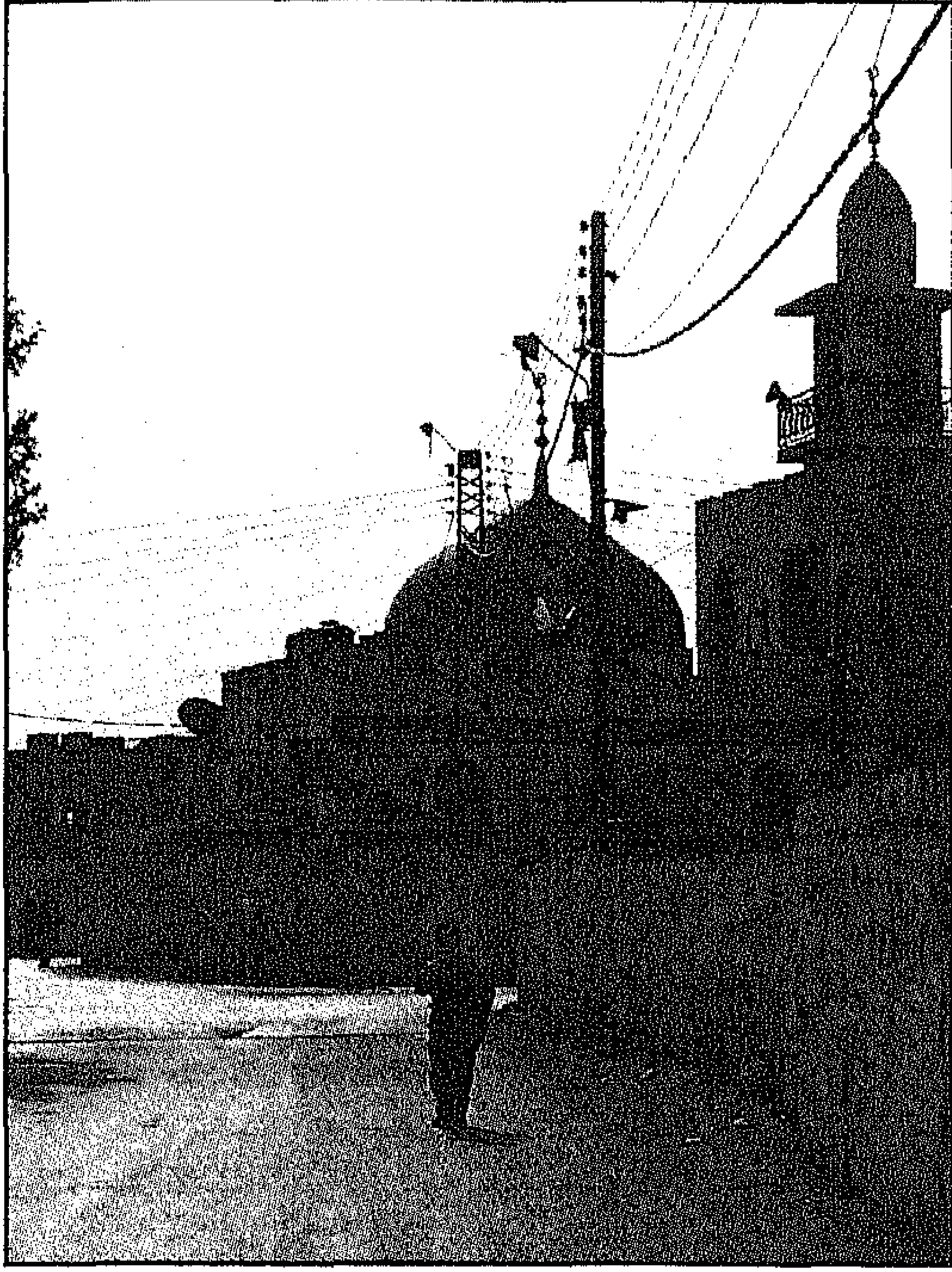
وقد جذبني ثبات أهل بلعين في الآونة الأخيرة. وعليه، فقد اتصلت بمحمد الخطيب وأخبرته أنني أريد أن أزور بلعين وألتقيه، وأخبرته أنني أخذت رقم هاتفه النقال من صديقة، وقدم هو نفسه لي على أنه رئيس بلدية بلعين المحلي. ورغم أنه لم يكن معروفاً نسبياً في ذلك الوقت، إلاّ أن اسمه اليوم يرتبط ببلعين وكفاحها الذي يعد واحداً من أهم عناصر الكفاح الفلسطيني اللا عنفي العظيم. وقد تحدثنا على الهاتف عدة مرات، وعندما زرت إسرائيل عام 2005، سنحت لي الفرصة لكي ألتقيه.

توجهت إلى بلعين في سيارة مستأجرة عليها لوحتان صفراوان إسرائيليتان. وقد كنت قلقاً بسبب سهولة التعرف علي كإسرائيلي. ولئن أخافتني الناصرة أول مرة، فإن الضفة الغربية كانت مرعبة كعرين أسد. وهذه المرة كنت وحيداً. وبمجرد أن عبرت نقطة التفتيش وأصبحت في الضفة الغربية المحتلة، بدأت الشياطين تجتالني بصورة جنونية. ولم يحصل أن حددت مسبقاً مكان اللقاء بمحمد، إضافة إلى أنني لا أعرف شكله.

لم أكن أعرف موقع بلعين بالضبط. وبطريقة ما، فقد افترضت أنني سألتقيه بمجرد أن أدخل الأراضي، ولكن ظني خاب عندما أدركت أنني كنت مخطئاً. كنت أقود سيارتي على طرق منحنية وتلال لم أشاهد شيئاً من جمالها الرعوي. بل كان كل ما رأيته – ومثلما قرأت وأنا صغير في كثير من كتب القصص – عرباً يختبئون عند كل منحنى وفي كل تل، وينتظرون كي يؤذوني.

وعند نقطة معينة، توقفت لعامل كان بحاجة إلى أن يذهب إلى قريته التي كانت على الطريق. كان يعاني من صعوبة في الكلام، ولم يكن يعرف العبرية، ولكنه نطق كلمة «بلعين» وأشار علي أن أتوجه إلى اليمين. وقد أنزلته من السيارة في المكان الذي يريده، ومرة أخرى وجدتُني أقود السيارة وحدي.

اتصلت بمحمد عدة مرات من السيارة كي أتأكد من أنني كنت أسير في



كان الطريق إلى بلعين مليئًا بالتوتر واللايقين.

الاتجاه الصحيح. ورغم أنه كان يؤكد ذلك فقد كنت خائفاً. فكل شيء تعلمته من قبل كان يقول لي إن هذه الرحلة خطأ فاحش.

وفي النهاية، توقفت عند بيت صغير حيث كان زوجان يجلسان في حديقة بيتهما الأمامية. وسألتهما قائلاً: «بلعين؟». ورد العجوز: «هذه بلعين».

اتصلت بمحمد مرة أخرى، وطلب مني أن أواصل السير حتى أصل إلى المسجد. وبينما كنت أناور في الطرقات كثيرة الحفر والمطبات، رأيت الكثير من الكتابة على الجدران بالعربية، وبعض الملصقات التي يظهر فيها قائد حماس، الشيخ أحمد ياسين، وملصقات كثيرة يظهر فيها أبو عمار وشعرت إزاء ذلك بالراحة. لم يخطر ببالي من قبل أن رؤية ملصق عليه صورة أبو عمار قد تكون مصدراً للراحة. ورأيت أطفالاً كثراً جداً، يلبسون البزات، وعلى أكتافهم حقائبهم المدرسية ذاهبين إلى المدارس أو عائدين منها. وبعضهم وضعوا أيديهم في أيدي البعض الآخر وهم يتحدثون ويضحكون.

وأخيراً، التقيت محمداً قرب منزله. ومحمد شابٌ وأب لثلاثة أطفال.

وبمجرد أن وصلت، أحضرت أمه معجنات طازجة، خبزتها للتو ووضعت عليها قرنبيطاً مقليًّا وباذنجاناً. تحدثنا لبعض الوقت، ثم قال لي إنه يريدني أن أقابل صديقين من أصدقائه.

عدنا إلى سيارتي، وقام هو بتوجيهي. وبمجرد أن تركنا الشارع الرئيس ودخلنا زقاقاً غير معبد، ظهر شابان فجأة. كان شعرهما فاحماً، وبشرتاهما قاتمتين، ولم يحلقا لحيتيهما، وبكلمات أخرى، بدَوا مثال الرجال الفلسطينيين الذين نشأت على رؤيتهم خطرين.

أحدهما اسمه أيمن برناط؛ وهو منتج أفلام، والآخر إياد برناط. وهما أخوان لهما شهرة راسخة؛ فهما شجاعان واجها الجيش الإسرائيلي في عدد لا يحصى من الاحتجاجات.

وقد كانا من بين قيادة حركة المقاومة في بلعين، وهما شابان منضبطان ومتزوجان وعندهما أطفال. وكلاهما كرّسا نفسيهما لتحقيق العدالة لشعبهما ولفكرة اللاعنف.

مشينا نحن الأربعة معاً نحو أطراف البلدة، حيث تمّ بناء جدار الفصل العنصري. ولأنه لم يكن هناك جيش في تلك اللحظة، فقد غامرنا بالدخول إلى «منطقة الوصل»؛ وهي المنطقة التي تربط بين مسار الجدار والخط الأخضر؛ وهي منطقة محرمة على الفلسطينيين.

والطريف أنه بالمقابل يسمح القانون الإسرائيلي لأي يهودي في العالم،



محمد الخطيب أحد قادة حركة المقاومة اللاعنفية في بلعين.

سواء أكان إسرائيلياً أم لا، أن يعيش في تلك الأرض. استطعنا أن نمشي كل الطريق إلى مستوطنة مودعين عليت دون أن يوقفنا أحد، ورأينا مجمعات الشقق السكنية الكبيرة التي تبنى على أراضي بلعين لصالح حي لليهود الأرثوذكس تم التخطيط له مسبقاً.

ولقد هالني حجم البنايات. لقد كان ذلك مشروعاً ضخماً، إذ ضخوا فيه مليارات الشواكل. وقلت في سرّي: إن هذه المستوطنات لن تندثر، وهذه الأرض لن تتم إعادتها لأصحابها الشرعيين.

وتذكرت فكرة تبادل الأراضي التي يشار إليها من حين لآخر في إسرائيل كحل لبناء المستوطنات في الأراضي الفلسطينية. وطبقاً لهذه الفكرة، سوف يتم تعويض الفلسطينيين عن أراضيهم التي أُخذت منهم في حال تم التوصل إلى السلام؛ فسوف تعطيهم إسرائيل أراضي في أماكن أخرى. وفجأة، بدت تلك الفكرة لي غير رشيدة مطلقاً. فعائلات بلعين سوف تستلم أراضي في مكان ما بعيداً عن أراضيهم؛ ربما في صحراء النقب، مقابل هذه الأراضي التي تركها لهم أسلافهم في قريتهم أو بالقرب منها. وشعرت أن من الصعب تصديق أن شخصاً ما يمكن أن يعول على هذا التفكير. هل هناك إسرائيلي واحد يمكنه أن يوافق على تبادل الأراضي بهذا الشكل؟

أصر محمد على أن نتحدث إلى بعض السكان الذين كانوا في طريقهم للاستقرار في المستوطنة أو الذين استقروا من قبل. والكثيرون منهم هاجروا إلى إسرائيل في الآونة الأخيرة، وبالكاد يتحدثون العبرية. بالمقابل يجيد محمد العبرية. ولم أستطع التوقف عن التفكير في المفارقة بأن هؤلاء المهاجرين الذين لا يكادون يتحدثون العبرية لهم الحق في هذه الأراضي التي حُرِمَ منها الفلسطينيون؛ لا لسبب إلا لأنهم يهود. أمر لا يصدق!

ذرعنا الشوارع ذهاباً وإياباً، وابتعدنا عن بلعين حتى وصلنا إلى منطقة المستوطنات. لم أشعر بالراحة، وتملكني القلق على هؤلاء الشباب الذين يمكن أن يتعرضوا للمتاعب.

ولكن شجاعتهم ألهمتني. فهم يغامرون بحياتهم، وإذا كانوا لا يخشون على

حياتهم، فلن أوقفهم، وما كان علي إلا أن أذهب لأشجعهم.

وبعد عدة محاولات للحديث مع سكان المستوطنات الجدد الذين لا يتحدثون العبرية، وجدنا مهاجراً من بريطانيا كان يمكن أن يفهم ما نقوله. قدمنا أنفسنا له، واستفسر منا إن كنا نريد أن نرى شقته، واعتذر قائلاً إنها ليست جاهزة لأن عائلته قدمت إلى الشقة قبل فترة قليلة. وبدا أنه ليست لديه مشكلة في أن يدعوني إلى شقته برفقة الشابين الفلسطينيين اللذين جاءا من بلعين المجاورة.

وسأله محمد: «هل تعرف من أين أتى صاحب العقار بهذه الأرض؟».

قال: «نعم، رأينا فاتورة الشراء. لقد تم شراء الأرض من أهالي بلعين بأسعار جيدة».

«من الذي أحضر لك فاتورة الشراء؟».

«عمدة مودعين عليت».

«أنا رئيس بلدية بلعين، وأستطيع أن أخبرك أنه ما من أحد باع هذه الأرض، لقد أُخذت بالقوة».

«حسناً، هذا ما أخبرني به العمدة».

قال محمد بينما كان يخرج هاتفه النقال: «سأريك، رقمه معي، دعني أتصل به».

اتصل محمد بعمدة مودعين ولكنه لم يجب.

كنت أنظر إلى محمد مبهوراً وهو يسأل كل هذه الأسئلة بهدوء تام، وقد كان يعلم أنه يمكن أن يعتقل لأجل غير مسمى لو جاء الجنود ورأونا هناك، رغم أن هذه هي أراضي بلعين التابعة لمجلسه البلدي.

دفعني الفضول إلى أن أسأل الرجل (المستوطن الجديد): «كم دفعت مقابل هذه الشقة؟». رد قائلاً: «80000 دولار، وهذا ما دفعنا للانتقال من بلدة مودعين المجاورة». ولا تبعد مودعين إلا ميلاً أو ميلين ولكنها تقع داخل الجانب الإسرائيلي مما كان يسمى من قبل بالحدود. لقد كانت الشقة فارهة وتتكون من أربع غرف ويسهل الذهاب منها إلى القدس وتل أبيب.

لقد كان الأمر بهيجاً على نحو غريب ومتحضراً بالنظر إلى الظرف المشحون

والجو المتوتر. وأرى أن ذلك عائد إلى أن «محمد» لم يكن لديه شك في ما يخص حقه في الأرض. شكرناه (المستوطن الجديد) لأنّه سمح لنا بلطف أن ندخل بيته وعدنا إلى بلعين.

وعندما كنا نغادر المستوطنة، نظر إلينا أحد الحراس نظرة ريبة، وكان واضحاً أنه يتساءل في سرّه عن سبب تجوال هؤلاء العرب في هذا الحي. ولكني تحدثت معه بالعبرية متحدياً: «هل لديك مشكلة؟». فتركنا ومشى وهو يتمتم شيئاً من قبيل: «محبو سلام ملاعين». وخشيت أن يتصل بالجيش ويحول الموقف إلى أزمة.

في طريق العودة إلى بلعين، رأينا العمال الفلسطينيين وهم عائدون من البناء في موقع المستوطنة مطأطئي الرؤوس، وسألت: «ما رأيك في هؤلاء الفلسطينيين الذين يبنون المستوطنات؟». ولم أدر كيف سيكون الجواب على هذا السؤال، ولكن إجابة محمد فاجأتني وأراحتني.

قال: «ليس لديهم خيار، فهم يريدون أن يطعموا أولادهم، وبما أن إسرائيل صادرت أراضيهم، فلم يعد لديهم أي عمل».

وبينما كان هؤلاء العمال يمرون بنا، كان من الواضح أنهم ليسوا فخورين.

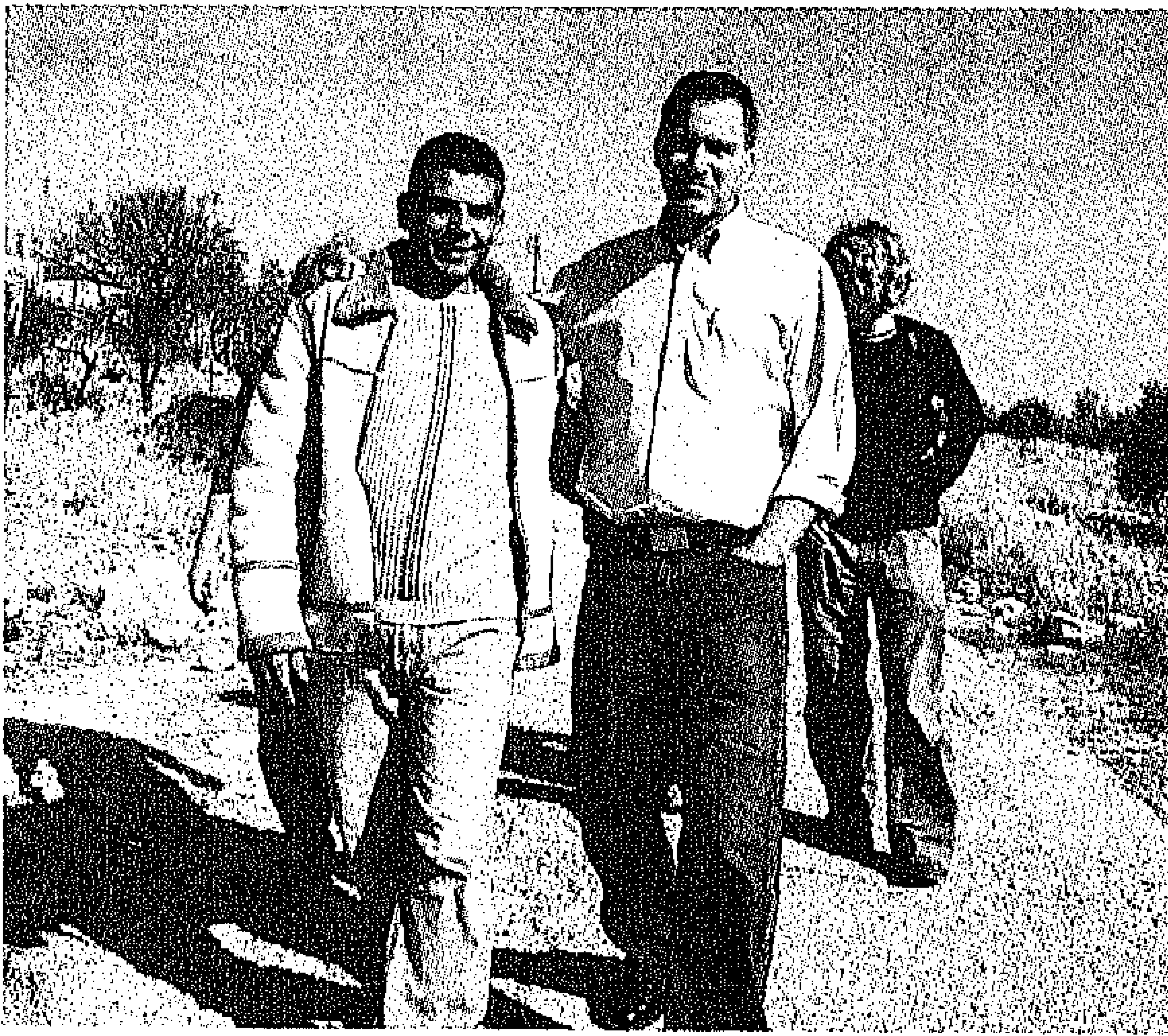
وعلى اعتبار أن المستوطنات اليهودية في الضفة الغربية تعني – أكثر من أي شيء – انخفاض إمكانية حصول الفلسطينيين على الحرية والاستقلال، فقد كان تفسير محمد جديراً بالذكر. كانت هناك، وربما لا تزال، حركات مقاومة وطنية لا تنظر بلطف إلى أولئك الذين يشاركون في فعل يعرقل كفاحهم من أجل الحرية. وفي أماكن أخرى، ربما كانوا سيتعرضون للعقوبة على أساس أنهم متعاونون مع الاحتلال.

وعندما عدنا إلى بلعين، تحدثنا نحن الأربعة عن الوضع. أكد محمد بالقول: «نحن نرفض تماماً المشاركة في المقاومة العنفية». كان قد عاد من الأردن للتو، وتم حجزه لمدة ثماني ساعات على الحدود من قبل الشاباك، جهاز المخابرات الداخلية. واصل محمد حديثه: «يريدون أن نرد بعنف، ولكنهم لن ينجحوا، ولن نستسلم أو نوقف النضال أيضاً».

الجيش لا يستجيب لأحد، وليس لأهالي بلعين الحق لأنه ما من قانون يحميهم أو يحمي أملاكهم. ومع ذلك، أصبح اللاعنف مذهباً لهؤلاء الناس.

وكنت أدرك أن المقاومة العنيفة - أو الإرهاب - التي عرف بها الفلسطينيون في كل أنحاء العالم، كانت في الحقيقة تمثل عدداً قليلاً من الفلسطينيين. ولكن حتى تلك اللحظة، لم أكن على علم بانتشار النشاط السلمي. تحدث خالد وعلي - وهما من منتدى العائلات الثكلى - عن اللاعنف. والآن، أسمع عن هذه المقاومة مرة أخرى في بلعين. وفي الحقيقة، إن معظم المقاومة الفلسطينية كانت دائماً لا عنفية، ولكن الكفاح المسلح هو ما يجذب انتباه الإعلام. إن الغالبية العظمى من الفلسطينيين في السجون الإسرائيلية كانوا متهمين «بارتكاب» المقاومة السياسية اللا عنفية. وما يجعل مقاومة بلعين اللا عنفية فريدة في هذا المجال، هو إصرار الناس على اللاعنف، حتى إن قوبلوا بإجراءات إسرائيلية عنيفة.

شعرنا جميعاً بالجوع، وطلب عماد وإياد أن يستعيرا السيارة - التي معي - كي يذهبا إلى بقال ويحضرا بعض الطعام للعشاء. كل ما تعلمته كإسرائيلي قال لي إن إعارة سيارة مستأجرة، يعد خرقاً للأمن وعصياناً لأمر القيادة الإسرائيلية العليا. ربما يبدو هؤلاء الشباب طيبين، ولكن هل أعرف من هم بالضبط؟ ألم



رفيق آخر في بلعين، وهو إياد برناط. في طريقنا إلى المظاهرة الأسبوعية.

تكن الفرصة مؤاتية لهم لكي يستثمروا سذاجة إسرائيلي مثلي؟ ماذا لو اختفوا، وتركوني عالقاً هنا؛ حيث يمكن أن أُقتل؟ ماذا لو استخدموا السيارة لزراعة متفجرات؟ لم يكن إعطائي السيارة لهم قراراً سهلاً بالمرة.

إن التخلص من مخاوفي ووضع ثقتي بهؤلاء الشباب الناشطين لم يكونا خيارين، بل رسالة. لقد قدت السيارة كل هذه المسافة إلى بلعين حتى ألتقيهم، وقضيت كل اليوم معهم. إنهم من ذلك الصنف من الناس الذين يجعلون أي أمة فخورة بهم. كانوا أزواجاً وآباء لأطفال صغار، وقد رفضوا عن وعي وإصرار الانخراط في العنف؛ تماماً كما رفضوا قبول الظلم المفروض عليهم من الاحتلال الإسرائيلي.

أعطيتهما المفاتيح، وعادا بعد ساعة ونصف ومعهما لحم وخضروات ولبن، وما لبثنا أن احتفلنا بأكل الكباب والخضروات المشوية والخبز وزيت الزيتون والسلطة.

وعندما أنهينا العشاء، كان الجو مظلماً، وكان علي أن أقود السيارة وأعود إلى القدس. وأشاروا علي بالاتجاه الصحيح، فتركتهم ومضيت والخوف يعتريني مرة أخرى، وذلك من خلال الاستذكار اللاإرادي لقصص الفلسطينيين الذين قتلوا إسرائيليين أبرياء. وقلت في سرّي، لا يمكن لهؤلاء الشباب أن يعرضوني للخطر. لقد تأكدوا أنني في أمان، ولو لم يكن الأمر كذلك، فلربما لم يتركوني أغادر وحدي.

على طول الطريق، ركب معي ولدان من طلاب المدارس استأذنا بالركوب. أردت أن أقاوم الشعور بالاستعجال بالخروج وأن أعتنق فكرة أنني كنت هناك. إذا كان هذان الولدان الفلسطينيان لا يخشيان أن يطلبا من إسرائيلي أن يُقلهما، فلماذا أخشى أن يكونا معي. وظلاّ معي مسافة ميلين، وشكراني وهما ينزلان من السيارة في مكان سكنهما. وبينما مضيت في طريقي عبر شوارع بلعين المظلمة التي كانت فارغة في الغالب بسبب الوقت المتأخر، فقد شعرت بالراحة بسبب شكرهما لي، وبالثقة التي أولاني إياها أصدقائي الجدد من بلعين.

الفصل العاشر

أوامر الجنرال

في إبريل عام 2007، ذهبنا - نادر وأنا - في زيارة للمؤسسات التي استلمت الكراسي المتحركة التي تبرعنا بها. من هذه المؤسسات ما هو في إسرائيل، ومنها ما هو في الضفة الغربية. أخذ نادر الطائرة إلى عمان - الأردن - التي يملك فيها بيتاً، وأنا أخذت الطائرة إلى تل أبيب. وكانت خطتنا أن نلتقي في القدس.

كان مقدراً لرحلتنا أن تكون رحلة النصر. فقد نجحت فكرة «كراسٍ متحركة للأرض المقدسة»؛ إذ قدمنا خدمة لأطفال من على جانبي الصراع، وتغلبنا على صعاب عديدة كي ننجز المشروع. غير أن فجوة كبيرة حالت بين مفهومي للأشياء والواقع. وبدلاً من أن تكون الزيارة جولة انتصار، تطورت إلى رحلة طويلة أدت إلى اكتشاف مهم. وصلت إلى القدس بعد عيد الفصح سيدِر[1] وقضيت عدة أيام مع عائلتي قبل أن ألتقي «نادر». ولأنها عطلة عيد الفصح، اقترحت أوسي أن نذهب لمشاهدة أكثر المواقع جمالاً وندرة في القدس في ذلك العام.

كانت أوسي - وهي أختي الصغرى - هادئة الطباع، وذكية، ومسلية. وقد أصبحنا أنا وهي صديقين في وقت متأخر من حياتنا، ربما لأنني كنت أصغر منها بست سنوات. درست وأصبحت خبيرة في النصرانية الشرقية، وعلى وجه الخصوص الأيقونجرافي[2] النصرانية، ولذلك إن زيارة الكنائس العديدة في الأرض المقدسة بصحبتها تجربة مثرية.

كل أربع سنوات، تحتفل جميع طوائف النصارى بعيد الفصح في اليوم نفسه. وكانت 2007 واحدة من تلك السنوات. ذهبت أوسي ومعها أنا وزوجها

(1) شعائر يهودية تؤذن ببدء عيد الفصح، وتبدأ في نهاية مارس أو إبريل؛ المترجم.

(2) فرع من تاريخ الفنون يدرس محتوى الصور والرسومات ويفسرها محتواها؛ المترجم.

حاييم إلى المدينة القديمة عند الساعة العاشرة لنشاهد «سبت النور».

تحيط بالمدينة القديمة أسوار قديمة، وتم الحفاظ على التقاليد القديمة للمسيحية واليهودية والإسلام داخل شوارعها الضيقة وأزقتها. إنها مكان روحي بكنائسها ومساجدها وكُنسها، كما أنها تحتوي على كل ما هو دنيوي من محلات ومتاجر تعرض اللحمة الطازجة، والفواكه والخضروات والحلويات والأعشاب والملابس والمنسوجات وأدوات الزينة من كل نوع. ولدي مساري المفضل الذي أتخذه كلما كنت في القدس القديمة، وفي كل مرة أكتشف شيئاً جديداً.

في تلك الليلة، عندما ذهبنا - أوسي وأنا - كان هناك حجاج من الشباب والكبار، الرجال والنساء من كل أنحاء العالم تجمعوا في تلك المدينة الصغيرة وساروا حاملين المشاعل، وهم يغنون ويحتفلون بعودة المسيح. لم أر في حياتي ذلك العدد من الناس في المدينة القديمة، وأدهشني أن كل السنين التي عشتها في القدس، لم تكن لدي خلالها أي فكرة عن أن مثل هذه الأشياء تحصل هنا. وقد تنقلنا من كنيسة إلى أخرى لنرى كل طائفة وهي تحتفل بالمناسبة على طريقتها التي تميز موقفها عن غيرها إزاء عودة المسيح الناصري.

بدأنا بكنيسة القيامة، حيث كانت هناك عجائز يصعدن السلم كي يتمكنَ من تقبيل صورة المسيح عليه السلام، كما كان هناك الرهبان الذين يؤدون الشعائر بكل اللغات. على السطح، كان هناك مئات الحجاج الأثيوبيين الذين توافدوا بينما كان رهبانهم يؤدون شعائر الصلوات الخاصة بهم. كان من المؤثر أن يرى هذا الالتزام، كما كان من المخيف أن يرى المرء الحشود وهي تتزاحم في مكان لم تكن وسائل الأمان فيه متوفرة تماماً.

وبحلول الثانية ظهراً ذهبنا إلى الكنيسة الأرثوذكسية الروسية الفخمة التي تميزها قبابها ذات اللون الذهبي، وتقع على التلة مقابل جبل الهيكل. وبعد أن انتهت الشعائر، خرجت الجموع من الكنيسة، وقام الراهب بالإعلان الشهير: «قام المسيح»، وردت الجموع: «نعم قام المسيح بالفعل». أعلن الكاهن هذا الإعلان بكل اللغات، ورد كل جمع بلغتهم الخاصة بهم.

لقد قضيت وقتاً طويلاً في مدينة القدس، ولكنها لا تتوقف عن إدهاشي.

وعندما حان موعد اللقاء بيني وبين نادر، شعرت بالقلق، وذلك لأنني سمعت من كثير من الأصدقاء الأمريكيين - الفلسطينيين عن أساليب إسرائيل في التحرش بهم عندما يدخلون إسرائيل؛ حيث تحتجزهم السلطات في الغالب لساعات قبل أن تأذن لهم بالدخول. وكنت أعرف أيضاً أن «نادر» قام برحلة من الأردن إلى إسرائيل مع عائلته قبل ستة أشهر، وكانت العائلة تتكون من 18 فرداً من الأبناء وأزواجهم والأحفاد، وبعضهم ما زال رضيعاً. وبينما كانوا يعبرون الجسر إلى إسرائيل على المعبر الشمالي، أخذ الأمن الإسرائيلي جوازاتهم وحجزهم طوال اليوم.

لم تقدم السلطات الإسرائيلية لهم أي تفسير، ولم تجلب لهم طعاماً ولا ماءً، كما لم يكونوا مهذبين معهم، وأرجعوا لهم جوازاتهم في نهاية اليوم، حين حان وقت إغلاق المعبر. كانوا كلهم مرهقين. وفي تلك اللحظة، لا تتوفر المواصلات العامة، وهذا يعني أنهم أصبحوا عالقين. في النهاية، تمكنوا من الاتصال بصاحب سيارة نقل عمال. لقد دفعوا له عدة مئات من الدولارات كي يرجع إليهم ويقلهم للناصرة. في الماضي، عندما جئنا - نادر وأنا - معاً، سمحوا له بالعبور دون تأجيل، مما عزز لدي الاعتقاد بأنه إذا كان إلى جانبه مواطن إسرائيلي فلن يتعرض للتحرش والإيذاء.

إن «نادر» شخص قوي وصبور، ولكن الإيذاء الذي يتعرض له الفلسطينيون على المعابر أكثر من أن يحتمله أي شخص. ولذلك اقترحت على رامي أن نخرج في رحلة قصيرة إلى الأردن ونقضي عدة أيام مع نادر في عمان، ومن ثم نرتحل ثلاثتنا إلى إسرائيل معاً. ففي حضور رامي وحضوري، كنت متأكداً أن الأمور ستسير بسهولة أكثر.

إن العبور من إسرائيل باتجاه الشرق إلى الأردن أكثر من مجرّد عبور نهر. فنهر الأردن بوابة الشرق والعالم العربي. وقد خدمت أمي في الجيش البريطاني، وكانت تسافر في كل الوطن العربي. ولما كان موقع عملها في القاهرة، سافرت إلى بيروت ودمشق. أما أبي فقد زار نجيب محفوظ في القاهرة عدة مرات، والآن جاء دوري لأتعرف على مناطق الجوار الأوسع.



مع نادر بمقر فتح في رام الله. كانت فتح تُعتبر عدواً خطراً لفترة طويلة، ولكني الآن هنا مع الأصدقاء.

كانت العلاقات بين إسرائيل والأردن هادئة منذ عام 1995، ولكنك تشعر بأن العلاقة بين البلدين ما زالت متوترة. في الصالة الكبيرة في الجانب الإسرائيلي من الحدود هناك صورة كبيرة للملك الراحل الحسين بن طلال وهو يشعل سيجارة لرئيس الوزراء الراحل إسحاق رابين. تظهر تلك الإشارة العفوية عمق الصداقة التي كانت بين الرجلين. ولكن الصالة فارغة من الناس، وهذا يشهد على أن توقعات عظيمة لم تتحقق في الواقع.

كانت تلك الرحلة الثانية هي زيارتي الثانية لنادر في الأردن. إذ قابلني في المرة الأولى على المعبر الشمالي لنهر الأردن، وأخذني إلى المدينة الرومانية القديمة جرش قبل أن نكمل السير جنوباً إلى عمان، حيث قضينا معظم الوقت في لقاءات مع أصدقائه.

أما رامي فقد كان سعيداً بالفكرة، وغادرنا ولدينا إحساس المغامرين. وبمجرد أن وصلنا إلى عمان استقبلنا نادر، وأخذنا لتناول طعام الغداء في مطعم

جبري؛ وهو فرع من سلسلة مطاعم شعبية تقدم طعاماً رائعاً وحلويات شهية. ثم قضينا بعض الوقت في بيت نادر بهدف الاستراحة والحديث. وفي المساء، تجولنا في عمان بقدر ما استطعنا وانتهينا في مقهى ديل موندو. تناولنا القهوة، وطلب نادر ورامي شيشة، وجلسنا نتحدث لساعات.

أشار نادر إلى الناس الجالسين في المقهى، وقال: «انظر حولك، عندما عشت هنا قبل 20 عاماً، لم تكن هناك نساء في المقاهي كما ترى اليوم». وتأملت في ما قاله وعلقت: «وانظر إلينا نحن الثلاثة، إسرائيليان وفلسطيني يجلسون معاً في عاصمة عربية ويتناولون القهوة بلا خوف، لم يكن هذا ممكناً قبل عشرين سنة أيضاً».

وفي الحقيقة، كنت أود أن أرى قلعة صلاح الدين بعجلون بشمال الأردن. وفي صباح يوم الجمعة، وهو اليوم الذي عدنا فيه إلى إسرائيل، ذهبَ نادر لأداء صلاة الجمعة في المسجد، ثم أخذنا سيارة إلى عجلون. كان يوماً ملبداً بالغيوم وبارداً، وهطل بعض المطر؛ وهو ما جعل المشهد من عمان إلى عجلون جميلاً بشكل رائع. وكان المشهد في القلعة أكثر درامية. وتقع قرية تشبي حيث ولد النبي إلياس مباشرة وراء القلعة باتجاه الشرق. ويقع جبل الطور إلى الغرب. ويمكن رؤية بحر الجليل إذا كان الجو صافياً. والقلعة نفسها رائعة، وهي نموذج للقلاع التي بنيت في فلسطين القديمة[1] أثناء الحروب الصليبية. وتطل القلعة على تلال ووديان تمتد إلى أميال.

ومن عجلون، واصلنا السير إلى الحدود كي ندخل إسرائيل. وكنا نشعر بمزيد من التوتر كلما اقتربنا من الحدود. ولما دخلنا الصالة، نظرت إلى نادر الذي كان القلق يبدو عليه، وكان وجهه شاحباً، وشفتاه جافتين، وكان يمكنني أن أرى حضور التجارب السابقة في ذهنه كما لو أنها تحدث الآن.

في دائرة الجوازات، أعطيتُ الفتاةَ الجالسة وراء مكتبها الجوازات الثلاثة معاً، وكان جواز نادر بين الجوازين الإسرائيليين خاصتنا. سألتْ: «هل أنتم معاً؟».

(1) فلسطين وإسرائيل شيءٌ واحد، وفي الوقت الذي أدركت فيه ذلك، بدأت أستخدم كلا الاسمين عندما اتحدث عن بلادنا المشتركة.

أجبتها: «نعم». ردت قائلة: «هناك مشكلة في هذا الجواز، ينبغي أن يجلس صاحبه وينتظر. هل يتحدث العبرية؟». قلت لها: «لا يتحدث العبرية. ما هي المشكلة؟». قالت: «إن اسمه عليه علامة حمراء، وربما يستغرق الأمر وقتاً طويلاً، وعلينا أن ننتظر الإذن للسماح له بالمرور من المقر الرئيس والوقت متأخر». طالب رامي بالتعرف على طبيعة المشكلة. وقال: «لن نغادر بدونه». ولم يطل الوقت حتى جاء شاب بلحية غير محلوقة ويلبس بنطال «جينز» وتي شيرت ليقابلنا.

قال الشاب: «إن هناك علامة حمراء على اسمه، ولا نستطيع فعل شيء حتى يتصلوا بنا من المقر الرئيس». كانت لهجته الروسية ثقيلة. والحق، إنها غطرسة من نوع خاص، أو جهل، أن يقوم شخص حديث عهد بالبلاد بمنع شخص أكبر منه سناً(وولد في ذلك البلد كما ولد آباؤه) من الدخول.

أخبرناه من نكون، وأخبرناه من يكون نادر، وأكدنا له أننا لن نغادر بدونه. قلت له: «إنه يستحق أن يفرش له السجاد الأحمر كشخصية مهمة جداً؛ نظراً للعمل الذي قام به مع نادي الروتاري ومشروع الكراسي المتحركة، فضلاً عن ذكر ما عرضتموه له من أذى لا داعي له قبل ستة أشهر. عليك أن تجتهد وتأخذ ذلك بعين الاعتبار».

شعر رامي أنني بدأت أفقد صبري فهمس لي: «اهدأ يا ميكو». ثم عاد للتحدث إلى الشاب، الذي لم يكن قد عرف بنفسه بعد، وقال: «ليس لديكم الحق في أن تعاملوا الناس بهذه الطريقة دون إبداء الأسباب. عليكم أن تقدموا له تفسيراً واعتذاراً». وهنا بدأ الشاب يفقد صبره، وقال: «إن يديّ مقيدتان. علينا أن ننتظر قراراً من المقر الرئيس، وربما يستغرق الأمر وقتاً». قلت: «سننتظر هنا حتى نسمع ردكم». عاد الشاب إلى مكتبه، وخرجت الفتاة من وراء المكتب وحقيبتها على كتفها، وكان هذا يعني أن عملها قد انتهى. وكانت الساعة تقترب من الثامنة مساءً، وهو وقت إغلاق المعبر. بعد عشر دقائق جاء الشاب ومعه جواز نادر، وقال: «العلامة الحمراء رفعت عن اسم نادر، وأعدكم أن هذا لن يحصل بعد اليوم». كان نادر جالساً طوال الوقت بهدوء. فلم يكن يستطيع أن يتواصل مع سلطات المعبر، ولم تكن لدينا – رامي وأنا – أي نية بأن نتركهم يؤذونه. وفي

النهاية كان التأخير كله ثلاثين دقيقة.

أخذنـا سـيارة إلـى الناصـرة، وقضينا هنـاك بقية الليلة. وفـي الصباح، التقينا بعـض الأعضـاء مـن نادي الروتاري في الناصرة، وأخذونا إلى المنشـآت التي تم تزويدها بالكراسي المتحركة، ثم تحركنا في تلك الليلة إلى القدس. في الصباح التالي، قدنا - نادر وأنا - السـيارة مداورة إلى ياد سـارة؛ وهي مؤسسـة خيرية إسـرائيلية مهمـة تقـرض المعدات الطبية للمحتاجين مجانـاً. عندما كان أبي على فراش الموت، قررنا أن نعتني به في البيت، وقدمت لنا ياد سارة كراسي متحركة والأدوات الضرورية مجاناً طالما كنا في حاجة إليها. وشعرت بالارتياح وأنا أرد لهم الجميل من خلال تزويدهم بكراسٍ متحركة جديدة.

ويقوم متطوعو ياد سارة بمعظم العمل، ومعظمهم يهود أرثوذكس ملتزمون جـداً. وبينمـا كنـا نتجـول فـي بنايتهم، رأيت «نـادر» ينظر باهتمام إلـى العاملين، ولاحظ أن: «هناك الكثير من اليهود الأرثوذكس هنا». وأدركت أن هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها نادر اليهود الأرثوذكس. وأجبت: «نعم، المتدينون معرفون بأعمالهم التطوعية في الأعمال الخيرية في كل مكان في العالم». وقضينا سـاعة ونحن نتجول في المنشأة قبل أن نغادر إلى بيت جالا لنتفقد الكراسي المتحركة التي قدمناها للمستشفى العربي للتأهيل.

تقع بيت جالا على مقربة من بيت لحم، ولم أذهب لبيت لحم منذ عشرين عاماً على الأقل. أخذنا أحد الأصدقاء إلى هناك، وقاد بنا السـيارة في شـارع لا يمر فيه بنقطة تفتيش كبيرة. وبدلاً من ذلك، كان هناك حاجز صغير على الطريق، وكان عليه جنود يعطون الإشارة للسيارات بالمرور. تركنا صديقي في مكتب منى القطـان التـي أخذتنـا هـي وأبوها إلى بيت لحم لتناول طعام الغداء. وبعد الغداء، أخذنا والد منى بالسـيارة في جولة حول المدينة، وأرانا السـور الذي يحيط بهذه المدينة القديمة. أنشأت إسرائيل بناءً إسمنتياً قبيحاً حول تلك المدينة كي تفصل الفلسـطينيين عـن الأراضـي التـي سـتخصصها إسـرائيل للاسـتيطان. وعلى طول الجدار وعرضه، تمّت كتابة شعر مناهض للجدار وشعارات مناهضة له، كما تم رسـم لوحات فنية للغرض نفسـه. وطلبنا - نادر وأنا - إيقاف السـيارة من أجل

إلقاء نظرة أقرب.

واستجاب مضيفنا بالقول: «اذهبا». رغم أنه فضل البقاء في السيارة خشية من القناصين الإسرائيليين الذين سيبدأون بإطلاق النار من برج المراقبة الذي في الأعلى.

وأخيراً أخذنا والد مني إلى بيت جالا لتفقد المستشفى، وشكرناه لحسن ضيافته. التقانا الدكتور إدموند شحادة؛ وهو المدير العام للمستشفى، وصحبنا في جولة في منشآتها. والمستشفى مكان حديث في غاية النظافة والنظام، وهو في الأغلب يعتمد على التبرعات؛ مما يجعل بقاءه من المعجزات، رغم أن وجوده مهم.

رأينا مرضى على كراسٍ متحركة حمراء تم توفيرها من خلال مشروعنا، ووقفنا جميعاً لالتقاط صور جماعية، وجلسنا مع إدموند في مكتبه لبعض الوقت. وأشار إلى قطع الأراضي التي تصادرها إسرائيل لصالح المستوطنات، وخاصة مستوطنة غيلو جنوب القدس والتي كنا نراها من نافذة مكتبه. وبإمكانك أن ترى أعمال توسيع الجدار والأنفاق التي تمنح المستوطنين القدرة على التنقل بين إسرائيل والمستوطنات في الضفة الغربية دون الحاجة إلى الاحتكاك بالفلسطينيين.

وعندما أردنا المغادرة، لم نكن واثقين من الطريق الذي يجدر بنا أن نسلكه. ولم يستطع صديقي المجيء كي يأخذنا، ولذلك أخذنا سيارة أجرة فلسطينية محلية، لم يكن بإمكان السائق أن يذهب بنا أبعد من نقطة التفتيش لأن معظم سائقي سيارات الأجرة الفلسطينيين في الضفة الغربية ممنوعون من دخول إسرائيل. وعندما اقتربت السيارة من نقطة التفتيش التي تؤدي إلى القدس، أدركنا أن الطريق مختلفة عن تلك التي سلكناها عندما قدمنا، وبدأت قصة لم نكن نتوقعها.

تعرف نقطة التفتيش تلك بنقطة التفتيش 400، أو نقطة تفتيش قبر راحيل، وتقع بالقرب المكان الذي يُقال إن الأم راحيل دفنت فيه. سألنا السائقين الموجودين في المكان عن الطريق الذي يجدر بنا اتباعه، فأشاروا جميعهم بأن نذهب باتجاه تلك النقطة أو المحطة. كانت منشأة مرعبة؛ فهي مثل سجن أكثر

من كونها نقطة تفتيش، بجدرانها العالية وممراتها المسيجة. كان المكان فارغاً. طفنا، أنا ونادر حول المكان لبعض الوقت، ونحن لا ندري أين نذهب. وظننا أننا في المكان الخطأ. وفي النهاية، خرجنا من المُنشأة، ووجدنا بعض الجنود، وسألناهم كيف نخرج من هناك ونذهب إلى القدس فأجابونا: «امشيا إلى الأمام وسوف يرشدونكما إلى الطريق».

ولذلك دخلنا البناية مرة أخرى مثلما اقترحوا. كل ما رأيناه هو أبواب دوارة حديدية بإشارات خضراء وحمراء، ولم نجد كائناً حياً. كان الجو هادئاً لدرجة أننا شعرنا أن هناك شيئاً غريباً. وشعرت بالارتياب الشديد، وبدأ نادر يخبرني بعض النكات حتى يخفف التوتر. دخلنا عبر الأبواب الحديدية، ووجدنا نفسينا في قاعة كبيرة فيها أكشاك بنوافذ معتمة.

ونادى علينا صوت لا نعرف من صاحبه من خلال مكبر صوت قائلاً: «تقدّما إلى الأمام». اقتربنا من أحد الشبابيك، ومن خلال شق صغير، استطعنا أن نرى مجندة عابسة تجلس خلف الشباك. أخذت جواز سفر نادر الأمريكي وأعادته له. شعرت بالراحة. ثم طلبت جوازي، فأعطيتها الجواز الإسرائيلي الذي أستخدمه بموجب القوانين الإسرائيلية. انتظرنا لبعض الوقت، ثم فُتح باب وخرج منه جندي يحمل بندقية شبه أوتوماتيكية، تحدث معي في قسم آخر من المنشأة. كان جوازي في يده. قال: «تعال معي». سألته: «لماذا؟ ما هي المشكلة؟». قال: «أنت انتهكت أوامر القائد العام التي تمنع الإسرائيليين من دخول المنطقة «أ»». دخلت بيت لحم وهي ضمن المنطقة «أ»، وبينما كنت على علم بأن الإسرائيليين ممنوعون من دخول المنطقة «أ»، لم تكن لدي فكرة عن المغزى من أن «يُقبض علي». لقد بهرني حجم المنشأة بالكامل، كما أخذتني بعنف حقيقة أن جندي ومعه سلاح شبه أوتوماتيكي مملوء بالذخيرة كان يحجز جواز سفري.

تم اقتيادي تحت تهديد السلاح إلى مكتب مسؤول النقطة العام، وهو رجل بسيط، يحمل شارات ضابط على كتفي قميصه المبقع، وأزراره مشدودة نتيجة بطنه المنتفخ. ولما دخلت غرفة المكتب، أنزل رجله عن المكتب بسرعة.

وبينما كان الجندي يسلمه جوازي، سألني: «ما هي المشكلة؟». قال الجندي:

«هـذا الرجـل انتهـك أوامـر القائد العـام ودخل المنطقة «أ»». رفـع الضابط نظره نحوي وقال: «هل لديك فكرة كم هو خطير هذا الأمر؟». وبدأ يلقنني محاضرة عـن خطـورة تصرفـي. حاولت أن أشـرح طبيعـة مهمتنا، وقلـت: «كنت في بيت جالا في أحد المستشـفيات كجزء من مهمتنا لتوفير كراسٍ متحركة لإسـرائيليين وفلسطينيين».

قاطعنـي قائـلاً: «هـذا لا يعنيني!». وفي تلك اللحظة نفد صبري، وأصبحت أكثـر تركيـزاً علـى نحـو سـريع، وقلـت: «كيف تجرؤ علـى الجلوس هنـا وإلقاء محاضرة علي. أنت تقود هذه المنشـأة الشـيطانية وتفرض بالقوة احتلالاً وحشـياً وغيـر شـرعي. أنـت مجـرم وعار على بلـدك. الآن أطالب بجوازي كي أعود إلى القدس». وفجأة، جاءتني الأوامر بالخروج من المكتب. جلست في الممر وأمامي جندي مسـلح وجهاً لوجه لمدة سـاعتين. في تلك الأثناء، كان نادر في الخارج وليـس معـه هاتـف نقـال أو مال أو حتى أي فكرة إلى أين يذهـب. اتصلت برامي حتـى أخبـره بمـا حدث، والمـكان الذي نحن فيه، حتى يأتـي لأجل نادر. ولكن «نـادر» كان يعـرف مـا يريـد، إذ وجد بـدوره طريقة للتواصل مـع رامي. وأصبح كلاهما الآن قلقين بشـأني. جاء ضابط آخر ومعه وثيقة وقال: «وقع هنا». قلت: «ما هذا؟».

«هذه وثيقة تقول إننا لم نؤذك ولـم نأخذ منك أي شيء».

«أين جواز سفري؟».

«سوف نعيده إليك حالاً».

«جميل. إذاً سوف أوقع حينما تعيدونه إليّ».

وبعـد جولـة أخـرى مـن الانتظار، جاءنـي جنديان مسـلحان، وكان جوازي معهما.

«تعال معنا».

«إلى أين؟».

«إلى مقر الشرطة في القدس للاستجواب».

وعندما وصلنا إلى سـيارة الشـرطة، اسـتدار أحد الجنود نحوي وقال: «لِمَ

لـم تخبرهـم أن مـا حـدث كان خطأ؟ فلربما كنت حراً الآن. فالناس يفعلون هذا طوال الوقت».

في تلك اللحظة، تخطت الساعة الخامسة مساءً، وأصبحت الطرق مزدحمة جداً؛ وهذا يعني أن أمامنا طريقاً طويلاً. قلت: «الطريق مزدحمة جداً». وطرحت فكـرة البـدء فـي الحديـث. وصرخ الضابط المسـؤول علي مؤكداً أنـه يمنع عليّ الحديـث. ولكـن الصمـت لـم يطـل أكثر من دقيقـة أو دقيقتيـن، إذ قال أحدهم: «كيـف الحيـاة فـي أمريـكا؟». أظن أنهم كانوا يـودون الحديث، وكنتُ قد هدأتُ وأردتُ منهم أن يستمعوا. قلت: «انظر إلى تاريخ إصدار جوازي».

قال: «5 سبتمبر 1997». قلت: «بالضبط، أراهن على أنك لن تتذكر ما حدث في اليوم الذي سـبق ذلك اليوم؟ حسـناً، أنا لن أنسـى. لقد تم إصدار الجواز في اليـوم التالـي لمقتـل صمـدار». ومضيت أحدثهم عن صمـدار وعن أبي وعائلتي. وأخبرتهم عن منتدى العائلات الثكلى، والإسرائيليين والفلسطينيين الذين يلتقون بانتظام لإيجاد طرق لإنهاء العنف. هدأوا، وعندما علموا أنني عضو في «السلسلة المقدسة»، أصبحوا فجأة مؤدبين وودودين.

قال أحدهم بلهجة مخلصة: «نعم، ولكن لماذا تساعد أولئك العرب النَتنى؟ ألا تعلـم أنـه كان مـن الممكـن أن يختطفـوك؟ ومـن ثم سـيتوجب علينا أن نبدأ عملية إنقاذ».

قلـت: «حقـاً؟! أنا لسـت جندياً، وقد تلقيت دعـوة للزيارة، وتناولت الطعام مع أصدقاء، ثم أخذوني في جولة في إحدى مؤسسات التأهيل. وقد وجهوا لي شكرهم لأنني زودتهم بكراسٍ متحركة هم في حاجة ماسة إليها. وهنا، من جهة أخرى، أنا محجوز تحت تهديد السـلاح، وجوازي قيد المصادرة. ما هو الشـيء الـذي يشـبه عمليـة الخطـف برأيك؟ وإن صديقي الفلسـطيني الأمريكي يرى كل شـيء الآن، مـاذا تتخيلـه يظـن حيـال معاملة أهلي لي مقابل هـذا العمل الخيري الذي أقوم به؟

قلـت لهـم: «تحدثونـي عـن أوامر الجنرال المسـؤول، دعوني أحدثكم عن جنـرال آخـر. هـل سـمعتم بالجنـرال ماتي بيليد؟ لقد كان واحـداً من قادة حرب

الأيام الستة. إليكم ما تنبأ به قبل أربعين عاماً». وأخبرتهم عن أبي وعن تنبؤاته بخصوص ما سوف يحدث إذا استمر الاحتلال. عندما وصلنا إلى مجمع المدينة كان الجميع قد عادوا لبيوتهم ما عدا بعض الضباط.

«نريد محققاً يستجوب هذا الرجل».

ألقى رجال الشرطة نظرة واحدة علي، ولاحظوا أنني لست مجرماً عنيداً.

«لماذا؟ ماذا فعل؟».

«لقد انتهك أوامر الجنرال المسؤول بالدخول إلى المنطقة «أ»».

«هل هذا كل ما في الأمر؟ أطلقوا سراحه وانسوا الأمر». ولكن أولئك الأشخاص كانوا مصرين على إكمال مهمتهم. قالوا: «ليس هناك بعد شخصي».

وفي النهاية، وجدوا محققاً، وتم استجوابي وتوبيخي وتحذيري بأنه إذا تم إلقاء القبض علي في المنطقة «أ» مجدداً فسوف أدفع غرامة، بل قد أتعرض للاعتقال. وبينما كان المحقق ينهي الأمر معي، دق الباب. كان رامي ونادر يقفان عند الباب ويبتسمان.

«هل أنت بخير؟».

شعرت بالسعادة لأن المحنة انتهت، وسعدت أكثر لأنني رأيتهما هناك. ولكني في الحقيقة لم أكن على ما يرام. إن أهلي اعتقلوني لأنني فعلت خيراً. وغاص شعوري بالخيبة تجاه إسرائيل إلى مستوى جديدٍ من الانخفاض.

الفصل الحادي عشر

من يتحدث من أجل غزة؟

في بداية 2008، كنت على موعد لتناول الغداء مع روب مولالي، وهو صديق رائع، ومن زملائي في نادي الروتاري. كان لقاؤنا في مطعم في البلدة القديمة في سان دياغو. وكان ذلك بعد اجتماع للجنة مسارات للسلام في نادي الروتاري، حيث أعلنتُ أننا - نادر وأنا - ذاهبان إلى غزة.

كان روب قلقاً، بل منزعجاً. وأعرب عن ذلك بدقة حين قال: «قل لي بربك، لماذا أنت ذاهب إلى غزة؟». لم يكن الأمر بالنسبة له مفاجأة، لأنه كان يعرف جيداً وبشكل مسبق أنني ملتزم جداً بفعل شيء لأجل قضية فلسطين. ولكن، كانت مشكلة غزة في أن الدخول إليها صعب، إن لم يكن مستحيلاً. فغزة تُدار من قبل حماس التي قد لا ترحب بأن يقوم إسرائيلي يهودي بالتجول فيها - حتى لو كانت النية حسنة - كما أن إسرائيل يمكن أن تقصف غزة في أي لحظة. أي بكلمات أخرى، كان الوضع في غزة شديد التقلب، ولم تكن الزيارة في ذلك الوقت فكرة حكيمة. وكان روب يفكر في جيلا والأولاد.

وبالنظر إلى الطريقة التي تسير بها الأمور، أعلمُ أن الكثير من أعضاء نادي الروتاري قد أنجزوا مهمات صعبة حين كانوا يذهبون إلى أماكن بعيدة في أفريقيا وآسيا لتلقيح الأطفال ضد الشلل، وإنشاء مشاريع قروض للمشاريع الصغيرة للنساء في المجتمعات التي يسيطر عليها الرجال في كل أنحاء العالم، وبناء مدارس للبنات في باكستان وأفغانستان. ولذلك لم يبدُ الأمر كبيراً بالنسبة لنادر ولي أن نذهب إلى غزة لعدة أيام. ولقد أردت فرصة لاستثمار علاقاتنا في نادي الروتاري كي نحضر معنا معدات طبية يحتاجها الناس بشدة، وكي نبني جسوراً يمكن أن تمنحنا علاقة دائمة يمكن تطويرها، ومن أجل إحداث شرخ

في الحصار المضروب على غزة.

من الناحية الشخصية، رأيت في زيارتي لغزة فرصة مهما كانت بسيطة، لتحدّي سيطرة إسرائيل على فلسطين. فقد وصلت إلى قناعة من خلال تجربتي على نقطة بيت لحم أن أفضل وسيلة لتحدي إسرائيل هي تحدي القوانين التي دعمت تلك السيطرة. إذ تمنع القوانين الإسرائيلية الإسرائيليين من الذهاب إلى غزة.

أجبت روب: «سأخبرك لماذا أنا ذاهب إلى غزة. إن إسرائيل تقتل ثم تنجو من العقاب، وسأشعر بالغثيان إن جلست هنا ولم أفعل شيئاً. الأبرياء يقتلون، الأطفال يُجَوَّعون، البطالة في أعلى مستوياتها، والفقر كاسح، ولا تستغرق الرحلة من تل أبيب إلى غزة إلا ساعة بالسيارة. لم يكن شيء من تلك المآسي نتيجة كارثة طبيعية، وإنما بسبب إسرائيل التي خلقت تلك الظروف وبشكل مدبر، ولا أحد في أمريكا يقول شيئاً. إن نسبة المتعلمين في غزة تزيد عن 90 ٪، ويمكنها أن تكون واحة للتجارة والتعليم والثقافة والاستقرار. ألا نستطيع أن نرفع يد إسرائيل عنهم، ألا نستطيع أن نتحدى الاحتلال؟ أعتقد أن أعضاء نادي الروتاري يمكن أن يساعدوني في هذا الشأن. ولهذا أنا ذاهبٌ إلى غزة».

ما أخبرته به كان صحيحاً. فالوضع كان صعباً جداً في غزة، لدرجة أن الاحتلال في الضفة كان أمراً هيناً بالمقارنة به. لقد كانت القيود الإسرائيلية على حركة الناس واستيراد البضائع بالإضافة إلى سيطرة الاحتلال الكاملة على البر والبحر قد خلقت حصاراً خانقاً لمليون ونصف فلسطيني، منهم 800،000 طفل. لقد تم تحويل غزة جوهرياً إلى معسكر اعتقال ضخم. وفوق ذلك، أدت الاجتياحات الإسرائيلية إلى عدد لا يحصى من المواطنين المعوقين جسدياً وعقلياً، ومن الذين يعانون من الصدمة، ومن بينهم أطفال، وفي الغالب لا يجد هؤلاء علاجاً.

لكن تاريخ غزة يُنبئ بما يحمله المستقبل لو تحررت. فقد كانت غزة القديمة مركزاً ناجحاً للتجارة، كما كانت محطة للقوافل التجارية بين مصر وسوريا. ووقعت تحت الاحتلال المصري في القرن الخامس عشر قبل الميلاد،

واستقر الفلسطينيون في المنطقة بعد ذلك بعدة مئات من السنين. وأصبحت غزة من مدنهم الرئيسة.

جاء في العهد القديم أن وجود الفلسطينيين قد ميز المدينة وسكانها كأعداء تقليديين للشعب اليهودي. فعلى سبيل المثال، ألقى الفلسطينيون القبض على البطل اليهودي العظيم شمشون وقتلوه. وقتل الشاب داوود العملاق الفلسطيني جالوت بمقلاع وحجر. وسقط الملك شاؤول أول ملوك بني إسرائيل على سيفه بعد أن هزمه الفلسطينيون في حرب قتل فيها ابنه جوناثان.

أيام الإمبراطورية الرومانية، كانت غزة مركزاً للتعليم والثقافة. بل يعتقد الكثير من الناس أن الملك العظيم هيرودتس درس في مدارس غزة التي كانت مشهورة بمؤسساتها التعليمية المرموقة. وفي تلك الأثناء، كانت غزة واحدة من أكبر المدن في المنطقة وأنجحها. وفي أثناء الحكم الإسلامي أصبحت المدينة مركزاً إسلامياً مهماً.

في القرن الثاني عشر م، استولى الصليبيون على غزة. ورغم أن النصارى لم يقيموا فيها وقتاً طويلاً، فقد تطورت إلى أن أصبحت هي والمناطق المجاورة لها مركزاً مهماً من مراكز الرهبنة النصرانية والعلم. وعندما جاء البريطانيون لاحتلال الأرض المقدسة عام 1917، لم يستطيعوا دخول تلك المدينة إلا بعد ثلاث محاولات وآلاف الضحايا.

وبعد تأسيس إسرائيل عام 1948، طُرد آلاف اللاجئين الفلسطينيين من قراهم، وسِيقوا إلى غزة، وبهذا تكوّن «القطاع» حول مدينة غزة. ويشكل هؤلاء اللاجئون وذراروهم أغلبية السكان في غزة اليوم. ومنذ ذلك الوقت، صنعت غزة اسمها كمركز مقاومة لا يلين. ولقد دفع أهالي غزة ثمناً باهظاً في هذا السبيل. فمنذ بداية الخمسينيات، قامت الوحدات الخاصة الإسرائيلية بعمليات «عقابية» ضد شعب غزة؛ رغم حقيقة أن أهل غزة لم يكن لهم جيش، ولم يشكلوا يوماً تهديداً عسكرياً. ورغم أن هناك حوادث قام فيها الفدائيون الفلسطينيون بالهجوم داخل إسرائيل، فإن اللاجئين لم يريدوا في الغالب سوى أن يحصدوا زرعهم، ويطعموا عائلاتهم، وفي النهاية أن يعودوا إلى منازلهم.

عندما أصدر الرئيس جيمي كارتر كتابه **فلسطين: سلام وليس تفرقة عنصرية**، كانت نانسي بيلوسي الناطقة الرسمية باسم مجلس النواب، وقررت أن تشارك المؤيدين لإسرائيل في التنديد بالكتاب علناً. وفي إعلان أصدرته مؤسسة الرابطة ضد التشهير صرحت بيلوسي: «من الخطأ أن نفترض أن الشعب اليهودي يمكن أن يدعم حكومة في إسرائيل أو في أي مكان لو كانت تُمأْسِس الاضطهاد على أساس عرقي». في الحقيقة، كانت إسرائيل حليفاً قوياً لجنوب أفريقيا إبان نظام التفرقة العنصرية، ومارست الاضطهاد على أساس العرق لعقود كي تحقق الأغلبية اليهودية في إسرائيل/ فلسطين. وأوضح مثال على هذا الاضطهاد كان في غزة. ففي كتاب **القبائل المنصورة** - وهو كما يقال واحد من أفضل الكتب التي كتبت عن الشرق الأوسط - يصفُ الصحفي تشارلز غلاس رحلاته عبر الشام بحميمية نادرة. زار غلاس غزة مرات لا تحصى، ومكث هناك لفترة تكفي أن يعرف المكان جيداً. وفي واحدةٍ من أكثر الفقرات تأثيراً في الكتاب، يصف غلاس أطفال غزة وهم ذاهبون إلى المدرسة في الصباح:

> ... فتيات يرتدين ثياباً زرقاء أو رمادية، ومزينة بقبات بيضاء، وأولاد يصحبون إخوتهم الصغار إلى المدرسة... وحقائب كتب من القماش المقوى على ظهورهم، وشعرٌ مسرّح إلى الوراء، ووجوهٌ ناضرة... وآلاف الأقدام الصغيرة تجوب الشوارع المغبرة من أبواب الأمهات إلى المدارس... إن غزة أرض الأطفال... إنهم نَشْء في غاية الجمال والبراءة لدرجة أنهم يمكن أن يضحكوا حتى في غزة [1].

أثناء دراستي في اليابان، تعرفت على مغتربين إسرائيليين كُثر، وكان معظمنا شباباً ولذلك كانت ذكرياتنا عن الخدمة العسكرية حية. كان أحدهم ضابطاً في قوات الأسطول الخاصة، وكان قائداً لفرقة الكوماندو المبجلة في الأسطول. وقد أخبرنا مرة كيف كان هو وأفراد وحدته يقومون بدورية في ساحل غزة على متن سفنهم الحربية، إذ كانوا يداهمون قوارب الصيد الغزّية من آن لآخر، ويختارون

(1) تشارلز غلاس، القبائل المنصورة: رحلة عودة إلى الشرق الأوسط (لندن: هاربر برس، 2006)، 216.

واحداً من تلك القوارب، ثم يفجرون القارب بعد أن يأمروا من عليه بالقفز في الماء، ثم يخبرون الصيادين تحت التهديد بالسلاح أن يعدوا من واحد إلى مائة، وبمجـرد أن ينتهـوا يأمرونهـم بالعـد من جديد حتى يفقـدوا القدرة على الصمود في الماء، ويغرقون.

قال الضابط الإسرائيلي الشـاب إنهم كانوا يفعلون ذلك حتى «... يعطيهم مثالاً على تعليم العرب درساً في من له الأمر والسيادة»، حسب قوله. كنت على وشك التقيؤ عندما سمعت ذلك، وعلى مر السنين سمعت قصصاً كثيرة مشابهة.

وفـي مقالـة كتبتهـا عن غزة أشـرت إلى تلك القصة، وبعـد عدة أيام تلقيت رسـالة من تشـارلز غلاس. بالإضافة إلى كتابه **القبائل المنصورة** حصل تشـارلز على جواز لجهوده كصحفي؛ فقد كان كبير مراسـلي الشـرق الأوسـط في (الإيه بي سي) من عام 1983 إلى 1993. وعمل كذلك لصالح (نيوزويك) و(الأبزيرفر)، بالإضافة إلى مؤسسات نشر أخرى. وأكثر ما يعرفه الناس به هو مقابلته عام 1986 التـي أجراهـا مـع أفراد طاقم (تي دبليو إيه) المختطفين على طريق مطار بيروت. وقد تم اختطاف تشـارلز رهينةً على يد المليشـيات الشـيعية في عام 1987، وظل في الأسـر لمدة 62 يوماً. ولقد كان الرهينة الغربي الوحيد في لبنان الذي عرف أنه نجا. وقد حكى قصته كاملة في كتابه **قبائل لها أعلام** وهو الكتاب التمهيدي لكتاب **القبائل المنصورة**.

كتب تشارلز في رسالته الإلكترونية:

> عزيـزي ميكـو، مقالتك رائعة. أتمنى أن تصدر في كل مكان. فقد ذكرتني بقصة كتبتها لصحيفة أخبار شيكاغو اليومية التي كنت أراسلها من بيروت عام 1974، وقد ماتت القصة بعد أن كتبتُها. كان الأسطول الإسرائيلي يفجر قوارب الصيد التي يقودها أطفال من صور، وكان على أولئك الأطفال أن يعودوا إلى بلدتهم سباحةً. وقد قابلت الأطفال ورأيت القوارب، وكتبت القصة. وفي سن 23 عاماً كنت بريئاً وظننت أنهم يمكن أن ينشروها. وقد تعلمت يومها شـيئاً كان علي أن أتعلمه مرة بعد أخرى على مر السـنين،

وهو أنك لن تستطيع كتابة الحقائق البسيطة عما كانت إسرائيل تفعله إذا كان محرروك لا يقبلون التصديق أن إسرائيل يمكن أن تفعل ذلك. لا أدري إن كان السبب أنهم لم يصدقوا القصة أو أنهم أرادوا أن يحموا الصورة، ولكن هذا هو السائد في كل وكالة أخبار أمريكية عملت معها. على أي حال، حسناً فعلت، تحياتي الخالصة. تشارلي.

عندما كانت تسيبي ليفني وزيرة خارجية إسرائيل، دافعت عن عمليات الجيش الإسرائيلي ضد الفلسطينيين في غزة، ووصفتها بالضرورية من أجل إحداث تقدم في مفاوضات السلام. وقد نشرت صحيفة هآرتس أن ليفني قالت إنها تتوقع ألا يقارن الناس بين المواطنين الإسرائيليين الذين يتعرضون للإرهاب، والمواطنين الفلسطينيين الذين يتعرضون للأذى أثناء عمليات دفاع إسرائيل عن نفسها. لقد أربكني هذا المنطق. لم ترَ السيدة ليفني مشكلة في قتل الجيش الإسرائيلي للمواطنين الفلسطينيين، بمن فيهم الأطفال، ولكن لم يكن مسموحاً من وجهة نظرها انتقاد إسرائيل على فعل ذلك. كيف انحرف الإسرائيليون تماماً عن القيم التي ظننتُ يوماً أننا كلنا نعتبرها عزيزة علينا؟

وبينما كنت أجهز نفسي لرحلة غزة، وصلني صديقي العزيز سمير كافيتي بالدكتورة سهيلة ترزي. سمير أسقف في القدس، وتدير سهيلة مستشفى الهلال في غزة. وقد تواصلت مع د. سهيلة عبر الهاتف والإيميل لعدة شهور، وأخبرتها عن خطتنا للمجيء إلى غزة، وعن نيتنا بإحضار بعض الأشياء الصغيرة المفيدة معنا؛ كي نفحص المياه. بسبب الحصار الخانق، لا شيء يدخل، حتى إنّ الأمور الصغيرة التي كان يُسمح بها، تخضع لفحص إسرائيلي دقيق وبطريقة تعسفية. سمعت من قبل عن فرق طبية لم يسمح لها بإدخال المعدات معها. وسمعت عن آلات غالية الثمن لم يسمح بدخولها حتى أصبحت غير صالحة لأن إسرائيل لم تسمح بدخولها، مع أنهم لم يقدموا تفسيراً لهذا السلوك.

أعطتني سهيلة قائمة بالأشياء التي يحتاجون إليها، ولأننا عزمنا على الدخول من طريق مصر، فقد قررنا أن نشتري هذه الأشياء من هناك وذلك بمساعدة أحد

أعضـاء نـادي الروتـاري المصريـين. وكنا نأمل أن يؤدي هذا إلـى مرحلة متقدمة نستطيع فيها توفير المزيد من الأشياء المفيدة في المستقبل.

وبدأنـا – نـادر وأنـا – رحلتَنـا في نوفمبـر 2008. وتواصلت مع أصدقاء من نادي الروتاري في القاهرة، وتواصل نادر مع أصدقائه من نادي الروتاري بعمان، الأردن، ووافق الجميع على أن يقدموا لنا المساعدة. ذهبت بالطائرة إلى القدس، ومـن ثـم سـافرت إلـى عمان حيث التقيـت «نادر» هناك. وفي مسـاء ذلك اليوم، تناولنا العشاء مع أعضاء أردنيين في نادي الروتاري، وفي الصباح، غادرنا للقاهرة.

شـعرت بالقلـق عندمـا وصلنـا المطـار، فبينما بدا أن الأمور تسـير بسلاسـة (الفحص الأمني كان سهلاً، وغادرت الطائرة في موعدها)، انسكب كوب القهوة السـاخن بالكامل على اللابتوب الخاص بي وعلى فخذي. وجاء مضيف طيران أردني شـاب وأنا أحاول أن أنقذ اللابتوب وما تبقى من كرامتي وسـألني: «هل أصابك سوء؟». وأحضر لي كوباً آخر، دون مقابل، بينما قام موظف آخر بتنظيف المكان. من حسن الحظ أنني كنت أرتدي بذلة رمادية داكنة ولذلك لم تظهر بقع القهوة. كان يجب أن أضحك؛ وأعتقد أنني كنت في أيدٍ أمينة في الوطن العربي.

لم نلبث أن صعدنا إلى الطائرة، وبعد سـاعة وعشـر دقائق كنا في القاهرة. استقبلنا محمد أيوب في المطار، وهو دبلوماسي مصري متقاعد ورجل تنويري، بالإضافة إلى أنه عضو في أحد نوادي الروتاري بالقاهرة. وقد رأينا فيه عزماً مثل الذي عندنا في أن ينجح المشروع.

أخذنا محمد إلى الفندق في سـيارته الصغيرة التي كانت تعارك في شـوارع المدينة المشـهورة بصعوبة السـير فيها، وكانت السـيارة تناور كفأر بين جواميس. بعد الاستقرار في غرفتنا، خرجت للشرفة ونظرت إلى النيل، لأرى منظر المدينة، وأستمع إلى صوتها.

تشتهر القاهرة بآلاف المآذن التي يعود الكثير منها إلى مئات السنين، وظهر معظمهـا فـي مرمـى البصر من غرفة الفنـدق. وكان النيل يجري أمام عيني. ويعد النيـل أهـم رمـز علـى تاريخ مصر العريق وحجمها الكبيـر. لقد كنت في عاصمة عربية. وتعد القاهرة من عدة نواحٍ عاصمة العرب. لقد أحببتها. في ذلك الفندق



نادر وناهد وأنا معاً قبل المغادرة إلى غزة.

القديم شعرت أنني ممثل في فيلم **كازابلانكا** أو في أحد الأفلام التي تم تمثيلها في الشرق الأوسط في الأربعينيات.

كانت رانيا، ابنة نادر، في القاهرة أيضاً مع زوجها الدكتور ناهد الحسيني. ناهد من غزة، ويعمل في الولايات المتحدة طبيباً لأمراض القلب عند الأطفال. وقد جاء إلى القاهرة مع فريق من أطباء القلب في الولايات المتحدة كي يُعلموا هناك لعدة أسابيع.

في تلك الليلة، التحقت رانية بنا على العشاء مع أعضاء من نادي الروتاري الذين احتفوا بنا في نادي الروتاري بمدينة القاهرة. وفي اليوم التالي، ذهبنا إلى موزع محلي لشراء المعدات التي اتفقنا على أن نأخذها معنا إلى غزة. ولكن، عندما وصلنا وجدنا أنها ليست موجودة، وأن علينا الانتظار على الأقل يوماً آخر. كان علي أن أُذكرَ نفسي أن الأشياء تسير بخطو مختلف في الشرق الأوسط.

فهناك مقولة بالعبرية والعربية مفادها أن هناك سبباً وجيهاً لكل تأخير. بالعبرية: «كـول أكافـا ليتوفـا»، وبالعربية: «كل تأخيرة فيهـا خيرة». إضافة إلى ذلك، كانت معظم الأمور تسير بسلاسـة. كانت عائلة ناهد في القاهرة، ودعونا للبقاء معهم فـي البيـت بمدينـة نصـر. وعندما كنا هناك، علمنا أن إحدى قريبات ناهد سـوف تتزوج من المغني النجم الشهير حمادة هلال، وتلقينا دعوة لحضور حفل الزفاف. ولكن، إن سار كل شيء حسب ما هو مخطط، فسنكون وقت الزفاف في غزة.

كانت الساعة الخامسة مساءً عندما وصلت المعدات أخيراً. جاءت في سيارة نقل كبيرة ومعها سـائق ودليل تم إرسـالهما من قبل أصدقائنا في نادي الروتاري بالقاهـرة. فالسـفر مـن القاهـرة إلى غزة دون دليل ممنـوع، وعلى المرء أن يكون لديـه دليـل معتمـد من الحكومـة. ولم يكن الدليل والسـائق يتحدثان الإنجليزية، ولكن خبرتهما واسعة، وكانا على علم بالطرق والقوانين.

وكانت الساعة المتأخرة تعني أننا سنسافر معظم الوقت في الليل، ولم تكن عندي مشكلة في ذلك. ولكننا قررنا ألا نؤجل السفر أكثر من ذلك. ودعنا الجميع، وبدأنا الرحلة إلى غزة. عبرنا قناة السويس بحلول منتصف الليل. وواصلنا السير حتى وصلنا إلى العريش التي تبعد 25 ميلاً عن حدود غزة، وقضينا بقية الليلة في العريـش. وعندمـا يوقظـكَ أذانُ الفجـر، تعرف أنك فـي الوطن العربي. ولم يكن ذلـك الصبـاح مختلفـاً، ولذلك بمجـرد أن أيقظني أذان الفجر، خرجت لأشـاهد موج البحر في تلك الزاوية من البحر المتوسط. لم يكن هناك أحد، وكان الأفق صافياً وواضحاً، ولكن شـعرت أن عاصفة كانت تتكون بداخلي. فقد كنت قلقاً بشأن ما يخبئه لنا هذا اليوم؛ وقد أردت دخول غزة أكثر من أي شيء آخر. فعلى بعد أميال قليلة من المكان الذي كنت أجلس فيه، كانت هناك مأسـاة من العيار الثقيل، وإذا نفذت إسرائيل رغبتها، فلن يكون بمقدوري أن أفعل أي شيء حيال ذلك. فبدلاً من رحلة بالسـيارة مدتها 45 دقيقة، كان علي أن أجوب العالم إلى القاهـرة، ومـن هنـاك أسـافر في رحلة طويلـة في البر. ومع ذلك، كان هناك خطر حقيقي في أنهم لن يسمحوا لي بالدخول.

ومثلما تمنع إسرائيل الإسرائيليين من دخول المنطقة «أ» في الضفة الغربية،

فإنها تمنعهم من دخول غزة. ولكن الفرق أن غزة مغلقة تماماً، وليست هناك طرق جانبية يمكن الدخول منها. الحدود مغلقة تماماً من قِبَل إسرائيل، ويستغرق الحصول على التصريح بالدخول من الجانب الإسرائيلي أشهراً. ولذلك، كانت تلك الفرصة بالنسبة لي هي الفرصة الوحيدة للدخول، وراهنت كثيراً على نجاحها.

أثناء الفطور، أدركت أننا لسنا الوحيدين الذين كنا نحاول الوصول إلى غزة. فقد وجدت الجميع يحاولون الدخول أيضاً، وبعضهم كان ينتظر منذ عدة أسابيع. وكان من الواضح أن الحدود مغلقة لفترة طويلة دون تفسير أو إشارة إلى أنها ستفتح قريباً. وعرفنا أن مثل هذا الشيء يحدث على الدوام. وبالفعل، كنا نخشى أن يحصل هذا السيناريو لأننا أبلغنا أننا لن نستطيع فعل شيء إن حدث.

عند الساعة الثامنة صباحاً، توجهنا إلى مدينة رفح الحدودية، ومررنا على عدة نقاط تفتيش أمنية مصرية على طول الطريق. وكلما اقتربنا من رفح، كانت فترة فحص جوازاتنا أطول على يد الجنود الذين بدا أنهم أكثر توتراً. وعند نقطة معينة دخلوا في جولة صراخ مع دليلنا.

وفي النهاية، أصبحنا على بعد خمسة كيلومترات. اقتربت من غزة أكثر من ذلك وأنا في إسرائيل، مرات كثيرة، ولكن هذه المرة كانت أكثر أهمية. وهذه المرة مشينا في رفح في صمت حتى وصلنا إلى الحدود. ولما كنت أنظر إلى البوابة، تذكرت أن د. سهيلة أخبرتني أن دخولنا قد يكون من المعجزات. لم أؤمن بالمعجزات في حياتي كما آمنت في تلك اللحظة. فقد جئنا في رحلة طويلة، والآن نحن على بعد مئات الأمتار عن غزة.

على يمين البوابة، كان هناك فصيل من شرطة مكافحة الشغب المصرية يجلسون في الظل، دون عمل. وقد جاؤوا في سياق محاولات الغزّيين قبل ستة أشهر لدخول مصر من أجل شراء الطعام. وإلا فقد كان المكان هادئاً وفارغاً. أوقف السائق السيارة على بعد 50 ياردة من المعبر، وأخذنا – أنا ونادر – حقائبنا ومشينا نحو البوابة. أخبرنا جندي مصري كان يلبس بزة تفوق حجمه عدة مرات ويحمل بندقية طويلة أن المعبر مغلق. وتساءل نادر إن كان بالإمكان الحديث

إلى قائده، ولكن الجندي قال: «لا، لا يمكنك أن ترى أحداً». وفي تلك اللحظة، جاء ضابط مخابرات بزي مدني، أسميناه في ما بيننا «ابن عِرس»[1] كي يعرف من نحن وماذا نريد. وكرر على مسامعنا ما قاله الجندي وأضاف: «المعبر مغلق، وعليكم المغادرة».

رفضنا قبول كلمة «لا». وبدلاً من ذلك قمنا بسلسلة مكالمات تليفونية محمومة بأصدقائنا في القاهرة، على أمل أن تكون لهم علاقاتهم في الإدارة العليا. اتصلوا بنا وأخبرونا أنهم لم يجدوا أحداً يمكنهم الحديث معه. فقد كانت المعابر مغلقة، ولا نعرف السبب، وإلى أي مدى ستظل مغلقة. بقينا مكاننا وقمنا بمزيد من الاتصالات. وأخيراً اقترح الجندي أن نذهب إلى مقر المخابرات وهو ليس بعيداً عن الحدود.

ذهبنا بالسيارة عبر شوارع مليئة بالقاذورات والنفايات إلى مبنى ليست عليه علامات، ويحيط به سور، ويقع في مكان غير مألوف. وطلبنا من الحارس أن ينادي مسؤولاً كان الناس قد أعطونا اسمه ونحن عند الحدود. اختفى الحارس في الداخل، ثم عاد بعد دقائق ليخبرنا أن نغادر المكان. وأصر نادر، فاختفى الحارس مرة أخرى. وبعد دقائق، فتح الباب رجل بلباس مدني وأخبرنا أن علينا المغادرة. طلب نادر أن يستخدم الحمام، فأشار الرجل إلى الجدار واقترح علينا أن نقضي حاجتنا هناك.

شعر سائقنا ودليلنا بالصدمة من صَلَف أولئك المسؤولين. فقد عرفا أننا جئنا في رحلة طويلة من أمريكا لنقدم المساعدة لأهل غزة، وأن لدينا معدات طبية نريد توصيلها للقطاع. لقد شعرا بالتقزز مثلنا تماماً من حقيقة أن المصريين غير متعاونين؛ تماماً كالإسرائيليين، ولقد شعرا بالإهانة الشخصية نيابة عن كل المصريين. وفي غمرة الإحباط، فكرا في أن يجدا طريقة يساعداننا من خلالها. لقد كانت لحظة وضوح بالنسبة لي: فلو كانت للمصريين يدٌ في إدارة بلدهم وحكمها، فلربما كانت الأمور تسير بشكل أفضل في كل المنطقة؛ على عكس ما هو حاصل نتيجة خضوعهم لدكتاتور. وكما تبين، إن الحكومة المصرية كانت

(1) المقصود هنا أن هذا الشخص مرواغ نفعي؛ المترجم.

ملتزمة مع إسرائيل والولايات المتحدة في إحكام الحصار على قطاع غزة.

وفي النهاية، قال أحدهما: «كنت أعمل مع السفارة البلجيكية، ربما سيقدّمون لنا المساعدة لو اتصلت بهم».

كنا ندرك أننا نسير في فراغ. خشيت إن أدخلونا هذا المبنى، ألا نخرج منه أبداً. وبدأت أتخيل ما سيكون عليه الوضع بالنسبة لي كإسرائيلي معتقل في سجن مصري، وهي فكرة أرعبتني، ولذلك ابتعدنا بأسرع ما يمكن، وتوقفنا عند كوخ صغير على حافة البلدة كان يبيع الشاي والقهوة. جلسنا في الظل، وطلبنا الشاي، واتصلنا بالقاهرة مرة أخرى. وكنا نلفت النظر إلينا بزينا الرسمي. وشعرت بعدم الارتياح الشديد. قال أصدقاؤنا في القاهرة إنهم سيحاولون النظر في الأمر مرة أخرى. وفي تلك الأثناء، ما كان لنا إلا أن ننتظر. وجلسنا هناك حتى بدأ الوقت يتأخر، وكان علينا أن نعود إلى الفندق في العريش.

في الصباح التالي كنا عازمين على المحاولة مرة أخرى وقوبلنا بالمقاومة نفسها، ولكن هذه المرة خرج إلينا ضابط بملابس مدنية ليتحدث إلينا. أخبرونا أنه عقيد. وعندما بدأ يتكلم هو ونادر، أحاطت بنا مجموعة من الجنود الفضوليين، ورجال الشرطة، و»ابن عِرْس»، وعدد من المتفرجين ممن بدا أنهم ظهروا من العدم. تحدث نادر والعقيد لفترة طويلة. ثم أخذ العقيد تفاصيل عنا وقال إنه سيرجع ومعه الجواب.

مرت ساعتان أخريان وبدأت أشعر بالتوتر. وعاد لي التفكير في السجن المصري، وكنت على وشك أن أخبر «نادر» أنه من الأفضل لنا أن نستسلم ونعود للقاهرة أو أننا بالتأكيد سنتعرض للحبس. وفي النهاية رأينا العقيد وجنوده يتجهون نحونا. قال إنه ليس بالإمكان دخول غزة. وبعد استماعه لمرافعة طويلة وحميمة من نادر، قال: «لا أستطيع أن أسمح لكما بالدخول، إن الإسرائيليين يراقبوننا».

إن ما قاله العقيد ربما كان صحيحاً وربما لم يكن كذلك؛ حين قال إن الإسرائيليين يمنعونهم من السماح لنا بالدخول وليس قيادتهم المصرية. ليس عندي شك بأن إسرائيل طلبت إغلاق المعبر، وأن الحكومة المصرية استجابت للطلب. ولكني أظن أن المطالبات كانت من مستويات أعلى بكثير.

خــلال كل تلـك المحنـة، جلسـت بهـدوء آخذاً جانباً، وآمـلاً أن لا ينتبه لي أحـد. ورغـم أننـي كنـت أحمل جوازي الأمريكي، فقـد أظهر الجواز بوضوح أن مكان ميلادي هو القدس. واضح أنه ليس لدي اسم عربي، ولم يكن من الصعب أن يستنتج أي أحد بأنني إسرائيلي. وفي لحظة من اللحظات، انتبه «ابن عِرْس»، وجاء ليتحدث إلي بإنجليزية مكسرة. ونظر إلى جوازي ولاحظ مكان الميلاد ثم قال: «فلسـطيني، فلسـطيني». وقد كان افتراضه أنني فلسـطيني لأن مكان ولادتي القدس. ابتسمت وتظاهرت أنني لا أفهم.

شـعرنا بالإحباط ولكن ليس بالتفاجؤ، واستسـلمنا أخيراً. وكان من الصعب ألا يشعر المرء بالهزيمة. كان من الواضح لي أنني أناهض قوة لـم يكن من السهل الانتصـار عليهـا. وكان علـى الرغبـة لـدي بعمل شـيء أن تخف بعـد إدراكي أن محاولتـي تحـدي إسـرائيل ستفشـل أكثر مما سـتنجح. وقـررت أن أدخل اللعبة، وقـررت الجهـر بآرائـي والعمـل بموجبهـا أكثـر مـن أي وقت مضـى. مهما كان الصوت الذي لدي اتخذت قراراً بأن أستثمره، ومهما كانت القوة التي لدي كان عليّ أن أستثمرها. ولكني كنت في حاجة للصبر أكثر من أي شيء آخر، لأن هذه المعركة ستكون طويلة. ومع ذلك، لم نستطع أن نفعل الكثير. وبالنسبة لي، كان أصعب شـيء هو الاتصال بسـهيلة وإخبارها أننا عائدون للقاهرة. شـكرتني على المحاولة، وتمنت لي حظاً سعيداً في المستقبل.

قدنا السـيارة إلى القاهرة في صمت. وعندما وصلنا كنا مرهقين ومكتئبين، وكانت الساعة التاسعة مساءً، وتذكرت أننا تلقينا دعوة لحضور حفلة زفاف حمادة هـلال التـي كان موعدهـا تلـك الليلة. وبدت كوجه آخـر صغير لامع من القصة، ولو لم يكن هناك شيء آخر، فلربما رفعت تلك المناسبة معنوياتنا بعد كل تلك الخيبة في الأيام القليلة الماضية.

لقـد كان حفـل الزفـاف رائعـاً بشـكل لا يصدق. داخل قاعـة الحفل، كانت الأضواء مدلاة من السقف مثل اليراعات؛ أضواء خافتة وأخرى فاتنة. وكانت كل نخب القاهرة موجودة، كما كانت هناك أسماء كبيرة في عالم الموسيقى والأفلام العربية. لم أتعرف على أحد بعينه، ولكن «نادر» كان يقفز من كرسي إلى كرسي

كالأطفال كي يحصل على نظرة ود أو يلتقط صورة. ولم يكن مشاهير الموسيقى هناك ليراهم الناس، بل كانوا يؤدون أدواراً أيضاً. ولذلك، كان مارثون موسيقى عربية طوال الليل.

وفي لحظة نظرت إلى ساعة نادر، فوجدت أن الساعة 3:30 صباحاً. وقلت: «تذكر أين كنا عندما بدأ اليوم». هز نادر رأسه وقال: «لقد كان يوماً جنونياً». كان قد قال من قبل إنّ الحفلة سوف تستمر حتى الساعة العاشرة مساءً، فهذا هو الوقت الذي ينتهي فيه حفل الزفاف عادة في مصر. ولم نبقَ طويلاً بعد ذلك. في تمام الساعة الرابعة صباحاً، استسلمنا وعدنا إلى الفندق لنأخذ قسطاً من النوم.

كان اليوم التالي يوم جمعة: ذهب نادر لصلاة الجمعة، واسترحت أنا في الفندق. وقفت في الشرفة مرة أخرى، وأنا أفكر في كل ما مر معنا وأحاول أن أفهمه. وفي ما بعد هاتفت «محمود»، ومعاً ذهبنا إلى سوق القاهرة الشهير خان الخليلي، ثم تمشينا حول القاهرة القديمة وزرنا الأزهر، وهي واحدة من أقدم الجامعات في العالم، كما زرنا مسجد الأزهر العظيم.

ومن مصر، أخذنا – نادر وأنا – الطيارة وعدنا إلى عمان، ومن ثم إلى القدس. وأخذت المعدات معي وتركتها في مطرانية القدس. بعد عدة أشهر، استطاع المطران سهيل دواني أن يدخل المعدات إلى غزة، ومن ثم تسليمها إلى مستشفى الهلال.

بعد ثلاثة أسابيع من رجوعنا إلى الولايات المتحدة، اتضح سبب إغلاق الحدود مع غزة.

في 27 ديسمبر، وتحديداً بحلول الساعة 11:25 صباحاً بدأت طائرات سلاح الجو الإسرائيلي بقصف عنيف على غزة. ونشرت الصحيفة الإسرائيلية اليومية هآرتس أنه في اليوم الأول من هذه العملية، واسمها الرصاص المصبوب، وعلى مدار ثماني ساعات ألقت قوات الجو الإسرائيلية مائة طن من المتفجرات على غزة. وبالنظر إلى أن القنبلة التي تزن طناً واحداً تكفي لتدمير حي كامل، وعلى اعتبار أن غزة مكان صغير ومزدحم، فإن المرء يمكنه أن يتخيل حجم الدمار والضحايا. ولكن تلك كانت البداية لحرب استمرت 21 يوماً من جهنم الحمراء.

فقد هاجمت إسرائيل بقوات برية وجوية هائلة منطقة وسكاناً ليس لديهم سلاح. وألقى الطيارون الإسرائيليون مئات الأطنان من القنابل، وبالنسبة لأهل غزة، لم يكن هناك مكان يختبئون فيه، ولا وسيلة يدافعون بها عن أنفسهم، وليس لهم من مهرب في ظل المعبر المغلق. ولكي تزداد الأمور سوءاً، ادعت إسرائيل أنها أشعرت السكان بالهجوم، وأنه كان يتوجب على الناس أن يغادروا المناطق التي كانت ستقصفها. وليس للمرء إلا أن يتخيل أماً وأباً يجلسان منتظرين الذبح، والأنكى أنهما كانا على يقين أن لا مهرب لهم من ذلك. ربما كان إغلاق الحدود مع غزة تحضيراً لهذا الهجوم الهائل، وذلك رداً على صواريخ تُطلق من غزة على إسرائيل.

وبعد عدة ساعات فقط من بدء القصف على غزة جاءت الأخبار بأن عدد القتلى بلغ 500 ومن بينهم عشرات الأطفال. أثناء محاولتنا دخول غزة اتصلت بسهيلة عدة مرات، وكانت تشجعني باستمرار وتشكرني لجهودي. ولكن، بعد أن بدأ الهجوم، لم أعد أستطيع التواصل معها، ولكني استطعت أن أتواصل عبر الإيميل. وفي أحد الإيميلات وصفت عجزها وعجز زملائها الأطباء: كل شيء تم تدميره، كل شيء تم كسره وتشتيته، ولم تكن هناك كهرباء. في بداية الهجوم كتبت لي أن طفلاً عمره ستة أعوام أُصيب وأحضر للمستشفى. كتبت قائلة: «لم نستطع أن ننقذ حياته».

وبحلول نهاية اليوم الواحد والعشرين للهجوم، بلغ عدد القتلى 1400، أما الجرحى فكانوا بالآلاف، وكذلك المشردون الذين هدمت بيوتهم وأصبحوا بلا مأوى. في مقالة نشرتها في صحيفة سان دياغو يونيون تربيون كتبت: «بينما أجلس وأشاهد التقارير والصور ومشاهد الفيديو الحية التي تأتي من غزة، أجد أن من المستحيل فهم ما يجري».

أذكر أنني كنت أدرس قصة في العهد القديم حيث حاجج أبونا إبراهيم الرب في قراره تدمير قرية سدوم وعمورة: وأما إبراهيم فلم يزل قائماً أمام الرب، فتقدم إبراهيم وقال أفتهلك البار مع الأثيم/ عسى أن يكون خمسون باراً في المدينة. أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين باراً الذين فيه. حاشا

لك أن تفعل مثل هذا الأمر، أن تميت البار مع الأثيم فيكون البار كالأثيم. فقال الرب إن وجدتُ في سدوم خمسين باراً في المدينة فإني أصفح عن المكان كله لأجلهم. (سفر التكوين 18: 23-26)[1].

لا يملك المرء إلا أن يعجب بإبراهيم عليه السلام وبتشبثه بالحق. إن اقترابه من الرب ليحاججه من أجل مبدأ تمسك به؛ وهو مبدأ أن حياة الإنسان عزيزة. ولقد أراد أن يتمثل الالتزام الحقيقي من طرف الرب، وذلك بأن يحمي المدينة من أجل الأبرياء. من كان هناك ليتكلم عن أهل غزة؟ لا يمكن أن يكون هناك شك في أن هناك أكثر من 50 إنساناً صالحاً من بين المليون ونصف المليون الذين يعيشون في غزة. وبعد كل حساب، هناك 800000 طفل في غزة.

بعد عودتنا، تلقينا - نادر وأنا - دعوة لإلقاء محاضرة في معهد كروك للسلام والعدالة بجامعة سان دياغو. وعندما أدليت بملاحظاتي أشرت إلى أن آخر اعتداء على غزة لم يكن منعزلاً، بل كان جزءاً من حملة إسرائيلية مستمرة ضد غزة وما زالت تلك الحملة في تلك اللحظة مستمرة منذ ستة عقود. كل عدة سنوات، كان الجيش الإسرائيلي يجد سبباً ليقوم بهجمة وحشية على غزة وليترك وراءه ضحايا قدر المستطاع، وقد بدأ ذلك المسلسل منذ عام 1953 مع الوحدة 101 سيئة الذكر التي كان شارون يقودها. ما حدث مباشرة بعد محاولتنا الفاشلة لعبور الحدود كان استمراراً لحرب دائمة؛ حرب تهدف إلى تطهير عرقي كامل لفلسطين.

سمعت قصصاً عن أناس توجهوا إلى حدود غزة وجلسوا على كراسٍ وشاهدو القصف.

أثناء المحاضرة، كان هناك أعضاء من الجالية الصهيونية جاؤوا للاستماع لنا. وقد شعروا بالتقزز عندما سمعوني أنتقد إسرائيل في مثل ذلك الوقت. وقد حاولت أن أشرح لهم قائلاً: «إن المسألة مسألة قيم؛ بعض الناس يؤمن بأن قتل المواطنين الأبرياء مقبول أخلاقياً. أنا أعتقد - كما علمتني جذوري اليهودية - أنه حتى لو كان الشيطان نفسه يعيش في غزة، فطالما أن هناك طفلاً واحداً فيها فإن

---

(1) اعتمدت نص الكتاب المقدس في نسخته العربية بدلًا من ترجمتها؛ المترجم.

المدينة يجب أن لا تتعرض للأذى».

شعرت بالخيانة من قبل أبناء شعبي، وشعرت بالعار من أفعال بلد كنت أفخر به. وبينما تحركنا بالطائرة (مرة أخرى) - نادر وأنا - إلى مصر وذلك في طريق عودتنا من عمان، أخبرته أنني لم أتوقف عن التفكير في أن غزة مشكلة يسهل حلها. قلت له: «انظر إلى الصحراء الكبيرة التي تقع أسفل منا، لا شيء مما نفعله يمكن أن يغيرها، ولكن غزة ليست كذلك؛ ففي غزة أناس متعلمون يستطيعون أن يعملوا وأن يكونوا منتجين ويساهموا. وهم لا يحتاجون منا أن نقوم بشيء سوى فتح الأبواب وإزالة الحواجز».

شعبي وأصدقائي يمسكون بمفتاح البوابة ولا يتركون أحداً يدخل. بعد تلك الرحلة، بدأت أفكر بشكل مختلف نوعاً ما في شكل السلام الحقيقي. وبدأت أفكر في أن إزالة كل الحواجز بين الإسرائيليين والفلسطينيين هي الأمل الوحيد؛ وبالفعل كان هذا الأمر حتمياً.

أبو أنصار[1]

بعد تجربتي على نقطة تفتيش بيت لحم في إبريل 2007، قررنا – نادر وأنا – السفر إلى رام الله ومن ثم إلى حيفا لالتقاء الناس في نشاط تحوَّل إلى جولة من النشاط المكثف لم نجد فيها وقتاً للراحة. وبمجرد أن أنهينا، عاد نادر إلى عَمان، وقررت أنا البقاء في إسرائيل/ فلسطين وحضور المؤتمر السنوي عن اللاعنف والكفاح المشترك، الذي يعرف بمؤتمر بلعين. وكانت تلك هي المرة الثانية التي تستضيف فيها بلعينُ مؤتمراً عن المقاومة الشعبية اللا عنفية المستمرة.

كنت أبحث عن أشكال أكثر مباشرةً في التصاقها بالنشاط السياسي. لقد كان مشروع الكراسي المتحركة مهماً ومشوقاً، ولكني أدركت أن العمل الإنساني الخيري لن يجلب حلاً. وبدأت أيضاً أبتعد عن ما كان أبي وغيره من الصهيونيين التقدميين يرونه حلاً، وهو حل الدولتين. كما بدأت أرى أن القضايا التي شكلت الصراع لا يمكن حلها إلا من خلال دولة يعيش فيها الشعبان كمواطنين أكفاء.

واضح أن ذلك لا يمكن أن يحدث دون نضال، والنضال الوحيد الذي يمكن أن أكرس نفسي له هو النضال اللا عنفي. وهذا ما دفعني للتعلم أكثر عما كان يحصل في بلعين. وشعرت بقوة أيضاً أنني بحاجة لتحدي قوانين إسرائيل التي تكرس الاحتلال.

وغمرتني البهجة عندما اتفق وجودي في البلاد بموعد انعقاد المؤتمر. أخذت سيارة أجرة من القدس إلى بلعين، ولما وصلت كان هناك الكثير من الناس. كان المؤتمر منعقداً في خيمة كبيرة في فناء مدرسة القرية. وبمجرد أن

---

(1) أنصار هو الاسم الذي أطلقه الأسرى الفلسطينيون على سجن كتسعوت في صحراء النقب.



مع د. مصطفى البرغوثي في بلعين. كان حينها عضواً في الحكومة الفلسطينية.

دخلتُ الفناء المدرسي، رأيت د. عمر، وبسام عرامين، وعدداً من الأصدقاء واقفين ويتحدثون. عرفت د. عمر من خلال منتدى العائلات الثكلى. عمل عمر مديراً عاماً لوزارة الصحة الفلسطينية. وقابلناه - نادر وأنا - في رام الله أثناء زيارتنا أيام مشروع الكراسي المتحركة. التقيت «بسام» أثناء اجتماع لمؤسسة اسمها «مقاتلون من أجل السلام».

وبعد أن رحب بعضنا بالبعض الآخر، سألني د. عمر عن من يرافقني، ومن سيعتني بي أثناء المؤتمر. أخبرته أنني جئت وحدي. ولم أكن قلقاً لأنني كنت واثقاً أنني سألتقي معارفي. استدار إلى صديق له كان يقف إلى جانبه، وقدمه لي وكان اسمه جمال منصور، أو «أبو أنصار». كان ضخم الجثة، وله شارب عريض، وطوله يبلغ ست أقدام وإنشين.

استدار الدكتور عمر نحوي وقال: «علي أن أذهب، ولكنه سيعتني بك، إنه صديقنا من أيام السجن». ثم أخذ بذراعي واستدار إلى جمال، وأشار إلي،

وهو يقول بالعربية: «هذا حبيبي، حبيبي، حبيبي!». بكلمات أخرى، كان يعتبرني شخصية مميزة وصديقاً حميماً من أصدقائه. لجمال منزل في القرية، وكان حاضراً طول الوقت في المؤتمر. عبريته ممتازة، واعتنى بي خير عناية، وكان يبذل جهده كي أكون مستريحاً طوال الوقت. وجدت أنه رجل ودود، أخلاقه عالية. وقد عرفني على كل الشخصيات رفيعة المستوى في المؤتمر، وبالفعل كانوا كُثراً. أخذني لمقابلة فدوى البرغوثي. وجلسنا معها لفترة وتحدثنا.

قلت: «أتمنى الإفراج عن زوجك قريباً، إن بلاده وشعبه في حاجة إليه».

«كما أتمنى أن يُطلق سراحُه من أجل عائلته وأطفاله الذين يحتاجون إليه أيضاً».

ثم وصل الدكتور مصطفى البرغوثي[1]، وكان في تلك اللحظة وزيراً في الحكومة الفلسطينية. وفي حال دخول أو خروج الشخصيات الرسمية، كان الناسُ يصطفون ليرحبوا بهم أو يودعوهم. ومما كان واضحاً لي أنه في كل مرة قام جمال ليرحب بشخصية رسمية، فإن الناس كانوا يتنحون جانباً، ليكون هو أول من يستقبل الضيوف.

يدا جمال كبيرتان ويستخدمهما بمودة، وذلك بأن يربت على أكتاف الناس أو ركبهم عندما يتحدث. جلسنا في آخر الخيمة الكبيرة، وقسمنا وقتنا بين الاستماع إلى الخطباء المتعددين وبين تبادل الحديث. وفهمت أن «جمال» و»بسام» ود. عمر تعارفوا مذ كانوا في السجون الإسرائيلية، ولكني لم أعرف بأي تهمة كانوا معتقلين. وبينما كنا نتحدث طوال اليوم، بدأت أتعرف على العالم المعقد للأسرى الفلسطينيين؛ وهو عالم لم أكن أعرف عنه شيئاً.

وعند لحظة معينة، قلت: «»أبو أنصار»، لماذا كنتَ معتقلاً؟».

أجاب: «أرجوك نادِني «جمال». كنا صغاراً وأغبياء وقمنا بأشياء غبية. لا يهم ما فعلناه الآن».

وقررت أن أترك الأمر لفترة. وكلما قدمني جمال لبعض الناس، قال الشيء نفسه في كل مرة: «إنه ابن الجنرال ماتي بيليد؛ الجنرال الإسرائيلي الذي قابل

(1) البرغوثي، اسم عائلة مشهورة في فلسطين؛ لم تكن هناك صلة قرابة قوية بين ذينك الرجلين.



جمال منصور، أو أبو أنصار، وأنا في المؤتمر السنوي للكفاح اللاعنفي المشترك في بلعين.

ياسر عرفات في تونس. ابنة أخته قتلت في هجوم 1997».

المجتمعان الإسرائيلي والفلسطيني متشابهان من نواحٍ كثيرة، ولكنهما يتماثلان عند نقطة معينة؛ ففي كلا المجتمعين هناك مجموعتان من الناس المبجلين؛ لا يمسهم أحد، وهم المحاربون وأهالي القتلى. أولئك الذين قاتلوا من أجل القضية، وأولئك الذين ضحوا بأحبابهم في سبيلها. فما ألقيت محاضرة ولا كتبت عن القضية الإسرائيلية الفلسطينية، إلا وقدمني الناس دائماً على أنني ابن الجنرال بيليد وخال صمدار الحنان؛ كما لو أن هذين العنصرين في قصتي الشخصية يمنحانني الحق في الكلام.

كانت ردود فعل الناس عندما يقدمني لهم جمال من قبيل: «بالطبع أذكر الجنرال بيليد، «أبو سلام»، لقد ساعدني كثيراً عندما أراد الإسرائيليون أن يبعدوني». وقد سمعت مثل هذا الشيء مرة بعد مرة أثناء اليوم من عدد كثير من الناس، وما زلت أسمع الشيء نفسه كل مرة أقابل فيها فلسطينيين من الضفة

الغربية.

أضاف جمال أثناء حديثه عني: «لقد أنهى هو وزميله السيد نادر البنا، مشروعاً لإحضار 1000 كرسي متحرك؛ 500 منها للإسرائيليين و500 للفلسطينيين». وعندما حـان وقـت الغـداء، أخذنـي جمـال للجلوس مـع أصدقائه. وبعد الغـداء، تناولنا القهوة، ومن ثم ذهبنا وجلسنا وحدنا مرة أخرى.

سألته: «جمال، لماذا كنت في السجن؟».

أجـاب: «كنـتُ صغيـراً وغبياً؛ كان عمـري 16 عاماً. في يوم من الأيام، جاء الجنود الإسرائيليون إلى قريتنا بلعين حيث نشأت، وفرضوا حظراً للتجول. ومعنى حظـر التجـول أن لا يسـمح لأي إنسـان بمغـادرة منزله. كان يومـاً حاراً، وكانت أختي الصغيرة تشعر بالعطش، وأرادت أمي أن تخرج لتحضر لها ماء نظيفاً ولكن الجنـود منعوهـا. فـي كل مرة حاولت فيها كانوا يقولون: لا. وتقدم الوقت خلال اليوم، وارتفعت معه الحرارة، وكان بجوار المنزل وعاءٌ وفيه ماء يستخدم لغسل الخضـروات. كان المـاء مخلوطـاً بالتـراب وفروع الأشـجار. أشـار الجندي إليه وقال: «هنا، يمكنها أن تشـرب هذا». وتوقف جمال للحظة ثم قال: «كانت فتاة صغيرة وعطشى، كيف تقول لا لشيء كهذا؟ وبالتالي أخذت أمي الماء، وحاولت أن تصفيه بقطعة قماش وأعطت الصغيرة إياه. ولكنها بكت لأنها لا تسـتطيع أن تشـرب الماء القذر. ولـم أسـتطع أن أجلس وأشـاهد مثل هذا الشيء. وقررت أن ألتحق بالمقاومة وأن أقاتل».

قلت له مصراً عليه: «ما الذي فعلته وأدى إلى اعتقالك؟». كان واضحاً عليه التردد في أن يخبرني بما حصل، ولكن رابطة كانت قد بدأت في التشـكل بيننا، وستصبح أكثر قوة على مر السنين.

أجـاب: «فـي إحـدى الليالـي أخبروني أن لدينا عملية. تم إرسـالي مع ثلاثة آخرين من الخلية في مهمة. وهي قتل جنديين إسرائيليين كانا يحرسان فرع بنك إسـرائيلي فـي رام اللـه». وبينمـا كنـت أسـتمع للقصـة، لم أتوقف عن التسـاؤل: لمـاذا حـرس ذانـك الجنديـان البنك في المقام الأول؟ وذهب ظني إلى أن ذينك الجنديين الشـابين كانا قليلي الخبرة، وتركهما المسـؤولون عنهما بلا اهتمام في

هذه الورطة؛ تماماً مثلما حصل معي مرات عديدة أيام كنت في الخدمة. وذهب جمال وثلاثة آخرون وقتلوا الجنديين.

سألته: «كيف قتلتوهما؟».

قال: «قام اثنان منا بأخذ الجندي الأول، فيما قام آخران بأخذ الجندي الثاني، وطعناهما بالسكاكين حتى الموت». لقد أحببت القوات الإسرائيلية في كل طفولتي، وفي فترة طويلة من حياتي بعد أن كبرت. وكنت كثيراً ما أقول إنني أستطيع أن أعد الرتب العسكرية قبل أن أعدد حروف الأبجدية. والآن، وأنا أسمع قصة قتل جنديين شابين يرتديان بزتين مماثلتين للبزة التي احترمتها كثيراً بالطعن حتى الموت، ما كان شعوري حيال ذلك؟ لقد شعرت بالحزن لأن شابين فقدا حياتيهما، وشعرت بالحزن لأن رجلاً طيباً وضع في موضع كان عليه أن يختار فيه إنهاء حياة رجل آخر. ولكني لم أشعر بأي شيء خاص تجاه ذينك الجنديين لأنهم إسرائيليان، أو لأنهما من جنود الجيش الإسرائيلي: إن الدولة التي خدماها انتُهِكَت سلطتها، وكان على ذينك الجنديين أن يدفعا حياتيهما ثمناً لذاك الانتهاك.

في النهاية، مات جنديان، وقضى الشباب الذين قتلوهما سنوات في السجن، ولم يستفد أحدٌ من كل ذلك. لم تتقدم بما حصل قضيةٌ، ولم يتحسن وضع إنسان واحد. وبالتأكيد، كانت الإنسانية تستطيع عمل شيء أفضل من ذلك.

بعد أن قام جمال بالهجوم قلّل من نشاطه لفترة، ثم عاد للعمل في تل أبيب، وتم القبض عليه بعد ستة أشهر. وصف المشهد قائلاً: «في البداية، قيدوني حتى أصبحت منحنياً تماماً، وكمموا فمي وأخذوني إلى منطقة بعيدة على شاطئ تل أبيب. ضربوني لعدة ساعات تحت غطاء الليل. وكان الوضع سيئاً جداً لدرجة أنني تمنيت لو ألقوا بي في البحر وتركوني أغرق». ويعاني جمال حتى الآن من خلل في أعصاب ظهره ورجليه جراء الضرب. في شبابه، كان جمال رياضياً، وكان يلعب الكاراتيه. واليوم، لا يستطيع أن يفعل شيئاً سوى المشي، ولا يستطيع المشي بسرعة. واصل جمال: «ثم فجرت السلطات الإسرائيلية منزل والدي». وتم الحكم على جمال بالسجن مدى الحياة، ولكن تم الإفراج عنه عام 1985 كجزء من صفقة تبادل الأسرى بين إسرائيل وأحمد جبريل: فقد تم الإفراج عن

150 أسيراً فلسطينياً مقابل ثلاثة جنود إسرائيليين تم أسرهم على يد الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين (القيادة العامة) بلبنان.

في لحظة الإفراج عنه، وبينما كان الأسرى يغادرون الحافلة، نادى ضابط إسرائيلي على جمال ووضعه في الحبس الإداري مباشرة. وهذا يعني أنه معتقل دون تهمة ودون محاكمة. وضعوه في الحافلة مرة أخرى، وأرسلوه إلى السجن ليقضي ستة أشهر أخرى. وقد فعلوا هذا به مرتين، مما يعني أنهم أضافوا سنة كاملة لمدة سجنه. قال: «أخبرت زوجتي ألاّ تنتظرني وألاّ تتوقع رجوعي. عندما أعود فستعرف عندما أصل، وإلا فإن الخيبة يصعب احتمالها».

أثناء تلك السنة في السجن، شاعت شهرة جمال بأنه رجل له شخصية خاصة، ويمكن الوثوق به. وقد وثق به حراس السجن والمعتقلون، وكثيراً ما كان ينسق بين الجهتين ويساهم في تأمين الهدوء.

وقد أصبحنا - جمال وأنا - صديقين منذ ذلك اليوم في بلعين. وما زال جمال منذ ذلك اليوم ذا دور فعال في تنقلي في الضفة الغربية. وعلى مر السنين، عرفني بأناس ممتازين كُثر؛ لولاه ما كنت لأعرفهم. كنا نمشي في رام الله، ونتوقف في محل أو مقهى أو متجر في زاوية من زوايا البلد. كان من آن لآخر يشير إلى صديق له ويقول: «كنا معاً في السجن». وبعد ذلك يقدمني لصديقه. بعد ذلك، كنا نجلس جميعاً ونشرب القهوة أو نتناول العصير، ولم أشعر يوماً بالراحة والترحيب من قبل الآخرين مثلما شعرت أثناء تلك اللقاءات العشوائية مع فلسطينيين قاتلوا ودفعوا ثمناً باهظاً من أجل الحرية. معظمهم واصل حياته بعد الخروج من السجن، ولم يفقدوا الرغبة في أن يروا أياماً أفضل. واستطاعوا أن يجسدوا شيئاً من الحياة الطبيعية في هذا الوجود المقيد والمزدحم الذي سمحت لهم إسرائيل به. وربما أمضينا نصف ساعة أو ساعة قبل أن نصل إلى منطقة أخرى للقاء أحد الأصدقاء.

في البداية، كنت أنتقل إلى رام الله بسيارة أجرة أعرف سائقها شخصياً، ولكن سرعان ما بدأت آخذ حافلة فلسطينية من القدس الشرقية. وبحكم معرفتي بجمال أصبحت أستريح لفكرة التنقل وحدي داخل الضفة الغربية؛ سائراً في

شـوارع رام الله وبيت لحم أو حتى في شـوارع مخيم الدهيشـه للاجئين. وبهذا الطريقة اكتشـفت جانباً جديداً من جوانب الحياة الفلسـطينية لا يمكن أن يتخيله معظم الإسـرائيليين؛ وهو الاعتياد النسـبي على الحياة. وذلك لأن تفاصيل حياتنا اليومية هي نفسها على الجانبين؛ انظر إلى عودة الأطفال من المدارس إلى البيت حين يتناولون الآيس كريم أو (المرطبات) ويضحكون، والفتيات المشغولات في إرسال رسائل من هواتفهن النقالة، والناس الذين يمضون في حياتهم كأي أناس في الدنيا. وهكذا أصبحت مقتنعاً - بشكل لا يمكن أن تصوره الكلمات ويفوق الأيديولوجيـات - بأننـا متشـابهون، وأننـا يمكن أن نزدهر معـاً بمجرد أن نتغلب على النظام الصهيوني الوحشي المرير. إن الفلسطينيين والإسرائيليين يمكنهم أن يخلقـوا واقعـاً سياسـياً جديـداً في إطار دولة واحدة، وديمقراطية واحدة يعيشـون فيها متساوين. كان ذلك افتراقاً واضحاً عما كان أبي يعتقده بشأن الحل، وبالفعل كان افتراقاً عما يعتقد الجميع أنه الحل، ولكنه يأخذ بعين الاعتبار جوانب حياة الفلسطينيين التي لم يكن أبي يدركها.

وبفضـل جمـال، تعلمـت كثيـراً عـن حيـاة الفلسـطينيين فـي السـجن، وهو موضوع يتجاهله الإسرائيليون والعالم الخارجي. لقد وصف لي بالتفاصيل نظام المعتقلين في تدريب النزلاء الجدد والحفاظ على النظام. قال: «السجناء القدامى مسـؤولون عن السـجناء الجدد الأصغر سـناً. يعطونهم كتباً للدراسـة، ويعلمونهم نظام الحياة في السجن. كان لدى سجناء فتح - وهم الأغلبية في السجن - نظام حياة يومي، وقد وجه هذا النظام سلوكنا العام، كما منحنا هيكلية». كان السُباب والمشـاحنة ممنوعين. وعندما كان أحدهم ينتهك القانون، فإن السـجناء أنفسـهم يعقدون محاكمة وينزلون العقاب بالمخالف.

وتذكر جمال قائلاً: «كان هناك مرة سـجين متسـرع، وذهبت وتحدثت معه، وطلبت منه أن يلتزم الهدوء، كما أخبرته أن الاقتتال غير مسموح، وكان في حاجة إلى أن يفهم الواقع وينسجم مع النزلاء الآخرين. ولكنه لم يستمع». وتقاتل ذلك السـجين مع سـجين آخر وسـحب عليه السكين. أخبرني جمال أن العقوبة كانت كسر أصابعه التي كانت تقبض على السكين؛ إصبعين أو ثلاث. قال جمال: «كان

ذلك مؤلماً، ولم يرد أحد أن ينفذ الحكم. ولكن سلطات السجن لم تكن تهتم بنا، وكان علينا أن نحافظ على النظام، أو نغرق في فوضى كاملة».

كانت لدى السجناء جلسات تعليم يومية فُرضت من قبل السجناء أنفسهم. وكان هناك وقت للتمرينات الرياضية، ووقت آخر للمحاضرات، وثالث للاجتماعات السياسية. أخبرني جمال: «أجرينا الانتخابات بشكل منتظم من أجل اختيار ممثلين عنا يقوم كل منهم بالدور المنوط به في السجن. ثم أجرينا تصويتاً للتقرير في قضايا تختص بحياتنا وبالحياة السياسية الفلسطينية خارج السجن».

الدكتورة مايا روزنفيلد تعمل باحثة في معهد هاري ترومان في الجامعة العبرية، وهي خبيرة في التاريخ السياسي والاجتماعي للفلسطينيين داخل فلسطين وفي الشتات. كتبت تقول:

ما من واحدة من المؤسسات والحركات التي اكتسبت شعبية في السبعينيات والثمانينيات... كانت قادرة على أن تدير برامج شاملة مستدامة مثل المؤسسات التي تبنتها مؤسسة السجناء.

وطبقاً للدكتورة روزنفيلد:

كان الإسهام الرئيس للحركة الأسيرة... في مجال التعليم. فقد تم إدخال برامج تعليمية... (مثل التاريخ واللغات والعلوم) وبرامج دراسة النظرية السياسية والإيديولوجيا من خلال ترويج برامج يومية وفرضها، حيث توزع عليها الأوقات لكل حقل من حقول الدراسة، والقراءة الموجهة، وحلقات النقاش... والاجتماعات السياسية لمناقشة الشؤون الجارية داخلياً وخارجياً وهكذا[1].

درس المعتقلون العبرية والتاريخ الإسرائيلي، وتطور الصهيونية، والحركات القومية الأخرى. أما السجناء الذين قابلتهم – بمن فيهم جمال – فكانوا يتحدثون العبرية والإنجليزية بطلاقة، وكانوا على اطلاع على كتابات الكتاب الإسرائيليين

(1) مايا روزنفيلد، «مركزية الحركة الأسيرة» في (كتاب) التهديد: الأسرى السياسيون الفلسطينيون في إسرائيل، تحرير، عبير بكر وعنات مطر (لندن: بلوتو برس، 2011)، 11.

واليهود أكثر من معظم الإسرائيليين الذين أعرفهم. وأخبرني أسير سابق قائلاً: «كان الأسرى يُدخلون الكتب إلى السجن من الخارج. ومن وقت لآخر، كانت سلطات السجن تفتش غرفنا وتصادر الكتب. وعندما كان هذا يحصل، كان أولئك الذين قرؤوا هذه الكتب يقومون بتعليمها شفهياً لمن لم يقرأها من السجناء.

بعد الإفراج عن جمال، عمل مترجماً في مقر منظمة التحرير في القدس، المعروف ببيت الشرق، وكان رئيسه فيصل الحسيني، وهو واحد من القادة الفلسطينيين المثيرين للإعجاب، وابن إحدى العائلات النبيلة في القدس؛ إن جاز التعبير. فهو ابن عبد القادر الحسيني، القائد الفلسطيني الذي قُتل في معركة القسطل عام 1948. أغلقت إسرائيل بيت الشرق في ما بعد لأن نشاطاته اعتبرت غير قانونية. وقد طور جمال لغته العبرية هناك، وطور مهارات ممتازة كمترجم.

للأسف، لا يسمح لجمال بدخول إسرائيل تحت أي ظرف. ولذلك منذ عدة سنوات، ونحن ننتهج النظام نفسه. أتصل به من القدس بمجرد أن أصل إلى بيت والدتي، ونتفق على وقت اللقاء، ثم أركب الحافلة من القدس الشرقية إلى رام الله؛ حيث يكون جمال في انتظاري. عندما نلتقي نتعانق ونتبادل القبل على الخدين. ولأننا صديقان حميمان لا تقل القبل عن أربع قبلات. ثم يأخذني جمال إلى أماكن ألتقي فيها فعاليات يَعتقدُ أنها مهمة، وأناساً مهمين أيضاً.

ظلت القصص عن حياة المعتقلين تشدني. وقد ذكرتني تلك القصص بالقصص التي رواها نلسون مانديلا في مذكراته **الطريق الطويل من أجل الحرية**، وأردت أن أعرف أكثر. عرفت أن بسام عرامين أيضاً تم اعتقاله، وأنه كان من قيادات فتح في السجن. التقيت «بسام» عدة مرات مع جمال، وأصبحت أعرفه أكثر مع الوقت. كان بسام وابن أخي إلك مشتركين معاً في **مقاتلون من أجل السلام**، وعلى مر السنين أصبحت العلاقة بين عائلتينا قوية.

لن أنسى أول مرة رأيت فيها «بسام». كانت في الرام، وهي بلدة بين رام الله والقدس، وكان هناك تقريباً 100 شخص، وكان معظمهم جنوداً إسرائيليين سابقين ومقاتلي مقاومة فلسطينيين سابقين. وكانوا في مرحلة تأسيس مؤسسة تكرس نفسها للمصالحة تحت اسم **مقاتلون من أجل السلام**. ولاحظت رجلاً

فلسطينياً عمره يقارب 35 عاماً، ولديه طرف بلاستيكي ثقيل يتحرك في المكان، وكانت علامات الجدة تبدو عليه. وتساءلت في سرّي: ما الذي يجعل هذا الرجل مميّزاً؟ هل كان طرفه، أم مظهره، أم حقيقة أنه يلبس بذلة بصورة رائعة، ويضع ربطة عنق في وسط حشد معظمهم يرتدي بنطال جينز وتي شيرت؟ عندما كان الجميع جالسين، ذهب إلى رأس الطاولة وجلس.

عندما تحدث، عبر عن نفسه بالعربية، وقام فلسطيني آخر من المجموعة بالترجمة الفورية إلى العبرية. وعند نقطة معينة، توقف بسام عن الحديث، ونظر إلى المترجم بحزم، وقال له شيئاً بالعربية. وتبين أن المترجم لم يقل بالضبط ما أراد بسام قوله. اعتذر المترجم، وقام بسام بعملية التصحيح؛ وذلك بإعادة نقطته بعبرية سليمة. تحدث بسام عن الحاجة إلى كفاح متواصل لا يلين ضد الاحتلال الإسرائيلي وضد معاملة حكومة إسرائيل الإجرامية للفلسطينيين، وقد عبر بوضوح تام عن اعتقاده بأن الكفاح يجب أن يكون من خلال وسائل لا عنفية.

تبين في ما بعد أن الطرف الاصطناعي كان نتيجة لمرض شلل الأطفال الذي أصابه في الصغر. قال بسام: «عندما كنت طفلاً ناشئاً كان في الفصل الذي أدرس فيه أربعة أطفال مصابين بشلل الأطفال، وانتهى بهم الحال بوضع طرف اصطناعي أو بنوع من الإعاقة. كنت أنظر إليهم وأقول لنفسي: أي حزن يجثم على صدورهم وهم يستخدمون أطرافاً مرعبة! لم يخطر ببالي أنني يمكن أن أستخدم طرفاً أيضاً».

عندما أتيحت لي الفرصة، سألته عن سبب اعتقاله وعن حياته في السجن. أخبرني: «كنا نسمي أنفسنا مقاتلي حرية، وكان العالم يسمينا إرهابيين. بدأنا بإلقاء الحجارة والزجاجات الفارغة على الجيش. وذات مرة، عثرنا على قنابل يدوية وقررنا أن نلقيها على جيبات الجيش الإسرائيلي. انفجرت قنبلتان ولم تكن هناك إصابات. طاردنا الجنود، وحاولت أن أجري، ولكني لم أستطع الركض بسرعة بسبب الطرف الاصطناعي الذي أضعه، فأمسكوا بي. ولذلك في عام 1985، وقد كان عمري حينها 17 عاماً، حُكِمَ علي بالسجن لمدة سبع سنين.

في السجن استقبلني السجناء الآخرون كالأبطال، ولكن سجانينا علمونا

كيف نواصل الكره والمقاومة. في 1 أكتوبر 1987 كنت مع 120 سجيناً، وكنا كلنا مراهقين ننتظر أن نذهب لغرفة الطعام عندما سمعنا صوت صافرة الإنذار. وظهر حوالى مائة جندي مسلح، وأمرونا أن نتعرى، ثم ضربونا حتى لا نستطيع الوقوف. تعرضت للضرب والحجز أكثر من الجميع. ما آذاني أكثر من أي شيء آخر هو أن الجنود كانوا يبتسمون طوال الوقت».

قضى بسام سنوات كقائد سري في السجن، وشكت سلطات السجن أنه كان له ضلع في نشاطات سياسية وغير قانونية. ولذلك نقلوه من سجن لسجن كي يروا إن كان هذا يؤثر على موقعه القيادي. قال: «كانوا دائماً يسألونني إن كنت القائد، وكنت أجيب بالنفي. ما أنا إلا شاب صغير ولدي طرف؛ أي قائد يمكن أن أكون؟ لم يظهر علي أي تغير في العاطفة عندما كانوا ينقلونني من سجن لسجن، ولم أقل شيئاً. وأخيراً، استسلمت سلطات السجن وأرجعتني إلى الزنزانة الأولى».

توقف عن الحديث برهة ثم قال بينما كنت أستمع لكل كلمة يقولها أثناء عشاء في بيتي: «صدق أو لا تصدق... في ذلك اليوم الذي أرجعوني فيه إلى زنزانتي الأولى، كنت أكثر سعادة حتى من اليوم الذي أطلقوا فيه سراحي من



عبير ابنة بسام، عمرها 10 سنين.

السجن». كان قد أخفى كل مراسلاته مع السجناء وقيادات السجناء تحت بلاط الزنزانة الأولى التي أعادوه إليها. لدى بسام وجمال هدوء وصبر كبير لم يفشل يوماً في إدهاشي. في لقاءاتهما مع جنود إسرائيليين، يحافظون على هدوئهما ويخوضان معهم في نقاش من ذلك النوع الذكي؛ لدرجة أن أولئك الجنود الشبان ربما ما تخيلوا يوماً أنهم قد يدخلون في نقاش مثل ذلك مع فلسطينيين.

إن اهتمامهما بالآخرين وتفهمهما لمشاعرهم أكبر بكثير من أي غضب يحملانه في ثناياهما. كلاهما يُظهران رغبة في التواصل ومساعدة «الجانب الآخر» كي يخترق حجاب الخوف؛ الخوف الذي يعرفان أن هؤلاء الجنود الشبان يحملونه وهم يجلسون في مواقعهم بانتظار عملية التفجير التالية.

كانت أكثر لحظات بسام إيلاماً بعد سنتين من معرفتي به. ففي 16 يناير 2007، وبينما كانت ابنتا بسام – عبير وعمرها 10 سنوات، وعرين وعمرها 12 سنة – في طريقهما إلى البيت من المدرسة، استهدف جندي إسرائيلي عبير وأطلق النار على رأسها. تصف عرين الحدث في ما بعد، وكيف أن عبير طارت من يدها ووقعت على الأرض وهي تنزف.

لا أتذكر كيف تلقيت الخبر، ولكني كنت أظن أن عبير أصيبت إصابة بالغة، وأنه كان هناك أمل. مباشرة هاتفتُ «بسام» في المستشفى وسألته عن أحوال عبير.

قال بهدوء: «ماتت».

غشيتني موجة هائلة من الحزن، ولم أدرِ ما أفعل أو أقول. ومرة أخرى وجدت نفسي محجوزاً وراء المحيطات، بعيداً عن أناس أحبهم في لحظة أحتاج فيها إلى أن أكون إلى جانبهم.

الفَصْل الثالِث عَشر

التحدي

كان الجمعة 10 ديسمبر 2010 يوم ذكرى ميلادي الـ49، وكنت في زيارة لبيت خالد في بيت أمر لعدة أيام. ذهبت إلى هناك كي أرى الاحتلال من الداخل، وقد استضافني خالد وعائلته بحفاوة طوال الأسبوع. قال علي إنه يريد أن أصحبه إلى النبي صالح، وهي قرية فلسطينية حيث يتم تنظيم احتجاجات أسبوعية بعد صلاة الجمعة. شاركت في احتجاجات في بلعين كما شاركت في مناطق أخرى، ولذلك كنت سعيداً بالذهاب. خرجنا - علي وأنا - بالسيارة من بيت أُمر إلى النبي صالح التي تقع إلى الشمال من رام الله.

لقد تم الاستيلاء على ما يقارب نصف أراضي النبي صالح الصالحة للزراعة، وذلك من أجل بناء مستوطنة إسرائيلية اسمها هالاميش. بالقرب من القرية هناك نبع اسمه عين الكوز. في عام 2009، استولى المستوطنون على النبع والمناطق المحيطة به، ومنعوا الفلسطينيين من الوصول إليه. ومنذ ذلك الحين، يقوم مواطنو النبي صالح وقرية دير نظام المجاورة بالاحتجاج على سرقة أراضيهم، وضد الاحتلال على العموم، ظهر كل جمعة.

أقرب طريق من بيت أمر إلى النبي صالح يمر عبر القدس. وتقع بيت أمر بالقرب من الخليل جنوبي الضفة الغربية، كما تقع النبي صالح بالقرب من رام الله في وسط الضفة الغربية. ولكن معظم فلسطينيي الضفة الغربية لا يسمح لهم بدخول المدينة أو حتى بالمرور منها، ولذلك إن كنتَ فلسطينياً، أو تركب سيارة مع فلسطيني فسوف تقضي وقتاً طويلاً إذا أردتَ الانتقال من بيت أمر إلى النبي صالح. كان علينا أن نأخذ طريقاً بديلاً؛ وهو طريق ملتوٍ يسير باتجاه الشرق عبر الصحراء. كما أنه طريق شديد الانحدار ومتعرج، يمر من وادي نار في الصحراء

اليهودية، ثم يتعرج عائداً إلى الشمال نحو رام الله بمجرد أن تعبر القدس. وقد أخذت منا تلك الرحلة تقريباً ساعتين، وهي لا تستغرق أكثر من 30 أو 40 دقيقة. في يونيو 2010 كتب مراسل أسوشويتد برس، بن هبارد عن تلك الرحلة قائلاً: «وادي النار، مكان لا تعمل فيه الكوابح، وتفسد فيه القوابض. ويتوقف فيه المحرك ويموت الناس. إن الانتقال بين أسوار الوادي هبوطاً وصعوداً من أسوأ الرحلات التي على الفلسطينيين أن يقوموا بها كي يلتفوا حول البلدات، ونقاط الجيش والطرق السريعة الأنيقة التي بنيت للإسرائيليين»[1].

ولكن الأمر كان يستحق المحاولة. تقع قرية النبي صالح في منطقة محاطة بتلال متدرجة الجوانب وحقول الزيتون. وهي مثال لكل شيء جميل في الأراضي الفلسطينية. وعندما تقترب من القرية، تمر بمدرسة عسكرية ابتدائية يهودية تمهيدية، ومن ثم ترى مستوطنة هالاميش، وكلتاهما يسوؤك أن تراهما. وقد بنيتا دون اهتمام بالمشهد العام للمكان.

علي مصاب بمرض التأخر عن المواعيد - حتى بمعايير الفلسطينيين - وبالتالي، رغم أنه يقود سيارته كالمجنون، فقد وصلنا إلى قرية النبي صالح بعد أن بدأ الاحتجاج، وقد أغلق الجيش الإسرائيلي الطريق الرئيس للقرية. شعرنا بالانزعاج. إن «علي» جاد وشغوف في ما يتعلق بتطوير المقاومة اللا عنفية في الضفة الغربية. ولكن، كثيراً ما يكون أكثر عداء لنفسه، وكان منزعجاً جداً من نفسه بسبب تأخره، فقلت له بالعبرية: «كول أكافا ليتوفا».

رد قائلاً: «لدينا القول نفسه في العربية: «كل تأخيرة فيها خيرة». ثم تذكر أن هناك مدخلاً خلفيًّا للقرية يبعد 15 دقيقة بالسيارة.

عندما وصلنا إلى الجانب الآخر من القرية، كان الجيش قد وضع حاجزاً هناك أيضاً. وأشار ثلاثة جنود إلينا بالوقوف. أظن أنهم احتياطيون لأنهم كانوا كباراً في السن ولم يهتموا بمظهرهم.

قالوا: «هذه منطقة عسكرية مغلقة. عليكم أن ترجعوا». بالفعل!

---

(1) بن هبارد، «الشوارع المنفصلة تدفع بعرب الضفة الغربية إلى الشوارع الالتفافية»، صحيفة الجارديان، 13 يونيو 2010. مؤرشفة على: http://www.guardian.co.uk/world/feedarticle/9215464

خرجنا – علي وأنا – من السيارة كي نتحدث معهم. كان من الواضح أنهم جنـود احتياطيـون، والضابـط المسـؤول عنهم – وهـو قائد احتياطي – كان رجلاً قصيراً وبهي الطلعة وله لحية. أخبرنا أننا لا نستطيع الدخول.

حاول علي معه قائلاً: «ما الأمر؟ نحن فقط نريد أن نزور أصدقاءنا، ونحن دائمـاً نأتـي إلـى هنـا، ولم يوقفنا أحدٌ من قبل». وابتسـم الضابط وقال: «أنتم لن تذهبوا إلى هناك على أي حال، إنها منطقة حرب».

قلت مسـتغرباً: «حرب! أتسـمّي هذه حرباً؟ الحرب تعني جيشـين مشتبكين في معركة. هل هناك جيشٌ آخر؟ هل لديهم دبابات وطائرات؟ هل هم مسلحون جيداً؟ بالتأكيد أنت لا تشير إلى الصبيان الذين يلقون الحجارة على الجيش». ولم أنتظر حتى يرد، وأضفت: «إلى جانب ذلك، لو لم تكن هنا، لما كان هناك إلقاء حجارة، وكانوا سيقومون بالمسيرة رافعين أعلامهم ثم سيذهبون إلى بيوتهم».

بـدأ الجنـود الآخـرون يتجمعون حولنـا، وكلهم احتياطيـون وأقل صبراً من ضابطهم المسؤول. قال أحدهم: «هذه منطقة عسكرية مغلقة، وأنت تنتهك أوامر الضابط المسؤول القاضية بالمغادرة. هل ترفض أن تطيع الأوامر؟».

أجبته وأنا أشير إلى الضابط الذي كان أكثر شباباً ووداً بطبعه، إذ كان ذلك من مصلحته: «أعتقد أنه هو المسؤول، بالإضافة إلى أنه ليس لك أو لمسؤولك سـلطة أن تعلـن أن هـذه المنطقـة مغلقـة. هذه أرض فلسـطينية، وعليـه فلماذا لا تذهبـون جميعكـم إلـى بيوتكـم وتتركوننا نحن وأهالي قريـة النبي صالح نمارس حقنـا فـي الاحتجاج بهدوء؟». وسـألني الضابط بنبرة مهذبـة: «ولكن، لماذا أنت هنا؟ وعلامَ تحتج؟».

قلـت لـه: «نحـن هنـا لنحتـج على الاحتلال وسـرقة أراضي هـؤلاء الناس. ولمـاذا أنـت هنـا؟». قـال: «هذا المـكان لا يختلف عن تل أبيب أو أي مكان في إسرائيل. يسمح لليهود بالعيش هنا إن أرادوا، وعلينا أن نحافظ على أمنهم».

واستمر هذا الحوار لبعض الوقت، حتى بدا في النهاية أن المحادثة ستصل إلى نقطة غليان. وبدأ علي يتحدث إلى الجنود الآخرين، وأشـار إلى أن الجنود الإسرائيليين قتلوا أخاه على نقطة تفتيش شبيهة بهذه. وقال أحد الجنود: «حسناً،

إن كنا قد قتلناه، فلا بد أنه عمل ما يستحق عليه الموت».

حفزني الموقف على الاستشهاد بما حصل في جنين أو غزة وسرد آلاف الشواهد الأخرى حيث قتل الجنود الإسرائيليون عدداً لا يحصى من الأبرياء بلا سبب وجيه. ولكن، لم يكن ذلك المكان أو الزمان مناسباً. كان هدفنا هو الذهاب إلى قرية النبي صالح، ولم أثق بأنني سأحافظ على هدوئي وأسيطر على غضبي. واقترحت على علي أن نغادر. إذ لم أرد أن تحصل أي مشاكل مع هؤلاء الجنود؛ لأن خيار الدخول إلى القرية ما زال في المُتناول. وبينما كنا نتجه إلى السيارة، وقفت ونظرت إلى الجنود - وقد كانوا سبعة أو ثمانية - وأشرت إلى علي وقلت: «أنتم لا تعرفون من يكون هذا الرجل. ولكن، صدقوني عندما أخبركم أنكم سوف تجثون يوماً ما على ركبكم لتلتمسوا منه العفو».

ركبنا السيارة، واستدرنا. قدنا السيارة حوالى 300 ياردة، فأصبحنا بعيديْن عن أعين الجنود. أوقفنا السيارة بين أشجار الزيتون، ومشينا من خلال حقول الزيتون باتجاه القرية تحت مرمى بصر الجنود ولكنهم لم يرونا. مشينا في صمت لمدة عشر دقائق حتى رأينا بسام التميمي ينتظرنا. عرض بسام 5ً5 إنشات، وشعره يميل للشيب قليلاً، وله شارب، وعينان زرقتهما خفيفة. مظهره وسيم، وكان يلبس بنطال جينز وسترة جلدية. كان مهذباً، وأدهشني مدى الهدوء الذي يتمتع به. قدمنا علي لبعضنا ورجعنا جميعاً معاً باتجاه الشارع، ومن ثم إلى القرية.

عندما دخلنا القرية رأينا مجموعة من جنود الماغفا[1] الذين يطلقون قنابل الغاز المسيل للدموع من راجمات هائلة. لم ينتبهوا إلينا بينما كنا نمشي بجانبهم، وأخذنا الاتجاه الأيمن وصعدنا التلة حتى وصلنا إلى بيت بسام.

أخبرني علي أنهما يعرفان بعضهما من أيام السجن، وأن «بسام» كان شخصية لها احترامها الكبير في القرية وفي فلسطين على وجه العموم. فهو هادئ ورابط الجأش. ينظر نظرات رجل لا يمكن إغضابه بسهولة. جلسنا في شرفة بيته الأمامية وتناولنا الشاي بينما كان أطفاله الصغار يلعبون خارج البيت.

يقع بيت بسام على تلة، ولذلك كنا نستطيع رؤية القرية التي يسكنها حوالى

(1) الماغفا اختصار لـ «مِشمَار هاغفول» التي تعني «حرس الحدود» بالعبرية.

500 نسمة قرروا أن يقولوا ما يؤمنون به. في الشارع القذر القريب مباشرة من المنزل، كان هناك أربعة جنود احتياطيين، وكان أحدهم ضابطاً، وكانوا قد نصبوا للتو حاجزاً طياراً من الحجارة الكبيرة التي جمعوها. وبعد أن أنهوا عملهم، اقترب جيب عسكري يريد أن يمر، ولذلك فككوا الحاجز حتى يمر الجيب. وبينما كانوا ينحنون ليزيلوا الحجارة، تحركت بنادقهم إلى الأمام وضربت رؤوسهم. كان المنظر بائساً، فلم يكونوا أولئك الجنود البواسل الذين يتوقع المرء أنهم ينتمون لجيش يدعي أنه واحد من أقوى الجيوش في العالم. بذلت جهداً هائلاً لكي أضبط نفسي وأبقى هادئاً ولا أخبر الجنود كم بدوا أغبياء بتصرفهم هذا. ولكن، بما أنني ضيف، لم أرد أن أتسبب بأي متاعب.

دعانا بسام مباشرة لبيته لنتناول الطعام. جهزت لنا أمه بيضاً وخبزاً طازجاً، وبعض الأعشاب الطازجة وسلطات. وقدمها لنا بسام. وعندما جلسنا للأكل، رن هاتف بسام النقال. تبسم علي وهو يستمع لحديث بسام على الهاتف. سألت علي عما يضحكه. كان قائد مجموعة الماغفا على الخط. قال علي: «إنه يطلب من بسام بالعربية أن يبلغ الشباب أن يوقفوا المظاهرة لأن اليوم يوم جمعة، وهو يريد أن يعود إلى البيت كي يبدأ عطلة نهاية الأسبوع».

قائد عسكري إسرائيلي يتصل بقائد مقاومة فلسطيني، ويتوسل إليه كي يوقف المظاهرة ليذهب إلى بيته ويتناول عشاء الجمعة؟ أي بيت مجنون هذا؟

واتصل القائد عدة مرات، وكان بسام يرد بهدوء: «عندما يغادر الجنود القرية ستتوقف المظاهرة، وليس العكس».

عندما انتهينا من الأكل نزلنا باتجاه الشارع الرئيس، وكان هناك عدد كبير من الناس يشاهدون المظاهرة، وكان من بين المتفرجين أطفال صغار كانوا يملؤون جيوبهم بالحجارة. كان الأطفال الأكبر سناً يلقون الحجارة وكان الجنود يطلقون النار. في الغالب، كانوا يطلقون الغاز المسيل للدموع، ومن آن لآخر كنا نسمع الرصاص الحديدي المكسو بالمطاط والذخيرة الحية. وعند لحظة معينة، التقط شابٌ فلسطيني قنبلة غاز مسيل للدموع أطلقها عليه الجنود وأعاد رميها على جنود الاحتياط بينما كانت تنفث الغاز. أصيب الجنود الإسرائيليون بالرعب،

وأصبحوا يركضون في كل الاتجاهات ويتقافزون فوق الصخور، وبنادقهم تتدلى من أكتافهم وقبعاتهم تتقلقل على رؤوسهم. قلت في سرّي: الحمد لله، لأنهم لا يواجهون جيشاً حقيقياً.

وكنت أستطيع أن أسمع بوضوح صوت طلقات من مكان أعلى منا. ونظرت فلاحظت الضابط المسؤول، وهو مقدم، واقفاً على بعد عدة مئات من الأقدام. صرخت عليه قائلاً: «هناك أطفال في كل مكان! أوقف إطلاق النار!». نظر إلي مدة دقيقة كاملة، ثم نظر بعيداً وبدأ المشي تجاه الجيب.

في تلك اللحظة، جرت من أمامي امرأة تضع حجاباً وترتدي بنطالاً وقميصاً أسود. كان لديها عزم ونظرة مركزة، وكانت تحمل حجراً كبيراً في يدها. كانت تجري باتجاه المقدم، وألقت الحجر عليه وهو يبتعد عن المكان. وبينما كان الحجر يطير باتجاه مؤخر رأس المقدم، توقف قلبي. لئن ضرب الحجر رأس المقدم، فإن العواقب ستكون وخيمة. ولسوف يكون ذلك فرصة ذهبية للجنود الذين سيطلقون النار على كل من يرونه. لحسن الحظ، أخطأ الحجر رأس المقدم ببضعة إنشات. وشعرت بالراحة والغضب في الوقت نفسه. وصرخت: «على الأقل، أخرجوا الأطفال من هنا». ومع كل تلك الضجة، لم ينتبه المقدم ولم يشعر أنه كان في خطر. فقد ذهب إلى الجيب، وجلس فيه لفترة، وبين الفينة والأخرى كان يخرج من الجيب ويطلق بعض الطلقات في الهواء ثم يعود للجيب. وظللت أنادي عليه وعلى الآخرين أن يوقفوا إطلاق النار. ثم تحركت الجيبات بسرعة وهي تجوب الشارع ذهاباً وإياباً، وكانت الحجارة تنهال عليها مثل المطر.

نظرت إلى علي أثناء كل هذا وقلت: «ألا تحب أن تلقي الحجارة على الجنود؟». ومثل الكثير من الفلسطينيين الذين التقيتهم، لا يحبذ علي إلقاء الحجارة، فهي «لا تخدم سوى الاحتلال»، حسب قوله. ولكن على عكس عدة قرى حيث كان إلقاء الحجارة غير مرحب به، فإن شباب القرية لم يقتنعوا بعدُ بالجانب اللا عنفي من الاحتجاج. فقد كانت ردة فعلهم على وجود الجيش في قريتهم بإلقاء الحجارة. وبصراحة، لم أستطع لومهم. كان الوقت يتأخر، وكان

بانتظارنا سفر طويل إلى بيت أمر. ولم يبدُ أن هذه المظاهرة قد تنتهي قريباً، ولذلك غامرنا بالعودة، وكانت الحجارة وقنابل الغاز المسيل للدموع تتطاير من فوقنا وفي اتجاهنا، حتى وصلنا السيارة التي كانت تنتظرنا في حقل زيتون. لم أشعر بالارتياح في حياتي مثلما شعرت عندما دخلنا السيارة وارتحلنا.

لا أستطيع أن أتخلص من الصور في رأسي: الجيب الذي كان يتحرك في القرية الصغيرة محدثاً ضوضاء، والحجارة تنهال على من فيه كالمطر. وسواء أكان ذلك صواباً أم خطأ، شجاعة أم تهوراً، فإن علي أن أعترف لنفسي على المستوى الشخصي ببساطة أنّ رؤية الجيب وهو يتلقى الحجارة جعلتني أشعر بالارتياح. لم أشعر بأي تعاطف مع الجنود من أي نوع. وبينما كنا نبتعد، شعرت حقاً أنني أحتاج أن أشرب البيرة. وسألت «علي» إن كان بالإمكان أن نقف في مكان ما ونشتري البيرة لأنهم لا يبيعون البيرة في بيت أمر، ويلقى الناس الشرب بالعبوس في كثير من مناطق الضفة الغربية. ولذلك وقفنا في محطة بنزين في طريقنا، وجلسنا بعض الوقت حتى أشرب البيرة. وعندما عدنا إلى بيت أمر في ذلك المساء، ذهبنا إلى شقة يوسف. وكان يوسف الأخ الأكبر لخالد وعلي الذي قتله جندي على نقطة تفتيش في بيت أمر. وكانت أرملة يوسف وأطفالها وأخته الكبيرة سهام هناك. تناولنا العشاء، ثم شربنا الشاي وشاهدنا أفلاماً موسيقية على التلفاز، واسترحنا بقية المساء. كنت مرهقاً من الرحلة الطويلة وأحداث اليوم. ولكن، كانت هناك أشياء أخرى قادمة.

قبل المجيء إلى بيت أمر، علمت أن هناك مظاهرة أسبوعية في بيت أمر أيضاً. وفي تلك اللحظة، كنت قد عرفت أن هناك حوالى عشر بلدات وقرى التحقت بحركة المقاومة الشعبية. وشعرت برابطة قوية مع بيت أمر؛ وذلك بسبب الرابطة العائلية مع عائلة «أبو عواد»، ولأنني شخصياً أحببت «خالد» و»علي» وعائلتهما، ويؤذيني جسدياً ما يحصل لهم؛ ولذلك أردت أن أشارك في الاحتجاج.

كان اليوم التالي لرحلة النبي صالح شديد الرياح، وكان يوم سبت عاصفاً. أخذني خالد للقاء يونس؛ وهو واحد من الرجال الذين يحركون المقاومة الشعبية.

ومشينا - يونس وأنا - من بيته إلى الشارع الرئيس محاولين أن نبدو عاديين حتى لا نلفت انتباه الجنود الذين كانوا يديرون نقطة التفتيش الرابضة في مدخل البلدة. واصلنا المشي حتى وصلنا إلى حقل، حيث التقينا حوالى عشرين محتجاً؛ منهم إسرائيليون وفلسطينيون ودوليون، وآخرون جاؤوا من مناطق أخرى من البلاد. وبدأنا المشي كمجموعة باتجاه الشارع الرئيس المؤدي إلى الخليل، بعضنا كان يحمل أعلاماً، وكان أحدنا يحمل جهازاً مكبراً للصوت. أخبر يونس الجميع بالإنجليزية أننا سنقف على جانب الطريق كي نسبب الإزعاج للسيارات المارة، وأن هذا الاحتجاج غير عنفي بالكامل، ولذلك يمنع رمي الحجارة تحت أي ظرف.

وصلنا إلى الشارع الرئيس، وفي أقل من دقيقتين من البدء بالمشي ظهر بحر من الجنود المدججين بالسلاح كما لو أنهم جاؤوا من تحت الأرض. وسمعت رقيباً ينادي على رجاله قائلاً: «اصطفوا الآن، أسرعوا». وفي وقت قصيرٍ جداً، كان هناك صفان من الجنود يدفعوننا، وكان عدة ضباط يتراكضون كما لو كنا في ميدان قتال. وبدأت مباشرة أتحاور مع الجندي الذي أمامي، وأصررت على أن يتوقفوا عن دفعنا وأن يتركونا، ولكن دون فائدة. وبدأت أخبرهم أن ما يفعلونه ليس قانونياً، ثم بدأت أسخر منهم لأنهم جاؤوا لابسين عدة الحرب من أجل أن يدفعوا مجموعة من محبي السلام الذين يرفعون أعلاماً. وبدأ صوتي يرتفع، كما أصبح الدفع من قبل الجنود أكثر شدة. وسمعت أحد الضباط يقول: «أخرجوه من هنا» - وكان برتبة رائد - يصرخ بأعلى صوته، بينما قام جنديان بسحبي من القميص ودفعي بعيداً عن بقية المجموعة، ووضعاني إلى جانب جيب عسكري. وقفت هناك لفترة وأنا أشاهد الجنود الذين واصلوا دفع المحتجين مرة في اتجاه وأخرى في اتجاه آخر. وأخيراً، بدأت بالسير باتجاه المجموعة بينما كان الجنود يدفعونهم إلى شارع مليء بالحركة، وإلى شارع في الأعلى ومنحدر في اتجاه الحقل حيث التقينا في البداية. وبمجرد أن بدأت بالاقتراب من المجموعة، لاحظت عدة رواد من الجيش. وعلى بعد مسافة معينة، استطعت أن أرى قائد الكتيبة؛ وهو مقدم كان مهاجراً أثيوبياً صغير الحجم، وتذكرت قصة قرأتها عنه في

صحيفة إسرائيلية. فقد تم اعتباره قصة نجاح، لأنه واحد من المهاجرين الأثيوبيين القلائل الذين نجحوا في بيئة الجيش الوحشية. بدأت أنادي عليه وأخبره أنه مجرم، وأنه بالإضافة إلى الضباط الآخرين عارٌ على دولتهم وعلى اليهود في كل مكان. وجاءني الرائد الذي أمر بنقلي أول مرة وجذبني بنفسه صارخاً: «إنه معتقل بسبب التحريض. أخرجوه من هنا بحق السماء، الآن». ومرة أخرى، جاء جنديان وسحباني إلى الجيب، ولكنهما هذه المرة قيّداني. وعند نقطة معينة، كان هناك جندي شاب أشقر يرتدي قناعاً سماوياً يغطي وجهه. اقترب هذا الجندي مني فقلت له: «الجبناء والمجرمون دائماً يغطون وجوههم عندما يقومون بعمل قذر». صرخ في وجهي وقال اخرس، ووضعوني في الجيب، وأغلقوا الباب بقوة في وجهي، وتركوا معي جندياً يحرسني. وبعد عدة دقائق، فتح الرائد الباب وهددني قائلاً: «الآن، سوف تدفع ثمن هذا». قلت له: «لا، بل أنت من سيدفع الثمن عندما يتم إحضارك أمام محكمة جرائم الحرب في لاهاي. أنتم لستم جنوداً؟ إنكم مثل حزين ومريض للجنود. كان والدي جنرالاً، وأستطيع أن أخبرك أنك نسخة حزينة من الضابط». ضرب الباب مرة أخرى ثم تحرك الجيب. وفجأة، توقف الجيب محدثاً ضوضاء. وفتح الرائد الباب وقال: «أي جنرال كان أبوك؟». كان الفضول واضحاً عليه، ولم يستطع ضبط نفسه. قلت: «كان ضابطاً حقيقياً وليس مثلك. وقد حذر في الحقيقة من أن الجيش سيتدهور، وقد يبرز أناس مثلك ويصبحون ضباطاً. إنك عار على كل الشعب اليهودي. آه، نعم، أبي كان ماتي بيليد».

ضرب الباب للمرة الأخيرة ثم انطلقنا إلى محطة شرطة الخليل في مستوطنة كريات أربع.

كريات أربع مستوطنة إسرائيلية بنيت في الخليل، وهي واحدة من المستوطنات الأولى التي بنيت في الضفة الغربية. إنها غيتو رغم أن اليهود يفرضونها على أنفسهم، ومحطة شرطة الخليل غيتو داخل غيتو. كي ندخل المستوطنة، كان علينا أن نمر بنقطة تفتيش محصنة ونتنقل بين حواجز إسمنتية كبيرة وبوابة كهربائية عليها حراس. وبينما كنا نسير في تلك البلدة الغريبة جداً،

مررنا بجماعات من الأطفال اليهود المتدينين وأمهات بين أيديهن عربات أطفال قبل أن نصل إلى مركز الشرطة؛ حيث كان علينا أن نعبر موقع حراسة وبوابة كهربائية مرة أخرى.

سمعت جندياً يقول لزميله: «تباً لهؤلاء المستوطنين، إنهم يعاملوننا كالقاذورات هنا بينما يجب علينا أن نحميهم».

عندما رأيت كل هذا بدأت أفكر في سرّي: إن أرض فلسطين من ذلك النوع الذي يشجعك على أن تفتح الأبواب، وأهلها مضيافون ويرحبون بك دائماً بذراع مفتوحة. إنها أرض الكرم واللطف. ومع ذلك، إن المستوطنين وحماتهم اختاروا فرض أنفسهم على تلك الأرض وعلى أهلها، وذلك بالاستيلاء على الأرض بالقوة، وحجب أنفسهم في معازل محصنة يسمونها مستوطنات. وما كريات أربع إلا مثل بقية المستوطنات في الضفة الغربية، فهي جرح مفتوح في أرض هادئة ومضيافة. إن السبب وراء اختيار هؤلاء الناس وخيارهم بالعيش بهذه الطريقة فوق إدراكي.

اقتادني الجنود إلى مركز الشرطة، حيث كان من المفترض أن يسلموني للشرطة. ولكن مدير المركز وهو ضابط شرطة قصير، ويبدو أنه رياضي، وله شعر أبيض قصير، وملامح تدل على أنه يعتد بنفسه كان مصراً على أن لا يستلمني وقال: «لا أستطيع اعتقال هذا الرجل دون أن يكون الضابط الذي اعتقله حاضراً، يجب عليه أن يكون هنا حتى يدلي بشهادته». رد أحد الجنود قائلاً: «قالوا إنهم سيرسلون رسالة عبر الفاكس من مقر الكتيبة». كان الأمر عالقاً بين الشرطة والجيش. قال مدير المركز للجندي: «أخبر قائدكم أننا في بلد ديمقراطي، وأن هذا الرجل له حقوق وعلينا أن نصغي لكلمة القانون، وإلا فإن علي أن أطلق سراحه». ارتبك الجنود. استمر الحديث بين السلطتين – الجيش والشرطة – أربع ساعات دون استعداد أي منهما لتغيير رأيه؛ بينما كنت أجلس في الوسط بهدوء، وأشاهد ذاك المشهد الغريب الذي لا يصدق.

في النهاية، خرج مدير المركز من مكتبه، وكان الغضب واضحاً عليه، وشرح ببطء وبلغة بسيطة للجنود: «انظروا، إنه مواطن إسرائيلي، ولديه حقوق. إنه ليس

فلسطينياً يمكنني أن أضربه وألقيه في السجن». والتفت أحد الجنود نحوي وقال: «يبدو أن القانون يقف إلى جانبك».

مضت الساعات، وعرفت أن الرائد لن يأتي. ثم انتهى الأمر. قال لي أحد الجنود إنهم سوف يطلقون سراحي، وسألني عن المكان الذي أود أن يرسلوني إليه. قلت: «أعيدوني إلى بيت أمر، حيث اعتقلتموني». قال: «إنه مكان معادٍ، ولن تكون آمناً هناك. لماذا لا أطلق سراحك هنا في كريات أربع ويأتي شخص ما ويأخذك من هنا؟». قلت له: «شكراً، ولكن أصدقائي في بيت أمر ينتظرونني». لم أتوقع أن يوافقوا، ولكنهم أخذوني بالجيب، وغادرنا غيتو المتعصبين وعدنا إلى بيت أمر. اتصلت بخالد، وأخبرني أنه سينتظرني عند مدخل بيت أمر قرب نقطة التفتيش، ثم اتصلت بمازن للتسلية. استمتعت بالتواصل مع أصدقائي الفلسطينيين من تلك القلعة التي تمشي على عجلات، وهي عبارة تصلح لوصف الجيب تماماً. فقد كان مصمماً بطريقة لا يرى منها الجنود شيئاً غير الأسلاك، وفتحة تكفي أن يُدخل فيها الجندي ماسورة بندقيته كي يطلق النار. إن تلال الخليل الجميلة وأشجار الزيتون لا ترى من شبابيكهم ولا وجوه الناس.

عندما وصلنا إلى بيت أمر، حذرني الجنود مرة أخرى: «هذه منطقة معادية، ولا أحد يضمن سلامتك هنا». شكرتهم مرة أخرى ومشيت بسلام إلى بيت أمر. وكانت مفاجأة الجنود التي بدت على وجوههم تماماً مثل مفاجأة الفلسطينيين الذين كانوا يقفون حول مدخل القرية بينما كنت أخرج من بطن الوحش المدجج بالسلاح. وكانت العاصفة قد مرت وشعرت بالراحة وأنا أمشي في جو لطيف.

في صيف عام 2011، عدت إلى بيت أمر للاحتجاج مرة أخرى، وتم اعتقالي مرة أخرى كذلك. تلك المرة قمنا بمسيرة باتجاه مستوطنة كرمي تسور التي كانت تلتهم أراضي بيت أمر منذ سنين، وكانت في مرحلة التوسع والتهام مزيد من الأراضي. سرنا بين الحقول المزروعة بأشجار الفواكه والشوارع القذرة، وكان الجنود أكثر وحشية هذه المرة، وكان القائد هذه المرة نائب قائد الكتيبة، وهو رائد في الجيش. أمرونا أن نتراجع خلال دقائق وبدأ الدفع. وبينما كنت أغادر دفعني أحد الجنود بعنف، ولأن تضاريس المكان كانت صعبة ولا يستطيع

الإنسان أن يتماسك ويتوازن عليها، التفتُ إليه وطلبت منه أن يتراجع. وخلال ثوانٍ، كان نائب قائد الكتيبة يقف في وجهي. وضع رأسي بين يديه وأخفضه بشدة إلى الأرض، وجذب ذراعي ولواها، كما لوى إصبع يدي الكبيرة بحدة، ولم يتركها إلا بعد أن ظننت أنه سيكسرها. ثم طلب بطاقتي واتهمني بمهاجمة ضابط عسكري ووضعني رهن الاعتقال. وصرخ: «أريد أربعة رجال ليحرسوه، فقد هاجم ضابطاً». جاء المسؤول الآخر، وهو كابتن عسكري، ومعه أربعة جنود وقفوا حولي. وأخبرت الكابتن والجنود بينما كانوا واقفين حولي «قائدكم كاذب، وعليكم أن تبلغوا عنه وأن تتركوا مناصبكم». وأريتهم إصبعي المنتفخة وقلت: «انظروا إلى هذا، من هاجم من؟ هل فعلاً تعتقدون أنني هاجمت جندياً مدججاً بالسلاح، فضلاً عن رائد في بذلته العسكرية؟». ورد الكابتن: «اخرس، لقد رأيناك وأنت تهاجمه». وقد رآك هذا، وأشار إلى جندي شاب أحمر الرأس وقال: «لقد هاجمك أيضاً، أليس كذلك؟». نظر الجندي إلى الأسفل ومضى بعيداً.

وصرخت على الجندي أحمر الرأس وقلت له: «إن رائدك وكابتنك كاذبان. عليك أن تبلغ عنهما وتترك مثل هذا العمل المشين! هل هذا ما وقعت على فعله عندما التحقت بالوحدة القتالية؟».

تم احتجازي في المكان نفسه لبعض الوقت، بينما تم تفريق المحتجين العشرين جميعهم. سألت بأعلى صوتي: «لا أصدق أن هذا العدد الكبير من جنود الجيش الإسرائيلي المدججين بالسلاح يستنفرون لإخضاع عشرين متظاهراً أعزل. متى أصبح الجيش الإسرائيلي بهذا الضعف والجبن؟». ثم قلت للجنود إنه سوف يأتي يوم يعودون فيه إلى أهالي بيت أمر ويعتذرون إليهم. وهنا توسل أحد الجنود للضابط أن يتركه «يُريني كيف علي ألا أتفوه بمثل هذا الكلام».

أخذوني إلى الجيب حيث كان المسؤولون كلهم يقفون ويعلوهم العرق والغبار. قلت لهم: «قد يظن من يرى منظر الغبار والعرق أنكم جنود حقيقيون في معركة. ولكنكم تعرفون أن ما فعلتموه اليوم لم يكن معركة قتالية. إن مما يدعو للرثاء أن كل ما عدتم به هو أنا. لم تكن هذه معركة بطولية. ولستم أبطالاً بالتأكيد». ثم أمر نائب القائد بتفتيشي، وصادروا الآيفون الخاص بي وحذفوا كل

مقاطع الفيديو والصور التي التقطتها، وفحصوا حقيبتي؛ إذ كان يحاول أن يظهر لي أنه هو المسؤول. قلت: «أنت نسخة من ضابط هزيل».

ومرة أخرى أخذوني إلى مركز شرطة كريات أربع. هذه المرة جاء ضابط كي يوثق التهم. لم يكن نائب القائد الذي كان يحجز على جوازي معه، ولكن الكابتن كان موجوداً، وروى قصة ملفقة عن كيفية مهاجمتي له، وكيف قاومت الاعتقال وأجبرته على أن يصارعني ويأخذ بطاقة هويتي رغماً عني من جيب قميصي. قلت: «أي جيب؟». وأريته أن قميصي لا جيب له. قال الكابتن إنني وصمته بالنازي. أخبرت المحقق الذي أخبرني لحظتها أنهم يتهمون المتظاهرين دائماً بأنهم ينادونهم بالنازيين وقلت: «من السيئ أنه ليس هنا ليقول هذا لي في وجهي».

كان من الممكن تحدي كل التهم السخيفة، رغم أنه بحلول الوقت الذي تم استجوابي فيه كان الضابط قد غادر، ولم أستطع مواجهته. بعض حواراتي مع الجنود تم تصويرها بالفيديو ووضعت على (اليوتيوب). في النهاية، كان علي أن أوقع وثيقة أتعهد فيها بألا أعود إلى المنطقة لفترة 14 يوماً. عدت إلى كاليفورنيا بعد عدة أيام، ولذلك لم يعنِ لي توقيع هذه الوثيقة الكثير. تم إطلاق سراحي، ولكن هذه المرة رفض الجنود رفضاً مطلقاً أن يعيدوني إلى بيت أمر. وأنزلوني على طريق الخليل الرئيس خارج كريات أربع، وانتظرت حتى جاء أصدقاء من بيت أمر وأخذوني.

أثناء كل ذاك الجنون وبطريقة ما ظللت هادئاً نسبياً. وهذا أمر أجد أن من الصعب تفسيره. ربما يعود سبب ذلك إلى مشهد الأراضي الفلسطينية الجميل المنعش.

الباب الرابع

الأمل من أجل السلام

الفصل الرابع عشر

الجيل القادم

في صباح شتائي مشمس، يبدو المنظر من غرفة طفولتي في حي موتسا مدهشاً. كل ورقة من كل شجرة أو شجيرة تبدو سعيدة لأن الشمس مستها بعد ليل طويل بارد. إن المشهد لوحة من الظلال، بدءاً من الأخضر المصفر، إلى الأسود الفاحم، وانتهاءً بالأشجار التي لا ينضب اخضرارها طوال العام. في هذا الحشد تنتصب أزهار مرجانية اللون وأخرى أرجوانية. وهناك سماء شرق المتوسط الصافية. من الصعب أن تُشيحَ بوجهك عن كل هذا.

لا أستطيع العودة إلى هذه المنطقة إلا ثلاث مرات أو أربع كل عام. ولا أمكث أكثر من أسابيع قليلة كل مرة. عندما أزور فلسطين/إسرائيل أنشغل بلقاء الناس والعبور إلى الجانب الفلسطيني من الجدار، وأشعر أنني مستهلك من كثرة النشاطات. غير أني عندما أكون في بيت أمي، وهو البيت الذي نشأت فيه، أحاول أن أستثمر كل جزء من اللحظة قدر الإمكان.

ليس من السهل أن أفارق حياتي في كورونادو حتى لو كانت الفترة أسابيع قليلة. فهناك مدرسة الكاراتيه التي أملكها، وهناك جيلا وأولادنا الثلاثة. جيلا مشغولة في عملها الخاص، وهي عيادة طب الإبر الصينية. وأنا دائماً أقوم بتخطيط كثير قبل أن أغادر، حتى أطمئن إلى أن الأمور تسير بسلاسة. وعلى مر السنين، أدرك الموظفون والمدربون الذين يعملون معي حقيقة واقعي: فأنا أعيش في مكان، ولكن قلبي في مكان آخر.

صحيح أن دافعي لتلك الرحلات عادة مهمات نشاط سياسي، ولكنني أسافر أيضاً لأنني أحب أن أزور أمي وألتقي بقية أفراد العائلة كلما كان ذلك ممكناً.

رغم أنها في الثمانينات من عمرها، تحافظ أمي على جدول أعمال يومي

صحي ومليء بالأعمال. فهي تنام جيداً، وتتمرن بالسباحة وتلقي دروس اليوغا. ولكن السر الحقيقي وراء صحتها هو حديقتها؛ الأرض التي تسـكبُ قلبَها فيها. وبالمقابـل، تثمـر الأرض لهـا زهـوراً مهيبة كل يوم من أيـام العام، حتى في أكثر أيـام القـدس الصيفيـة حـرارة وجفافاً. وتفعل ذلك من خـلال الحفاظ على الماء وتدوير كل قطرة كي تعطيها لنباتاتها. أول شيء تقوم به في الصباح هو الذهاب إلى حديقتها، غارسة يدها بعمق في الأرض الناعمة حول منزلها، حتى يكاد يبدو الامتنـان فـي سـلوك النباتـات والطيور. في سـاعات الفجر الأولـى، بينما تتحول السماء من السواد إلى البنفسجي، بإمكانك أن تسمع الطيور تشدو أغاني الصباح؛ كما لو أنها تتغنى بالجمال الذي وفرته زيكا لها ولنا حتى نستمتع.

كانت أمي هي التي غرست فيّ حب الأطفال، ويعود معظم الفضل لها في أنني قررت أن أكرس حياتي المهنية للعمل معهم. لا شـيء يُقارن بالرضا الذي ينتج عن إشـراك الأطفال في نشـاط ما. لكن، منذ سنين تفرعت حياتي المهنية بعيـداً عـن الصـراع فـي فلسطين/إسـرائيل. ورأيت أنه حان الوقـت، لضم هذين الجزأين من حياتي معاً؛ أي دمج العمل مع النشاط السياسي.

إن تدريـب الكاراتيـه للأطفـال يعنـي تدريبهـم علـى الانتظـام، وتعليمهـم الانضباط، ونفحهم بالتوقعات العظيمة. وعندما يتم تعليم الكاراتيه بشكل سليم، فإنها تغرس في النفس الاستقلالية. وهكذا، انفتح أمامي أفق جديد للتحدي، وهو أنني يمكن أن أعلم الكاراتيه للأطفال الفلسطينيين.

بالإضافـة إلـى ذلـك، أردت أن أستكشـف أبعـاد السـيطرة الإسـرائيلية على الحياة الفلسطينية وأثرها على الأطفال. أردت أن أرى الأطفال في الضفة الغربية وأتفاعـل معهـم، فـي مناطـق مثل مخيم الدهيشـه للاجئين، أو قريـة عناتا، حيث الملاعب والحدائق نادرة. أردت أن أستمع لأطفال فلسطينيين، وأبلورَ فكرة عن رؤيتهـم لحياتهـم ومسـتقبلهم. ولذلـك بحثت عن فرص أُعلمُ فيهـا الكاراتيه في هذه الأماكن بعينها.

كنا في صيف 2007 عندما طرحت أختي نوريت فكرة تدريب الكاراتيه في فلسطين. وائل سلام صديق حميم تعرفنا عليه من خلال منظمة مقاتلون من أجل

السلام. لديه أولاد مارسو التايكواندو في نادٍ في عناتا شمال القدس، وأخبرته نوريت ورتبا كل شيء في ما بينهما.

الحقيقة أنه لم تكن لدي أي فكرة عما كان ينتظرني. ولكني كنت أعرف حقيقة أن الأطفال الفلسطينيين يتحملون تبعة جسيمة، أكثر من قدرة الأطفال على التحمل؛ فالآباء والإخوة محتجزون في السجون الإسرائيلية، وفي الغالب دون السماح لأهلهم بزيارتهم، وبعض أفراد العائلة قتلوا، كما أن هناك الجيران والأصدقاء الذين خسروا بيوتهم لصالح النشاط الاستيطاني، أو إن تلك البيوت دمرها الجيش. هذا فضلاً عن التزويد غير المنتظم للماء والكهرباء، والقيود الهائلة على حركة التنقل التي أثرت على قدرتهم في الوصول إلى المدرسة كل صباح، والغارات الليلية التي يشنها الجنود الإسرائيليون الذين يقتحمون منازلهم على مدار الساعة. وتستمر القائمة. ولا يستطيع المرء إلا أن يفترض أن آباءهم ومعلميهم الذين أحبوهم واعتنوا بهم، قد سلموهم الأدوات التي تجعلهم يتكيفون مع محيطهم غير الطبيعي والمستحيل.

أخذت إيتان وكان عمره 13 عاماً في ذلك الوقت، ودورون وكان عمره 11 عاماً، وابن عمتهما يغال وكان عمره 14 عاماً، معي إلى عناتا كي يمارسوا الكاراتيه هناك أيضاً. وعندما وصلنا إلى نادي التايكواندو، استقبلنا وسام – وهو المدرب – بحرارة، وكان هناك أكثر من خمسين طفلاً، كلهم كانوا مصطفين وجاهزين لبدء التمرين. كان الأولاد والبنات يتدربون معاً، وكانوا جميعاً منسجمين مع بعضهم؛ وهذا أمر يسعدني على الدوام. فبينما هناك صورة نمطية تقول إنّ الكاراتيه لعبة للأولاد، فإن البنات يستمتعن بها ويتفوقن أيضاً. ودائماً أشجع الفتيات والنساء على أخذ الدروس مع الأولاد والرجال. لقد كان طلاب نادي عناتا جادين، ومؤدبين، ولديهم حب التعلم، وكانت هناك كل الإشارات التي تدل على أننا في مدرسة فنون قتالية محترمة.

واصلنا التدريب لمدة ساعة ونصف تقريباً. وبعد ذلك استرحنا جميعاً لفترة وتحدثنا. بدأ إيتان يتحدث مع الأطفال، وسمعته يقول لآخر: «هل تحب الذهاب للبحر؟». نظراً إلى كونه قادماً من قرية ساحلية، فمن الطبيعي أن يسأل

هـذا السـؤال. ولكـن الطفـل أخذ إيتان، وأراه الجدار الذي يُبنى خارج المدرسـة التي تم فيها الدرس. ورغم أن عناتا جزءٌ من القدس، فإن الجدار ونقطة التفتيش يمنعان سكانها من التنقل بحرية. قال الطفل: «لا نستطيع الذهاب للبحر، لأنه لا يُسمح لنا بذلك».

عندمـا أنهينـا التدريـب تناولنا العشـاء بمنزل وائل بعناتـا. وبعد ذلك، تناول الكبار القهوة، فيما لعب الأطفال بالكرة في الشرفة الصغيرة المجاورة للبيت لأنه لم يكن هناك مكان بالخارج يمكنهم أن يلعبوا فيه. في طريق العودة إلى البيت، وعلـى نقطـة تفتيـش عناتـا، لاحظ ولداي الجنود وهم يعتقلون صبياً فلسـطينياً لا يكبرهما كثيراً. شـعر دورون بالخوف مما رآه وسـأل: «ماذا فعل هذا الصبي؟». أجبته: «لا أدري». لم أستطع أن أجيبه إجابة شافية.

قدمني جمال إلى نادي كاراتيه في رام الله يديره واحدٌ من أصدقائه، واسمه نضال. كان نضال يمارس الكاراتيه ويدربها لفترة طويلة، واستطاع أن يبني جسماً طلابيـاً رائعـاً، ودوجـو يابانيـاً تقليدياً رائعاً جداً. زرته عدة مرات، وأعطيت بعض الـدروس، وقضيـت وقتـاً ممتعاً مع نضال وجمال هناك. في صيف 2010، ذهبت إلى مدرسة جمال للكاراتيه بصحبة دورون، وجاءت معنا نوريت لتشاهد. كانت غرفة التدريب مليئة، وكان الجو حاراً جداً. وبينما كنا في الدرس، أصبحت حرارة الجـو لا تحتمـل، وشـعرت بالعطـش. وكنـت أفكر في أن أطلـب من نوريت أن تحضر لي قنينة ماء عندما تذكرت أننا في شهر رمضان.

خلال ذلك الشهر يمتنع المسلمون عن الطعام والشراب من طلوع الشمس وحتـى المغـرب. كانـت السـاعة حوالـى الرابعة من بعد الظهـر، ولم يكن الصيام لينتهي قبل الساعة السابعة مساءً. نظرت إلى دورون ورأيت فمه يجف أيضاً. لم يظهر الطلاب أي علامة ضعف، وكانوا كلهم سـعداء ومسـتغرقين في التدريب. ومـع ذلـك، كانـت وجوههم حمراء، وكان أثر الحر واضحاً عليهم وهم يتصببون عرقاً. ولذلك أوقفت التدريب للحظة وطلبت منهم الجلوس. سألت: «من منكم صائم؟». ولما رفعوا أيديهم كلهم، حتى نضال نفسه كان متفاجئاً. قلت: «عظيم! أنتـم أيهـا الشـباب مميـزون. لا توجـد أماكن كثيرة في العالـم يأتي الطلاب إليها



دورون، واقف (الثالث من الشمال) بجانبي، مع المدرب نضال في نادي الكاراتيه برام الله.

لـدرس كاراتيـه ويبذلـون كل ما في وسـعهم في مثل هـذا الجو الحار دون طعام أو ماء؛ وخاصة الماء».

نظرت إلى دورون وعرفت أنه فهم ما يعنيه رفع الأولاد لأيديهم، فقد كان ذلك يعني أننا لن نشرب حتى أذان المغرب.

أثناء التدريب، ألقيتُ على الطلاب الأفكارَ التي ألقيها في مدرسة الكاراتيه الخاصـة بـي فـي الولايـات المتحدة، ولكـن مع إضافة القليل؛ احتـرام الآخرين، الإيمان بالنفس، استخدام العقل. وأشرت إلى حقيقة أنني أستطيع الذهاب إلى القدس وتل أبيب وأن أتنقل بحرية ولكنهم لا يستطيعون.

قلت: «هذه بلادكم، هذا وطنكم، وينبغي أن يسمح لكم بالتنقل بحرية مثل كل طفل إسرائيلي. الكاراتيه تعلمنا التغلب على العقبات الكَؤود، وسوف تجدون وسـيلة تتخلصون فيها من الظلم الذي تعيشـون فيه. قوموا بذلك، وليس عليكم أن تضحوا بحياتكم. سـوف تحصلون على الحرية كي تعيشـوا وتدرسـوا وتعملوا وتسافروا إلى أي مكان تحبونه. فقط تذكروا أن تؤمنوا بقدراتكم ولا تخافوا».

كلما قلت مثل هذه الأشياء، خيّم الصمت. أول مرة قلت فيها هذا للأولاد

الفلسطينيين، لم تكن في درس كاراتيه؛ إذ حصل ذلك في بيت جمال. أشارت ابنته الكبرى إلى أنها تريد أن تدرس طب الأسنان، وتحدثنا عن اللغات. قلت لها إنني أعتقد أنه من المفيد لها أن تكون قادرة على الكلام بالعبرية والإنجليزية بحرية حتى تستطيع أن تعالج المرضى في مدن البلاد المختلفة. وأضفت: «لن يدوم الاحتلال للأبد، وسوف تستطيعين العمل في حيفا وتل أبيب، ولذلك فالعبرية ستكون مفيدة لك عندما تعالجين مرضى إسرائيليين». ظهرت عليها الدهشة لما قلت لها إن النهاية باتت في مرمى البصر، وردت قائلة: «إن شاء الله، إن شاء الله». ورددت أمُها قولَها.

إنني أعتقد أن الإسرائيليين والفلسطينيين سوف يعيشون أحراراً جنباً إلى جنب يوماً ما. حتى إن أصبحنا دولتين منفصلتين، فلماذا لا يستطيع الطبيب الفلسطيني أن يعمل في إسرائيل والعكس؟ شعرت أن قول مثل هذه الأشياء أمام الأطفال الفلسطينيين أمر مهم. أردت أن أُعبر بمنتهى اليقين أن الأشياء سوف تتغير إلى الأفضل، وأن أشجعهم على أن يؤمنوا بها ويتصرفوا بموجبها. إن قوة الجيش الإسرائيلي العاتية يمكنها أن تجعل أي إنسان يائساً. وحقيقة أن العالم لا يستطيع أن يفعل شيئاً للفلسطينيين يمكن أن تؤدي إلى الشعور بالعجز. ولكني آمنت دوماً أن التغير يأتي من الأسفل إلى الأعلى؛ ليس من مصادر خارجية، ولكن من أولئك الأطفال. وعلى أحدهم أن يرسم الصورة، ولذلك أنا أقوم بهذا كلما استطعت.

في نهاية 2010، اتصلت من الولايات المتحدة بصديقي مازن فرج، وأخبرته أنني أريد أن أزور مخيم الدهيشه للاجئين قرب بيت لحم. ولد مازن وترعرع في الدهيشه، ولا يزال يعيش هناك مع عائلته. سألته إن كان يعتقد أنني أستطيع أن أدربَ الكاراتيه هناك. لم يتردد مازن، ورحب بالفكرة، وسارع إلى إنجاز الترتيبات اللازمة.

مرة أخرى تركت عالمي الهادئ في كورونادو وسافرت إلى وطني المُتعَب. اتصلت بمازن مرة أخرى من القدس، وقررنا أن نلتقي عند فندق إيفرست في بيت جالا حيث يقع الفرع الفلسطيني من **منتدى العائلات الثكلى**. كان ذلك

مسـاءً مشمسـاً في يوم من أيام ديسـمبر. وجلسـت في الخارج في الشـرفة أنتظر «مازن». يقع المكتب على تل، ولذلك ألقيت نظرة شاملة على الاحتلال. كانت المركبات العسـكرية الإسـرائيلية المغطاة بأسـلاك مثيرة للأعصاب تسـير بسـرعة وبعصبية، وفوقها الأضواء الزرقاء تلمع. كان بإمكاني أن أسمع مكبرات الصوت من قاعدة عسكرية مجاورة، كما كان بإمكاني أن أسمع أصوات صافرات الإنذار التابعة للشرطة من بعد. وكان بإمكاني أن أسمع صوت حركة البناء لبيوت جديدة ترتفع في المستوطنة الإسرائيلية هار غيلو.

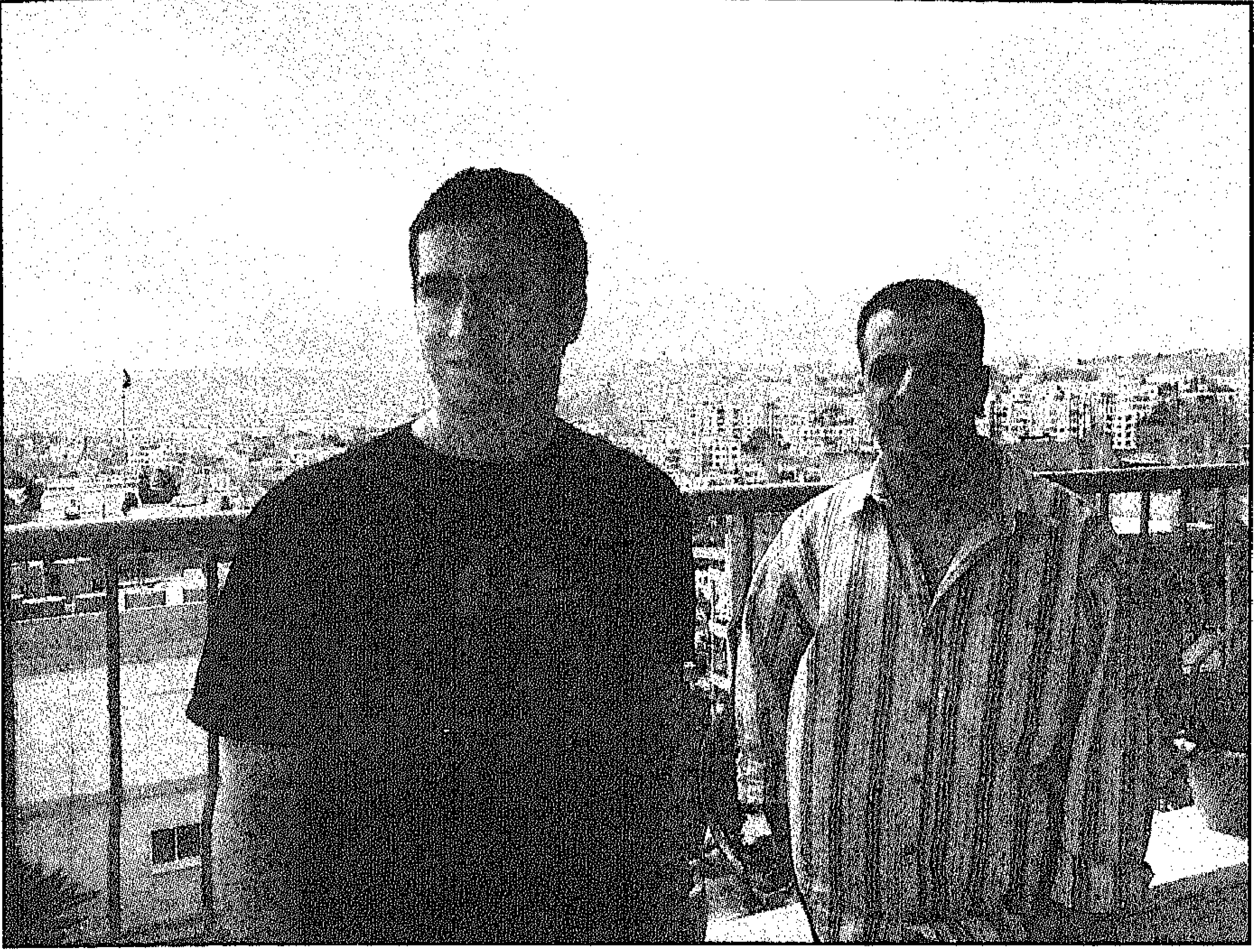
وصلَ مازن بعد أن وصلتُ بعدة دقائق، وقضينا معظم الظهيرة جالسين في الشـرفة نتحدث. وكان قد رتب لي زيارة لمخيم الدهيشـه للاجئين، حيث كنت سـأذهب لإعطاء دروس في الكاراتيه هناك في الأيام القليلة القادمة. إن «مازن» نشيط ويعرف كيف يرتب الأشياء.

وبينما كنا نجلس في الشـرفة حيث كان نادر يشـعل السـيجارة تلو الأخرى وأشـرب أنـا القهـوة، تنقلنـا من الحديث عن الأشـياء البسـيطة إلـى الحديث عن السياسة، ومن ثم انتقلنا إلى قصته وقصة عائلته. شارك إخوته الكبار في الانتفاضة الأولى وتم اعتقالهم. كلهم رجال منضبطون ولديهم مناصب محترمة. كان مازن ينتمي إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، واعتقلته إسرائيل لهذا السبب. أخبرني عن التعذيب والضرب الذي تعرض له أثناء التحقيق.

قال: «إن الذي حماني من الانهيار أثناء التحقيق والتعذيب كان إدراكي أن النـاس سـوف يعرفـون أنني لم أستسـلم، وأنني صمدت مثلمـا صمد أخواي من قبل، ولـم أتكلم».

أشـعل سـيجارة أخـرى، وتلفـظ بالعربية بعدة شـتائم تدل علـى انزعاجه ثم قـال: «لا تمـر ليلـة دون أن أحلـم بكوابيـس جراء التعذيب الـذي عانيته على يد الإسرائيليين».

قُتلَ والد مازن، واسمه علي فرج، في الانتفاضة الثانية عام 2002، وكان عمره 62 عاماً. خرج من المنزل ليشتري طعاماً للعائلة. وبينما كان في الخارج، فرضت السـلطات الإسـرائيلية حظر التجول على المخيم. ولأنه كان خارج المخيم، لم



صديقي مازن فرج مع ابني إيتان في مخيم الدهيشه للاجئين.

يـدرك أن هنـاك منعـاً للتجول، وعندما رجع، أطلقت إحدى الدبابات الإسـرائيلية النار عليه فأردته قتيلاً. ثم ألقت السـلطات الإسـرائيلية مباشـرة القبض على مازن وحكمت عليه بالسجن الإداري لعدة أشهر. تم استهدافه لأنه كان أصغر إخوته، والوحيد الذي لم يكن متزوجاً. ولذلك افترض الإسـرائيليون أنه يشـكل تهديداً إذ ربما يفكر في الانتقام.

اقترب وقت الغداء وتحركنا إلى منزله في الدهيشـه. كانت تلك أول رحلة أدخل فيها مخيماً. بعد أن تم إنشـاؤه، وخلال عقود أصبح مخيم الدهيشـه قرية صغيـرة، وغيـر منظمـة، ومزدحمة بالناس. ويعيش الأهالـي البالغ عددهم 13000 على مساحة صغيرة من ميل مربع. كل سكان المخيم إما من الأهالي الذين جاؤوا من القرى التي تقع حول القدس ودمرتها إسرائيل يوم إنشائها، أو من ذريتهم.

تناولنا القهوة والشاي في منزل مازن مع زوجته وابنتيه (في ما بعد اصطحبت إيتان كي يزورهم)، ثم أخذني مازن إلى بيت الفينيق، وهو مركز تدريب مجتمعي

كبير يقدم لأطفال مخيم الدهيشه نشاطات مجانية بعد المدرسة، وينظم مخيمات في الإجازات. يتطوع الشباب من طلاب الكليات لتقديم بعض النشاطات. ولأنه لا توجد حدائق أو ملاعب أو برك سباحة، فإن تنسيق النشاطات للأطفال يحتاج إلى إبداع وكثير من التركيز والإخلاص. وكلا الشرطين متوفران لدى أولئك المتطوعين الذين التقيتهم.

سألتُ أحد المتطوعين الذي أخذني في جولة: «لماذا لا توجد بركة سباحة؟».

«ليس لدينا ماء».

لم أفهم.

«كل منافذ المياه تخضع للسيطرة الإسرائيلية. وفي بعض الأحيان، تغلق السلطات المنافذ فيبقى المخيم دون ماء لعدة أيام. لا تستطيع أن تبني بركة في الوقت الذي لا يكفي فيه الماء للشرب والغسيل». ثم ابتسم: «ولكن، لدينا نادٍ رائع يمكننا أن نتعلم فيه الكاراتيه».

ولكي تنجح الكاراتيه فهي تحتاج إلى البيئة المناسبة، أي دوجو[1]؛ بمعنى آخر إنها تحتاج إلى مكان مخصص لتدريب الجسم والعقل. لا يوجد دوجو في مخيم الدهيشه، ولذلك كان علي أن أكون خلاقاً وأسست دوجو في مركز الفينيق. وقد استخدمت كلاً من لغتي العربية المحدودة وبعض المساعدة من بعضهم كي أطلب من الأولاد أن يخلعوا أحذيتهم وجواربهم قبل بَدء الدرس. وقد التزموا بخلع أحذيتهم وجواربهم ولكنهم كعادة الأطفال نثروها في كل المكان. وبدلاً من الشروع في الدرس، طلبت منهم أن يتبعوني. خلعت حذائي ووضعته بشكل مرتب قبالة الجدار. أخبرتهم أن مكان وضع الحذاء أمر بسيط، ولكن وضعه في مكانه يخلق جواً من الانتباه للتفاصيل والانضباط، وهذا يجلب الراحة والهدوء للفصل.

أضفت: «والحفاظ على الدوجو مرتباً أمر مهم بالنسبة للكاراتيه». وبمجرد أن وضعوا الأحذية في مكانها، واصلتُ وقدمت نفسي لهم وسألتهم عن أسمائهم

(1) كلمة يابانية تعني مدرسة لتدريب الكاراتيه؛ المترجم.

وأعمارهم. ثم أخبرتهم أن أول شيء نتعلمه في الكاراتيه هو الاحترام. في الكاراتيه، احترام الآخرين والذات له الأهمية القصوى. ولهذا نحن ننحني، ويستمع بعضنا لبعض، ونستخدم عقولنا وكلماتنا كي نسوي ما بيننا من خلافات ونحل ما بيننا من مشكلات. وبينما كنت أقول ذلك، لم أتوقف عن التفكير بالمفارقة في قول ذلك لأناس يعيشون تحت قوة محتلة لا تحترم شيئاً من هذه المفاهيم.

ثم بدأنا الدرس. عندما اصطف الأولاد شرحت لهم كيف يقفون. وبينما كنت أشرح لهم قامت فتاة كانت قد مارست الكاراتيه من قبل، بذكر الوقفات المختلفة باليابانية. قالت «موسابي داتشي»، مظهرة أنها تعرف المصطلح الذي يعني الوقوف مع ضم الرجلين. ثم أريتهم كيف ينحنون، فقالت «سيز» للإشارة إلى أنها تعرف الكلمة التي تأمر بالانحناء. وكانت تعرف كيف تؤدي الحركات والأوامر لعدة تقنيات باليابانية. كان وجود تلك الفتاة هناك أمراً جيداً، إذ كانت مساعدة صغيرة ولكنها عظيمة لي وللفصل. ومضت ساعة بسرعة، وكان الوقت يتأخر والجو يظلم في الخارج، وكان علي أن أنهي الدرس. ووعدتهم أن نبدأ في وقت مبكر أكثر في اليوم التالي.

عندما جئت ظهر اليوم التالي، رأيت صفاً طويلاً من الأحذية التي تم وضعها بشكل أنيق ومرتب في ممر النادي. كان هناك أكثر من 35 طفلاً يجلسون بهدوء على ركبهم في وضعية سيز. كانوا جاهزين وقد هضموا كل ما علمته لهم في الدرس السابق. وكان من الواضح أن المتطوعين فخورون بالأطفال، وكذلك أنا. نصف الفصل كان موجوداً في اليوم السابق، والنصف الثاني كله جاء للمرة الأولى. رحبت بكل الطلبة الجدد، وطلبت من أولئك الذين حضروا الدرس الأول أن يشرحوا للآخرين ما تحدثنا عنه في الدرس الأول.

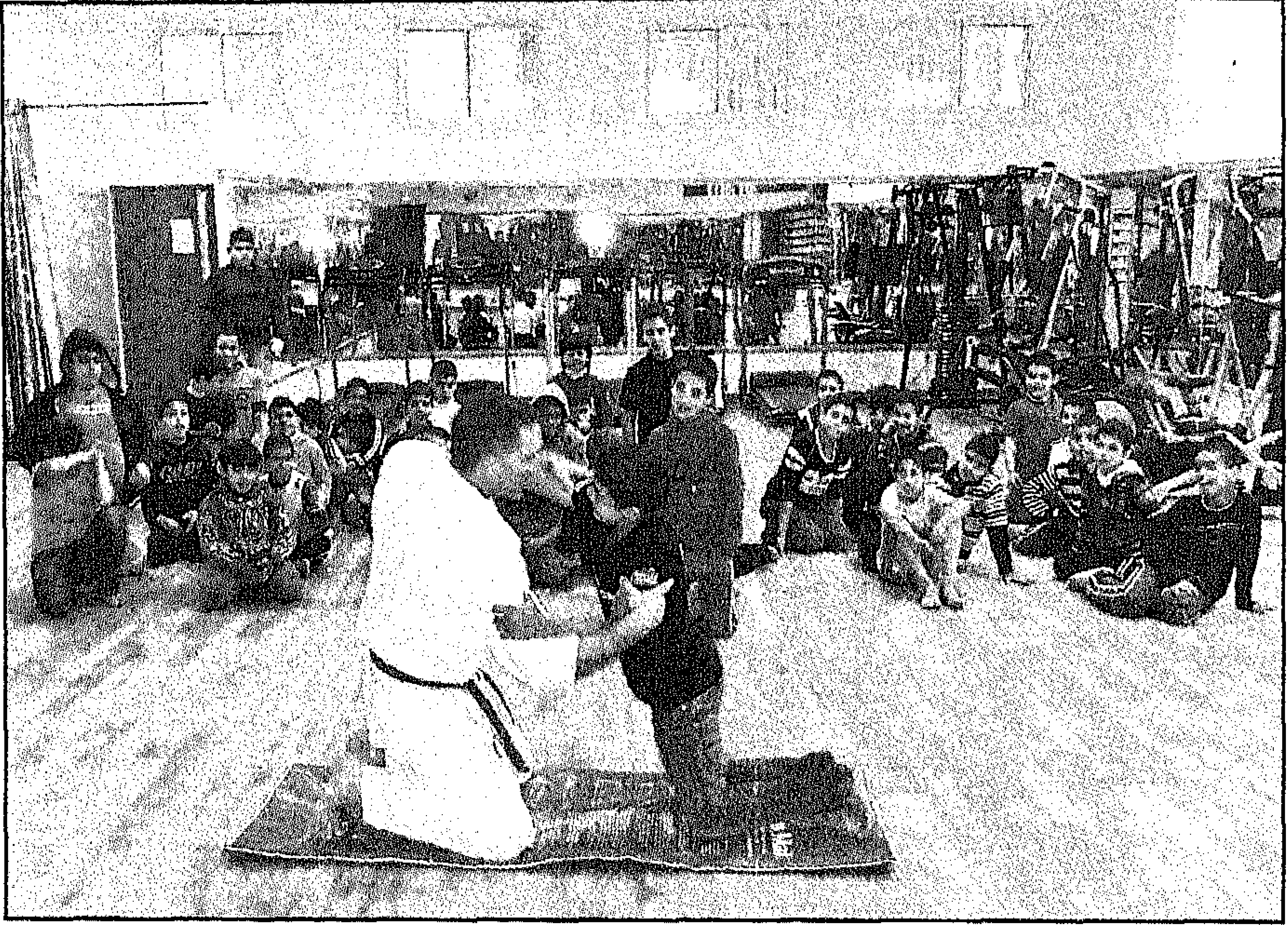
كان التعليق الأول: «لا تدخن أبداً، إنه يسبب السرطان».

وكان التعليق الثاني: «لا تعتدِ على الآخرين، وتجنب إيذاء نفسك».

«احترم نفسك واحترم الآخرين».

«افعل ما بوسعك على أفضل وجه، ولا تستسلم عندما تكون الأمور صعبة».

وواصلوا معاً. وكنت مبهوراً لأن هؤلاء الشباب الصغار استبطنوا الدروس،



مصارعة كاراتيه في مخيم الدهيشه.

وكانوا قادرين على تذكرها بدقة.

لاحظت كومة من فرشات التدريب في زاوية من زوايا النادي، وعرفت بالضبط كيف سننهي الدرس في ذلك اليوم. لا يحب الأطفال شيئاً مثلما يحبون المصارعة. طلبت منهم الركض، وأجريت لهم مسابقات، ثم أجلستهم وشرحت لهم كيف يكون القتال في الكاراتيه، وخاصة المصارعة. نبدأ بالاحترام، ويعبر عنه في الكاراتيه بالانحناء قبل كل جولة وبعدها. وبينت لهم كيف يمكن لطالب صغير أن يرميني أرضاً. استدعيت «قُصي»، وهو طفل في الحادية عشرة من عمره وموهوب وجاد وحضر كل الدروس.

قلت لهم: «أن تعرف كيف تستخدم قوتك ضد شخص أكبر منك، ويبدو عليه أنه خصم أقوى، جزء مهم من تدريب الكاراتيه». وهذا ينطبق عندما يقاتل المرء مقاوماً قوة احتلال كاسحة وكبيرة. عملت ما بوسعي كي لا تغيب هذه الفكرة من عقول الطلاب والمتطوعين. بينما يكون هناك جانب من الكاراتيه يعتمد على الالتزام، في الواقع يزخر تاريخ الكاراتيه بالتحدي والصمود. إن الكاراتيه

تُعلم المرء هزيمة الصعاب وتطوير روحٍ مستقلة. وأردت أن أعلم فكرة التحدي تلك لأولئك الأطفال. ليس لأنهم احتاجوا إلى مساعدتي، بل لأنه يمكنهم حيازة عنصر التحدي على طريقتهم. ولكن حاولت أن أساعدهم على توجيه طاقتهم وعلى أن يبرهنوا أن الوضع الطبيعي النسبي الذي يعيشون فيه في الحقيقة ليس طبيعياً، وأنهم ينبغي لهم أن لا يخافوا من أن يتمردوا بطريقة مسؤولة ولا عنفية.

عندما أنهيت التدريب، أخذني نادر وعدنا إلى مكتب المنتدى. ومن هناك أخذني خالد بالسيارة إلى منزله في بيت أمر حيث قضيت الأيام الخمسة التالية. يرتدي خالد بذلة سوداء، وتعابيره جادة كالعادة. ولكن، بدا أنه لم يأكل منذ أيام، حيث كانت تشغله ملايين الأشياء. قاد السيارة في شوارع قذرة وأزقة ضيقة لأن معظم الشوارع الواسعة المعبدة ليست للفلسطينيين. نظرت إليه وهو يدخن سيجارة إثر أخرى وهو شارد الذهن.

لاحظت أن «خالد» لا يدخن السيجارة فقط. ولكنه يمضغ عقب السيجارة ثم يستنشق بعمق مثل إنسان جائع ويحتاج إلى الهواء، ثم يزفر الدخان الذي قلت كميته لأنه امتص الكثير منه. إنه يدخن سيجارة بعد أخرى، بينما استنشاق الحرية ممنوع عليه بسبب الغزو الإسرائيلي لحياته، ولعائلته ولبلاده.

بعد أن عشتُ في الضفة الغربية بين الأصدقاء الفلسطينيين، أصبحت أدرك أن المعاناة الفلسطينية تمضي قُدُماً بغض النظر عن جهدهم المكرس للسلام والمصالحة. إن تكريس النفس للمصالحة وإرادة التواصل لا يزوّد الفلسطينيين بالمناعة في كفاحهم ضد الجنود الإسرائيليين، ولا ضد الإذلال والبرد، ولا ضد الإدارة العنصرية لنظام الاحتلال الإسرائيلي. في حالة خالد، فإنه لولا الحظ ورحمة الله لفقد فرداً آخر من أفراد أسرته نتيجة للعنف الإسرائيلي في عام 2004؛ وهو ابنه مؤيد.

حدث هذا بعد يومين من موت ياسر عرفات. وقد كان ذلك يوم تمت جنازة عرفات في رام الله، وتم إجراء مراسيم صغيرة ومظاهر خاصة في كل أنحاء الضفة الغربية من قِبل أولئك الذين لا يستطيعون الذهاب إلى رام الله. وكان يفترض بالجيش الإسرائيلي أن يحافظ على الهدوء ويسمح للفلسطينيين

أن يبكوا رحيل قائدهم.

ولكن، في بيت أمر قرر الجنود الذين كانوا يركبون جيباً عسكرياً أن يُحدثوا ضوضاء بالجيب في القرية. وكان السكان قد خرجوا في موكب حداد سلمي وجنازة رمزية. وكما هو مُتوقع، أشعل وجود الجيب الموقف، وألقى بعض الشبان الحجارة على الجيب، ورد الجنود بإطلاق الذخيرة الحية. وكانت النتائج ضحيتين. الأول جميل عمر وعمره 19 عاماً، وهو طالب قُتِلَ على الفور. والثاني مؤيد أبو عواد وهو ابن خالد وعمره 15 عاماً. وقد أُصيب مؤيد برصاصة عيارها 5.56 في الحوض، ووقع على الأرض وهو ينزف بغزارة، ووقف الجنود حوله، ومنعوا سيارة الإسعاف من إنقاذه.

كان خالد في شمال إسرائيل في ذلك الوقت في غرفة مليئة بطلاب من المدارس الثانوية. كان هو وعضو آخر من **منتدى العائلات الثكلى** يتحدثون عن المصالحة، ويبينون أن دوامة العنف كلفت الكثير من الأرواح على الجانبين، وأنها يجب أن تتوقف، وأن الحوار الحقيقي يجب أن يأخذ دوره. وفجأة، تم الاتصال بخالد من الخارج وإخباره أن «مؤيد» قد أُصيب.

انتهت المحاضرة فجأة، وبينما كانوا على وشك المغادرة، توقف خالد عند الباب، والتفت إلى الطلاب الذين كانوا يجلسون على كراسيهم مصدومين، وقال: «مهما حدث، حتى لو كان الأسوأ، بل حتى لو فقدتُ ابني، لن نفقد الأمل. يجب ألا ننحرف عن مسار المصالحة».

عودة إلى بيت أمر، بدا أن «مؤيد» سينزف حتى الموت، وقرر أصدقاؤه أن ينقذوه رغم إطلاق الرصاص. وقام بعض الشباب بشغل الجنود وذلك بقذفهم بالحجارة. وبينما كان الجنود يتصادمون مع الشباب، أخذت سيارة الإسعاف «مؤيد» إلى المستشفى في الخليل على بعد 10 كيلومترات تقريباً. ولما وصل كانت حالته سيئة، ولم يستطع الأطباء مساعدته.

عندما انتشر الخبر أن ابن خالد قد أُصيب، بدأ أعضاء **منتدى العائلات الثكلى** في إسرائيل بالبحث عمن يمكن أن يساعد في إنقاذ حياة الصبي، فتم نقله إلى سيارة إسعاف إسرائيلية أخذته إلى مستشفى هداسا في القدس؛ نتيجة

لجهود مشتركة بين الإسرائيليين والفلسطينيين. ففي هداسا، توجد آلات وأطباء مدرّبون جيداً ويمكنهم أن يعالجوه. في الطريق، حاول الأطباء العسكريون أن يجعلوه في وضع مستقر، ولكن في اللحظة التي وصل فيها إلى المستشفى كان ضغط الدم لديه صفراً.

أسرعوا بإدخال مؤيد إلى غرفة العمليات، بينما وصل خالد منقطع الأنفاس ومرتعباً. وفي النهاية، وبعد منتصف الليل، بعد ساعات طويلة خرج الطبيب من غرفة العمليات وقال:»لو جاء متأخراً عشر دقائق لمات. الحمد لله، استطعنا أن نقذ حياته وننقذ رجله».

الكثير من الأصدقاء الإسرائيليين والفلسطينيين جاؤوا للمستشفى ليكونوا مع خالد ومؤيد خلال الأسابيع الصعبة التي كان مؤيد يتعافى فيها ويعاد تأهيله. واتصلت عدة مرات من الولايات المتحدة وتحدثت مع خالد، وشعرت بالراحة عندما سمعت أن الأسوأ قد زال.

لم يوفر أي شيء مما حدث مناعة لخالد أو لعائلته. ففي عام 2010 جاء الجنود الإسرائيليون إلى بيت خالد في بيت أمر في الساعة الثانية صباحاً، ودقوا باب البيت وهددوا بتفجير المنزل إذا لم تفتح العائلة الباب على الفور. ثم ألقوا بالجميع خارج المنزل، بمن فيهم الأطفال الصغار الذين ارتعبوا. وقد عاث الجنود خراباً في المنزل، تاركين وراءهم آثار التخريب. وعند المغادرة، اختاروا «مهند»، توأم مؤيد، وأخذوه معهم. وبعد أن أمضى في السجن 12 شهراً دون تهمة، حُكم عليه أخيراً بالسجن لمدة سنتين في السجون الإسرائيلية. في تلك الأثناء، حُرمت عائلة خالد من زيارة مهند لأنها ممنوعة من دخول إسرائيل.

على مر السنين، عُرف عن بسام عرامين تكريسه نفسه للمصالحة، ونشاطه السياسي الذي لا يلين من أجل الحرية الفلسطينية. بسام هو والد عبير ذات السنوات العشر التي قتلها جندي إسرائيلي. لقد صاغ بسام عبارة «بار متزفاه الفلسطينية»[1] كي يصف الرعب الذي يعانيه معظم الشباب الفلسطينيين على أيدي الجنود

(1) بسام عرامين، «بار متزفاه الفلسطينية»، الانتفاضة الإلكترونية، 21 يوليو 2008.
http://electronicintifada.net/content/palestinian-bar-mitzvah/7624

الإسرائيليين. كتب بسام مقالة بالعنوان نفسه بعد أن قام الجيش الإسرائيلي بوضع ابنه عرب في كابوس حقيقي. هذا الكابوس - كما كتب بسام في ما بعد - حدث قبل أقل من سنتين من مقتل عبير. يمثل هذا الكابوس الخبز اليومي، وشعائر العبور لكل صبي فلسطيني.

حدث ذلك في أحد أيام الجمعة من شهر يوليو 2008، عندما طلب ابن بسام، واسمه عرب، وعمره 14 عاماً في ذلك الوقت، أن يذهب مع أصدقائه في رحلة نادرة إلى بحر الجليل في الشمال. وظل يتوسل إلى أبيه بسام عدة أيام كي يسمح له بالذهاب. في البداية، رفض بسام مصراً على أنه ما زال صغيراً ولا يستطيع التنقل وحده بعيداً عن البيت دون والديه. ولكنه أذن له في النهاية، وذلك بشرط أن يبقى عرب على اتصال دائم معه طوال اليوم.

سافر عرب بالحافلة مع حوالى 45 شخصاً، معظمهم مراهقون وعائلات معها أطفالها. وكانوا كلهم مواطنين شرعيين في إسرائيل. واتصل عرب ليخبر أباه أن الحافلة قادمة وأن كل شيء يسير بسلاسة.

وكان اليوم ناجحاً بامتياز، ثم اتصل حوالى الساعة 11:00 في تلك الليلة ليقول إنه سيكون في البيت خلال نصف ساعة. وعندما مضت ساعة ولم يعودوا، قلقَ بسام واتصل بابنه ليعرف سبب التأخير. همس عرب لأبيه على الهاتف النقال: «هناك جنود كُثر هنا، أوقفت الشرطة الحافلة، ولا ندري لماذا، ونحن الآن في القدس، يطلب منا الجنود ألاّ نتحدث على الهاتف النقال، سأتصل لاحقاً».

وصف بسام في ما بعد الموقف في مقالته: «في الحي الصناعي وادي الجوز في القدس، كان الجنود الإسرائيليون على دراجات نارية ومعهم الشرطة ووحدات من الجيش. وكانوا يقفون على الطريق التي كانت الحافلة تسير عليها من طبرية إلى عناتا. وعندما مرت قربهم الحافلة، طلب الجنود من السائق التوقف».

أخبر عرب في ما بعد والده: «في تلك اللحظة لم أفكر في شيء إلا في عبير». أخبر الجندي المسافرين: «نحن من الأمن القومي». وأُمر الشباب - وكانوا حوالى عشرة - أن يبدؤوا بخلع ثيابهم في الحافلة أمام النساء والفتيات. ثم أخرجوا من الحافلة واحداً تلو الآخر، وأُمروا بالاستلقاء على الأرض التي كانت

متسـخة بالحجارة والزجاج المكسـر. لم يفهم عرب الأمر، وسـأل والده في ما بعد: «كيف يمكنهم أن يطلبوا من الشباب أن يخلعوا ملابسهم أمام النساء؟ ليس لديهم أخلاق!». شرح بسام: «الإذلال عن طريق أمر الناس بأن يتعروا بالقوة لم يحدث فقط لأصدقائك؛ إنه طريقة يستخدمها الجيش الإسرائيلي. عندما كنا في سـجونهم دون وسـيلة للدفاع عن أنفسـنا، كان حراسُـنا يشعرون بمتعة سادية في أن يرونا عراة، وفي إذلالنا».

لأن «عرب» كان أصغر من بقية الأولاد، فهو لم ينزل من الحافلة، وبقي مع النسـاء والأطفال. ثم صعدت مجندة إلى الحافلة، وقالت: «أحضر الكلب». في تلك اللحظة، صعد جندي ومعه كلب هجومي إلى الحافلة وبدأ يرعب الجميع.

لم يسـتطع عرب الاتصالَ بوالده مرة أخرى إلا بعد سـاعات. وصف بسـام الوضـع: «لا توجـد كلمـات يمكـن أن تصف الحال التـي كنت عليها خلال تلك الساعات. كنت أنتظر مكالمته التالية، مرعوباً من فكرة أنها ربما لن تأتي. جاءت المكالمة عند الساعة 2:30 من بعد منتصف الليل».

أخبر عرب أباه: «نحن في المسـكوبية». مشـيراً إلى مركز الاعتقال الرئيس في المجمع الروسي في القدس.

«لماذا احتجزوكم؟».

«لم يخبرونا بشيء».

«اذهـب للجنـدي وقـل له: «عليك أن تتحدث إلى والدي، إنه لا يعرف أين أنـا». قـال عـرب إنه يخشـى أن يقوم بذلـك. فقد ضربوا الكثير من الأطفال هناك لأنهم تكلموا، ولم يكن يسـمح بالحديث. «أنت ولد شـجاع، لا ينبغي عليك أن تخشى الجندي. تكلم معه بالعبرية». وعلى الهاتف تمكن بسام من سماع عرب يمشي باتجاه الجندي ويقول: «من فضلك، هل يمكن أن تتحدث إلى والدي؟». ولكـن الجنـدي طلـب منـه أن يسـكت، وأن يغلق الهاتف النقال قائـلاً: «إن كان والدك يريد أن يراك، فأخبره أن يأتي إلى هنا».

فقد بسام أعصابه، وصرخ بأعلى صوته: «أين ابني يا قتلة!؟ هل تريدون أن تقتلوه كما قتلتم أخته؟». أخبر بسام «عرب» أن يشغل مكبر الصوت في الهاتف

النقال حتى يسمع الجندي كلامه. قال عرب: «لا تخف يا أبي، أنا بخير. سوف يتركوننا بعد قليل كما قالوا؛ سأتصل بك بعد قليل». ثم أغلق الهاتف.

أخيراً، ترك الجنود المجموعة عند الساعة 3:00 صباحاً. وصل عرب إلى البيت بعد أربعين دقيقة. كان مرهقاً ولكنه سليم. بعد أن حدث أباه بكل القصة، طلب منه شيئاً فاجأ «بسام» جداً: «أريد أن تأخذني معك عندما تذهب إلى واحدة من محاضراتك في إسرائيل حتى أخبر الإسرائيليين عما فعله الجنود هذه الليلة».

«هل أنت جاد؟».

لطالما استغرب عرب عزم بسام على الحديث مع الإسرائيليين. ولكنه أصر: «يجب أن يعرفوا بما حدث حتى يمنع أهالي أولئك الجنود أبناءهم من التصرف بتلك الطريقة تجاه النساء والأطفال».

عندما علمت بما حدث لعرب، شعرت بالحاجة لإخبار جيلا والأولاد بالقصة كلها. لا أستطيع أن أترك أولادي يكبرون وهم لا يعرفون حقيقة أن مثل هذا الظلم يحدث. ولذلك وخلال عشاء ليلة الجمعة أخبرتهم بما حدث فبكوا جميعاً. لم يستطع إيتان ولا دورون اللذان يحبان بسام جداً الحديثَ، وكذلك أنا.

اضطهدت إسرائيل رجالاً كخالد وبسام ومازن والآلاف غيرهم، ومع ذلك ما زالوا يكرسون أنفسهم للمصالحة. إن التجارب التي عانوا جراءها على يد إسرائيل ليست غير عادية، ولكنها نموذج لما يعانيه الفلسطينيون الذين قابلتهم. غير أنهم لا يسمحون لتصرفات الجيش الإسرائيلي أن تقف حائلاً دون عملهم المهم.

عدت عدة مرات إلى عناتا، ورام الله، والدهيشه كي أقوم بتعليم الكاراتيه. وكل مرة أنظر فيها إلى الأطفال والشباب الذين يرتادون دروسي، يزداد تقديري لهم وإعجابي بهم لأنني أعرف من هم، وما الذي تحملوه كي يبقوا فقط على قيد الحياة. إن الألم الذي أشعر به عندما أغادرهم وأرتحل يزداد حدة عندما أطوف في هذا البلد بحرية؛ هذا البلد الذي هو – على الأقل – لهم مثلما هو لي، إن لم يكن أكثر.

الفصل الخامس عشر

أبو علي شاهين

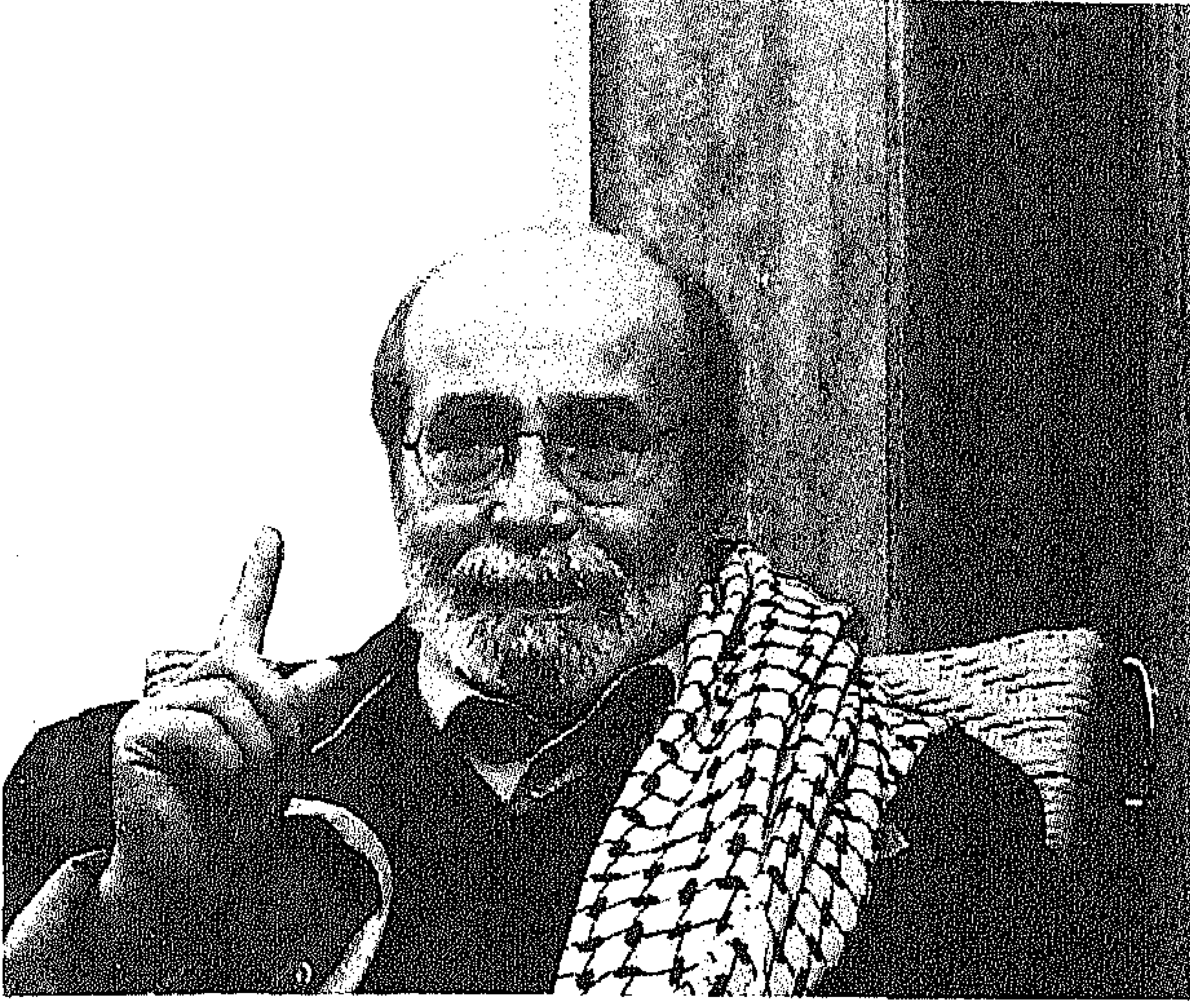
«ما الذي غيرَ والدكَ؟».

كثيراً ما يسألني الناس عمّا جعل ماتي بيليد يتحول من جنرال معروف بآرائه المتشددة، والذي طالب بالحرب بشكل واضح، إلى رجل عازم على تحقيق السلام، ومُكرساً نفسه له. إن إصراره على أن تتحرك إسرائيل بحزم ضد مصر عام 1967 ودعوته للضربة الاستباقية كانا جزءاً من إرثه، وكلماته القاسية لرئيس الوزراء في الاجتماع الذي سبق الحرب لا تُنسى. لكن تكريسه نفسه للسلام والمصالحة وآراءه المسالمة في الجزء الأخير من حياته تجعل من الصعب التصديق أنه خلال وجوده في الخدمة العسكرية ساهم بشكل محوري في تطوير الجيش الإسرائيلي، وبالفعل لم يكن في تلك الأيام حمامة ليبرالية.

كانت لوالدي طريقته في الإجابة على هذا السؤال في المقابلات التي كانت تجري معه، وفي المقالات التي كان يكتبها. كان يقول بهدوء: «عندما كانت أهداف إسرائيل الاستراتيجية تقتضي الحرب أيدتُ الحرب، وعندما كان السلام ممكناً، ناديت بالسلام». وكان يضيف: «لا يوجد صراع من أي نوع هنا». وكانت تلك إجابة عقلانية مناسبة له.

لم يخطر لي قطّ، كما لم يكن لدي سببٌ يوماً ما، أن أعتقد أن هناك لحظة فارقة أو حدثاً أثر فيه بما يكفي حتى يغير تفكيره. لم يكن أيضاً، يتأثر بالعواطف. كان هذا ما اعتقدته على الأقل. وبالنسبة لي وللعائلة، لم تكن هناك حاجة إلى المزيد من التمحيص في هذه القضية، أو أن نحفر أعمق كي نعرف دوافعه.

في عطلة نهاية الأسبوع التي قضيتها في أول رحلة لي بمخيم الدهيشه للاجئين بهدف تعليم الكاراتيه، اتصلت بجمال لأرى إن كان لديه وقت في



أبو علي شاهين، القائد الفتحاوي وقائد السجناء السياسيين الفلسطينيين لأكثر من عقدين.

الأسبوع التالي. قال إن هناك شخصاً يريدني أن ألتقيه شخصياً، واسمه أبو علي شاهين. قال جمال: «إنه الرجل الذي صنع النظام الذي ضبط حياتنا في السجن وأرشدنا. كان قائدنا، وهو يحترم أباك جداً. في الحقيقة، زار قبر والدك عدة مرات، ويريد أن يقابلك».

لم يعنِ الاسم كثيراً بالنسبة لي، ولكني تقتُ لأتعرف على هذا الرجل. وعليه، ركبت الحافلة من شرق القدس إلى رام الله حيث التقيت «جمال». مشينا بالسيارة معاً كي نأخذ بعض أصدقاء جمال، وكلهم رجال قضوا سنوات في السجون الإسرائيلية، وكل واحدٍ منهم له قصة تملأ مجلدات. وصلنا إلى بناية سكنية كبيرة في رام الله، حيث رحب بنا عند الباب رجل صغير البنية، شعره أبيض وكذلك لحيته، ويضع نظارة، وأخذنا بالأحضان والقُبل، ثم دعانا إلى غرفة مكتبه. سألت إن كان بإمكاني تصويره. لم أكن متأكداً من ردة فعله، ولكني شعرت بأهمية اللقاء، ولذلك أردت أن أسجله. لم يمانع، وخرج من الغرفة، ليعود بكوفية ملونة بالأبيض والأسود - وهي رمز فتح - على كتفيه. ذلك هو أبو علي شاهين؛ قائد فتحاوي وقائد السجناء الفلسطينيين السياسيين لأكثر من عقدين.

قال وهو يبتسم: «هذه هي المرة الأولى التي أتحدث فيها بالعبرية منذ عام 1982». وهكذا بدأت قصة طويلة آسرة يحكيها رجل كان في لحظة من اللحظات

واحـداً مـن أقرب المسـاعدين لياسـر عرفات، كما كان فـي قائمة أهم المطلوبين لإسرائيل. وأكثر من ذلك، كان يعرف شيئاً عن والدي لم أسمع به من قبل. بدأ بالقول: «أثناء حرب 1948 قُتل والدي». علمت في ما بعد أن «أبو علي» ولد في يناير 1939، ولذلك لم يكن قد بلغ 10 سنوات عندما قُتِلَ والده. أضاف أبو علي: «قاد أبي القوات التي دافعت عن قرية بشيت[1]، وقتل في المعركة. بعد المعركة دُمـرت قريتنـا، وانتهـى بنـا المقام في مخيم رفح للاجئين بقطاع غزة. قُتِلَ والدي في المعركة، ولكن الحرب حرب، ومن المتوقع أن يُقتل المرء فيها. ولكن، في عام 1967، وبعد أيام قليلة من انتهاء حرب الأيام السـتة، ذبح الإسـرائيليون كل عائلتي، وكانوا كلهم مدنيين، وليس بينهم مقاتل».

قام أبو علي عن كرسيه وبدأ يصب القهوة لنا جميعاً. توقف ونظر إلي وقال: «وهكذا تعرفت إلى أبيك». وشعرت بالحيرة. لم يكن لأبي شأن في غزة في عام 1967. وقلـت: «مـا علاقـة أبـي بالأمر؟». قال: «سـآتي لهذه النقطة بعد لحظة. بعد الحرب بأقل من أسـبوع جاء ضابط عسـكري إسـرائيلي إلى حينا في مخيم رفح للاجئيـن فـي غـزة، وكان علـى رأس سـرية مـن الجنـود ومعه جرافة. أمـرَ الجنودُ الجميـعَ أن يخرجـوا مـن بيوتهـم. فتـش الضابطُ الجميعَ ثم أعاد النسـاء والأطفال الذين تبلغ أعمارهم أقل من 13 عاماً إلى البيوت. وأخذ كل الرجال والأولاد الذين تزيـد أعمارهـم عـن 13 سـنة إلى مكان آخر من المخيـم، وابتعد بهم حتى لا ترى العائلات شـيئاً. ثم أمر الجنودُ الجميعَ أن يقفوا قبالة الجدار وأطلقوا النار عليهم فأردوهم قتلى. وبعد ذلك، أطلق ضابط النار على رؤوسهم؛ واحداً تلو الآخر.

سألتُ: «كم شخصاً؟».

«أكثر من 30، من بينهم صبي عمره 13 عاماً وعجوز عمره 86 عاماً. بعد أن أطلقوا النار عليهم، وضعت الجثث في صف واحد على الأرض، وبدأت الجرافة

---

(1) وتعرف أيضاً باسم بيت شيت (وهو نبي معروف في التقاليد الإسلامية، وهو الابن الثالث لآدم عليه السلام طبقاً للتقاليد اليهودية). كانت بشيت قرية يقربُ عدد سكانها من 20 ألفاً، وتقع بين قرية يبنا وإسدود. للقرية تاريخ عريق يعود إلى القرن الثاني عشر. دمرت قوات جفعاتي القرية عام 1948. وتم إبعاد أهلها، ونُفي معظمهم إلى قطاع غزة، حيث عاشوا لاجئين.

تمشي على الجثث ذهاباً وإياباً حتى أصبح من المتعذر التعرف إلى الجثث».

«كيف عرفت؟».

«تم الأمر في وضح النهار، والكثير من الناس شاهدوه. شاهدوا الجرافة، وشاهدوا الضابط وهو يطلق النار على رؤوس الجميع فرداً فرداً. وهناك شهادات شهود عيان. هُرعت أمي إلى الخارج عندما علمت بالخبر، وكانت أول من رأى الرجال والأطفال الذين تم قتلهم. ولم تستطع تمييز الرجال والصبيان إلا من ملابسهم».

كنت بالكاد قادراً على هضم كل هذا، كما كانت علاقة أبي بهذا الأمر تحيرني.

سألت «أبو علي»: «هل كنتَ في غزة حينها؟».

قال: «لا، كنت في الضفة أعمل في الخفاء. جاء أحد أصدقائي في أحد الأيام ونقل لي ذلك الخبر السيئ. عندما أكدوا لي أن هذه المجزرة قد حدثت بالفعل، شعرت بألم هائل؛ حتى إنني ظننت أن قلبي سينفجر. كنت أدرك لحظتها أنه لا يمكن أن يخطر لي أنني يمكن أن أسبب ألماً شبيهاً لأي أحد. لا يهمني إن كان الشخص إسرائيلياً، أو يهودياً أو أي شيء على الإطلاق؛ لأن هذا النوع من الألم لا ينبغي لأحد أن يتعرض له».

كان الجو في الغرفة يزداد توتراً. وكان أبو علي يجلس مستريحاً على كرسيه وراء مكتب كبير عليه كتب وجرائد، بينما كنا جالسين على حواف مقاعدنا. كان جمال يتدخل من حين لآخر في حال لم يجد أبو علي الكلمة العبرية المناسبة، أو يساعد في الترجمة في حال طلب منه أبو علي ذلك. ولكن، كان من الواضح أن القصة برمتها كانت جديدة على الجالسين جميعاً.

قلت: «يا «أبو علي»، لا أستطيع أن أفهم علاقة أبي بما حدث».

رد أبو علي: «سأصل إلى هذه النقطة. بعد ذلك أُلقي القبض علي وتم التحقيق معي وتعذيبي لخمسة أشهر. خلال فترة التحقيق قلت للمحقق، واسمه بنحاس: لماذا تقولون إننا قتلة؟ أنتم القتلة وليس نحن. لماذا قتلتم رجلاً في 86 من عمره؟ ما الذي كان يمكن أن يفعله لكم؟ لماذا قتلتم صبياً عمره 13 عاماً؟

اهتم بنحاس بما قلته، وطلب مني التفاصيل. وعندما جاء في اليوم التالي، أخذ أسماء الناس الذين قُتلوا. ثم جاء بنحاس كي يراني وكان معه ضابط آخر، وقال: انظر إلى هذا الرجل، سوف يرسل من يتقصى مذبحة أقاربك».

قلت: «هل استخدم في الحقيقة كلمة مذبحة؟».

كنت متشككاً، ولذلك أكد أبو علي بالقول: «نعم، هو استخدم كلمة مذبحة».

وأضاف: «ولم أعرف إلا بعد سنين طويلة، أي في عام 1979 أن ذاك الضابط كان يعمل مع والدك، وعلمت بما فعله والدك. كنت في سجن شطا في ذلك الوقت، وكنت أتحدث مع ضابط من الشاباك (جهاز الأمن العام الإسرائيلي)، وهو أول من أخبرني أن الجنرال ماتي بيليد سمع كيف قتلت عائلتي في رفح وذهب ليتأكد بنفسه. في ما بعد، أكد أهالي رفح أن ماتي بيليد جاء إلى المخيم شخصياً».

كنت أسمع عن ذاك الموقف لأول مرة، وقد هزني كل ما حصل. حولت بصري نحو رفوف الكتب كي أخفف شيئاً من التوتر داخلي. كانت الرفوف مليئة بالكتب والمجلدات؛ مما ذكرني بمكتبة أستاذ جامعي. كان من الواضح أن «أبو علي» مثقف إلى درجة ما، وكانت لديه عقيدة سياسية راسخة أساسها المبدأ. ولكن، لماذا اهتم والدي بهذه القصة هذا الاهتمام؟ لم يكن لدي جواب إلا أن الموضوع قد وصل إليه وأراد أن يرى بعينه ما حدث.

ولكن، كان هناك ما هو أكثر.

قال أبو علي: «الجميع في رفح تحدثوا عن حقيقة أن ماتي بيليد جاء شخصياً، بل قاد السيارة بنفسه، وزار بيوت الضحايا. وقد كان واحداً من أعظم ضباط الجيش الإسرائيلي، وجنرالاً له احترام كبير، وهو مستقيم كالسهم، وقد كان حاكم غزة العسكري. زار أبوك بيت عائلتي، وتحدث إلى الكبار وقدم تعزيته للأطفال. تحدث الأهالي عن مدى انزعاجه عندما أخذوه ليرى المكان الذي ارتكبت فيه المذبحة. كتب أبوك تقريراً لإسحاق رابين وحاييم بارليف، ولكنهما لم يفعلا شيئاً».

توقف أبو علي، وارتشف شيئاً من القهوة، وقد ارتحل بنفسه إلى ذاك الزمان والمكان، وأخذنا معه. ولقد تمنيت لو أنني كنت مع والدي في مكتبه عندما سمع

بما حصل وقرّر أن يذهب إلى غزة ويرى بنفسه. تمنيت لو كنت معه عندما وصل إلى غزة وبدأ يتجول في المكان ويرى ما حصل. فقد كان يتحدث العربية بطلاقة في ذلك الوقت، ولذلك لم يكن في حاجة إلى مترجم. ولم يكن ساذجاً، ولم يفاجئه أن يرى ضباطاً وجنوداً يمكنهم أن يعتدوا على الناس. أذكر أنه في تقريره عن غزة الذي قدمه بعد فترة وجوده فيها كحاكم عسكري، ذكَرَ حالة الفوضى التي مارسها الجنود قبل أن يصبح حاكماً لها.

قال أبو علي: «أصبح معروفاً أن هذه المذبحة غيرته من رجل عسكري إلى رجل كرس حياته للسلام. شعرت أن والدك كان معنا، وقد أزال هذا الأمر الغضب من قلبي تماماً. تماماً!».

تعلمت أن أتحكم في مشاعري بشكل يمنحني القدرة على عدم إظهار عواطفي، ولكن هذا القائد الفلسطيني البطل والوطني كان يتحدث عن والدي، الجنرال ماتي بيليد الذي كان من كل الوجوه عدوه اللدود. في الحقيقة، كان هذا الرجل لعدة سنوات العدو رقم واحد تقريباً. كان هذا الحديث أكثر من أي حديث آخر سمعته من أي شخص يتحدث عن والدي، وقد قال كل هذا باحترام شديد وتقدير لوالدي.

نظر أبو علي حينها إلى جمال والفلسطينيين الذين معه، وتحدث إليهم بالعربية. عندما أنهى، قلت: «بعد الحرب مباشرة، قال أبي – وكان لا يزال يلبس البزة العسكرية – إن على إسرائيل أن تعترف بحقوق الفلسطينيين. وقال إننا إذا لم نفعل ذلك، فسوف يصبح الجيش الإسرائيلي قوة احتلال، وسوف يلجأ للوسائل الوحشية كي يفرض الاحتلال الإسرائيلي على الشعب الفلسطيني. قال ذلك وهو في الجيش، ولم يتوقف عن تكراره والدفاع عن حقوق الفلسطينيين حتى مات».

نظر جمال ومن معه إلي، وقال جمال: «هذا ما قاله أبو علي لنا للتو وهو يتحدث بالعربية».

قرأتُ حول ذلك التصريح، وأعرف أنه قاله في اجتماع لهيئة أركان الجيش الإسرائيلي مباشرة بعد الحرب، ولكنني الآن أتساءل في ما إذا كان قد صرح بذلك قبل أم بعد ما رآه في غزة. وقد قرأت ما قاله عدة مرات: «إذا احتفظنا

بهذه الأراضي، فسوف تنهض المقاومة الشعبية ضد الاحتلال، وسوف يُستخدم الجيش الإسرائيلي لقمع تلك المقاومة، وستكون النتائج كارثية ولا أخلاقية».

في ضوء ما أخبرني إياه أبو علي، صدقت كلمات أبي كما لو كانت نبوءة. لقد كان يقلقه دائماً النسيج الأخلاقي للمجتمع الإسرائيلي وللجنود الإسرائيليين. هل رأى الإشارات الأولى على الوحشية ولذلك صرح بهذه الأشياء؟ لم تكن لدي وسيلة للتأكد من هذا.

كنا جميعاً صامتين لعدة دقائق عندما دعتنا أم علي، زوجة «أبو علي»، للغداء. تناولنا الغداء مع عائلته وأصدقائه، وتكونت المائدة من لحم خروف قدمه لنا أبو علي بيديه، مع الأرز واللبن. أكلنا معاً ثم جلسنا في غرفة المعيشة وقدموا لنا القهوة والفواكه. لاحظت لوحة كبيرة لياسر عرفات معلقة على الجدار، وإلى جانبها صور لمحمود درويش وتشي جيفارا.

كنت متعباً، ولكنني أردت أن أعرف المزيد، وخاصة عن تجربة «أبو علي» في السجن. أخبرني جمال أن «أبو علي» كان له حظ وافر في تكوين طريقة حياة المعتقلين في السجن، ونظام دراستهم، والنشاطات السياسية التي كانوا يقومون بها. كيف يمكن لرجل محروم من كل شيء أجده أنا مضموناً لي أينما حللت في العالم، كيف يمكن لهذا الرجل أن يحيا ويمارس حياته، بل ويجد القوة الداخلية من أجل الاستمرار في القتال والمساهمة في رفاه الآخرين؟ لقد بنى حركة بكاملها أثرت في آلاف الناس.

وقد أكدت الباحثة في العلوم الاجتماعية الدكتورة الإسرائيلية مايا روزنفيلد ما قاله جمال:

إن الطبيعة التكوينية «لسنوات السجن» في ما يتعلق بالمساهمة في التعليم السياسي وتوعية الفرد حتى يصبح راشداً، تعود إلى العملية التي نجح المعتقلون الفلسطينيون في تنظيم أنفسهم من خلالها داخل السجون الإسرائيلية، وفي بناء ما أطلقوا عليه «النظام الداخلي»[1].

(1) مايا روزنفيلد، «مركزية الحركة الأسيرة» في (كتاب) التهديد: الأسرى الفلسطينيون في إسرائيل، تحرير عبير بكر وعنات مطر (لندن: بلوتو برس، 2011)، 11.

وكتبت د. روزنفيلد أيضاً: «من النادر أن تجد عائلة في الضفة الغربية أو قطاع غزة لم تجرب اعتقال واحد من أبنائها على الأقل».

من الواضح أن هذه القضية تحدد معالم المجتمع الفلسطيني أكثر مما هو معروف بكثير. وهذا الرجل الذي قضيت معه ما يقارب يوماً كاملاً، كان وراء هذا النظام الذي حوّل سني السجن التي كان على الكثير من الشباب أن يعانوها إلى تجربة تعليمية وذات معنى بالفعل. بعد الغداء، طلبت من «أبو علي» أن يواصل حديثه عن حياته وعمله في السجن.

بحلول الوقت الذي أعيد فيه احتلال غزة عام 1967، كان أبو علي قائد لواء فتح الجنوبي الذي كان يشمل المناطق الجنوبية في الضفة الغربية، وهي بيت لحم والخليل والقرى المجاورة، بالإضافة إلى قطاع غزة.

«بعد الحرب، سافر ياسر عرفات وكنت معه إلى الضفة الغربية وقطاع غزة كي نتفقد خلايا فتح العسكرية. نقلنا أسلحة ومقاتلين من غزة، حيث كانوا قد تدربوا جيداً، إلى الضفة الغربية حيث المقاتلون قليلو التدريب».

كان هذا أمراً لا يُصدَّق. قائدان فلسطينيان سريان، كانا على قائمة أكثر 10 مطلوبين، يسافران في مناطق كانت قوات الجيش الإسرائيلي تحتلها وتملؤها بجنودها. وكان عليهما أن يمرا من إسرائيل عندما يتنقلان من الضفة إلى غزة. هذا يعني أن ياسر عرفات - الذي لم يكن معروفاً عالمياً في ذلك الوقت، ولكنه لم يكن غير معروف للمخابرات الإسرائيلية - استطاع التسلل من تحت ستار، ربما من الأردن تحت بصر الجنود الإسرائيليين وجهاز المخابرات الإسرائيلية التي كانت عيونها تملأ المناطق التي غزوها. تمكن عرفات حينها من التنقل داخل إسرائيل بطريقة ما، والدخول إلى منطقة محتلة أخرى؛ حيث ذهب إلى قطاع غزة.

واصل أبو علي بشكل أسرع إلى درجة أنني لم أستطع أن أهضم كل شيء. ولم تكن لدي فكرة أنه كانت هناك خلايا عسكرية نشطة في ذلك الوقت تتدرب داخل المناطق التي تديرها إسرائيل. فقد كنت أحاول أن أضع يدي على حقيقة أنني أسمع كل هذا من قائد فتحاوي. لقد كان ذلك عملاً بطولياً، وكان لدي مليون سؤال أردت أن أطرحها عليه.

سألت: «متى ألقوا القبض عليك؟ وكيف؟».

أجاب: «سبتمبر 1967. وشى بي أحد المخبرين. كنت في الحافلة من غزة إلى القدس. أخفضت رأسي إلى الكرسي الذي كان أمامي طوال الوقت حتى أحافظ على وجهي مخفيًّا. وعلى بعد خمسة أميال من القدس توقفت الحافلة. بقيت مخفضاً رأسي، وبعد عدة دقائق، شعرت بشخص يضربني فوق رأسي بقوة جعلتني أظنّ أن رأسي سينفجر. رفعت بصري لأجد قوات الماجاف؛ شرطة الحدود والجنود. رأيت الشخص الذي وشى بي يقف خارج الحافلة إلى جانب جيب عسكري. قُتل في ما بعد في فرانكفورت. بعضهم ذهب إلى هناك لتحقيق هذا الهدف.

«أثناء التحقيق، كادوا يقتلونني! إذ تركوني وحيداً في زنزانة صغيرة ومظلمة لمدة خمسة أشهر، حيث كانوا يعذبونني ويضربونني. لم يكن في الزنزانة مرحاض، وكان علي أن أحتمل البراز، ولكن لم أتعاون معهم ولم أقل كلمة. بعد خمسة أشهر من التحقيق أخذوني خارج الزنزانة، وغسلوني بمطفأة حرائق وقالوا: نظف نفسك أيها العربي القذر. ثم أخذوني إلى صرفند، وهي قاعدة عسكرية قرب تل أبيب، حيث أجلسوني في غرفة وحدي، ودخل علي رئيس هيئة الأركان الجنرال إسحاق رابين، ومعه نائبه الجنرال بارليف، ورئيس الاستخبارات العسكرية الجنرال ياريف».

كان أولئك الرجال هم الأقوى في إسرائيل في ذلك الوقت. قال أبو علي: «وتحدث ياريف بينما كان الآخران يستمعان وقال لي: لا تريد أن تتكلم، من تظن نفسك؟ هل تظن أنك بطل؟ هل تعرف أننا هزمنا عبد الناصر وجميع جيشه؟ هل تظن أننا لن نهزمك؟». وسأل واحد من أصدقاء جمال إن كان إشعال سيجارة أمراً مسموحاً؛ وهو أمر لم يكن غير اعتيادي بشكل كبير؛ لأن الجميع يمكن أن يدخنوا في فلسطين في أي مكان وفي كل الوقت. لم نكن - جمال وأنا - ندخن، ولا يبدو أن «أبو علي» يدخن أيضاً. وطلب جمال من صديقه ألا يدخن، ولكن «أبو علي» لم يمانع بشرط أن يفتح الشباك. كنت أتفهم أنه من الصعب بالنسبة للمدخن أن يجلس كل هذا الوقت دون تدخين، ولذلك لم أمانع أيضاً. فتح الشباك، وأشعل السيجارة. أراد جمال أن يزيل التوتر قليلاً، فوضع

يده الكبيرة علي وقال بالعربية: «أهلاً يا ميكو». ورددت قائلاً: «أهلاً فيك». كان ذلك كله مشهداً سريالياً، فأنا إسرائيلي يجلس هناك في انسجام تام مع أولئك الفلسطينيين، وهم مقاتلو حرية سابقون. وقف أبو علي، وسكب لنا قهوة عربية مرة أخرى في فناجين صغيرة، ثم واصل حديثه: «ظننتُ أنني سأقتل قريباً، وأن تلك كانت الفرصة الوحيدة التي يمكنني أن أتكلم فيها. ولذلك نظرت إلى أولئك الجنرالات الثلاثة وقلت: يوماً ما، عندما نحرر، نحن الفلسطينيين، تل أبيب، ثم نلقي عليكم القبض وتصبحون أسرى عندي، وتخضعون للتحقيق، هل ستتحدثون؟ هل ستسلمون أصدقاءكم ورفاقكم في السلاح؟».

قلت: «وعليه، أنت لم تتكلم؟».

رد بالقول: «أبداً! كان من الخزي أن أحكي، فقد كنت قائداً وإذا تكلمت أثناء التحقيق فلن أستطيع أبداً أن أرفع رأسي بين المعتقلين الآخرين. بل إنني لم أتكلم عما فعلته حتى اليوم. ولقد فعلت الكثير، لقد كتبت عن كل شيء، وأحتفظ بما كتبته في مكان ما خارج البلاد. بعد أن أموت، يمكنهم أن ينشروا ما كتبته ويعلموا عن الأشياء التي قمنا بها». قد أكون كاذباً لو قلت إن هذا لم يثر فضولي، ولكني احترمت التزامه بالصمت.

رفع أبو علي إصبعه ونظر نحوي مباشرة: «ولكني لم أعطِ أمراً يوماً بإيذاء المدنيين، ولم أقم بذلك بنفسي قطّ. بل إن المدعي في محاكمتي قال: إنه عدو الكاكي، ويعني الجيش. كل عملياتي – وكان عددها كثيراً – كانت ضد أهداف عسكرية».

عندما كنت صغيراً، أذكر أن كلمة «فتح» كانت تعني العدو؛ حسب الطريقة التي فهمت في ضوئها الأشياء كطفل قبل سنين طويلة، فقد كانوا هم قتلة اليهود منذ النازيين، وقد تم تصويرهم على أنهم أكثر الناس شرًّا وأكثرهم إثارة للرعب وعطشاً للدماء. أما أنا فابن جنرال إسرائيلي، وها أنا الآن أجلس مع قائد فتحاوي من الأيام التي كنت فيها طفلاً، ومع بعض مقاتلي فتح الذين كانوا أقرب لي من حيث السن. ولو أنه تم حل الصراع وساد السلام فلربما كان تذكر الأيام الماضية فيه شيء من الرومانسية. ولكن الصراع لا يزال مستمراً وكذلك المقاومة. ومع

ذلك، فقد كنت هناك وكانوا هناك؛ كلنا معاً كما لو كنا جميعاً على الطريق نفسه؛ آملين بغدٍ أفضل.

سأل أبو علي سؤالاً بلاغياً: «ما الفائدة من قتل المدنيين؟ إن آذيت الجيش فقد آذيت الدولة، وإن آذيت المواطنين فماذا تحقق؟ لم أتصرف يوماً بهدف انتقامي أيضاً».

أراد جمال أن يتأكد أن الفكرة قد وصلت لي ولذلك أوضح: «لم يثأر أبو علي لعائلته التي ذبحت كلها في رفح قطّ».

وذكرني ذلك بسطر من فيلم المترجم مع نيكول كدمان، حيث تقول: «إن الانتقام شكل كسول من أشكال الحزن».

بالعودة إلى «أبو علي»: «عندما بدأ التحقيق معي، كان وزني 75 كلغ، وكانت بنيتي الجسدية متينة. كنت أمشي 120 كلم في ليلة واحدة؛ وأنا أحمل العتاد العسكري على ظهري. في نهاية الأشهر الخمسة، عندما أرسلوني في النهاية إلى السجن، كان وزني 39 كلغ. أرسلوني إلى سجن الرملة ولكن مأمور السجن لم يقبل أن يستلمني، فقد كنت هزيلاً جداً وخشي أن أموت وأنا تحت إدارته.

وضعوني في السجن مع مجرمين أشرار. أتذكر واحداً منهم على وجه الخصوص، واسمه شمايا أينجل. كان شمايا من أمراء الجريمة المشهورين في إسرائيل، وكان قاتلاً محترفاً. ظنوا أن المجرمين الإسرائيليين يمكن أن يقتلوا عربياً مثلي ولكن هذا لم يحصل. في الحقيقة، أنشأت علاقة مع كل رؤساء العصابات داخل السجن. ووصلنا إلى اتفاقية تنظم العلاقة بيننا؛ لأننا كنا متحدين في نضالنا ضد سلطات السجن.

كنت أكتب أشياء إلى سجناء فتح الآخرين في أنحاء البلاد. شملت كتاباتي في قضايا السياسة، ومحاضرات في التاريخ، ومواضيع أخرى. وكان المجرمون يساعدونني في إيصالها إلى المعتقلين الآخرين. كنت أكتب بحروف صغيرة على قطع ورق صغيرة وأطويها، ثم نأخذ لُفافة بلاستيكية نحيفة ونلفها حول الورقة بإحكام، ثم نغلق لُفافةَ البلاستيك بالحرارة، حتى تصبح ضد الماء ثم يقوم شخص آخر إما بابتلاعها أو إدخالها في فتحة شرجه ويحملها معه عندما

يتم نقله إلى سجن آخر. وبمجرد أن تصل الورقة إلى السجون الأخرى، يستلم معتقلو فتح ما كتبته، ثم ينسخونه على أوراق كبيرة، ثم يقرؤونه لبعضهم».

كل هذا كان يتم بالتعاون بين «أبو علي» والمعتقلين الإسرائيليين؛ المجرمين وليس السياسيين.

تدخل جمال قائلاً: «بل كان عندنا دستور». يقول بعضهم للعالم إن الفلسطينيين لا يستطيعون حكم أنفسهم، ولكن هؤلاء الرجال استثمروا الوقت، وتجشموا العناء، وأخرجوا دستوراً بينما كانوا يعيشون في السجن تحت ظروف قاهرة تحول أفضل الرجال إلى حيوانات.

سألت «أبو علي»: «هل أنت الذي كتبت الدستور؟».

أجاب: «لا. تم إقرار دستور المعتقلين وسياساته من خلال انتخابات ديمقراطية. تواصلنا مع كل المعتقلين في كل السجون في أنحاء البلاد».

كان من الواضح أن «أبو علي» آمن بقيمة العملية الديمقراطية، وكان هذا كله في ظل ظروف مستحيلة. لقد عبّأ الناس، ومكّنهم من الفعل والتأثير كي تُسمعَ أصواتُهم. في الأيام الأولى، كان على السجناء «الأمنيين» أن يقاتلوا ويتفاوضوا من أجل الحقوق الأساسية مثل الأَسِرة والأغطية، والطعام الصحي، والماء النقي. لم يُعطَوا شيئاً دون نضال، وأنشأ أبو علي النظام الذي كان يسهل كل ذلك، في فترة كان يغرس فيها القيم الديمقراطية في أولئك الشباب المقهورين والمستضعفين والمعتقلين بلا قانون أو حكومة تحميهم أو تهتم بهم.

لماذا كنا نُشيطنُ أولئك الناس؟ لماذا كنا نخشاهم في الوقت الذي كان ينبغي علينا فيه أن نعانقهم؟

يحب الإسرائيليون أن يقولوا إننا لو كنا محظوظين بجيران متحضرين مثل السويسريين مثلاً، فلربما كانت الأمور مختلفة، ولربما حصلنا على السلام. ولكني تعرفت على الجانب الآخر من الفلسطينيين، الذي كان – والحق يقال – بطولياً. ولم أرَ أي سبب لعدم قدرتنا على التشارك في هذه الأرض بسلام، بل يمكننا أن نتشارك في الدولة أيضاً مع أمة يمكنها أن تنتج بطولة منضبطة في ظل أقسى الظروف.

واصل أبو علي: «تلك هي الوسيلة التي كانت الدروس توزع فيها ثم يتم تدريسها. ألفتُ كتباً عن حركات حرب العصابات والثورات؛ مثل الثورة الفيتنامية والكوبية والكمبودية، وتاريخ الصهيونية وأمريكا، والكفاح الجزائري من أجل الاستقلال وغيره».

التقط عقب سيجارة من منفضة سجائر وأراني إياها. «لم يتعدَّ كتاب كامل حجم هذا (عقب السيجارة). عندما كنت في سجن شطة (وهو سجن أمني بامتياز في شمال إسرائيل بالقرب من كيبوتس هاشيتا)، كنت في أقسام (الإكس)، وقضيت في العزل 12 عاماً، ولكن عقلي ما زال بخير». وضحك.

واصل مرة أخرى: «ولكن، كنت أنا في جهة وحارس السجن في جهة أخرى. لقد كان هو سجيناً أيضاً؛ إذ يجلس وحده في فناء صغير. على أي حال، هو إنسان، وكان يريد صحبة أيضاً. ولذلك فقد كنا نتحدث وعندما كان يتناول القهوة كنت أتناولها أيضاً. الحياة تضعنا في مواقف غريبة، وفي النهاية علينا أن نعيش معاً.

واصل أبو علي: «بعد أن انتهت مدة سجني، أرسلوني إلى الدهينية في غزة لمدة سنتين». الدهينية قرية في قطاع غزة بنتها إسرائيل للمخبرين والمتعاونين الذين يخشون العقوبة ولا يمكنهم العودة إلى بيوتهم. قال أبو علي: «أولئك كانوا أقذر الناس، وحثالة الأرض، وكان علي أن أعيش هناك لمدة سنتين. لم يكن مسموحاً لأحد الحديث معي. وكان ذلك عقاباً لي حتى لا أتكلم، وكان ذلك أسوأ بكثير من أي سجن، واستأنفت في المحكمة العليا طالباً أن يعيدوني إلى السجن، ولكنهم رفضوا طلبي. واحتج أبوك ومعه يوري أفنيري وتكلما ضد هذه العقوبة اللاإنسانية، ولكن ذلك لم يغير الحال. كنت أنظر إلى الجنود وأشتمهم، وأشتم الجيش الإسرائيلي، ولكني لم أتلقَ أي ردّ. من وقت لآخر كانت السلطات تأتي وتقول لي: يمكنك أن تفعل ما تريد، فلن يتحدث إليك أحدٌ هنا». تنهد بعمق وقال: «عمري الآن 72 عاماً. وسيكون عمري 73 بعد عشرة أيام. ما زلت أدفع ثمن ما فعلته في تلك الأيام، ولكني لست نادماً على أي شيء. لا، فأنا مقاتل وقائد كرست نفسي للكفاح. فعلت ما أملاه علي ضميري، وكنت جاهزاً

للموت كل لحظة قمت فيها بمهمة».

ثم توقف قليلاً واعتدل في جلسته وقال بهدوء: «كلنا ننتمي إلى هذه الأرض ونحتاج إلى العيش معاً. ليس دولة عربية أو دولة يهودية. اليهودية دين، وأنا أتحدث عن دولة علمانية لكل مواطنيها. هذه هي الطريقة الوحيدة للعيش هنا. فكون المرء يهودياً أو مسلماً أو مسيحياً أو ملحداً خيار شخصي، وليس لي أن أُملي على أحد معتقدي، كما ليس لأحد أن يُملي علي معتقدي. لا أريد راهباً أو حاخاماً أو شيخاً يحكم حياتي. نحن ننتمي لهذه الأرض ونحتاج أن نعيش هنا أكفاءً».

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي أسمعُ فيها شخصاً يتحدث عن «دولة ديمقراطية علمانية واحدة» كحل صائب. لقد كان تأسيس دولة ديمقراطية علمانية في كل فلسطين جزءاً من أدبيات فتح. في الماضي، لم أكن أهضم هذه الفكرة، ولكن كلما قابلت أناساً تقودهم المبادئ وأذكياء وباهرين مثل «أبو علي»، اعتقدت أنه لا فائدة من تقسيم الناس والأرض، ولا مستقبل لذلك؛ فضلاً عن الإشارة إلى حقيقة أن المستوطنات والوقائع على الأرض نجحت في محو الضفة كمنطقة قابلة للحياة، ويمكن أن تقام عليها دولة فلسطينية. كانت عائلتي كلها صهيونية، وكنت كذلك، ولكن تكونت شروخ في اعتقادي بالحاجة أو حتى المبرر لدولة لكي تكون يهودية.

ثم بدأ أبو علي يتحدث عن أبي مرة أخرى: «زرت قبر أبيك 9 أو 10 مرات، وكل مرة كنت آخذ فيها زهوراً. المرة الأخيرة كانت في نهاية 2003، ثم صادروا مني التصريح الذي يمنحني حقّ دخول إسرائيل، ولذلك لا أستطيع أن أسافر خارج الضفة الغربية».

عند تلك النقطة سأل واحد من الذين كانوا معنا في الغرفة: «"أبو علي"، لماذا زرت القبر مرات كثيرة؟ ألم يكن الجنرال بيليد مسؤولاً عن معاناتنا؟ فقد كان جنرالاً إسرائيلياً في النهاية».

وقف أبو علي، ونظرت إليه وفكرت في سرّي أنّ جسده الصغير قد يخدع من ينظر إليه لأول وهلة، ولكنه عندما يتحدث، فإن رجالاً ضخاماً يلزمون

الصمـت. قـال أبـو علي بلهجة فيها توبيخ واضح: «لم يكن الجنرال بيليد جنرالاً عادياً، لقد تغير نتيجة شيء رآه، ولم ينظر إلى الوراء قطّ. كان رجلاً عظيماً، وكان بإمكانه أن يكون عضواً في الحكومة أو رئيساً للوزراء لو ظل على الطريق. ولكن لا، لقد اتبع ضميره وظل ملتزماً به بقية حياته. لم ألتقه قطّ، ولكني شعرت وما زلت أشعر بقرب حقيقي منه».

عندما عدت إلى البيت ذلك المساء، أخبرتُ أمي هذه القصة. ردت مباشرة: «نعم، أذكر ذلك. كان أبوك منزعجاً جداً، ولم يستطع النوم لأسابيع. كتب لرابين وحاييم بارليف عنها، ولكنهما لم يفعلا شيئاً. لقد غيره ذلك تماماً».

الفصل السادس عشر

دولة واحدة، دولتان، ثلاث دول

كنا - رامي وأنا - نتجادل بشأن السياسة منذ 12 عاماً. وإذا سمعت صوتينا ونحن نتجادل سواء أكان ذلك في الماضي أو الآن، فستظن أن خلافاتنا لا يمكن تسويتها لأنها عميقة وأساسية. ولكننا في الواقع نتفق على معظم الأشياء، ومعظم جدالنا حول التفاصيل، مع استثناء واحد.

توصلت إلى إدراك أن إنشاء دولة ديمقراطية تعددية علمانية تقوم على كل فلسطين/ إسرائيل هو أفضل شيء للإسرائيليين والفلسطينيين، وأن حل الدولتين ليس حلاً على الإطلاق. وكانت تلك أكثر نقطة اختلاف بيني وبين صهري رامي. وعندما طُرح ذلك الحل لأول مرة في صيف عام 2007، دخلنا جولة من الصراخ مرة أخرى. ليس الأمر أننا لا نستطيع أن نتحدث إلا من خلال الصراخ، لكن القصة هي أنه عندما يكون الموضوع متعلقاً بمستقبل إسرائيل وفلسطين، فإننا لا نستطيع أن نتحدث دون صراخ.

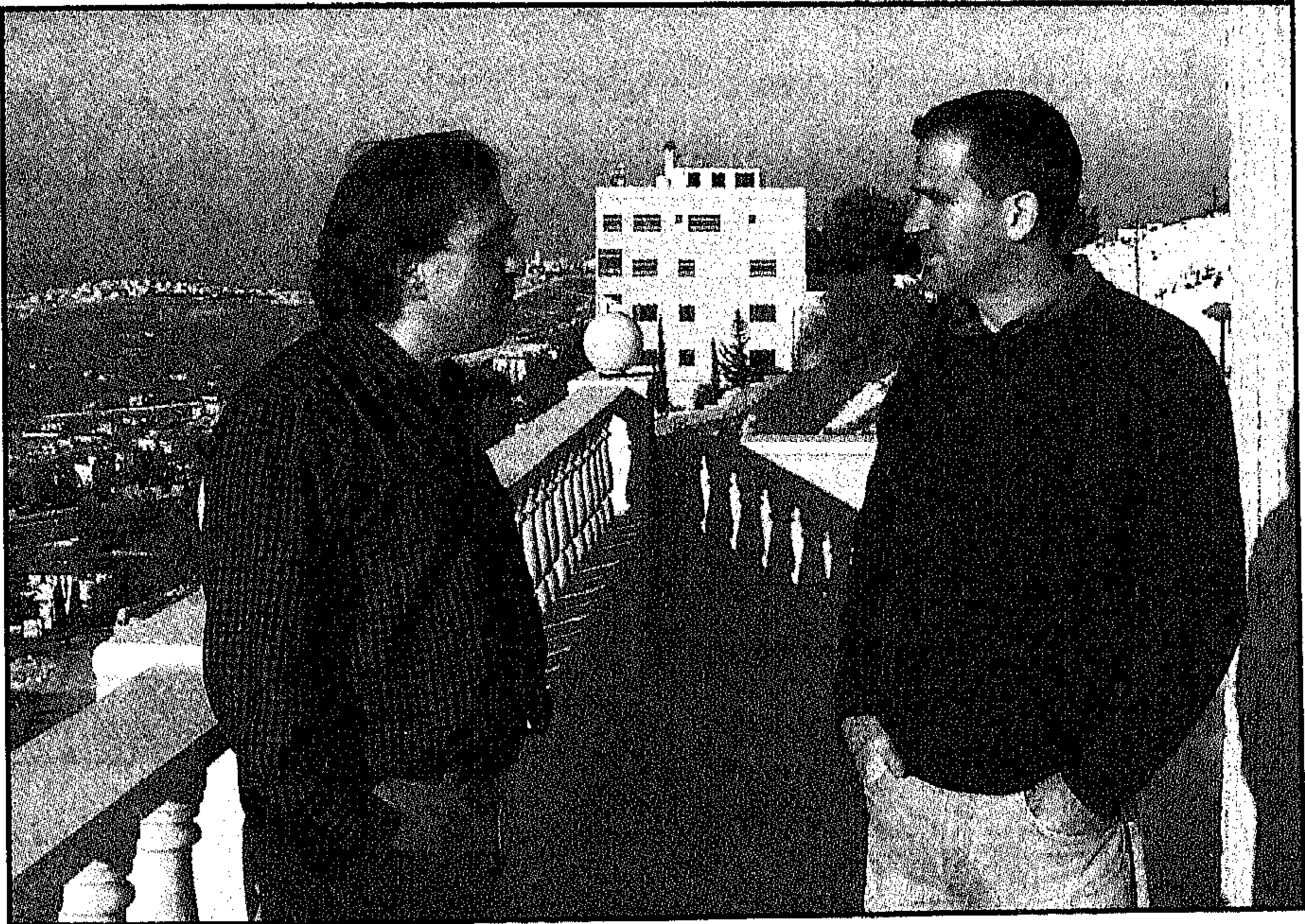
يعمل رامي مصمم جرافيك، ويملك مع شريكه جاكي أستوديو رامي وجاكي في القدس ويديرانه. أحب دائماً الجلوس مع رامي في الأستوديو، وتصميم ملصقات لمدرسة الكاراتيه التي أملكها، ويلتحق بنا جاكي من وقت لآخر، ويضيف لمسات إبداعية على الملصقات، وخاصة لأنه مشجع للفنون القتالية. وقد فعلنا ذلك مرات كثيرة على مر السنين، وتمتلئ مدرستي في كورونادو بملصقات صمّماها لي. في العادة، أذهب إلى الأستوديو بعد أن ينتهي الدوام، ونجلس - رامي وأنا - معاً لساعات ونحن نصمم ملصقاً. وعندما ننتهي نذهب ونأكل. إن هذا واحد من الأشياء المفضلة لدي عندما أكون في القدس.

كان واحداً من أجمل الأيام في صيف 2007؛ إذ قضينا - رامي وأنا -

ساعات ونحن نصمم أحد الملصقات. وبعد أن أنهينا، قررنا أن نجرب مطعماً صغيراً مشهوراً في حي ريحايفا في القدس. وهو واحد من الأماكن التي تقدم أطباقاً غرائبية من السلطات والمكرونة.

لم تكن لدينا نية الدخول في نقاش، ولكنه كان حتمياً. وحيثما كنا معاً فإننا نتحدث دائماً عن «الوضع». كلانا نفكر في الوضع ونتحدث عنه، ونعمل كل ما في وسعنا من أجل تغييره، ويستغرق هذا الأمر جزءاً كبيراً من حياتنا. هكذا هو حالنا دائماً، ولكن الاهتمام ازداد بعد مقتل صمدار. كانت نظرة رامي متشائمة دائماً، ولكن بعد أن التحق **بمنتدى العائلات الثكلى** وبدأ اللقاءات مع الفلسطينيين، طور نظرة إيجابية للعالم.

عندما توصلت إلى نتيجة مفادها أن دولة لليهود على أرض نصف سكانها ليسوا يهوداً لن تنجح، تغيرت الأشياء بشكل كبير بالنسبة لي. كتبت مقالة عنوانها «تغيرت الإجابات»، ونُشرت على موقع صحيفة «الانتفاضة الإلكترونية» في يناير 2007. وقد استلهمت العنوان من قصة عن ألبرت أينشتاين. وطبقاً لتلك القصة،



رامي وأنا نناقش الأحوال الراهنة ونستمتع بصحبة بعضنا بعضاً.

كان أينشتاين في طريقه لاختبار يعقده لطلاب كانوا قد قدموا الاختبار نفسه. وقام أحد مساعدي أينشتاين بتنبيهه بعد أن شعر بأن تصرف الأستاذ قد يكون ناتجاً عن لحظة ذهول. ولم يزد الأستاذ على أن تبسم وقال: «حسناً، لقد تغيرت الإجابات».

لقد تغيرت آرائي بخصوص حل الصراع في فلسطين/ إسرائيل كثيراً، نتيجة لرحلاتي إلى الضفة الغربية، وذلك بعد أن شاهدت استثمار إسرائيل الهائل في البنية التحتية من أجل جذب المستوطنين اليهود، ومن ثم عزل الفلسطينيين الذين تعود ملكية تلك الأراضي لهم. وأصبح واضحاً بالنسبة لي أن الصهاينة يكذبون عندما يتحدثون عن حل الدولتين. وأصبحت مقتنعاً أن الحرية الكونية في وطن يشترك فيه الجميع أفضل شيء للشعبين. لقد فشل الصهاينة في أن يبرهنوا أن الأمور تسير بشكل طبيعي وسليم عندما يكونون في الحكم. ولذلك كان استنتاجي أن دولة ديمقراطية تعددية سوف ينتفع منها الجميع.

قرأ رامي المقالة وعبر عن حزنه لأني فقدت الأمل. لقد كان محقاً من جهة أنني فقدت الأمل من الدولة اليهودية ومن الصهيونية. ولكن المرء يمكن أن يقول أيضاً إنني أصبحت أكثر تفاؤلاً لأنني أدركت أن الإسرائيليين والفلسطينيين يمكن أن يعيشوا معاً في وطنهم المشترك. لدي أمل في قدرتنا على العيش في سلام طالما أننا جميعاً نملك الصوت نفسه الذي يحدد مصيرنا، وطالما أن الدولة تحكمنا كأكفاء.

قلت له مؤكداً وجهة نظري: «رامي، أنت تعرف جيداً مثلما أعرف أنه لا يمكن لحكومة صهيونية أن تسمح أبداً بإنشاء دولة فلسطينية على أراضي إسرائيل. لن يكون هناك أبداً رئيس وزراء يمكنه أن يُفرط بشرق القدس ووادي الأردن اللذين يشكلان ثلث الضفة الغربية. وبما أن الكتل الاستيطانية الكبيرة التي تستولي على مساحات واسعة من الضفة الغربية لن تعيدها إسرائيل، فأين يمكن أن تُقام الدولة الفلسطينية؟ علينا أن نتحول عن نموذج التفكير الصهيوني الذي يقول إن اليهود يجب أن تكون لهم دولتهم، إلى نموذج جديد يرى كلاً من اليهود والفلسطينيين يعيشون معاً أكفاءً في دولة واحدة، ليست يهودية ولا

عربية، وتقودها حكومة منتخبة تمثل الجميع».

وبحلول تلك اللحظة، كان صهري يفقد صبره، ثم قال: «إنك لا تفهم شيئاً! ألا ترى أن هذه الفكرة يمكن أن تؤدي إلى حرب أهلية؟ سوف تكون كوسوفو أخرى أو لبنان ولن يتوقف حمام الدم».

ولكنني لم أترك تلك النقطة تمر دون توقف، وأضفت: «أو سويسرا أو بلجيكا. إذا قارنتنا مع دول متعددة القوميات، فإن قضيتنا ليست معقدة. إننا قوميتان متشابهتان جداً في الواقع».

إن أوجه الشبه الثقافية بين الإسرائيليين والفلسطينيين توضحها بشكل جميل مقالة كتبها بالعبرية يائيل لارر وهي بعنوان «هل يمكن كسر جدار الفصل الثقافي؟». ويصف الكاتب في هذه المقالة، امرأة من الفضاء الخارجي تحط في مكان ما من إسرائيل.

هذه المرأة تلاحظ أن نصف السكان تقريباً من العرب الفلسطينيين، وأن العربية هي اللغة الأم لأكثر من نصف السكان اليهود، أو على الأقل هي لغة الوالدين لأكثر من نصف اليهود الذين يعيشون هناك كذلك... وتلاحظ هذه الزائرة أن معظم الإسرائيليين برزوا من ثقافة عربية، وأن إسرائيل تقع في وسط العالم العربي، وتحيط بها دول عربية. وعندما تريد أن تعرف أكثر عن البلاد وثقافتها، تقرر هذه الزائرة أن تزور المكتبات، حيث تتوق إلى أن تجد كتباً بالعربية وبالعبرية فقط؛ وهما لغتا البلد. في المكتبة الأولى تجد كتباً بالعبرية فقط، وفي المكتبة الثانية تجد بعض الرفوف عليها كتب باللغة الإنجليزية، أما المكتبة الثالثة فكانت مكتبة للكتب الروسية. يخبرونها: لا يوجد عرب هنا، ونحن لا نتكلم العربية هنا؛ هذه تل أبيب. تقع الزائرة في حيرة، وتعبر عنها بالقول: مدينة ليس فيها عرب، ولا لغة عربية، في وسط بلد عربي!

أخبرت رامي أنه: «على المدى البعيد، ستصبح الدولة الصهيونية كارثة على اليهود وعلى الفلسطينيين؛ لأنها تقلل من شأن الثقافة والتقاليد اليهودية بشقيها الأوروبي والشرق أوسطي، إن لم نقل تدمرها».

إن جيل أبي نظر إلى اليهود الأوروبيين الأوائل باحتقار. كانوا يُعتبرون

ضعفاء، وبلغتهم اليديشية وثقافتهم بدوا شاحبين ومستسلمين مقارنة بغيرهم. وبالقضاء على ثقافة الشتات، ومحاولة جيل أبي أن يكون مختلفاً عن «يهود الشتات» الأوروبيين الأوائل، فإن هذا الجيل ظن أنه كان يقدّم خدمة للجميع. في الحقيقة، غالباً ما دمرت إسرائيل الصهيونية الثقافة اليديشية.

كان والداي يكنان احتراماً كبيراً لليهود العرب والثقافة الثرية التي أحضروها معهم عندما هاجروا إلى إسرائيل. ولكن في إسرائيل، تم النظر إلى تلك الثقافة على أنها دونية، وتمت تسمية اليهود الذين قدموا من البلدان العربية بأنهم سفارديون أو شرقيون، وليس يهوداً عرباً، وتم إجبارهم على أن يتخلوا عن هويتهم وثقافتهم خوفاً من أن يُنظرَ إليهم على أنهم عرب. وبالفعل، إنّ حملة التطهير العرقي التي نفذتها إسرائيل تضمنت تدمير الثقافة العربية والسخرية منها وتجاهلها؛ بما في ذلك تلك الثقافة التي أتت مع العرب اليهود.

إن في فلسطين تاريخاً عربيًّا إسلاميًّا ثرياً، ولكن بالكاد يتم تدريس ذلك في مدارس إسرائيل. القليل جداً من الأدب العربي والشعر يترجم للعبرية أو يُدرسْ، وتُركتْ المعالم التاريخية العربية والإسلامية التي لم يستهدفوها بالتدمير لعوادي الزمن، وتم تدميرها بالتجاهل. وتجدُ أمثلة على هذا في كل المدن القديمة مثل يافا والرملة وطبريا والقدس وفي كل الأماكن تقريباً. إن كلمة «عربي» تكون دائماً مقرونة بصفات مثل قذر، أو مرادف لكلمة الغبي مثل: الذي لا نفع منه، أو الكسول.

رد رامي قائلاً: «أنت فقدت عقلك!».

ويصر رامي على صفحته على الفيسبوك في وصفه نفسه: «أنا صهيوني». ويحب أن ينظر إلى نفسه على أنه صهيوني، رغم أنه يبغض ما فعله الصهاينة في الفلسطينيين. القليل من الناس عندهم التقدير نفسه الذي يُكنه رامي للفلسطينيين، والقليلون منهم طوروا صداقات حقيقية وعميقة تعبر الخط الفاصل مثلما فعل. ومع ذلك، فهو مصر على ألا نستسلم.

قال بصوت عالٍ يمكن لجميع الحي أن يسمعه: «ألا ترى أن خطتك الساذجة لن تنجح أبداً؟! الفصل هو الحل الوحيد! إنه كطلاق يجب أن يحصل

وإلا سيقتل الزوجان بعضهما. وفي تلك الأثناء، يجب علينا أن نناضل. نحتاج إلى أن نقنع الناس في إسرائيل وخارجها أن يُحدثوا تغيراً في إطار الدولتين. ما تطرحه أمر جنوني وغير واقعي مطلقاً. إن حل الدولتين هو الحل الوحيد الذي يملك أدنى فرصة للنجاح».

في ذلك الوقت، معظم الذين كانوا في المطعم بالإضافة إلى بعض المارة كانوا ينظرون إلينا. ولكننا تجاهلناهم، ومضى رامي يعطيني درساً؛ كما كان يفعل وأنا في الثانية عشرة من عمري.

قال: «يوماً ما، ستُجبرُ الحكومة الإسرائيلية على أن تتفاوض بشكل أفضل، وتسمح للفلسطينيين بدولة إلى جانب إسرائيل، وسيتركُ المستوطنون المستوطنات، وسيعودون إلى بيوتهم في إسرائيل. لكنك تعرف مثلي تماماً أننا جميعاً مستوطنون، وكل إسرائيل هي فلسطين المحتلة. وما الضفة الغربية إلا جزء صغير من المشكلة. ماذا عن اللاجئين؟ وماذا عن حق العودة؟ وماذا عن الإهمال الفظيع للفلسطينيين داخل إسرائيل وهم مواطنون إسرائيليون؟ إلى متى تظن أن هذه القضايا ستظل محل إهمال وتجاهل؟».

لم يساعد هذا حجتي، وكان من الواضح أنني لم أقم بأي تقدم. وبصدق، لقد فاجأتني مقاومة رامي. إن كل حججي لصالح الدولة الديمقراطية الواحدة لكل الإسرائيليين والفلسطينيين كانت ذات معنى بالنسبة لي. بالإضافة إلا أنه لم تعد لدي أي رابطة عاطفية مع الصهيونية، وبالتأكيد لم تكن أي حجة منطقية تقف حاجزاً ضد دولة ديمقراطية واحدة، بينما حجة رامي حُنجرية؛ بمعنى أنها قادمة من مكان عميق عاطفياً. فهو يبين في محاضراته أن «أبي خريج أوشيفتز»، ويُذكرُ مستمعيه أن أباه نجا من معسكر الموت في أوشيفتز، وأن جروح الشعب اليهودي من الهولوكوست لم تبرأ إلا بعد سنين طويلة. «ولكن، ألا ترى يا ميكو؟ إن حلاً ينادي بالعدالة الكاملة مصيره الفشل! إن كلاً من الشعب اليهودي والفلسطيني يستحق دولة خاصة به، وعلماً وهوية وطنية سياسية. وليس لدينا الحق في أن نمنعهم من الحصول على هذه الأشياء».

قلت: «نعم، إنهم يستحقون كل هذه الأشياء، ولكن تلك السفينة أقلعت.

لن يسمح علمُنا بارتفاع أي علم آخر على هذه الأرض وأنت تعرف هذا جيداً أيضاً، بل تعرفه أكثر مني».

كانت نقطة رامي أننا من الأفضل أن نحتفظ بآرائنا وكفاحنا كي نحقق «انفصالاً هادئاً»، وذلك أفضل من اعتناق أفكار مجنونة عن المساواة. سمعت يوري أفنري، الصحفي المخضرم وناشط السلام الذي أحترمه جداً، يدلي برأي مشابه: «هل سيخدم الفلسطينيون والإسرائيليون جنباً إلى جنب في الجيش نفسه، وفي قوة الشرطة نفسها؟ وهل سيدفعون الضرائب نفسها؟».

بعد أن هدأت المناقشة قليلاً، طرح رامي فكرة كررها في ما بعد مرات كثيرة: «ليست القضية دولة أو دولتين أو ثلاث دول». وكان يعني أن لدينا طريقاً طويلاً قبل أن نقنع الناس بأي من هذه الأطروحات، ولهذا دعنا نركز على القضايا الملحة في الوقت الحالي.

قلت: «أنا أعتقد أنها هي القضية. وطالما بقيت إسرائيل دون تغيير، وظل النقاش يتصاعد حول إنشاء دولة فلسطينية في منطقة غير محددة، فلن يتغير شيء. منذ سنين وإسرائيل تقول إنها تريد أن تعطي الفلسطينيين بعض الأراضي التي يمكن أن يقام عليها نوع من دويلة، وبطريقة ما، كل مرة تسقط تلك الفكرة. إن الممثلين يعرفون جيدا أن ذلك تمثيل. إن المستوطنات الإسرائيلية في الضفة الغربية تتوسع، وتستمر حملة التطهير العرقي في إرعاب الفلسطينيين على مر الأيام».

لقد أصرت إسرائيل على الدوام أنها ستحدد طبيعة الحل، وأن على الفلسطينيين أن يسلموا بذلك أو يعانوا تبعات الاضطهاد المستمر. سوف تسمح إسرائيل للفلسطينيين بمستوى من الاستقلال تحدد إسرائيل معالمه على أساس منظورها للالتزام الفلسطيني بالمصالح الإسرائيلية. إن أفضل شيء يمكن أن يتوقعه الفلسطينيون هو أن إسرائيل وعند مرحلة معينة سوف تسمح بحكم ذاتي محدود في أماكن مُختارة من فلسطين التاريخية. وهي مناطق سوف تختارها إسرائيل بنفسها. إن الفكرة التي تقول إن الطرفين يحتاجان إلى الوصول إلى حل كشريكين متماثلين لا يمكن تصورها من جانب الدولة الصهيونية.

وتؤكد الحكومة الإسرائيلية أن لها الحق في تحديد ممثلي الفلسطينيين كشركاء لإسرائيل في التفاوض، وتستخدم اعتبارات «الأمن» كاختبار حاسم. ونزعت إسرائيل الشرعية بشكل ممنهج عن أي قائد فلسطيني لم يكن على استعداد لأن يقبل «حق» إسرائيل بالسيطرة الكاملة على الأرض والخطاب. وهذا هو السبب الرئيس وراء سجن، أو اعتقال، أو نفي أو اغتيال عدد كبير من القادة الفلسطينيين. وهذا هو السبب في أن ياسر عرفات قضى أيامه الأخيرة محاطاً بالدبابات الإسرائيلية؛ لأنه رفض أن يقبل سطوة إسرائيل ووحدانية الرواية الإسرائيلية.

أصر رامي على أن: «المستوطنات ستُزال يوماً ما، وسوف يتم تحقيق السلام من خلال الفصل».

كان تعليقي: «رامي، هذا مثل فكرة أن اليهود ينتظرون المسيح رغم معرفتهم الكاملة أنه لن يأتي أبداً في الواقع. ليس من شيء سُمِّي «خطة سلام»، إلا وزاد الأمور سوءاً بالنسبة للفلسطينيين. والآن لدينا شعبان يعيشان في دولة واحدة، ولكنهما يُحكمان من خلال قوانين مختلفة تماماً». فالأمر تماماً مثلما قال مدير مركز الشرطة لي في مركز شرطة كريات أربع في أول مرة تم اعتقالي فيها ببيت أمر: «إنه مواطن إسرائيلي وله حقوق، إنه ليس فلسطينياً يمكنني أن أضعه ببساطة في السجن». وليس من حجة لدي يمكنني أن أستخدمها لتوضيح هذا المعنى أفضل من كلمات مدير مركز الشرطة، وذلك لأنه بالفعل توجد قوانين مختلفة لأناس مختلفين.

لقد خلقت إسرائيل بيروقراطية متكاملة بهدف واحد؛ ألا وهو جعل حياة الفلسطينيين غير قابلة للعيش، ولذلك سوف يجدون أنفسهم في النهاية بلا خيار سوى المغادرة. يصف محامي حقوق الإنسان في إسرائيل ماكيل سفارد الوضع بأنه: «جبال من الحركة الممنوعة والمحرمات، ومحيط من الجدران».

ولكن كما قال أينشتاين، تغيرت الإجابات. إن الجواب المعروف بحل الدولتين ينتمي إلى واقع لم يعد موجوداً. فالضفة الغربية مثقلة بمدن ومراكز تسوق ومصانع وطرق سريعة؛ كلها مصممة لليهود فقط، ويمنع الفلسطينيون

في الضفة الغربية وقطاع غزة من التمتع بأي من التطور الحاصل على أرضهم. ليست هناك إرادة سياسية في إسرائيل بإعطاء الفلسطينيين حريتهم، كل هذا يعني بوضوح أن الإجابات تغيرت.

إن الجواب على سؤال الصراع الإسرائيلي الفلسطيني الصعب يمكن استنتاجه من الواقع الذي خلقته إسرائيل. فقد اختارت إسرائيل حين حكمت أُمتين أن تكون دولة ثنائية القومية. وكل ما تبقى الآن هو استبدال النظام القائم حيث يتمتع اليهود الإسرائيليون بالحريات وحقوق المواطنة الكاملة، بنظام يسمح للفلسطينيين بالاستمتاع بهذه الحقوق كذلك.

لم يكن رامي الوحيد الذي تأذى من آرائي وأفعالي. وبينما يزداد عدد الأصدقاء الإسرائيليين والمعارف الذين يدركون أنني أؤيد الدعوة للعقوبات والمقاطعة ضد إسرائيل، يمكنني أن أرى الحزن والألم على وجوههم. ويحب الإسرائيليون الذين يعيشون في الولايات المتحدة أن يجدوا القهوة أو المخللات أو زيت الزيتون القادمة من إسرائيل، حيث يشعرون بمتعة الوجود في الوطن؛ مثل كل المهاجرين. أذكر أنني عشت الشعور نفسه عندما كنت أجد قطعة من الوطن في سوبرماركت. يجادلني الشبان الإسرائيليون ذوو الميول الليبرالية والذين يبغضون معاملة إسرائيل للفلسطينيين، يجادلونني خاصة عندما أخبرهم أننا ينبغي أن نرفض الخدمة في الجيش الإسرائيلي الذي بدأت أشير إليه على أنه منظمة إرهابية، ويقولون: «هل ترى أن نرفض الخدمة في الجيش الذي ساهم أبوك في بنائه؟ هل نرفض الخدمة في أول قوة مسلحة يهودية تحمي اليهود بعد أكثر من ألفي عام؟».

كثيراً ما قالت لي جيلا: «إن هذا صعب علي». عندما يسألها الأصدقاء الإسرائيليون واليهود عما أكتبه وأقوله، فإنها (كرنج رايت ألونج ويذ ذم)، حيث تخبرهم عن آرائي ومقاييسي التي آمنت بها.

إجابتي هي: «لو أنك عرفت ما أعرفه، لو أنك رأيت ما رأيتُه، فلربما فعلت الشيء نفسه. إن الألم الناجم عن إدراكي لما عرفته ألم حادٌ جداً؛ لدرجة أن الجلوس في البيت وعدم عمل شيء لم يعد خياراً بالنسبة لي منذ زمن طويل».

ومع ذلك، ينظر الأصدقاء الإسرائيليون ومعظمهم من اليهود تجاهي بمزيج من الحزن وعدم الارتياح يصعب إخفاؤه.

واصلنا - رامي وأنا - الحديث لساعات، ولم نلاحظ مضي الوقت حتى اتصلت أمي متسائلة عن مكاننا. قلت لرامي في النهاية: «الحلم الطوباوي ليس الدولة الديمقراطية العلمانية التي نعيش فيها جميعاً كأكفاء. ما هو ساذج هو الاعتقاد الذي لا يلين بأن إسرائيل يمكن أن تتغير، أو أننا يمكن أن نحقق دولة ديمقراطية يهودية في بلاد تسكنها أمة أخرى. هذا هو الحلم الطوباوي. إن النضال من أجل إنهاء فكرة الفصل، وإنشاء دولة ديمقراطية علمانية تعيش فيها أمتان بشكل متساوٍ ليس ساذجاً؛ رغم صعوبته، وليس طوباوياً. إن المطالبة بالحرية والمساواة لأصدقائنا في عناتا وبلعين ولأطفال مخيم الدهيشه أمر صعب ولكنه واقعي، وإنني أتوقع أن يحصل بالفعل».

بقي سؤال معلق في الهواء ولن يجدَ إجابة، وهو: ما الذي كان من الممكن أن يقوله أبي؟ إن تقديري هو: بما أنه كان دائماً سابقاً لعصره، ولم يتردد قطّ في ذبح البقرات المقدسة، فلسوف يدعو إلى دولة ديمقراطية واحدة بحقوق متساوية. ربما كان سيفضل ذلك، حسبما أعتقد، على إسرائيل التي توجد اليوم؛ حيث تسود العنصرية والعنف ضد الفلسطينيين. أعرف أن أمي قالت في عدة مناسبات إن الصهيونية قد فشلت، ولا يوجد سبب يمنع أن نعيش متساوين في دولة ديمقراطية واحدة.

على أي حال، لا أعتقد أن «رامي» اقتنع. ولكني أعتقد أننا سنظل نجد شيئاً يمكننا أن نتناقش بشأنه، وستعلو أصواتنا.

هذا ما يحدث عندما تهتم بأمر ما كثيراً لدرجة أنه يصبح مصدراً للألم.

شكر وعرفان

تعلمت كثيراً أثناء كتابة هذا الكتاب، وأشعر بالامتنان لكل ما تعلمته ولأولئك الذين ساعدوني على الطريق. إريس كيلتز التي بذرت البذرة، وهيدي سكولمان التي ساعدتني بمودة في الإقلاع. أما لاندروم بولنغ فأشكره لعمله المتفاني من أجل السلام ولتقديمه إياي إلى هيلنا كوبان صاحبة دار نشر (جست وولد بوكس). والشكر لهيلنا كوبان لتبنيها هذا المشروع معي. أود أن أشكر باميلا أولصون لعملها الممتاز والدؤوب معي أثناء كتابة المخطوطة. وأريد أن أشكر أيضاً مايك سيروتا لمساعدتي في المخطوطة التي لم تكن أمراً سهلاً بالنسبة له. ويجب علي أن أشكر سمار فتزجيرالد لتحريرها الممتاز ولقدرتها على استخراج أفضل ما عندي بشكل أكبر مما ظننت أنه عندي.

أشكر المؤسسة من أجل السلام في الشرق الأوسط للمنحة الكريمة التي لولاها لما كان هذا الكتاب ممكناً.

أخيراً، لا بد أن أشكر عائلتي وأصدقائي لتشجيعهم وصبرهم.

– م. ب.

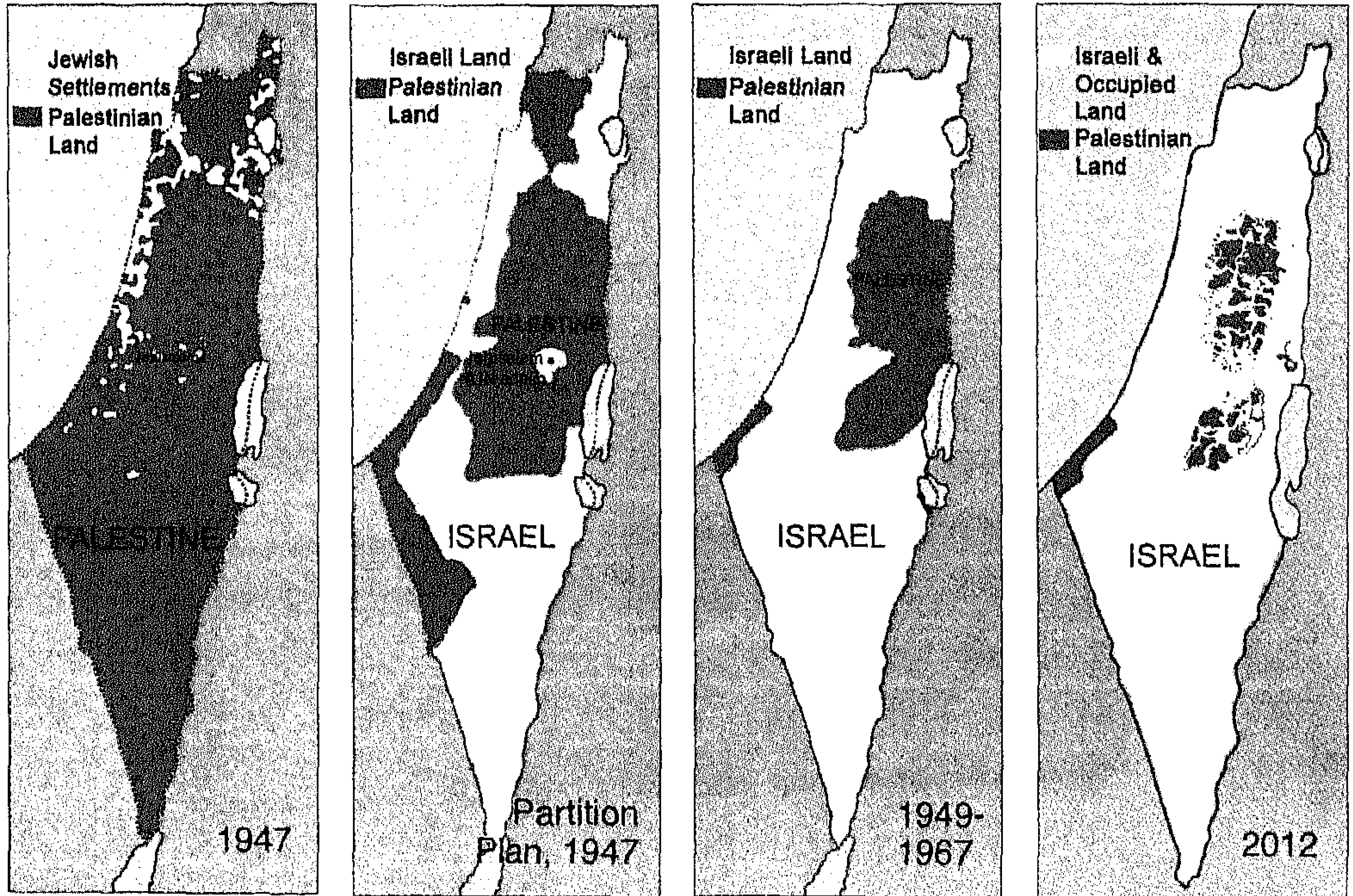
ملاحظة على الخرائط

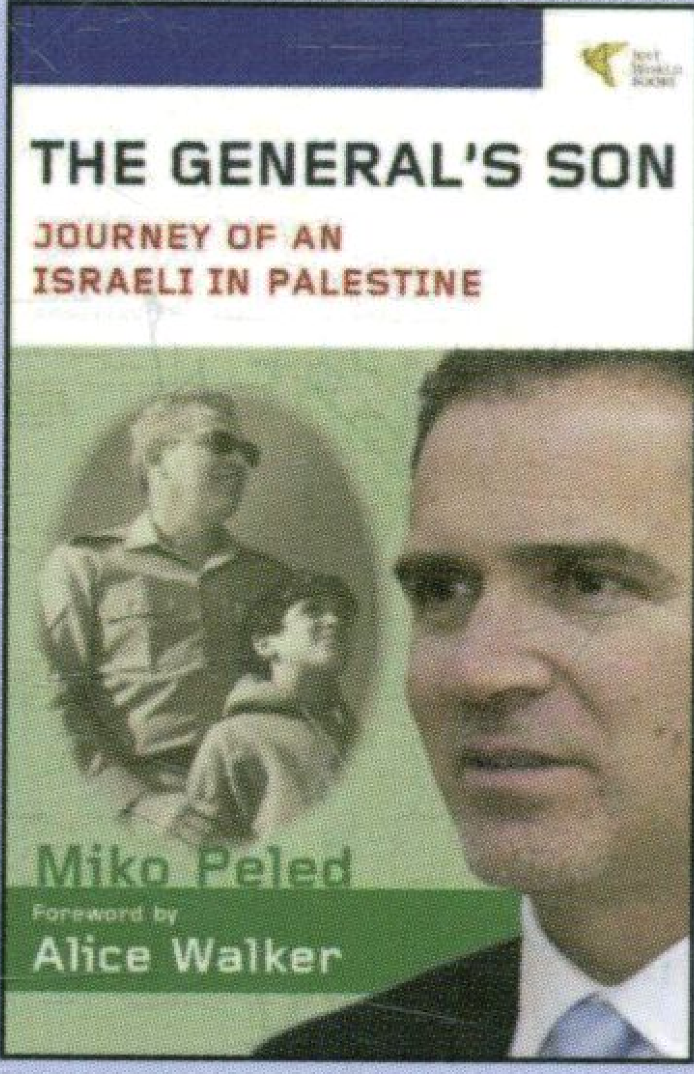
هذه الملاحظات من دار جَست وولد بوكس (Just World Books)

توجد في مكتب الأمم المتحدة للتنسيق والشؤون الإنسانية في المناطق الفلسطينية المحتلة مجموعة من الخرائط التي يتم تحديثها بشكل منتظم. توجد هذه الخرائط على موقعهم. البوابة «للخرائط المرجعية» التي بحوزتهم هي:

http://bit.ly/P86uUD. وهناك مؤسستان إسرائيليتان لديهما مراكز صناعة خرائط تتابع بناء إسرائيل للمستوطنات، كما توثقان انتهاكات إسرائيل لحقوق الفلسطينيين في المناطق المحتلة: الأولى هي مؤسسة **السلام الآن**؛ وهي تتابع الوضع في الضفة الغربية: http://bit.ly/MV3w9z. والمؤسسة الثانية هي بيت سيليم؛ ولديها خرائط تفاعلية والكثير من المعلومات المفيدة عن الضفة الغربية وغزة: http://bit.ly/NPArLC. أما معهد الأبحاث التطبيقية فهو مؤسسة فلسطينية مقرها القدس، وهو يحتوي على الكثير من الخرائط التي تصف وضع الفلسطينيين عبر الزمن، بما في ذلك المناطق المحتلة، وداخل إسرائيل، وفي الشتات الفلسطيني. يمكن الوصول إليهم على http://bit.ly/Q2kXpx، وهناك وصف فيه معلومات مثرية عن تحويل السيطرة على الأرض والموارد منذ عام 1946 يتمثل في الشكل التالي، ويوجد على: mapcards123@gmail.com.

فقدان الفلسطينيين لأراضيهم منذ عام 1947 وحتى 2012





لوحة مؤثرة لإنسان يؤمن بإنسانيته، ويدافع عنها مهما كلفه ذلك. نشأ الكاتب، ميكو بيليد، صهيونيًا، يهيم بصورة الجندي الإسرائيلي ويتمنى أن يصبح عضواً في الوحدات الخاصة ويعتمرَ القبعة الحمراء رمز القوة والإقدام في إسرائيل. كان حلمه النهائي أن يصبح جنرالاً مثل أبيه، ماتي بيليد، الذي قاد سرية اشتهرت ببسالتها في حرب 1948 وأصبح أحد أبطال إسرائيل. تتحقق أمنية ميكو فيلتحق بالقوات الخاصة، ويعود ذات يوم والقبعة الحمراء على رأسه، وفي قلبه فخر قومي لا حدود له. ولكنه يكتشف فجأة شيئاً قلب كيانه، لينقلب حبّه للصهيونية بغضاً، فيلقي بالقبعة ومن وراءها الصهيونية بكل سردياتها، ويشرع في حياة جديدة يسافر معها الكاتب في الزمان على طول عقود وفي المكان عبر العالم: من أمريكا إلى اليابان ومن بلعين إلى غزة؛ ومن إسرائيل إلى فلسطين!

يأتي تقديم هذا الكتاب للقارئ العربي في مرحلة نحن فيها بحاجة ماسة للتعرف على خريطة هذا العالم بشكل أفضل، سبراً لغور أشخاصه، واستكشافاً أعمق لمؤسساته وديناميات التحول التي لا تملكها جهة ميتافيزيقية تحول دون كل تطور وتكبح كل تحرر. إن التاريخ ليس مؤامرة متواصلة الحلقات، ولكنه تيارات تجيء وأخرى تذهب وفراغات تُملأ بالباطل والزيف إن لم يشغلها أهل الحق الأصيل في الأرض والمعنى. ولئن فاتنا نحن العرب، وخاصة الفلسطينيون، أن تقف إلى جانبنا قوة خشنة، فإن القوة الناعمة هائلة التأثير لو تم استثمارها من أجل قضايانا العادلة. أليس دالاً أن ينفضَّ أناس مثل ميكو بيليد وإيلان بابيه وآفي شلايم ونعوم تشومسكي، وكلهم يهود، عن إسرائيل وهي في أوج قوتها، وينضموا للمستضعفين على الطرف الآخر. ألا يدل هذا على القوة الهائلة الكامنة في فكرة الحق والحرية؟

المؤلف:

ناشط سياسي يدعو إلى إنهاء النظام العنصري في فلسطين، ويؤمن بالحقوق الفلسطينية وخاصة حق العودة؛ ويقيم في الولايات المتحدة الأمريكية.

المترجم:

يقيم في غزة بفلسطين؛ محاضر الدراسات الثقافية والترجمة بجامعة الأقصى بغزة. يحمل شهادة الدكتوراه في الدراسات الثقافية والترجمة من جامعة مانشستر بالمملكة المتحدة.

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic

ISBN 978-614-01-1061-8
9 786140 110618

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com



تصميم الغلاف: سامح خلف